





عبد الله حسين

فاتحة

الدراسات العربية والإسلامية

كتاب بمهد للبحث في الشؤون العربية والإسلامية
من النواحي التاريخية والجغرافية والدينية والفنية
والعلمية والأدبية والأصول الإسلامية والتشريعية
والقضائية التي تناولها هذه الدراسات المفصلة

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لل المؤلف

مطبعة أبي الهول بالقاهرة
درب العنبة — شارع محمد علي

893.791
H9543

فهرست كتاب فاتحة الدراسات العربية والاسلامية

- هتوان الكتاب . فهرس . تمديد بقلم المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى . كلمة الاستاذ الاكبر
الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا . كلمة المؤلف
٨ - ١
الفصل الاول : العرب من بدو وحضر . مالک العرب القديمة . ملوک الخيرة . ملوک الشام .
امارة مكة وولاية البيت . الملك في كنده . الحكم في البوادي العربية . من أخلاق العرب
وعاداتهم . بلاد العرب . أحوال الأمة العربية وسلالاتها
٤٧ - ٣١
جغرافية بلاد العرب ؛ ولماذا تسمى جزيرة العرب . أقسام بلاد العرب وصف بلاد العرب .
مملكة الخيرة والنماسة . مشايخ القبائل العربية
قريش ، الجاهلية . النظام الحكومى في قريش . تجارة قريش
٥٧ - ٤٧
القرامة والكتابة والعلوم والشعر . اللغات السامية واللغة العربية . أثر الحضارات السابقة المجاورة
في الأدب العربى . الأديان عند عرب الجاهلية . المسيحية في بلاد العرب . أصنام العرب والقرن
التصويرى . اليهود وعرب الجاهلية
٧٥ - ٥٧
الفصل الثانى : القومية العربية . العرب تجاه العالم الحديث . شمائل العرب . اختتام عهد عرب
الجاهلية والتأهب للدعوة الاسلامية
٩٦ - ٧٦
الفصل الثالث : الاسلام
١٠٩ - ٩٧
الفصل الرابع : الدعوة الاسلامية . وجهة الاسلام . رسالة محمد والابان بها . الوصى الى الرسول .
نظرية وجود الاله والتدين له . فكرة العدل الالهى
١٤٨ - ١١٠
الفصل الخامس : الاسلام دين القطرة ولم يرقم على السيف . أصول الاسلام . شريعة الحرب ودمه
المسلمين في القتال . الجهاد الدينى والغزوات . تأييد الدعوة والقتال للدفاع . تحويل القبلة . أساليب
القتال ووسائله . نشأة الجيش الاسلامى . ميل المسلمين الى المهادنة والمصالحة والتحكيم
١٩٨ - ١٤٩
ترجمة حياة المؤلف عبد الله حسين ومؤلفاته
٢٠٠ - ١٩٩

تمهيد

بقلم ماضرة صامب الفضيلة الاستاذ الاكبر المغفور له الشيخ
محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر السابق



إلى الأستاذ عبد الله :
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد :
فأقول إننى قد أطلعت على الكثير مما عقدت فى « سلسلة الدراسات العربية
والإسلامية » فأعجبني ما قرأت، وحمدت لك هذا النهج القويم الذى ولجت فى بعث تراث العرب

وتذكير الحاضرين بمناقب السابقين ، وإحياء الفكرة الإسلامية في النفوس ، بعد أن ران عليها صدى الغفلة والنسيان . ولقد عني الإسلام بالاخوة الإنسانية ، ونبه القرآن الكريم إلى موجبات التعاون والتعارف والتناصر والمباعدة عن المناكر والاختلاف والتعاذل ، ووضع للتفاضل بين الناس معيارا لم يعرفوه من قبل ، وهو تقوى الله . وفي القرآن الكريم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وليس من شك في أن اطلاعكم أبناء العروبة والمسلمين جميعا ومحبي العرب والإسلام بل محبي الحق ، على أمثال هذه الدراسات ، جدير بأن يقابل بالثناء والتقدير ، وبخاصة حين يكون ثمرة بحث الكتاب القادرين والمؤرخين المحققين والدارسين الباحثين .

ولقد قرأت لك منذ بضع سنوات ، كتاب السودان من التاريخ القديم ، إلى رحلة البعثة المصرية ، فقدرت المجهود الذي بذلته ، والغاية التي رجوتها .

ثم رأيتك في هذين العامين ، تمضي في تسجيل ثمار مطالعاتك ورحلاتك في خلال ربع القرن الماضي ، لكي تساهم في التأليف مع من ساهموا قبلك ومعك ، بعد ما أسلفت من خير وبذلت من جهد في خدمة الدين والوطن .

فعلى بركة الله وفي رعايته سبحانه إمض في هذه البحوث والدراسات ، مفسحا الصدر للنقد القويم ، مشكورا مأجورا ، فإن أخطأت فلك أجر واجد ، وإن أصبت فلك أجران . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يوم الخميس أول رمضان ١٣٦٤

٩ أغسطس ١٩٤٥

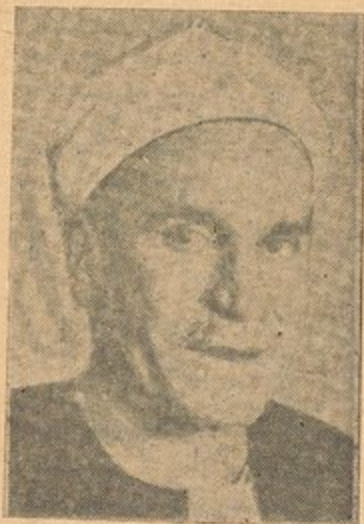
محمد مصطفى المراغى

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر

الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الازهر الجديد

الذى عين في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ شيخاً للازهر



« تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق فقلدني مشيخة الجامع الازهر الشريف وحملي بذلك أمانة عظمى، أسأل الله أن يعينني على الوفاء بحقها . والجامع الازهر الشريف هو قبل كل شيء بيت الله فهو خالص لله وحده « وأن المساجد لله فلا تدعوامع الله احداً . ثم هو من أعظم مفاخر مصر في تاريخها كله ، فليكل مصرى نصيب من مجده وعلى كل مصرى حق الاهتمام بشأنه والعمل على صلاحه ونهضته .

والأزهر الشريف معهد الدراسة الإسلامية الأكبر فهو قبلة المسلمين في ثقافتهم الدينية وما يتصل بحياتهم الروحية . فليكل مسلم قبس من ضيائه وحظ من ظل لوائه ثم إن الأزهر حصن العربية ، صانها من عوادي الدهر يوم كاد الجهل يقصها من أطرافها . ومنه أشرفت نهضتها المرجوة . فللازهر فضل على العروبة . عرفت العروبة جميله بما في طبعها من سجية الوفاء . فالى الله جل جلاله أتوجه مخلصا له ديني في خدمة بيت الله ، والى كل مسلم وكل مصرى وكل عربى يهدى تحية طيبة الى من ينهض اليوم بأمر معبدهم الجليل معتمدا أن يسير به قدما في سبيل الرقي والاصلاح ، شاعرا بأنه بذلك يؤدى واجب الله ويخدم دينه ووطنه وقومه ، وأسأل الله أولا وآخرأ أن يلمحنى الرشد ، وأن يعيننى على تحقيق الأغراض السامية التى أولانى صاحب الجلالة ثقته الغالية في سبيل تحقيقها خدمة للاسلام وخدمة للعروبة وللمصر الوطن العزيز .

ويا أبناء الأزهر الشريف حيا الله وجوهكم فقد كرمتم مقدمى تكمريما بالغ الأثر في نفسى وأشهد ما لأحد من أبناء الأزهر عندى الا الود صادقا ، وحب الخير خالصا . وسأدفعكم بكلتا يدي في سبيل الله ، سبيل السكالم الدينى والدينوى حتى تعودوا بأذن الله أئمة الخير والحكمة في هذا العالم المحتاج الى الحكمة والخير ، وحتى يعود الأزهر في العالم منارة علم ودين وخلق وحب وسلام وحرية .

وما يكون لى إذ أتولى مشيخة الأزهر الشريف بعد المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الا أن أطلب اليكم جميعا ان تقرموا معى فاتحة الكتاب لنهذى ثوابها الى روحه وأرواح شيوخنا السابقين رحمهم الله أجمعين . وعلى الله قصد السبيل وهو حسبتنا ونعم الوكيل .

٢٣ محرم سنة ١٣٦٥ - ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٥

مصطفى عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الدراسات العربية والإسلامية

كلمة المؤلف

لما كانت الشؤون العربية والإسلامية ، في نشأتها الأولى ، موضع العناية والدراسة يومئذ — كنت معنى بها عناية الناشئين والمؤمنين ، خاصة أن آلى قد نشأوا نشأة دينية إسلامية خالصة ولكنها مشربة بروح التسامح الإسلامي المشهود فعلى هذا الغرار وفي ذياك الإلهاب ، مضيت في الحياة الخاصة والعامة ، إلى أن واجهتني الحياة المدرسية العصرية في مصر ودراساتي ورحلاتي في الخارج ، بنمط آخر من الحياة ، فيه النزقون والملحدون والمتأربون وضعاف المبادئ الدينية والخلقية وشذاذ المجتمع ودعاة الهرج والقائلون بأن الحياة العربية والإسلامية ليست صالحة في هذا العصر الحديث ، عصر البخار والآلة والكهرباء واللاسلكي والذرة. وهنا عنيت بأن آخذ من الحضارة الغربية ، عليها وفنها ، محتفظا بالإيمان ، ثم مضيت أعفص تلك البذور الفاسدة ، معنى بأن أجعل ما يصينني من خير على شائعا بيني وبين مواطني ، مساهما معهم في حركتهم الوطنية ، حين آذنت شمسها بالاشراق ثم إنه كان من آثار تعلق الناس بالمسادة ، أن خلت نفوسهم من الروحانية ، فنزل بهم اليأس حين اشتدت الأزمة الاقتصادية العالمية في سنة ١٩٣٠ وما بعدها واتمس المؤمنون الهدى والضياء من كنوز الماضي ، فضوا ينقبون عنها ويخرجونها في إلهاب جديد وثوب قشيب . وعنى مستشرقو المانيا والمحور بالدراسات العربية والإسلامية لاستغلالها في توجيه الدعاية والانحاء على الاستعمار البريطاني والحكم الشيوعي . أما البريطانيون وحلفاؤهم فقد ظلت عنايتهم بهذه الشؤون عناية فردية أو قل العناية التي تحددها سير السياسة في مجراها الاعتيادي . فلما أعلنت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) ، استغل المحوريون الحركة العربية والدعوة الإسلامية في اغفار صدور العرب والمسلمين على البريطانيين والحلفاء ، الذين أدركوا منذ يومئذ تقصيرهم من هذه الناحية ، وسرعان ما وقفوا جهمهم على دراسة الشؤون العربية

والاسلامية وانفاق ملايين الجنيهات في سبيل الدعاية بين الأمم العربية ؛ وتأليف الجمعيات والمعاهد وإنشاء الصحف والنشرات والصور والقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات الفنية والمباريات الشعرية الى أن وفقوا توفيقا ظهر أثره في معركة انتصار الديمقراطية .

ولما أينعت ثمار مجهودهم ، آلوا على أنفسهم أن يمضوا في ذلك بعد الحرب وفي السلم خاصة للتنافسة المعروفة القائمة بين روسيا الشيوعية والحلفاء الديمقراطيين الرأسماليين ، ذلك أن روسيا ذاتها عنت بالدراسات العربية والاسلامية والدعاية في البلاد العربية . هذا إلى ماتم من إنشاء جامعة الدول العربية

وكان من ممار هذا المجهود ، أن تعددت المؤلفات الأوروبية والعربية في هذه البحوث ، وأن شجعت اطلاعى عليها على المساهمة فيها ، ففضيت في اعداد سلسلة الدراسات العربية والاسلامية ، وعرضت جزءاً منها على المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر السابق ، فأبدى ارتياحه واعتباطه وتشجيعه ، كما يبدو من كتابه المدون في هذا الكتاب .

أما الكتاب الأول والحالى كتاب «فاتحة الدراسات العربية والاسلامية» فقد كان مقدمة لهذه البحوث ، وما فتئت المقدمة تنمو حتى استوت كتاباً مستقلاً ، كان لابد منه للرجوع في الكتب التالية الى هذا ينبوع الذى يدرس المسألتين الأولتين ، وهما التعريف بالعرب ، والتعريف بالاسلام ؛ إذ عليهما تقوم دراساتي التالية . والله تعالى أسأل أن يوفقنى الى تحقيق هذه الغاية .

١٩٤٦ — ١٩٤٧

عبد الله حسين

أخطاء مطبعية

وقعت أخطاء مطبعية يستطيع القارئ إدراكها

الفصل الأول

العرب

العرب هم الأقوام التي تنطق باللغة العربية ، وهي إحدى اللغات الشرقية والسامية القديمة . وعند بعضهم أنها أقدم هذه اللغات . هذا والعرب لغة أسم مؤنث ولهذا يوصف بالمؤنث ، فيقال العرب العاربة ، والعرب العاربة . وهم من ليسوا عجماء . ورجل عربي أى ثابت النسب في العرب ، وأن كان غير فصيح . و «أعرب» إذا كان فصيحاً ، وإن لم يكن من العرب . وأعربت الشيء وأعربت عنه ، وعربته بالتشديد وعرب وعربته عنه — كلها بمعنى التبيين والإيضاح . وقال الفراء : أعربت عنه أجود من عربته وأعربته . والأمم تعرب عن نفسها أى تبين . وعرب ، إذا لم يلحن وعرب لسانه بضم العين ، إذا كان عربياً فصيحاً وعرب يعرب من باب تعب ، فصح ، بضم الصاد ، بعد لكنة في لسانه . قال أبو زيد : أعرب الأعجمي وتعرب واستعرب ، كل هذا للاغتم إذا فهم الناس كلامه بالعربية

أما اللغة العربية فهي ما نطق به العرب ، أو الناطقون بالضاد ، لأن حرف الضاد لا يوجد في غير لغة العرب . وأما الأعراب ، بفتح الحمة ، فهم أهل البدو من العرب . الواحد أعرابي ، وهو الذي يكون صاحب نجمة وارتياح للكلام . وزاد الأزهري قال : الأعرابي هو سواء أكان من العرب أو من مواليهم . قال فمن نزل البادية ، وجاوز البادين ، وظن بظعنهم — فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية غيرها بمن ينتمى إلى العرب ، فهم عرب ، وإن لم يكونوا فصحاء . ويقال سمو أعراباً ، لأن البلاد التي سكنوها تسمى العريات . ويقال

العرب العاربة هم الذين تكلموا بلسان اسماعيل بن ابراهيم . وهى لغات الحجاز وما والاها . والعرب ، بضم العين ، لغة فى العرب . ويجمع العرب على أعرب مثل زمن وأزمن ، بالضم ، وعلى عرب بضم العين والراء ، مثل أسند وأسد . وأعربت الحرف أو وضحته ، أى أزلت عربية ، بفتح العين والراء ، أى إيهامه وغموضه . والاسم المعرب هو الذى تلقته العرب من العجم نكرة مثل ابريسم بضم الباء وفتح الراء والسين . ثم ما أمكن حمله على نظيره من الأبنية العربية ، حملوه عليه . وربما لم يحملوه على نظيره . بل تكلموا به كما تلقوه . وربما تلعبوا به ، فاشتقوا فيه ، وأن تلقوه علما فليس بمعرب . وقيل فيه أعجمى مثل ابراهيم واسحق . والعرب بكسر العين ، من الأبل ، هى غير النجى . والعرب من البقر نوع حسان كرائم مجرد ملس وخيل عرب أى غير البرازين ، الواحد عربى . وعربت المعدة عربا ، من باب تعب ، فسدت . وأعرب فى كلامه إذا أخش . والعربون ، بفتح العين والراء ، هو أن يشتري الرجل شيئا أو يستأجره ويعطى بعض الثمن أو الأجرة قائلا : إن تم العقد احتسبناه وإلا فبولك ، ولا آخذه منك . وأعرب وعربن فى بيعه أعطى العربون . وقال الاصمى : العربون أعجمى معرب .

قال صاحب اللسان : والعرب هذا الجيل لا واحد له من لفظه ، وسواء أقام بالبادية أو المدن . والنسبة اليها أعرابى وعربى . والعرب منهم أهل الأمصار والأعرب منهم سكان البادية خاصة . وقال ابن خلدون فى تاريخه . أعلم أن العرب منهم الأمة الرحالة الناجمة أهل الخيام لسكنائهم ، والخيول لركوبهم ، والأنعام لكسبهم ، يقومون عليها ، ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والأثاث من أوبازها وأشعارها ، ويحملون أنقالمهم على ظهورها ، يتنازلون حالامترقة ويتبعون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص ، وتخطف الناس من السبل ، ويتقلبون دائماً فى المجالات فرارا من حمارة القيظ تارة ، ومن صبارة البرد أخرى ، وانتجاعا للمراعى غنمهم وارتياذا لمصالح إبلمهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أنقالمهم ودفعهم . ثم يقول ابن خلدون بعد

هذا : لانهم من أقدم الأمم بعد قوم نوح . ولعل مصدر ذلك ما جاء في القرآن من قول هود لقومه « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وكونوا من أعظم البشر قدره وأشدهم قوة » . وعند بعض المؤرخين أنهم سموا عربا لفصاحتهم وإعرابهم في نطقهم أى بياهم . وعند بعض الأوربيين أنهم سموا عربا لأنهم سكنوا الجهة الغربية من بابل . وذلك من لفظ عربوا العبرى ومعناه العرب .

وأما في تقسيم العرب فالمؤرخون مختلفون كثيرا . ونحن نؤثر هنا أن نذكر أن العرب ثلاثة أقسام : ١ - العرب البائدة ، أى الذين بادوا أو هلكوا جملة أو فقدوا وحدتهم واندج بقيتهم في قبائل أخرى ومنهم عاد سكنوا الاحقاف بين عمان والشحر وحضرموت واليمن واليمامة ، وممود في وادى القرى بين الحجاز والشام ، وطمس وجديس باليمامة شمالى الاحقاف ، والعلاقة في مشارف الشام ، ومنهم الرعاة الذين كان يطلق الرومانيون عليهم اسم الهكسوس الذين حكموا مصر في عهد الأسرة الحادية عشرة المصرية . ويقال انه في عهدهم قدم ابراهيم عليه السلام الى مصر ، ونزل ببنى اسرائيل في مصر ، وقد أخرج أحسن مؤسس الأسرة الثامنة المصرية الهكسوس من مصر ، ومن الرعاة حمورابى الوارد اسمه في التوراة ، ومن بقيتهم أهل عان والحواف الذين نزلوا حول بحيرة المنزلة . وعند المرحوم اسماعيل رأفت بك أن العرب الهوارة في الصعيد من بقية الرعاة نزحوا إلى بلاد البربر في مراکش . ويمتاز العلاقة بأنهم ذو وبأس شديد .

وثمة قبائل جرم وأميم ووعبيلا والمعينين لا يزال أكثر شئونهم مجهولا .

٢ - العرب الثانية ويسمى بعض المؤرخين العرب العاربة . وعند بعض علماء النسب أن العرب اليمنية ينسبون إلى قحطان بن عامر ، وهو هود عليه السلام وأن قحطان هو الذى ذكر في التوراة بأسم يقطان ، وأنه ولد لقحطان يعرب ، وسبأ والمزداد ، ودقلى ، وتسكى ، وينمال ، وعوريك ، وأراد ، وهودم ، أى جرم وتوفين ، وأخوت ، وروح ، وآدم ، ونويت ، وعند نسايب آخرين أسماء أخرى

لهذه القبائل . هذا وولد يعرب بن قحطان « يشجب » وولد يشجب « سبأ » ، وولد سبأ حميراً وكهلان وآخرين . ويقال لبني سبأ كلهم سبئيون الاحمير وكهلان . وأشهر البطون التي ترجع في نسبها الى قحطان : حمير والأوزاع وقضاة وكهلان بن سبأ والأوس والخزرج وخزاعة وبطونها وبارق والهجن وبحيلة وخثعمو وهمدان وكندة ومذحج وطى . ولخو وجذام وعاملة وحولان .

يقول بعض المؤرخين إن سد مأرب في اليمن قد تصدع أكثر من مرة وأن أهل سبأ قد تراخوا في ترميمه فتفرقوا في البلاد . وفي هذا جلاء في القرآن الكريم « ولقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حطوط وأثل وشي من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ، قرى ظاهرة . وقدرنا فيها السير . سيروا فيها لبالي وأياماً آمنين . فقالوا : ربنا باعدين أسفارنا . وظلوا أنفسهم . فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق » .

ولما تفرقوا ، عطف منهم ثعلبة بن عمرو على الحجاز مقبياً مع أهله وولده بين الثعلبية وذى ثار . ثم يم المدينة ، وفيها كان قد تركت بها قبائل يهودية ، حين أغار بختنصر على بيت المقدس . مخرباً بلاد اليهود ، مجلباً أكثر اليهود الى بابل وتم استيطانهم بالجللاء الثانى أيام صليطوس فى ٧٠ م . وكان من اليهود فى الحجاز والمدينة القوام على الزراعة والصواغ والتجار وذوو النفوذ والقوة ، بما كان من أثره أن عاش أفراد الأوس والخزرج فى ضيق عيش وضعف ففرعوا إلى بنى عمومهم ملوك غسان واستعانوهم على قتل غير قليل من اليهود .

وكان اسماعيل بن ابراهيم نازلاً مع قوم من جرهم إذ أن خزاعة — طبقاً لما يقوله بعض المؤرخين — نزلوا فى مكة مجلبين سكانها . وكانوا قحطانية وعند آخرين أنهم كانوا عدنانية . وعطف عمران بن عمرو نحو عمار فأوطئها هو وبنوه وهم ازد عمان

وكان من بها من طسم وجديس قد بادوا . أما قبائل نصر بن الأزد فقد سارت نحو تهامة وهم أزد شنومة . أما حفصة بن عمرو فنزل في الشام . وهو أبو الملوك الغسانية ينسبون إلى غسان ، وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه ، فنسب هؤلاء اليه وهو بين زبيد ومع من اليمن لا بالشام كما زعمه بعضهم .

هذا وقد نزلت لحم مع كثير من القبائل الاسماعيلية وغيرها ، الحيرة وعرفوا باسم التنوخية ، وكان أول ملوكهم عمرو بن عدي بن نصر الذي ملك بعد جذيمة الوضاح . ووقعت قبيلة بني طيء بالجليلين ويخترقهما وادي الدهناء . وهبطت قبيلة بني كلب بن وبرة من قضاة بادية السماوة شمالي نجد متصلة باطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء .

٣ - أما العرب المستعربة فهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم . وفي هذا تقول التوراة : إن ابراهيم رزق ابنه اسماعيل من امرأة مصرية تدعى هاجر ، يقول اليهود انها جارية سارا فساء سارا أن ترى ابن الجارية يرث مع ابنها اسحق فطلبت إلى ابراهيم أن يطرد هاجر وابنها ، فساء ذلك ابراهيم . ولكن الله تعالى أوحى اليه أن يصدع بأمر زوجته سارا ، وأن لا يخاف على ابنه لأن الله سيجمعه امة ، فأعطى ابراهيم هاجر ، خبزا وقربة ماء على كتفها ، وولده اسماعيل وصرفها فتاهت في بربة بير سبع وسكنت بلاد فاران . فلما فرغ ما في القربة من الماء واطرحت ولدها تحت شجرة وجلست بعيدا عنه بمقدار رمية قوس ، حتى لا يزداد ألمها برؤيتها آياه وهو يموت من العطش ورفعت صوتها بالبكاء ناداها ملك من السماء : ألا تخافي وأن الله قد سمع صوت الغلام . وقال لها أيضا : قومي وأحملي الغلام . وشدى من لسانه لأنى سأجمعه امة عظيمة . وفتح الله بصرها ، فأبصرت بئر ماء ، فلما تقربت لها وسقت الغلام وكان الله معه ، فكبر وكان ينمو ورأى القوس وسكن بربة فاران وأخذت له أمه امرأة مصرية ومن آية ١٩ الى آية ٢١ من الاصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين .

وعامة أهل الأخبار على أنه لما أنزل إبراهيم ، اسماعيل وهاجر بموضع مكة الآن وتركهما قال على ما جاء في القرآن « رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلمهم يشكرون ، فجعلت هاجر تتردد بين الصفا والمروة فانفجرت عين زمزم فشربت منها واسماعيل . ولما حامت الطيور حول العين ذهب قوم من جرهم ووجدوا هاجر وابنها وساكنوهما ، وشب اسماعيل بينهم وتكلم لغتهم ، وأصهر إليهم ، وأخذ لإخذهم ، فكان أولاد اسماعيل عربا بالمنشأ لا بالجنس فسموا بالعرب المستعربة . ثم إن إبراهيم بمعونة اسماعيل بنى البيت الحرام والكعبة ، وبعد تمام البناء ، دعا الناس الى حجه .

والعرب المستعربة قد تفرعت من ولد نزار بن سعد بن عدنان ، ومنهم أياك وربيعه ومضر ، وهما أكثر القبائل من بنى اسماعيل . ومن ربيعة قبائل اشتهرت ونافست مضر في الشرق وكان منهم أكثر الخوارج في الاسلام . ومن ربيعة ، عبد القيس بن قصي ، وبكر وتغلب ابنا وائل . ومن بكر حنيقة وعجل ابنا لجيم أما أبناء مضر فقد انشعبوا الى (١) قيس عجلان بن مضر و (٢) بطون الياس بن مضر وقد افرقت هذه فرقا فمنهم بطون تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد ابن خزيمة ، وكنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر من كنانة . أما قريش فقد انقسمت قبائل من اشهرها : جمح ، وسهم ابني هبص بن كعب ، ومخزوم ابن يقطعة بن مرة ، وتيم بن مرة ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى بن قصي ، وعبد مناف بن قصي . ومن عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل والمطلب ، وهاشم ومنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ومنه العباسيون عباس بن عبد المطلب بن هاشم والعلويون : أولاد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وعند المؤرخين أنه حين كثر بنو اسماعيل دب بينهم الشقاق لقلة الأرزاق ،

ففرقوا في الأرض وبقى القليل منهم في مكة . فأوت عبد القيس من ربيعة وبطون من بكر بن وائل إلى البحرين ومعهم بطون من تميم إلى أن جاء الاسلام وكان أميرهم وعميدهم المنذر بن ساوى من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مائة من تميم . أما بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر فقد نزلوا اليمامة وفي قصبتها حجر وكان أميرهم هوذة بن علي الحنفي . وأقامت سائر بكر بن وائل في طول البلاد من اليمامة إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فالأبلة فهبت . أما تغلب في الجزيرة الفراتية ، وبتو تميم بادية البصرة ، وبنو سليم قريبا من يثرب ، وثقيف بالطائف وهوازن شرق مكة وبنو أسد شرق تيماء وغربي السكوفة . وبنو ذبيان قريبا من تيماء إلى حوران . وفي تهامة بطون كنانة . وكانت قريش بمكة وضواحيها متفرقين في غير جامعة ولا وحدة ، فجاء قصي بن كلاب فأنشأ وحدتهم التي شرفتهم . تاريخ الاسلام : عبد الوهاب النجار ،

العرب من بدو وحضر

يبدو أن العرب كانوا جميعا بدواً ، يعتمدون على الأبل : عليها بلاغهم ومنها وتهم وهي كل ما لهم . وعليها يرتحلون في طلب الماء والمرعى . يعيشون غدير خاضعين لحاكم ولا يذلون لقاهر . فكانوا أصرح الناس قولاً في غير رهبة ولا زخرف سذجا ، خيرين ، شجعانا ناصرين أحاهم ومن استجار بهم . غير أن الأراضي الخصبة قد جعلت من العرب صنفاً آخر ، وهو الحضر ، الذين ابتنوا المساكن ومضروا الأمصار ، فكانت محاطة للتجارة والأسواق والايواء . ومن المدن العربية : مكة في تهامة ، ويثرب والطائف وخيبر في الحجاز ، وحائل في نجد ، وحجر في اليمامة ، والقطيف في البحرين ، وفي اليمن وعدن ومخا وشيأ ومأرب وصنعاء التي يقول الرحالة

الرومانى استرابون فى القرن الاول قبل الميلاد ، أن مدينة مأرب «مقر ملكة سبأ» كانت مدينة عجيبة سقوف ابنتها من الذهب والعاج والحجارة .

ولما كان العرب أهل نجعة وتحول كانت لهم أسواق ، وكان البر يأتهم من إيران إذ كان كسرى يرسل لظائمه «قوافله» إلى بلاد العرب فتياع فيها . وكان لقريش قبل الاسلام رحلتان ، رحلة فى الصيف إلى الشام ، وأخرى فى الشتاء إلى اليمن . وكان اليمنيون يتجرون مع الحبشة والهند وفارس ومصر التى كانت تورد القباضى . وكانت التجارة مبادلة بين السلع أو بنقود رومانية أو فارسية ولئن كان العربى يفخر يومئذ بأنه تاجر ، فإنه يستنكف أن يكون صانعاً ، فكانت الصناعة لليهود .

وكان بعض نساء العرب يغزلن بأيديهن ما نس الى حاجة بيوتهن وهى قليلة .

ولم يكن العربى يرى غضاضة فى أن ينتسب لأمه ، وناهيك بالملك عمرو بن هند ، والنعمان بن الشقيقة ، وابنا مارية من موك غسان ، وكان معاوية يقول : فقلت كـ ا وأنا ابن هند .

ممالك العرب القديمة

وكان يقوم فى اليمن ملوك مستقلون من حمير أو من قضاة وهم التابعة المنسوبون الى زيد الجمهور من قضاة ولئن صح أن قحطان بن عامر هو الوارد فى التوراة باسم يقطان ، كان أول من سكن اليمن من بنى سام بن نوح ، وكان ملوكا توج فى ٢٠٣٠ ق . م . على أولاده ، وجاء ابنه يعرب . وهذا كله غير ثابت بل من الشائع المدخول فيه .

وقال محمد بن جرير الطبرى المتوفى فى ٣١٠ هـ . فى كتابه «تاريخ الرسل والملوك»

« لم يكن لملك اليمن نظام والرئيس منهم كان رئيسا ، على مخرافه ومحجره ، حديقته وحماه ، لا يتجاوز ذلك . وفي ص ١٦٢ جزء أول من التاريخ نفسه ، أنه كان لليمن ملوك لهم ملك . غير أنه كان غير متصل فين الأول والآخرفترات طويلة . وليس في اليمن من الآثار إلا بقايا قصر غمدان ، وآثار سد مأرب وأطلال مدينة مأرب وكان بين الحبشة واليمن علاقات مودة وتجارة وخروب .

ملوك الحيرة العرب

عند بعض المؤرخين أن دولة ملوك الحيرة العرب قد بدأت بمالك بن فهم في ١٩٢ م . وعند آخرين بعمر بن عدى اللخمى في ٢٦٨ وأمتدت إلى ٦٣٢ وتخلل ذلك فترات لم يكن فيها ملك عربي . وقد نشأت مملكة الحيرة من بقية جنود التبابعة من قحطان وعدنان حين غزا التبابعة من جعفر وطىء وكلب وغيرهم من جرهم ، فارس ، ثم ممن نزل بعدهم من التنوخية من نمارة ولخم وقنص بن سعيد ومن اليهم وكانوا يسمون عرب الضاحية . وأكثرهم ينسبون الى القحطانية ، وكانوا — إلى هذا بأزاء ملوك الطوائف من الفرس يناوونهم في تخومهم ، ويتخونون ناحيتهم وكان مالك بن فهم ملك الحيرة يغير على الطوائف الفارسية مصيبا بما في ايديهم ثم كان الملك في أخى مالك : عمرو ، ثم في جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم من الازد كان صهر القوم وكان من بقايا العالقة من يدعى عمرو بن الطرب بشاطيء الفرات الشرقى فقامت بينه وبين مالك هذا وبعده حروب هلك فيها عمر ، فخلقته ابنته الزباء ويسمىها الطبرى « نائلة » وابن دريد « ميسون » . ولما قام بأمر الملك جذيمة ، وكان بطلا غازيا ، قبل أن يزوج أخته رقاش من عدى بن نصر اللخمى ابن أخت آل

أياد وولدت منه عمرو بن عدى زوجها الذى هرب بعدئذ خوفا من بطش أخيها جزيمة ، الذى أحب ابن أخته ، وكان خليفته ، وأصبح جد الملوك المتناذرة متخذاً الحيرة دار إقامته . ويقول الطبرى أنه مات فى المائة والعشرين .

ولما قام ازدشير بن بابك وقضى على ملوك الطوائف ووحد المملكة الفارسية فى ٢٣٠ ، بسط سلطانه على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، فدان له سكان الحيرة والأنبار ، واتخذ من ملوك اللخمين عمالاً أو ولاية للفرس موازنة مع الروم الذين اتخذوا من العرب على نواحي الشام قوما . وكان لملك الفرس عند ملك الحيرة كتيبة تسمى دوسر وبالفارسية دوشير أى أسدين شارة العلم الفارسى . وهم بمثابة جيش احتلال . ثم إن المنذر بن ماء السماء وعقبه ، تابعوا على الحيرة إلى أن جاء النعمان بن المنذر الملقب بابى قابوس .

ملوك الشام العرب

كان للعرب العالقي فى الشام ملك قبل دخول بنى اسرائيل إلى فلسطين وبعد استقرارهم كما ورد فى التوراة . وبعد أن انتهى أمر الزباء ، وهى من بقايا العالقي ذكر المسعودى أنه تنابع ثلاثة ملوك وهم النعمان بن عمرو ، ثم ابنه عمرو ، ثم أخوه الحوار ، وكانوا يملكين من قبل دولة الروم ثم عليهم بطون من قضاة ، ثم الضجاعم وتنصروا ، إلى أن جاءهم غسان فسلبوهم ملكهم وكان آخرهم زيد بن الهبولة ، وكان يزول غسان وهم من الأزدي على تخوم الشام مما يلي دمشق والأردن . وبعد أن قامت الحرب سجالاً ، انتصر الغساسنة الذين كانوا ذوى نجدة وبأس فى الحروب وآخرهم فى عهد الاسلام جبلة بن الأيهم الذى أسلم على أثر فتح المسلمين الشام ثم أرتد عن

الاسلام وهرب إلى الآستانة ومات في ٢٠ هجرية . وأقام القساسنة هناك ثم أقاموا في جبل شر كس .

ولقد اختلفت أقوال مؤرخي العرب في عدد ملوك غسان وزمن حكمهم : فهم عند حمزة الاصفهاني ٣٢ ملكا حكموا (٦٠٠) سنة يوافقهم على ذلك ابن سعيد عن صاحب تواريخ الأمم . وكذلك يوافقهم ابو الفداء في عدد الملوك ويخالفهم في مدة الحكم إذ هي عنده (٤٠٠) سنة . بينما هم عند نولدكه عشرة ملوك حكموا قرنا وبعض القرن ، وعند ابن قتيبة ١١ ملكا ، وكذلك عند المسعودي . أما عددهم عند الجرجاني فهو تسعة فقط ولا يخفى ما في ذلك من التشويش .

كذلك اختلف المؤرخون فيمن ملك من ملوك غسان أولا . فمنهم من قال أنه جفنة بن عمرو — كحمزة وابن سعيد — ومنهم من قال الحارث بن عمر — للمسعودي — ومنهم من قال ثعلبة ابن عمر — كابن خلدون عن السهيلي . هذا وقد ذكر البلاذري في كتابه فتوح البلدان تفرق الازد بعد اقامتهم على عين ماء غسان . وجاء بقول ابن سعيد في تاريخ ابن خلدون ما يوافق رأى البلاذري : وعندنا أن هذا الخلاف يرجع الى انه لم يكن للعرب قبل ظهور الاسلام من مادة التاريخ إلا ما توارثوه بالرواية ، مما كان شائعا بينهم من أخبار آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وما في حياة هؤلاء وأولئك من قصص البطولة والكرم والوفاء ، ثم ما كان من أخبار البيوتات التي تناوبت الأمرة على قريش ، وما أصاب وسد مارب ، وما يتبعه من تفرق الناس في السلاسل ، الى غير ذلك مما قام اللسان فيه مقام القلم والذاكرة مقام الكتاب ، الى أن بدأ تدوين التاريخ في فجر الاسلام . على أن ماجاء في سيرة ابن هشام ، نقلنا عن « ابن أسحق » أقرب أقوال مؤرخي العرب — تاريخاً الى العصر الجاهلي

ولقد حقق المرحوم أمين واصف بك بعض هذه المسائل في كتابه « فهرست المعجم الجغرافي » فقال في بعض فصوله أنه « لما تفرق بنو قحطان بعد سيل العرم

رحل آل جفنة من اليمن والأزد من بني كهلان إلى الشام ، ونزلوا بماء يقال له غسان ، فسموا به ، وأقاموا ببادية الشام وتزاحوا مع شليح فغلبوهم على أمرهم وأخرجوهم من ديارهم وبقي الغساسنة ملوكا بالشام أكثر من أربعمائة سنة ، وأولهم جفنة بن عمر بن ثعلبة ، وآخرهم جبلة بن الأيهم صاحب الحادث المشهور ، الخ . ولعل الخلاف على عدد ملوك الغساسنة ومن حكم منهم راجع إلى أن بعض المؤرخين قد أرجع الغساسنة إلى أصلهم قبل أن يرحلوا .

أمانة مكة وولاية البيت

كانت ولاية البيت بعد اسماعيل ، كما يقول بعض المؤرخين ، لمصاض بن عمرو الجرهمي واستمرت جرهم في ولاية البيت والحكام بمكة في غير منازع من ولد اسماعيل لمكان خؤولتهم واعظاما لأن يكون بمكة بغى .

ثم أن جرهما بغوا بمكة وظلوا من بها من غير أهلها وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها . وكان من طغيانهم واستخفافهم بالبيت أن كان الرجل منهم إذا أراد أن يزنى ولم يجد مكانا عمد إلى البيت ودخله ففسق فيه فسلط الله عليهم الرعاف فافى أكثرهم ثم أغرى بهم خزاعة فاجمعوا لحربهم وملكوا عليهم أقطار مدينتهم واجلوا بقيتهم إلى اليمن أو تهامة وفي ذلك يقول قائلهم :

كأن لم يكن بين المحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
وكنا ولاية البيت من عهد نابت نطوف بذلك البيت والخير ظاهر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صرف الليالي والجسدود العوائر

استمر أمر البيت إلى خزاعة يليه رئيسهم إلى أن انتهى إلى حليل الخزاعي .

وفى زمنه قدم قصى بن كلاب من قضاة مع أمه وكانت متزوجة فيهم فعرف له قومه فضله وقدموه فيهم وسادهم وتزوج بنت حليل فجاء منها بأولاده فانتشروا وكثر ماله وضمهم أمره فلما مات حليل كان أمر البيت الى ابنه ابى غبشان وكان صاحب خمر وهو فاشترى منه قصى مفتاح البيت بزق خمر

وقيل بثياب وابرة فضرب المثل بصفتة فى الحسار وفى ذلك يقول الشاعر
 ابو غبشان اظلم من قصى واظلم من بنى فهر خزاعه
 فلا تلحوا قصيا فى شراه ولوموا شيخكم اذا كان باعه
 حادث كبير كهذا لا يمكن أن يترك من خزاعة سدى ولا ترضى لهم حميتهم وانفهم
 بترك ذلك الشرف الذى توارثوه زمنا مديدا فلا غرو أن كان هذا الأمر مبدأ
 لاثارة الشر بين قصى ومن معه من بنى كنانة وبين خزاعة . فقامت الحرب بينهما
 فاستظهر عليهم قصى وأجلاهم عن مكة واستتب أمر ولاية البيت فيه وفى عقبه الى
 هذا اليوم .

صار قصى الرئيس الدينى بمكة بولايته أمر البيت الذى هو مثابة العرب
 والمقصود بالاجلال والتعظيم من جميعهم وانصرف الى إحكام ربط الوحدة التى
 أوجدها بين قومه وتوطيد أمرهم على جهة الاستقامة . فعمر دار الندوة بمكة
 وكانت مجتمع قریش فيها يفصل فى معضلات الأمور ومهمات المشاكل . وكانت
 دار الندوة من أئمن الدور على قریش فقد كفلت لهم الاتحاد والوئام وانحسام
 المشاكل على وجه لا يرى فيه أحد الخصمين غضاضة لصدور ذلك من ذوى الرأى
 وأهل التجربة

وكان لقصى فى قومه من مظاهر الشرف وشارات الرئاسة :

(١) دار الندوة . فيها يجيئون الرأى ويحسمون مادة الخلاف فيما شجر بينهم من
 المعضلات والأمور الجسيمة . ولا يدخلها إلا من بلغ الاربعين من عمره . ويزوجون
 فيها بناتهم . ويعقدون فيها لواء الحرب متى صمموا العزيمة عليها . وإذا بلغت

الجارية من بناتهم مبلغ النساء ألبست الدرع في تلك الدار . وقد انتهى أمرها قبل مجيء الاسلام الى بنى عبد الدار .

(٢) اللواء — وهو راية الحرب وكان اسمها (العقاب) فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده . ثم انتهى أمرها إلى بنى امية من ذريته تكون عند أحدهم فإذا أرادوا الحرب أخرجوا اللواء . فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلوه اياه والا بقى في يد صاحبه الذي كان عنده .

(٣) الحجابة . وهى سدة البيت يفتح بابه ويغلقه عند ما يكون لازما ويتولى خدمة الكعبة ويكون عنده مفتاحها ثم استقرت في بنى شيبة الى اليوم .

(٤) السقاية — وذلك انهم ينشئون حياضا من الادم توضع في فناء الكعبة ينقلون اليها الماء العذب من الآبار على ظهور الابل في الروايا والقرب . الى أن حفرت زمزم فسقوا الحاج منها : وكان يلى ذلك قبيل الاسلام العباس بن عبد المطلب وكانوا يحلون الماء في الحياض بالتمر والزبيب .

(٥) الرفادة — وهى طعام كانت قريش تصنعه للحجاج على سبيل الضيافة . وكانت قريش تساعد قصيا بما تقدمه له من الخرج في كل سنة .

(٦) القيادة — وهى أن يلى واحد أمانة الركب إذا ساروا الحرب أو تجارة وانتهى إلى بنى امية . وآخر من وليها عنهم قبل الاسلام أبو سفيان . وقد كان لقريش مصالح ، سوى ما كان لقصى موزعة بين القبائل من قريش لم تكن لها مكانة كهذه المصالح تسوقها مع ما كان لقصى مع استطراد الترتيب

(٧) المشورة — وذلك أن قريشا كانت لا تمضى امرا اجتمعت عليه كلمتها في مهمة من مهماتها العامة حتى تستشير صاحب المشورة . وكانت في بنى أسد .

(٨) الاشتاق — وهى الديات والمغارم . اذا احتمل صاحبها شيئا من ذلك فسأل قريشا اعانته على الوفاء بما احتمل من ذلك صدقوه فيها واهانوه وكانت في التيم
(٩) القبة — كانوا إذا اعتزموا على حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون

به الجيش . فهي أشبه بمخازن المهمات الحربية .

(١٠) الاعنة — وصاحب هذا المنصب يتولى أمر خيل قريش وينظر في مصالحها أثناء الحرب .

(١١) السفارة — وصاحب هذا المنصب يكون سفير قريش اذا دخلوا في صلح ويتوب عنهم في المنافرة اذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر . وكانت في بني عدى . وآخر من سفر لهم في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل اسلامه .

(١٢) الايسار — وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها فهي اشبه بالقرعة وكان يلي ذلك رجل من بني حنظل

(١٣) الحكومة — وتولى الفصل بين الناس في الخصومات عند الاختلاف . وهي تشبه القضاء أو التحكيم . ولم تكن في قبيلة معينة وقيل انها كانت قبل الاسلام في بني سهم .

(١٤) الأموال المحجرة — وهي الأموال التي كانوا يحصون بها آلهتهم من نقد وحلي وغير ذلك . وهي تشبه بيت المال . وكانت ولايتها في بني سهم .

(١٥) العمارة — وهي منع من يتكلم في المسجد الحرام بهجر أو رفث أو برفع صوته فيه .

ويرى من هذا أن كثيرا من هذه المناصب ليس له كبير شأن . غير أن المنافسة في الشرف أدت إلى إيجادها ارضاء للقوم حتى لا تكون قبيلة منهم غفلا من شارات الشرف .

نشأ لقصى ولده عبد مناف وأرتفع شأنه وساد في حياة أبيه فكان غنيا بما تحلى به من الشرف وما حصل عليه من السؤدد من شارات ترفع من شأنه . وتولى مصالح تغور وتنبج بذكره ورأى ولده قصى ذلك . وكان له من الولد عبد الدار وهو اسن من عبد مناف . وارد أن يلحق ابنه عبد الدار بأخيه عبد مناف في الشرف والسؤدد فأوصى له بما كان في يده من مصالح قريش . فاطاع عبد مناف ولم

ينازع اخاه احتراماً لوصية ابيه وغناه عن ذلك بما آتاه الله . فلما مات كان له من الولد أربعة وهم هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل . فلم يكفهم ما كان لهم في قومهم من الذكر النابه والشرف التليد والسيادة والعدد الجم . بل نفسوا على بني عمهم عبد الدار ما كان يبدىهم من تلك المصالح التي نالها اباؤهم بالوصية من جدهم ورأوا انهم احق بها لما هم عليه من الشرف والسيادة . واني بنو عبد الدار أن يتركوا ميراثهم فدب ديب الشقاق بين بني العم . ووجد كل من الفريقين أعوانا من قريش يؤازرونه على مراده وكاد الأمر يفضى الى امشاق الحسام . ولكن حرص قريش على بقاء الوحدة القومية وضمنهم بالحرم عن اسالة الدماء فيه كان هاديا لهم إلى فصل الخصومة على وجه ينال به كل من الفريقين حظا من ذلك الشرف الموروث فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة والندوة مشتركة ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما احرزوا فخرجت القرعة لهاشم على السقاية والرفادة . فكان يليها وبنوه من بعده إلى أن جاء الاسلام .

حسمت القرعة على السقاية والرفادة بين بني عبد مناف زمنا الى أن درج عبد شمس ونشأ ابنه أمية نابه الذكر مثرىا من المال والولد . فرأى ذلك سلاحا يعدو به على عمه ليبتر منه السقاية والرفادة والقيادة ويستتم بذلك الشرف والسيادة بين قريش . وكادت المنافسة بينهما تؤدي إلى شر لا تطفأ جذوته . غير أن القوم يعلمون انهم في الحرم الآمن من المخافة وقد نزهه الله تعالى عن القتال واراقة الدماء . تعرف العرب ذلك وتقر به وتحترمه . ولأهل العرب بذلك مكانة سامية . فاذا أراقوا الدماء في الحرم ولم يراعوا حرمة ضاعت هيبة البيت . واتجهت مطامع الأعراب إلى قريش والحرم واستهدفوهم للغزو وتخطفوهم من السبل كما كانوا يفعلون بسواهم وفي ذلك من البلاء ما لا قبل لقريش باحتاله وهم قوم بواد غير ذي زرع . وانما قوام معاشهم من الحج وتقليب الاموال في التجارة بالاسواق التي تقام بجوار حرمهم في الاشهر الحرم . لهذا كانوا أحرص الناس على المحافظة على الحرم من أن يكون

فيه حرب أو يراق فيه دم . حتى أن الحرب لما قامت بين كنانة وقيس سميت حرب الفجار . لأن القوم تعدوا حدود الله بارافة الدماء في الحرب . كل ذلك حدا بهاشم وابن أخيه أمية بن عبد شمس إلى المنافرة على خمسين ناقة نذبح بالحرم والجلاء عن مكة عشر سنين فتنافرا إلى السكاكن الخزاعي بتسغان . فخرج كل منهما إليه في نفر . فقال قبل أن يخبروه خبرهم : والقمر الباهر . والكوكب الزاهر . والغمام الماطر وما بالجو من طائر . وما اهتدى بعلم مسافر . من منجد وعائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر

نرى من ذلك كله أن قريشا كانت قد جمعت بين السياسة والدين والادارة والحرب . اقتسموا خطط الحكم والمصالح القومية على وجه يشبه الحكومة الشورية في الجملة وإن لم يكن لهم رئيس ينتهى إليه أمر هذه المصالح . على هذا جاء الإسلام وفي قريش الشرف والسيادة والحكم لم يخضعوا لاجنبي ولم يشقهم الذل بحكومة قاهرة وهم بموضع الاجلال والاعظام من نفوس جميع العرب لا ينكر ذلك عليهم أحد فكان للحجاز منعة وعصمة واستقلال عن غيرها (١)

المالك في كثره

كندة قبيلة من أشرف قبائل اليمن وكان من ساداتها حجر بن عمرو الذي تسميه العرب آكل المراز . وكان اخا حسان بن تبع لأمه . فلما دوح حسان بلاد العرب

(١) يقول Sedillot في كتابه , *Histoire Generale des Arabes*, Tome

41-42, p. 1 أن الحجاز يشمل أكثر مدائن العرب وخاصة يثرب ويتخلل الأرض كشبان من الرمال والآكام الخصبة حولها قرى وضياع وقلاع وفي منحدراتها الحبوب والثمار والعيون التابعة وفي الغرب ، الطائف ، وهي بستان فاكهة مكة

ولى على معد بن عدنان وأخاه لامة حجرا فدانوا له وسار فيهم أحسن - بيرة إلى أن مات وملك من بعده عمرو بن حجر فتزوج عمرو بنت عمه حسان بن تبع فولدت له الحارث بن عمرو بن حجر الكندى فلما قام تبع بن حسان ملكا على اليمن هابته العرب فبعث بابن اخته وهو الحارث بن عمرو بن حجر الكندى في الجيش إلى بلاد بته والحيرة . وكان ذلك أيام ملك قباذ . وكان قباذ ضعيف الملك فتوئب العرب على النعمان وقعد قباذ عن نصرته ونهضة ابنه المنذر بن النعمان لرفضهم متابعتة على المزدكية فاتمخ الحارث بن عمرو في الحيرة ووافق ملك الفرس باجابهته إلى المزدكية فولاه الحيرة وهرب المنذر بن النعمان إلى اباد . ثم كتب إلى الحارث بن عمرو : انى في غير قومي وأنت أحق من ضمنى وأنا متحول اليك . فحوله اليه وزوجه بنته هنداء . فلما ولى الحارث بن عمرو واشتدت وطأته على العرب وانقلب الحال في الفرس بهلك قباذ بن فيروز وقيام ابنه كسرى انوشروان فرض ملك الحيرة على المنذر، وأزال ملك الحارث عنه . ووقع الصلح بين المنذر والحارس على ماوراء النهر والسواد . وفرق الحارث ولده في معد فملك حجر على بنى اسد وشرحبييل على بنى سعد والرباب وسلة على بكر وتغلب ومعد يكرب على قيس وكثاناه وكان قيس بن الحارس سيد أى قوم نزل بهم فهو ملكهم

وما لا يفوتنا ذكره ان ملك هؤلاء الملوك لم يكن ملكا على التحقيق يأخذ بحكمومه بالقهر والارهاق ويخضعون له خشية ورهبة . وانما كان رياسة فقط . إذ العرب لا تأتلف طباعهم مع ملك يذهب بحريتهم ولا يصبرون على عسف ولا يقيمون على ضميم

الامارة بمكة وولاية البيت

أما سلة فنفس على أخيه شرحبييل فجتمع الجوع لحربه فقتل شرحبييل ثم فليج سلة بعد ذلك وجزع قيس لمصرع أخيه شرحبييل فاعتراه رؤاس هلك به

وأما حجر بن الحارث فلم يزل اميرا على بني اسد إلى أن بعث رسله في بعض الايام لطلب الاتاوة من بني أسد فتمنعوها . فسار اليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل اشرافهم وسراتهم وحبس عبيد بن الابرص في جمع منهم فما زال يستعطفه بالشعر حتى سرحه واصحابه وأوفدهم فلما بلغوا بيته اقتحموا عليه وقتلوه ولما بلغ نبأ قتله ولده امرئ القيس بن حجر ، صاحب المعلقة ويقال له الملك الضليل حلف أن لا يقرب لذة حتى يأخذ بشأر ابيه من بني أسد . وقام بنصره بنو بكر وتغلب فاجفلت اسد الى ملك الحيرة المنذر بن اموى القيس فأتحن في كنانة وفاته بنو اسد . فسار الى مؤثر الخير بن ذى جدن من ملوك حمير . فامده بخمسمائة مقاتل من حمير وجمع من العرب سواهم . وقام المنذر بجيش من العرب واساورة الفرس . فانهزم امرؤ القيس وانفضت جموع حمير ومن معهم من العرب ونجا بدمه وطلبه المنذر ففاته هربا وولى وجهه شطر الشام . ونزل على السومل بتيام ، ومدحه وكان معه أدرع خمسة مساة كانت لبني آكل المراتيتوارثونها ومعه بنته هند وابن عمه يزيد بن الحارث ومال وسلاح كان قد بقى معه وكان معه الربيع بن نزار فغضب السموال لابنة امرئ القيس قبة وانزل القوم في مجلس له براح فكانوا عنده مدة ثم سأله امرؤ القيس في أن يكتب إلى الحارث بن ابى ثمر يوصله إلى قيصر ففعل واصحبه رجلا يدله على الطريق وادع ابنته وماله وادراعه السموال وخلف ابن عمه مع ابنته وسأله قيصر النصرة على عدوه . هذا ويحدثنا الجغرافى العربى أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني المتوفى في صنعاء عام ٩٤٥ م في الجزء الثانى من كتابه « الاكليل » عن أعلام الحضارة العربية الجنوبية التى ترفرف فوق قصور اليمن وأبنيتها ومن الشمال الشرقى إلى أرض العراق نقرأ في آثار البابليين والآشوريين عن البلاد وسكانها تاريخها وملوكها ، ومحاكمها وإثاراتها ، حرقها وفنونها ، وكل ما يخطر على بالنا اليوم حين نؤرخ أمة ما من الأمم الحية . وغربا ووجهتنا البحر الأبيض المتوسط إلى الآراميين والسكنعانيين ، الفينيقيين والعبريين ، ترك كل شعب من هذه الشعوب

آثارا شغلت وتشغل الكثيرين من العلماء ، خاصة أولئك الذين يبحثون في الكتاب المقدس ويبنون به وفي بادية الشام في شمال نجد أوالعجاز . وثمة لون من الآثار والكتابات يتفق معظمه مع بعض ما عثر عليه في جنوب الجزيرة ، وأغنى المنيّة لغة وخطا ، وتعليل ذلك أن كثيرين من سكان اليمن كانوا يحترفون التجارة وكانوا يصرفون بعض ما تنتجه بلادهم وبعض البلاد الشرقية الأخرى في أسواق جلها شمال الجزيرة ، وفي الأجزاء الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وفي دمشق يتصل هذا الخط التجاري الذي يخرج من اليمن مارا بمكة والمدينة متجها شمالا إلى الشام شرقا ، أو يعبر البحر الأحمر إلى مصر غربا ، مارا بالخط التجاري الخارج من دمشق إلى آسيا الصغرى فأوروبا . ويقول الدكتور فؤاد حسنين : إن الشعب العربي الجنوبي كان شعبا تجاريا تربط بلاده بالعالم الخارجي طرق مواصلات متعددة منها البحرية ومنها البرى ، فهو إذا في حاجة إلى تأمين مواصلاته فأنشأ مخافرا على طول الطرق التي كانت تجتاز بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال ، ولم يمض زمن طويل حتى كوّنت هذه المخافر أو تكونت حولها جاليات معينة لغة وكتابة ودينها ، وكانت هذه الجاليات على اتصال تام بالنجديين والحجازيين من القبائل التي كانت تخترق قطر القوافل أراضيها ، وقد قرب هذا الاختلاط ، بين العرب الجنوبيين والشماليين ، اللهجيتين الجنوبية والشمالية إلى بعضا . وقد عثر في وسط الجزيرة وشمالها وفي بادية الشام وشبه جزيرة طور سيناء على كثير من الكتابات والآثار الجنوبية والشمالية التي يرجع بعضها إلى ما قبل الميلاد ، والبعض الآخر نقش أو شيد في أزمنة مختلفة أحدثها يرجع إلى العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ وأهم المدن والأماكن التي عثر فيها على هذه الكتابات هي تلك الواقعة في طرق القوافل مثل « العلا » و « الحجر » أو « مدائن صالح » وهناك اهتدى المستشرقون إلى كثير من الكتابات الجنوبية وفي منطقة العلا كشف بعض العلماء كتابات أخرى تنتمي إلى قبيلة أو شعب كان يسمى لحيان ، نعد لغته لهجة عربية شمالية رغما من أنها مكتوبة بخط جنوبي يرجع

تاريخ هذه الكتابات اللحيانية إلى ما بين القرنين الخامس والسادس ق. م. وكذلك غير اللحيانية. وفي وسط الجزيرة وشمالها الغربي كتابات كثيرة جدا اتفق على تسميتها بالكتابات النمودية اعتقادا أنها لغة القوم الذين أطلق عليهم القرآن الكريم عمود أما خط هذه الكتابات العربية الشمالية فشمالي أيضا. وما يقرب من النمودية، الكتابات المعروفة بالصفوية نسبة إلى جبل الصفا الواقع جنوب شرق دمشق. وهناك تلك الكتابات الشمالية خطا ولغة، وهي من أقرب اللهجات العربية الشمالية إلى اللغة الحجازية. ومن بين الكتابات التي وجدت فيها ما يرجع تاريخه إلى عام ٣٢٨ م كنقش النمار « جنوب شرق دمشق، وهو نقش امرئ القيس بن ملك العرب ومنها ما يؤرخ بعام ٥١٢ م كنقش زيد « جنوب شرق حلب، أو بصام ٥٦٨ م كنقش حران « جنوب دمشق »

لقد قضى على كثير من لهجات الجزيرة واللهجات، كما أهمل تاريخ الجاهلية قصدا وعمدا، لكن اليوم بعد أن بذل رجال اللغات السامية مجهود الجبارة، استطاعوا إعادة الهيكل الذي تداعى إلى أصله، وأصبح من اليسير على اللغوي إذا استعان بهذه الكتابات التي حفظتها لنا النقوش، ما عرف منها وما سيعرف، وبكتب النحو والقراءات وما إليها من المصادر التي عنت بالغة، وباللهجات العربية قديمها وحديثها أن يجمع المواد اللازمة التي تصلح لوضع تاريخ شامل للنحو العربي، فنعرف مبدأ العرب في التذكير والتأنيث، وجموع القلة والكثرة، ومخالفة العدد للعدد من ثلاثة إلى تسعة، والفصل في الخلاف القائم بين الخليل والمبرد وسيبويه بشأن أداة التعريف، والمسائل الأخرى التي يجب أن تبذل في سبيل فهمها بالبحوث الكثيرة والدراسات اللغوية المقارنة، وبمثل هذه المجهودات تصبح دراساتنا اللغوية مثمرة ونوفق إلى نشء جديد يكون منه الباحث المنقب واللغوي المدقق

الحكم في البوادي العربية

لم يعرف أعراب البادية الخضوع للملوك ، ولكن عرفوا الاقرار بالسيادة للآباء والرؤساء وللشجعان وأهل الثراء والكرم به . هذا وبيان الرؤساء الملوك في أن الرؤساء لا يرزأون أحدا في مال أو بتضحية فلا يأخذ الرئيس من أسلاب الحرب إلا ما تطلبه حقوق الرياسة من معونة الفقير والضعيف فكان له المربع وهو ربع الغنيمة ، والصني وهو ما يصطفيه لنفسه عند القسمة ، والنشيطه وهو ما أصاب في طريقه الى الغزو قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول وهو ما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس . ومن سادة العرب هوزة بن علي الحنفي ، سيد بني حنيفة ، والمنذر بن ساوى التميمي سيد عن القيس ، وتميم بالبحرين ، وزهير بن خديجه سيد عبس

من أخلاق العرب وعاداتهم

من أخلاق العرب : حب المحمدة ، التي يستقبح الشهامه والحرص على ما يوجب الثناء من القيام بالمسكارم كعلو الهمة والحمية والنجدة ، ومن أخلاقهم الشجاعة مع سرعة الانفعال والاقدام على المسكاره ، والكرم ، والوفاء ، والحماة عن الجار والصير ومن عاداتهم الغيرة على الأعراض ، وشرب الخمر خاصة قبيل القتال قبل نزول تحريم شربها في القرآن ، والازلام والميسر ، أى أن يستقسموا بالازلام عند السفر والزواج والحرب والبيع والشراء . يعدون ثلاثة ازلام : على أحدها : أمرني ربى والثاني : نهاني ربى ، والثالث : غفل . فيسير الرجل الى حاجته حسب ما يبدو من هذه القراءات . أما الميسر فكان سبيلا الى الجود بان يعطوا الفقير ما يرجونه منه ومن عاداتهم أيضا الأخذ بالثأر ، والغزو

بلد العرب

أما بلاد العرب فهي عند الجنوب العربي تنحدر إلى الشمال الشرق ويبلغ أقصى صعود النجد في أقصى الجنوب الغربي . ويرتفع الجزء الغربي من ساحل البحر الأحمر بين ٤٠٠٠ و ٨٠٠٠ قدم خلفاً طريقاً ضيقاً لا يزيد على ٣٠ متراً . وقد بدأت المحاولة الأولى لاختراق داخل بلاد العرب من الساحل الجنوبي في ١٨٣٥ ، حين كان اللفنتنانت س . كروتندين وج . ر . و بلسثيد يقومان بمسح الساحل الغربي . وجاء إلى هناك غيرهما أمثال أدولف فون زيد في موكالاتي صورة أحد الحجاج

أصول الأمة العربية وسجلاتها

ليس من ريب في أن الوقوف على العناصر الأولى التي يتألف منها قوم من الأقوام أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، يعين على ادراك حياة هذا الشعب ماضياً وحاضراً وتطوراً . والأمة العربية ، أو على سبيل التجوز والتسامح الشعب العربي كسائر الشعوب ، هو ممررة فتاعل أقوام بادوا أو نقصوا أو نهضوا ، امتزجوا وتفرقوا ، لكن الجامعة التي تربط بينهم ، والوحدة التي تنظمهم هي البيئة ، والمكان . والطبيعة أرضاً وسما ، هي اللغة مهما تعددت لهجاتها والعقائد والعادات . وعند الدكتور سليمان حزين : أن البيئة التي انتشر منها العرب متنوعة في أقاليمها ، ويميزاتها الجغرافية ، ولهذا التنوع أثره الواضح في الصفة التي اتخذها توسع العرب من تلك الأقاليم ، بالبر حيثما والبحر حينئذ آخر ؛ وعلى الرغم من اختلاف تلك الأقاليم بعضها عن بعض ، فإنها تؤلف فيما بينها تلك البيئة العامة التي نسميها البيئة العربية ، وكذلك الشأن في سلالات العرب . فهم على تباينهم في

الشمال والجنوب ، وعلى تنوع مميزاتهم الجنسية والاجتماعية في البادية والحضر وفي الداخل والجهات الساحلية ، يؤلفون فيما بينهم شعبا واحدا له مميزاته العامة المشتركة وثقافته الموحدة في اللغة والدين والاتجاه الفكري العام . هذا وليس أصل العرب ضيقا ولا محدودا ، وإنما هو متشعب غير محدود . ذلك أن العربي يجمع في تكوينه الجنسي ، بين مميزات سكان آسيا الغربية وسكان البحر الأبيض المتوسط وبعض سكان افريقية الشرقية ، ويوث عن هذه العناصر جميعا ، أو قل إنه يشترك معها على الأقل في كثير من المزايا والملسكات والمؤهلات مضافة الى تراث العرب الجنسي ، على أنه لن يقتضى مع ما للعرب من مسحة مشتركة ، تجمع بينهم جميعا كشعب واحد يميز عن غيره من الشعوب ، تربط بين عناصره تلك البينة العربية ، وذلك الموقع الجغرافى الفريد ، الذى تشغله جزيرة العرب في العالم القديم وثمة نظرية تجعل من الشرق الأدنى الوطن الاصلى للانسان ، أو قل المنطقة التى انتشرت منها الاجناس والسلالات الكبرى التى تعمّر العالم فى الوقت الحاضر . وتقوم تلك النظرية على أساسين : أولهما ، الموقع الجغرافى ، إذ يجمع الشرق الأدنى بين قارات العالم القديم الكبرى (آسيا وأوربا وأفريقية) كما يجمع بين بحار الشمال أى البحر المتوسط وما يليه شمالا وغربا ، وبحار الجنوب أى البحر الأحمر وخليج فارس وما يليهما جنوبا وشرقا . وثانيهما أن سلالات البشر الكبرى من عناصر آسيا الداخلية « الأتراك البيض والمغول الصفراء ، ومن العناصر البيضاء ، أى الشرقى شمال أوروبا والسمري فى جنوبها وفى شمال افريقية » ثم العناصر السوداء ، وفى افريقية وجنوب الهند وجنوب شرق آسيا ، هذه العناصر كلها تتقارب جميعا ، أو تتقارب بعض أطرافها فى الشرق الأدنى ، الذى يبدو أنها انتشرت منه أو من جواره ، نحو الشرق فى حالة سكان آسيا الداخلية ، ونحو الغرب والشمال فى حالة العناصر البيضاء ، ونحو الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فى حالة الزنوج ومن ابيهم من ذوى البشرة السوداء . وإذا صحت هذه النظرية ، وهو ما يرجعه أغلب الباحثين لاسيا فيما يتصل بالعناصر

البيضاء والسوداء ، وإن لم يسلبوا به جميعا فيما يتصل بالمفول ، فانه يجب أن ننظر أن يجمع سكان جنوب غرب آسيا في دماهم وتكوينهم الجنسى مزيجا من المميزات والصفات ، وأن يكون هناك شيء من الاختلاف بين أهل الجزيرة العربية في مختلف جهاتها لاسيما الشمال والجنوب ، وهو ما انتهت اليه الدراسات الحديثة الى الآن

تغلب على العرب في جملتهم الصفات التي يعرفها علماء الاثروولوجيا ، أو علم السلالات البشرية ، بالصفات القوقازية ، والتي يطلق عليها أحيانا في شيء من التوسع اسم الصفات السامية ، وإن كان من الأفضل أن يقتصر استعمال هذا اللفظ الأخير على الناحية الثقافية عامة واللغوية خاصة ، وألا يكون له مدلول جنسى معين . وأهم تلك الصفات العربية البشرة السمراء أى القمحية اللون ، والقامة المعتدلة ، أى فوق المتوسطة ، والرأس المستطيل أو المتوسط الاستدارة ، وملامح الوجه القسيمة الوسيمة عدا استطالة الأنف وبروزه في بعض الأحيان . والشعر المجعد تجميدا خفيفا ، والحية المتوسطة الكثافة ، ولون الشعر الكستنائى ، والعيون العسلية الغامقة والأطراف المتناسبة مع القامة التي يغلب عليها أن تكون نحيلة ، لاسيما بين أهل البادية ، إذ بقل الغذاء ويكثر التنقل وتطول المسافات .

على أن هذه الصفات وإن كانت غالبية ، فانها في الحقيقة لاتتمثل على صورة واضحة خالصة ، إلا في جهات محدودة من الجزيرة . لاسيما في الأجزاء الداخلية منها مثل نجد وبعض جهات الحجاز ثم بادية الشام التي ربما كانت الأصل للعناصر التي عرفت فيما بعد بالساميين . وقد شبهها بعض الباحثين بالمهد يتكاثر فيه البدو في بعض الفترات ، حتى إذا ماضى هذا المهد بمن فيه ، انتشر أهله في الأرض شرقا وغربا ، فاحتلوا أراضى العراق أو أراضى الشام وشمال أفريقيا ، فاذا ما خف الضغط وقل الناس في البادية ، عاد سكانها الى التكاثر البطيء مرة ثانية إلى أن تضيق البادية بهم ، فيضطرون إلى الانتشار في الأرض من جديد وهكذا

كذلك من الناحية الجنسية يبدو أن في البعد عن قلب الجزيرة وعن البادية بالمعنى

الصحيح ، يكون العرب أكثر اختلاطاً في مظهرهم وفي مميزاتهم . ففي العراق مثلاً اختلط الأعراب ، ومن يعرفون بالساميين ، بعناصر أخرى انحدرت من سهول دجلة والفرات ، من هضبة إيران وأرمينيا لاسيما من هذه الأخيرة ، إذ يمتاز السكان في الأصل باستدارة الرأس ، وانبطاح مؤخرة الجمجمة ، وارتفاع الأنف وأم الرأس ارتفاعاً ظاهراً ، وانحدار الجبهة وتقهقرها إلى أعلا ، وشدة بروز الأنف وارتفاع قنطرة غلظ أوداجه ، فضلاً عن أن القامة متوسطة ، وأن الجسد يميل إلى الامتلاء بمص الشيء . وهذه الصفات لا توجد خالصة إلا فوق الهضبة نفسها . أما في بعض جهات العراق . فانها تتمثل بخففة ومختلطة بالمميزات الأعراية المشار إليها من قبل . ويبدو أن بعض عناصر الهضبة هاجرت نحو الجنوب وأن أثرها لم يقف عند العراق وإنما امتد مع الخليج الفارسي إلى عمان ، ومنها غرباً إلى وادي حضرموت ، حيث تظهر بعد المميزات الأرمينية بين سكان ذلك الوادي

كذلك تأثر سكان الشام ، لاسيما جبال لبنان ، بالعناصر التي انحدرت من هضبة الأناضول في الشمال . ويرجع بعض تلك المؤثرات إلى أيام الجيوشين الذين توسعوا في لبنان القديم . وأثروا في سكانه . كما تجددت تلك المؤثرات في أيام الأتراك الذين امتد تأثيرهم فشمّل أجزاء مختلفة من سوريا وفلسطين . وتتمثل هذه المؤثرات الشمالية أيضاً في استدارة الرأس ، وانبطاح مؤخرة الجمجمة انبطاحاً خفيفاً وغلظ الأنف نسبياً ، وغزارة شعر الوجه ، إلى غير ذلك من المميزات المعروفة بين أهل الأناضول .

أما جنوب الجزيرة العربية فإن الاختلاف أكثر وضوحاً بين سكان ذلك القسم من الجزيرة وبين أعراب البادية الشمالية على ما وصفناه من قبل . وقد لاحظ علماء الأنثروبولوجيا ، منذ بدأوا يبحثون هذا الإقليم ، امتياز سكانه في جملتهم ، ما عدا شمال اليمن ، باستدارة الرأس استدارة يختلفون بها عن أهل الشمال عامة . كما لاحظوا ظهور المؤثرات الأرمينية ، التي أشرنا إليها ، في كل من عمان ووادي حضرموت

ويبدو أن وصول هذه المؤثرات الأخيرة أمر حديث نسبياً ، فهي في وادى حضرموت تكاد تقتصر على أهل الواحات في قاع الوادى دون القبائل ، وهم البدو المتنقلون في فيافي حضرموت الجافة ، ويمثلون حالة متوسطة بين القوقازيين أو الساميين في الشمال وفي اليمن من جهة ، وبين سكان شواطيء بحر العرب والبحار الهندية في الجنوب من جهة أخرى . بل إن الصفات الهندية والتقارب بين بعض سكان الهند الغربية وهضبة الدكن أمر واضح ملموس . كذلك توجد مميزات زنجية خفيفة جداً تتمثل في بروز الفم وقرطحة طرف الأنف الأدنى ، بين بعض سكان سواحل حضرموت وإن كان من الجائز أن هذه المؤثرات ، ترجع إلى تجارة الرق ونقل الزوج من شرق أفريقيا إلى جنوب بلاد العرب ، ثم اختلاطهم هناك بالسكان الأصليين . فأما عن هضبة اليمن ، فإنها تمثل منطقة اختلطت فيها العناصر القوقازية من ذوى الرأس المستطيل ، بعناصر جنوب بلاد العرب من ذوى الرأس المستدير . وفي القرون الأولى من الحضارة السبئية ، أى في بضعة القرون السابقة للعهد الميلادى ، حدثت عدة هجرات متلاحقة من الشمال إلى الجنوب ولا يزال أثرها ظاهراً بين سكان منطقة حاشد في شمال بلاد اليمن ، في حين أنه في أواخر الحضارة الحميرية ، أى في بضعة القرون السابقة للهجرة ، انقلبت الآية وكانت أغلب الهجرات من اليمن نحو الشمال وإلى هذا يرجع أن الكثيرة من القبائل العربية في صدر الاسلام ، كانت تدعى لنفسها أصلاً يمنية ، بل لعل هذا وظهور المثل للقديم المعروف « اليمن مهد العرب والعراق لحدهم » ، إشارة إلى أن العرب في العهد الجاهلى وفجر الاسلام ، كانوا يخرجون من اليمن ويهاجرون شمالاً ، حتى يستقر بهم المقام في أراضي السواد بالعراق . وعلى هذا كان العرب الذين انتشروا من شبه الجزيرة ، واختلطوا بعدئذ بسكان بقية العالم العربى والاسلامى في خارج الجزيرة يمثلون شعباً متنوع المميزات والملكات . ولكن ليس معنى هذا التنوع أن العرب خليط من الأجناس ، وإنما معناه الصحيح أنهم سلالة متجانسة ذات تراث منوع من الناحية الجذسية . ولكنها موحدة التكوين

من ناحية الفكر والثقافة . وقد أفاد التنوع من حيث أنه أعد العرب وجعلهم صالحين ، من الناحية الجسمانية ، الانتشار والحياة في نبات متباينة بعيدة عن الجزيرة والوطن الأصلي كما أفادت وحدة الفكر والثقافة في أنها ربطت بين مختلف أجزاء العالم العربي والإسلامي في داخل الجزيرة وخارجها ، بما في ذلك مصر وشمال أفريقية من جهة ، وشرق أفريقية من جهة . وشرق أفريقية وبعض جزر جنوب شرق آسيا من جهة أخرى .

وحين فحص بعض علماء التاريخ المصري القديم جماجم عشرات الألوف من سكان مصر الحاليين ليقارنوا بينها وبين جماجم الشعوب والأجناس المختلفة عرفوا أن سكان مصر خليط من شعوب كثيرة وأن كان أكثرهم في بعض الجسمانيات من سلالة المصريين القدماء . وفي بعض الجهات من نسل العرب الفاتحين والمهاجرين والجمجمة أدق وسيلة لتعيين الجنس والشعب . إذ لكل جمجمة سمة معينة يسهل تمييزها من سواها بمقارنة الأشكال والحجوم وثخانة العظام . وكذلك سوريا والعراق وسائر البلاد العربية . وإن كان العنصر العربي يغلب في مناطق ويقل في أخرى ولعل الشعب الوحيد الذي نستطيع أن نعدّه عربياً على وجه ما ، هو شعب الجزيرة العربية في البادية بعيداً عن المدن . أما عدد سكان الأقطار العربية كلها فهو ٥٥ مليون نسمة في مصر ١٨.٠٠٠.٠٠٠ نسمة ، وسوريا وفلسطين وشرق الأردن ٥.٥٠٠.٠٠٠ والعراق ٤.٠٠٠.٠٠٠ والجزيرة العربية واليمن ٨.٠٠٠.٠٠٠ والسودان ٦.٥٠٠.٠٠٠ وبلاد المغرب ١.١٥٠.٠٠٠

جغرافية بلاد العرب

بلاد العرب شبه جزيرة كبيرة في الجنوب العربي من قارة آسيا تحد شمالاً ببلاد الشام أي سوريا والجزيرة الفراتية وبلاد العراق وغرباً بخط من شرقي العريش على

البحر المتوسط إلى مكان غربي العقبة على خليج العقبة الممتد من البحر الأحمر وخليج العقبة والبحر الأحمر ، وجنوباً بالمحيط الهندي . وشرقاً بخليج عمان وإيران والعراق العربي وموقعها الفلكي بين ٣٠ ، ١٢ ، ٤٥ درجة من العرض الشمالى وبين ٣٢ ، ٣٠ درجة من الطول الشرقى على أساس مبدأ الأطول باريس . وهذه الحدود وضعت سياسياً في عهد الدولة العثمانية على أثر حادثة طابّة التي هدّدت الحكومة الانجليزية في ١٩٠٦ ، الحكومة العثمانية التركية باخلاء المكان في أحد عشر يوماً ، وإلا كان الأسطول البريطاني حر التصرف فيما يقبله ، فثبت أن العقبة داخلية في حدود المصرية منذ يومئذ . وتبلغ مساحة الأراضي العربية ثلاثة ملايين وسبعين ألف كيلو متراً مربعاً . غير أن قيام الدولة الأموية في الشام ، وعاصمتها دمشق ، والدولة العباسية في العراق وعاصمتها بغداد ، جعل العرب منذ يومئذ إلى اليوم يدخلون بلاد الشام وفلسطين وشرق الأردن والعراق ضمن البلاد العربية .

لماذا تسمى جزيرة العرب

من الوجهة الجغرافية الفنية تعد بلاد العرب شبه جزيرة . ويقول ياقوت بن عبد الله الحموي في معجم البلدان نقلاً عن هشام بن محمد بن السائب عن عبد الله بن عباس عم الرسول وجد الملوك العباسيين : إنما أسمى بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أطرافها وأطرافها ، فصاروا منها مثل الجزيرة من جزائر البحر . وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم ، فظهر في ناحية قنسرين « جنوب حلب » ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة « القريبة من مجتمع دجلة والفرات ومصيهما في خليج عمان » ، والأبلة « على شاطئ الدجلة والفرات في زاوية الخليج الداخل إلى البصرة » ، وامتد إلى عبادان « في جزيرة عند مصب دجلة » ، وأخذ البحر في ذلك الموضع مغرباً مطيقاً

ببلاد العرب ، منعطفاً عليها ، فأتى منها على سفوان ، على نحو رحلة من باب المربد
 بالبصرة وكاظمة ، على سيف البحر والمنزلة الثانية لجادة البصرة الى البحرين ، الى
 القطيف ، مدينة البحرين وقصبتها ، وهجر ، مدينة بالبحرين ، وأسياف البحرين
 ، أسياف معناها سواحل والمقصود أنها بلاد ساحل الخليج بين البصرة وعمان ،
 وقطر قرية بخذاء هجر ، وعمان ، كورة عربية على ساحل بحر اليمن الى الهند الى
 البحرين وقصبتها محار ، والشحر ، على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان ،
 ومال منه عنق الى حضرموت ، بلاد شرق عدن ، وناحية أبين ، بخلاف اليمن منه
 عدن ، وانعطف مغرباً منصبا الى دملك ، جزيرة يمنية ومرسى بين اليمن والحبشة
 وهنتى فى عهد الامويين ، واستطال ذلك العنق فظعن فى تهاشم اليمن بلاد فرسان
 ، جزيرة يمنية يحتلها الانجليز سكانها صيادو سمك ، وحكم قبيلة قحطانية ، والأشعرين
 ، قبيلة قحطانية ، وعك ، قبيلة قحطانية ، ومضى الى ساحل جدة ، ساحل مكة
 والجار ، ثغر جنوبى ينبع ، وساحل المدينة وخليج ايله ، ساحل الطور المصرى ،
 وايله آخر حدود الحجاز ، وساحل راية ، كورة مصرية بحرية لا يوجد اسمها الآن ،
 حتى بلغ قلزم مصر وغالط بلادها وقلزم ، مدينة عند منتهى البحر الأحمر الذى
 يدعى أيضاً بحر القلزم ، وتقع الآن فى مكان السويس . وأما الفرما فقرية من بورسعيد
 وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر
 حتى دفع فى بحر مصر والشام . ثم أقبل هذا البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين
 فمر بمسقلان وسواحلها وأتى الى صور ، مدينة على نهر الأردن الذى يصب فى
 طبرية ، وسواحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى
 سواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف فتنسرين
 الجزيرة الى السودان العراق . وثمة أفسام طبيعجة للجزيرة العرب وهى ١ - تهامة
 و ٢ - الحجاز و ٣ - نجد و ٤ - اليمن و ٥ - العروض . أما تهامة فهى الغور على
 ساحل البحر الأحمر ، القلزم ، ممتدة عرضاً الى سلسلة جبال المسراة ، وأسميت تهامة

لشدة حرها وركود ريحها من التهم أى الحر الشديد . وسميت غوراً لانخفاض ارضها وهي لا تثبت غير الغرة والدخن ، وفي شرقها الحجاز وبلاد عسير - واليمن فيقال لكل مقابلة لهذه الاقفار تهامة الحجاز ، وتهامة عسيرة وتهامة اليمن . وأما الحجاز فهو سلسلة جبال السراة من أقصى اليمن في الجنوب إلى الشام وعرض السراة نحو ١٤٢ كيلو مترا ، ومن الجنوب يمتد من أرض المعافر إحدى قبائل فحطان وكانت تسكن شرقي عدن ثم تمتد إلى الشام وتقطعها الوديان . هذا ومن الناحية والجغرافية التاريخية ، أى الدراسة التي تجمع بين أثر من البيئة والانسان في تحليل الحوادث التاريخية ، أو تفهمها بتألف الجمع بين البيئة والانسان في بلاد العرب والعرب قوم رحل ، موطنهم الصحراء ويقيمهم الرمال المنتشرة ، والنخيل المتجمعة في واحات مبعثرة وسط الصحراء ، وقوام حياتهم ذلك السكلا* المتناثر ، ترعاه الابل وبعض الأغنام تنقل القبيلة أو العشيرة وراها من مكان الى مكان . هذه الفكرة الشائعة إنما تقوم على فهم جزئي للبيئة العربية ولو أن العرب كانوا جميعا أولئك القوم الرحل لما قامت لهم تلك الحضارة ولما استطاعوا أن يساهموا في تراث الثقافة البشرية والفكر البشري بما ساهموا به قبل الاسلام وبعده أما مقومات البيئة العامة فتتناول طبيعة السطح والمناخ والنبات الجغرافي ثم من حيث ظروفها الاقليمية التي ميزت اقليسا عن اقليم ، والتي أعطت لكل جزء من الجزيرة العربية طابعه الخاص ، وأعدته لأن يقوم بنصيبه المعين في توسع العرب وانتشار الاسلام

ومن هنا كانت بلاد العرب إحدى أشباه الجزر الكبرى الثلاث . التي تمتد من قارة آسيا نحو الجنوب . وتتكون في مجموعها من صخور بلورية قديمة تقع في القسم الغربي من محاذة البحر الأحمر وصخور جيوية ورملية تقع في السهول والحيضان الطينية على جوانب الوديان التي تنصرف الى البحار أو تنتهي الى داخلية الصحراء . ولكننا نلاحظ أن الرمال المنتشرة والتي تنقلها الرياح لا تنكسو أكثر من نسبة محدودة جدا من سطح الأرض في شبه الجزيرة . تقسدر بأقل من سدس المساحة الكلية . أما بقية السطح فصخرى صلب ، أو طفلي تماسكت فيه الرمال

بالتربة الطينية، ونمت على سطحه الأعشاب أو النباتات المزروعة إذا توفر الماء. وأما عن المناخ. فالفكرة الشائعة أن بلاد العرب كلها ذات مناخ صحراوي حار جاف. ولكن الواقع أن القسم الشمالي منها يقع تحت تأثير مناخ البحر الأبيض المتوسط ذي الأمطار الشتوية. ويتساقط الثلج على جباله العالية في لبنان وحدود العراق الشمالية والشرقية. ويعد بعض تلك الجبال العالية معتدل المناخ. حتى في أشهر الصيف. أما جنوب بلاد العرب فناخهشيه موسمي. وأمطاره صيفية. منتظمة في بلاد اليمن حيث يبلغ المطر في صنعاء حوالي ٤٠ سنتيمترا في العام. وأقل انتظاما في حضرموت وعمان وهكذا يكون المناخ الصحراوي الحار والذي يمتاز بالأمطار الشحيحة الطارئة غير المضمونة إنما يتمثل في الأجزاء الداخلية والوسطى من بلاد العرب. أى في الحجاز ونجد وما إليها من صحراء النفود شمالا والربع الخالي جنوبا وقد كان للفرق بين موسم المطر في شمال شبه الجزيرة وجنوبها أثره الظاهر في الحياة النباتية والزراعية. فمع أن الشمال والجنوب يمتازان بثروتهما النباتية بالنسبة للوسط المكشوف إلا أن الواحات ومواطن السكك. فإن النباتات في الشمال معظمها شتوي كالقمح والشعير. والقليل منها صيفي ومتصور على الواحات أو بحار الماء أما في الجنوب فالنباتات معظمها صيفي ينبت وينمو في موسم المطر كالذرة وبعض حبوب المناطق الحارة شبه الموسمية، ولا تزرع النباتات الشتوية والشمالية إلا على القمم العالية حيث تسمح الحرارة بنمو نباتات المناطق المعتدلة والباردة أو الواحات حيث يتوافر الري من العيون والآبار

أقسام بلاد العرب

١ — عمان منطقة جبلية. يزيد بعض مرتفعاتها على ٢٥٠٠ مترا فوق سطح البحر. أمطارها متوسطة. وثروتها النباتية متوسطة، لاسيما على القمم ومنحدرات الجبال شرقا وغربا. وقد شاركت في الحضارة القديمة للخليج الفارسي، وكان لأهلها تصالهم التجاري والثقافي بالبحر مع إيران والهند من ناحية، وشرق أفريقيا

وزنجبار من ناحية ثانية ، ولانزال الصلة مكيئة بينها وبين هذه الأخيرة ، وكان للعمانيين الفضل في نشر الثقافة العربية الاسلامية في شرق افريقية

٢ — حضرموت والسواحل الجنوبية : وهى منطقة أقل ارتفاعا ، وإن كان سطح الهضبة يصل في بعض الجهات إلى أكثر من ١٥٠٠ متراً . أمطارها أقل في السمية والانتظام ، ولكن بداخلها وادى حضرموت وروافده التى تنصرف إلى مياه الأمطار ، التى تجرى فوق السطح ، ثم تغوص تحت التربة حتى تعود إلى الظهور في جانب من وادى حضرموت الأوسط ، لتغوص من جديد في القسم الأدنى من الوادى . وفي الوادى وبعض روافده ، لاسيما وادى ذوعان ، واحات متلاحقة من النخيل ، كما تزرع الذرة وبعض الحبوب والحاصلات الأخرى . وقد كانت لوادى حضرموت حضارته القديمة في عهد سبأ وحميز ، كما اشتهر قديما بحاصلات التوابل والبخور . أما في العهد الاسلامى فقد قام الحضارمة بنصيب هام في نشر الثقافة العربية الاسلامية إلى جنوب شرق آسيا وجزر الملايا واندونوسيا ، بحيث يصدق فيهم بحق أن يسموا « فينقى البحار الجنوبية » ،

٣ — اليمن : وهى هضبة عالية ، يصل بعض قممها إلى أكثر من ٣٥٠٠ متر مكونة في الأصل من صخور بلورية قديمة تعلوها صخور أخرى بركانية التكوين وهى في ذلك تشبه بلاد الحبشة غابة الشبة . ونظرا لوفرة الأمطار والرطوبة في الصيف على الأقل ، فإن الصخور البركانية تتفتت وتكون تربة خصبة ، تشبه تلك التى توجد في الحبشة ، والى تجلب أمطار النبل وماءه بعضها إلى بلاد مصر . ولهذا النوع من التربة خاصية الاحتفاظ بالرطوبة في فصل إلى آخر . ولذلك فإن بعض النباتات الشتوية ينمو على مرتفعات اليمن ، كما تنمو النباتات الصيفية ، وقد كانت بلاد اليمن موطن الحضارات المعينية والسبائية والحيرية التى ترعرعت هناك في الألف سنة والأوليان أقل نضرة وعمرانا من الثانيةين ، كما أن ساحلها رملى يكاد يخلو من

المرافق الطبيعية ، ويصعب إنشاء الموانئ فيه . أما سوريا ولبنان فأرضهما أكثر ارتفاعاً لاسيما لبنان حيث يصل بعض القمم الى ما فوق ٢٥٠٠ متراً وحيث الأمطار الشتوية والنباتات الشبالية ، هذا إلى أن الساحل اشتهر منذ أيام الفينيقيين بموانئه ومرافقه الطبيعية . ولقد كان هذا الساحل في الحقيقة أحسن مداخل الشرق الأدنى الهامة في اتصاله بعالم البحر المتوسط وماوراءه ،

ب — وأما الجاناب العراق فيمتد من سهل الجزيرة وحدود كردستان في الشمال إلى سهول العراق الوسطى وشط العرب والخليج الفارسي في الجنوب . وهذه كلها مناطق سهلية في جملتها ، تحدها الجبال من الشرق ، ولكنها تتصل اتصالاً وثيقاً ببادية الشام وداخلية الجزيرة في الغرب . والأمطار في هذا الجاناب بحملته أقل منها في الجاناب الشامي من الهلال ، ولكن أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها تنصرف بالماء من هضبة كردستان وإيران إذ تذوب الثلوج في الربيع . وقد نشأت في سهول العراق وعلى جوانب أنهاره حضارات عريقة ، كان لها شأنها في العصور القديمة وفي فترات خاصة من العصر الاسلامي . وقد أسيبت حجازاً لأنها حجزت الغور ، تهامة ، ونجد

وأما نجد فهو ذلك الجبل إلى شرقيه جنوباً من أدنى حدود اليمن إلى السامرة شمالاً ، وشرقاً إلى العروض وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع أرضه . وأما اليمن فهي جنوب نجد إلى ساحل بحر الهند وشرقاً إلى حضرموت والشحر وعمالة وفيه التهامم والنجد . هذا والشحر وحضرموت أصبحا الآن غير تابعين لليمن . وهناك تسع ولايات صغيرة لها سلاطينها تحت الحماية البريطانية الآن . وأما العروض فتشمل بلاد التمامة والبحرين وما والاها ، وسمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

وصف بلاد العرب

بلاد للعرب، أكثرها صحراء فهي جدباء. والخصب منها هو الأقل وأكثر ترويه الأمطار. وألوان الأرض العربية وصخورها مختلفة فيها الحارر جمع حرة أى الآكام السوداء التى كانت فجا احترق، ويبدو أنها كانت براكين ويتخلل الجبال الوديان يجرى فيها ماء السيول والصحارى الرملية. وفى الوديان ومجارى السيول الخصب وينبت الكلاء والمرعى. هذا ويعد وادى الدناء فى بلاد بنى تميم بيسادية البصرة أهم الأودية وهو يمر ببلاد بنى أسد ويسمى منعجاثم فى غطفان فيسمونه الرمة. وهو أول نجد. ويصب فى الرمة أودية أخرى أكبرها وادى الجريب. والعرب تقول على لسان الرمة

كل بنى فأنه يحسبني إلا الجريب فأنه بروبنى

ثم يمر فى بلاد طى فيسمونه حاثلا. وهو وادى جبل طى. ثم يمر فى بلاد كلب فيسمونه قراقو، ثم بلاد تغلب فيسمونه سوى. ثم يعطف على بلاد كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير مخترقا بلدة اسمها «النيل» فى سواد الكوفة وإلى النيل يشير المنهبي قائلا:

ورد إذا ورد الجزيرة شارباً بلـغ الفرات زفيره والنيل
أما بلاد اليمن فهي كثيرة الوديان منها ما يقطع السراة إلى البحر الأحمر ومنها على نقيض هذا الاتجاه. هذا ويعتمد اليمنيون فى سقيا مزارعهم على المطار والآبار

(١) يقول تيودور نيلدكه Naeldeke فى كتابه تاريخ العالم الجزء ٣ ص

٣٠٢ إن لفظ عرب معناه الحقيقي: صحراء، ولفظ بلاد العرب معناه صحرا الجزيرة وسوريا وسينا. ويطلق لفظ عرب أيضا على صحراء بلاد الجزيرة أو على البدو، أما النبطيون فكانوا رحلا فى جنوب فلسطين ثم أنشأوا دولة مستقلة من حدود مملكة بنى اسرائيل إلى دمشق. ثم كانت على شئ من التبعية لروما إلى أن قضى تراجان فى ١٠٦ م على النبطية

عن طريق السواقي وعلى الغيلان أى عيون الماء . والعرب تسمى مواضع استنقاع الماء رياضاً وهو خاص بالأراضي المنخفضة ، فإذا عرضت الرياض أسمى قيعان والروض يفرغ في واد . وقد ذكر ياقوت من الرياض في بلاد العرب ١٣٦ روضة عرفت باسماء أحبابها ، ولهم ماء يسمى الاحساء والحساء جمع حسي ، وهو مكان رملي تحته صلابة ، يفيض المطر فيه إلى أن تمنعه هذه الصلابة . وقد بنى اليمينيون الأقدمون سداً « خزانا للماء » يحجز الماء في أرض صلبة . وقد أطلق الرومانيون على اليمن ، العرب الخضراء والعرب السعيدة لخصوبة الأرض ، هذا وتنتج بلاد اليمن المانجوه والموز والعنب . وفي شمال الحجاز أودية قليلة العيون وفي نجد والعروض وادي الدهناء ، والماء غير ميسور لأنه يفيض في الرمال ، مما كان من أثره أن أصبح العرب رحالة متنقلين تبعاً لموارد الماء . وقد استخدمت آلات رافعات الماء في نجد . ومن مدن اليمن صنعاء وهي عاصمتها على ارتفاع يزيد على ألف متر فوق سطح البحر وحجه ، وتعز ، وذمار ، ومخا ، والحديدة ، وبها مرفأ وجبل العليف ذو الملح . ومن المعادن الحديد والفحم الحجري والميكاشست وهو زجاج طبيعي لا يتأثر بالنار ويسمى زجاج المسكوف . هذا وجو بلاد العرب حار ، وحار رطب عند السواحل وفي الجبال واليمن معتدل . غير أن الشتاء فيها شديد البرد والأمطار في غير رطوبة والرطوبة في الأراضي المنخفضة . والطريق بين المدن العربية يسمى المحاجة أو الجادة وجمعها جواد ، فصلها أبو محمد الحسين بن أحمد الحمداني المتوفى في ٣٢٤ في كتابه « وصف جزيرة العرب » وكذلك عبد الله بن خرداذبة في كتابه « المسالك والممالك » وأشهر هذه المحاج أو الجواد الصحراوية الطويلة جادة بغداد إلى مكة مارة بالمدينة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة إلى مكة ، وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة ، وجادة صنعاء النجدية وطولها ٤٢٠ ميلاً ، وجادة صنعاء التهامية ، وجادة عدن ، ومحجتا حضرموت العليا والسفلى ، ومحجة البصرة إلى البحرين .

ومن حيوان بلاد العرب : الجياد العتاق ، والإبل ، والخير الفارغة ، والجواميس

والبقر، والضأن، والأسد والضبع والفهر والذئب والوعل والثعلب وابن آوى واليربوع — ومن الطيور: النعام والقطا والحجل والصقر والحبارى والحمام واليمان والنسر والبازى والعقاب والهدهد والرخم والطيور المائية فى البحر الاحمر، والجراد ومن المعادن: الحديد. والاحجار الكريمة كالجزع، والعقيق والفحم الحجرى والميكاشيست فى اليمن. وفى الحجاز ونجد والعراق العربى: البترول والذهب، وفى الخليج الفارسى مغاصات اللؤلؤ.

ومن الحاصلات العربية: البن اليمنى والقطن اليمنى، وهو قليل، والصمغ والمر والعود والنارجيل والطيوب والحناء والزنجبيل والطرفاد والبلح والتنباك وفى حضرموت، والحنطة والفول والفلفل والليمون والموز والمانجو والتين والباباى والورد والنرجس والبنفسج والتيلة والقشاة واللبان.

مملكة الحيرة والغساسنة

مملكة الحيرة خصبة الأرض قامت منذ القرن الثالث الميلادى، على بعد ٣ أميال من الكوفة على بحيرة النجف يتألف سكانها من تنوخ، غربى الفرات والعباد ساكنى المدينة والأحلاف. ومنذ هزم الاسكندر دارا ملك الفرس، انقسمت دويلات يتولاها ملوك الطوائف الى ٢٢٦ م، فقد اسس ازدشير بن بابك الاسرة الرابعة أى آل ساسان أو الأكاسرة الى ٢٤١ م فأعاد لفارس وحدتها وسيطرتها على البلاد العربية المتاخمة لها، مقرا باستقلال الحيرة والأنبار، وفيهما نهضت حضارة قوامها التجارة والقراءة والكتابة ونشر العلوم النصرانية منذ عهد الملك دارا ملوكها الذين بلغت عدتهم ٢٥، أشهرهم جزيمة البرص صاحب القصة المشهورة مع الزبارة وفى الجزء الاول ص ١٩٠ و ٢٩١ من مروج الذهب للسعودى. وبعد جزيمة تولى الملك عمر بن عدى الذى اتخذ الحيرة حاضرة له. وفى أوائل القرن الخامس

تولى النعمان بن أمريء القيس الذى أقام قصر الخورنق والسدير ، ص ٧٢ جزء م
من تاريخ الطبرى ، والذى بناه د سنار ، الذى طرحه النعمان من رأس الخورنق فأت
جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يحزى سنار

وكان يعاصر المنذر فى ٥٢٠ م كسرى انوشروان وجستيان امبراطور الروم والحارث من
أبي شمر ملك غسان أو قل عاملها من قبل الروم . وفى ٥٨ م تولى الملك النعمان بن المنذر
راجع مروج الذهب للسعودى ، وكان بين النابغة الذبياني الشاعر وبين النعمان ود
وأقام كسرى اياس بن قبيصة خلفا للنعمان . مشتركاً معه فى الحكم الفارسي التخيـرجان ثم
تولى الملك بعد عصر الاضطرابات آزار بن يابان الهمداني ، ثم المنذر بن النعمان
بن المنذر الذى هزمه خالد بن الوليد فى صدر الاسلام

فى شرق الأردن ، قامت مملكة غسان العربية الحصبية التربة تابعة للدولة الرومانية
وكانت قبيلة أزد غسان المهاجرة من اليمن بعد انهيار سفر مأرب ، قد حلت محل
الضجاعة . وتولى من الأزد الملك جفنة بن عمرو ولبث ملوك غسان إلى أن تولاها
المسلمون بعد واقعة البرموك فى ١٣ هجرية وكان الملك الفسائي ، الحارث بن جبلة
أول افراد بني حفنة معاصراً لجستيان وقامت بين الحارث والمنذر ملك الحيرة
حروب وخلف الحارث ابنه ، المنذر الذى اختلف وابناؤه مع الروم الذين نفوه
الى امسطنطينية فى ٥٨٢ م د ص ٣١ و ٣٢ . نيلدكة ، وقد احتل الفرس بلاد الشام
ثم استردها الروم فى ٦٢٩ م . ومن آيات حضارة الغساسنة المسالخ د القسلاخ ،
الكنائس والبيع والمباني من الحجر الأبيض والمهارة الحربية والشعر الحماسى واقتناء
الجوارى الروميات وكانت قبائل نجد تتبع الحيرة .

مصاحف القبائل العربية

وعدا عمالك الغرب ساقفة الذكر . كانت العرب قبائل . لكل قبيلة رئيسها أو

شيخها ، الذى له من الغنائم : المربع أو ربع الغنيمة . والصفية أى ما يصفيه قبيل
القسمه . والنشيطه أى ما يحصل عليه الرئيس قبل دخوله الحرب . والفضول ، أى
ما فضل من الغنيمة مما لا تقبل القسمه كالبعير والجواد . وفى هذا يقول الشاعر :

لك المربع منها والصفايا وكلمك والنشيطه والفضول

هذا ولقد حاول العلماء المنقبون الوقوف على عصر ما قبل التسارنخ فى بلاد
العرب حين ظفروا ببعض أحجار Lime فى نجد ، راجع بلاد العرب الوسطى
والشرق الجزء الأول الفصل السادس تأليف بالجراف . والصحراء العربية الجزء
الثانى عن شمال بلاد العرب تأليف دوفى . وجنوب بلاد العرب ص ٢٤ تأليف
ج . ت . بنث . هذا وفى جنوب بلاد العرب حصون وأسوار تدل - الى مادوتته
الكتب على الحضارة العربية

قريش فى الجاهلية

عند الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه « تاريخ الاسلام السياسى » ص ٦٣ وما بعدها
نه كان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال ظوال حياتهم أن ظهرت فيهم طبائع
خاصة بهم من حيث عراقة أصلهم وشرف آبائهم وشهامتهم التى كانت لاتزال مضرب
الامثال ولغتهم التى حافظت على نقائها وصفاتها (١) وأنه كان لبلاد العرب دين
واحد وعقيدة مشتركة مركزها مكة (٢) وهى قرية أنشئت حول منتصف القرن
الخامس الميلادى فى واد ضيق طويل يجذب بمقربة من ماء أجاج ، وتبعد عن

(١) Sédillot. Histoire générale des Arabes, vol. I. pp. 41-42

(٢) قال ياقوت فى معجمه (ج ٨ ص ١٣٣) : مكة هى بيت الله الحرام فيقال

مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . وقال آخر هى بكة . وقيل بالميم الحريم كله
وبالباء المسجد خاصة .

جده بنحو ٤٥ ميلا وكان العالقة أول من سكن مكة ، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية وفي عهدهم نزل اسماعيل وأمه بوادي مكة ، وصاهرهم اسماعيل ولما مات ، وتولى البيت بعده ابنه نابت وهو أكبر أولاده ، ثم تولى ولادة من جرهم ، وقد استمرت ولايتهم الى سنة ٢٠٧ م كما ذكر سديو (١)

لبثت ولاية البيت في جرهم حتى كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم : فعثوا في الأرض فسادا واستحلوا أموال الكعبة واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها (٢) ولما قدمت خزاعة من اليمن أجلت جرهم وانتزعت منها السيادة بعد تفرق سبأ على أثر حادثة سيل العرم ، إذ عرج على مكة بنو حارثة ابن عمرو الملقب بخزعة فاستعان بنو حارثة بكنانة (٣) فغلبهم بنو حارثة وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن لحي (٤) واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحو من ثلثمائة سنة أحذثوا فيها كثيرا من الأوهام الفاسدة ولا سيما عبادة هبل (٥)

== وقد تضاربت أقوال المؤرخين في تسمية مكة واشتقاقها : فهي أم القرى كما سماها الله تعالى (أم القرى ومن حولها) ، والبيت الأمين كما في قوله تعالى (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) ، والبيت العتيق كما سماها الله تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) ، والبيت الحرام كما قال الله تعالى (جعل الله البيت الحرام قياما للناس) .

مكة أوبك كلمة بابلية سمتها بها العماليق ، ومعناها (البيت) كما ذكر البتانوني بك في كتابه الرحلة الحجازية ص ٥٩ .

Sébillot' vol. p. 41

(٣)

(٢) كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للازوقي ص ٣٦

(٣) بطن من مر

(٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٣٢ مروج الذهب للسعودي ج ١ ص ١٨٦

(٥) بضم الهاء وفتح الباء : اسم صنم أتى به عمرو بن لحي .

انتقال السيادة الى قريش : وقد استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش (١) وتغلبت عليها في القرن الخامس الميلادي ، وكانت على حال كبيرة من الرقي فاستولى قصي بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م (٢) من يد خزاعة . وأجلاهم عنها بما كان له من العصية ، فرحلت خزاعة ونزلت في بطن مر « وادى فاطمة » . ومن ثم عظم نفوذه واجتمعت له السقاية والحجاية والرفادة واللواء ، ولم تجتمع في رجل قبله

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قصي بن كلاب الجسد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام هم من ولد كنانة الذي يرجع نسبه إلى عدنان وينتهي إلى اسماعيل عليه السلام ، وإلى ذلك يشير الحديث الذي أثار عن الرسول : « اختار الله من اسماعيل كنانة ، واختار قريشا من كنانة ، واختار بني هاشم من قريش واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » وتحدثنا المصادر العربية ، ومن بينها القرآن ، أن ابراهيم كان يزور ولده اسماعيل من حين إلى آخر وأن الله أمره ببناء الكعبة — أي البيت الحرام — وأن ابراهيم كان يبنى واسماعيل يرفع له الحجارة

(١) قريش هم ولد النضر بن كنانة ، على ما يقول البعض . وقد ورد مثل ذلك عن الرسول حين سئل من قريش ؟ فقال : « من ولد النضر » وهم بنو فهر الذي هو قريش ، وإن كل من كان من ولد فهر قرشي ، ذلك النسب الذي يتصل بمعد بن عدنان وقد سمو قريشا حين جمعهم الى الحرم قصي بن كلاب بعد أن نفي خزاعة من الحرم من القرش وهو التجمع كما ورد ذلك في معاجم اللغة ، أو أنهم سمو قريشا لاحترافهم التجارة ، كما قبل أيضا أنها سميت قريشا بداية في البحر ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحر قوة .

(الطبري ج ١ ص ١٨٧ ، المبرد نهاية الارب في معرفة قبائل العرب ص ١٢٩)

العقد الفرید ج ١ ص ٢٠٢

حتى آتاه (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت
السميع العليم) — سورة البقر

سارت الركبان بذكر الكعبة وخصوصا بعد أن أمر الله إبراهيم عليه السلام
بقوله « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »
سورة الحج

وقد بنيت الكعبة في مكة . وهي بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف
وقد أطلق عليها الكعبة لما لشكلها من الشبه بالكعب . وهي رمز لمجد ثلاثمائة وستين
قبيلة من قبائل العرب ، لكل قبيلة صنمها الخاص . وفيها صور إبراهيم والمسيح
والحجر الأسود — ويقال انه سقط من السماء — وتمثال لهبل صنم قريش ، وهو
من العقيق ، ، وكان أكثر احتراما وتقديسا من الأصنام الأخرى وقد قام حول
الكعبة بعد أسر من فهر ، إحدى بطون قبيلة كنانة عرفت باسم قريش — كما تقدم
وأُسست حكومة جمهورية من نوع الحكومات التي كانت منتشرة في بلاد العرب
واتخذوا جزءا من الأرض المجاورة أولوه احترامهم وعدوه مقدساً ، وبنوا به
بيتاً حراما لا يحل فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم
من القبائل . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما أصبحت قبيلة قريش
محترمة في نظر القبائل العربية .

وإلى أهل قريش يرجع الفضل في إقامة الروابط التي كانت تربط جميع من
كانوا يأمنون البيت الحرام كل عام على اختلاف قبائلهم وأصبحت مكة المكان
الذي تغد إليه القبائل من أرجاء بلاد العرب إذ يجتمعون للحج والتجارة في كل عام
وقد جعل هذا الأمر لقريش مكانا ملحوظا وتمتازا في نفوس القبائل وأتاح الفرصة
بعد ظهور الاسلام إلى الكثير من رجالها وكان منهم من يعدون من أكبر رجال
العالم في الحرب والسياسة (١)

(١) Naeldeke. Historians' History of the World. vol. VII. p. 8.

ونهاية الأرب في معرفة قبائل العرب : للقلقشندى (خط يد) ، ورقة ٢٩٩
وصبح الاعشى للقلقشندى ج ٢ ص ٣٢٦ — ٢٨

النظام الحكومى فى قریش

لقد ذكر المؤرخون أن بنى سہم ، ومنہم عمر وبن العاص ، كانوا أصحاب الحكومة فى قریش قبل الاسلام . أما ماہیة نظام الحكومة فلم تصل الینا خصائصہ وتفصیلاتہ ، وحسبنا أن نقول إنه عند العرب وغيرہم من الامم فى العصور الأولى قبل الاسلام قد تقسمت الأسر الکبیرة منها الأعمال الاجتماعیة ، فاعل هذه الحكومات كانت شینا یشبه القضاء . بحيث یحتکم القرشیون وغيرہم من یفدون على مکة من العرب إلى بنى سہم فیما کان یقع بینہم من الخصومات . وكان یلی الحكومة عند قریش أصحاب الرأى والحلم والدهاء فیہا على مثال ما یروی عن أکثم بن صیفی وذی الأصبع العدوانی وغيرہما من حکماء العرب .

ولم تسکن حکومة قریش قبل قصی بن کلاب فى هذه القبیلۃ بل كانت فى ید خزاعة فلما جاء قصی جمع شتات القرشیین ووحسد کلثم ، ثم أصبح الرئیس الدینی للیبث الحرام الذى کان یفد الیہ العرب من كافة أنحاء الجزیرۃ تنظیم مکة — ومن ما أثر قصی لإنشاء دار الندوة بمکة ، وكان له من مظاهر الریاسة أربعة أمور :

- ١ — ریاسة دار الندوة إذ یتشاورون فى مهام أمورهم ویزوجون بناتهم وكان لا یسمح لهم بدخولها إلا من بلغ الأربعین .
- ٢ — اللواء : فكانت لا تعقد رایۃ الحرب إلا بید قصی .

(١) وكانت الحجابۃ فى بنى عبد الدار حتى فتحت مکة فطلبها العباس من النبی ﷺ فأراد أن یعطیه مفتاح الکعبۃ ، فأنزل الله تعالى : « إن الله یأمرکم أن تؤدوا الامانات إلى أهْلِها » ، فرد النبی المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزی (٢) لم تشترک جمیع بطون قریش فى الرفادة قبل قصی ، فلما جاء زمن الحج رأى قصی أن یکون لکل قرشی نصیب فى إطعام الحاج لعلہ أثر قرى الضیف فى نفس مضیفه

طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة . وقد قام بوظيفة الرفادة بعد قصي ابنه عبد مناف (١) ، ثم ابنه هاشم (٢) ، ثم ابنه عبد المطلب ، ثم ابنه أبو طالب ، ثم أخوه العباس ، رجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والاسلام .

وكانت لقريش مصالح أخرى تلى هذه في الأهمية وزعت بين رؤسائهم حتى لا يكون هناك مجال للنزاع . على أنهم ، وإن أمنوا الحروب ، فانهم لم يأمنوا المنافسة بين كبراء البيت الواحد . كما حدث بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس الذي كان ينافس عمه في رئاسة قريش بمالديه من ثروة ، بما ولد الجفا بين البيتين .

وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية حول الحرم . ولم يجزؤ أحدهم على الإخلال بحرمة البيت ، ولما قامت الحرب بين قريش وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراباً ، سمتها العرب حرب الفجار . لما كان فيها من انتهاك حرم الحرم وما كان من النفس . وهو قيام الفجار بالحرب في أحد هذه الأشهر زاعمين أنه قد أنسى أي أجلوه وأرجأوه للشهر التالي . وما ساعد على سيادة قريش واحترامهم عند جميع العرب حلف الفضول ، (٣) فقد أخذت فيه قريش على نفسها أن ترد كل مظلة لأهلها ، لافرق في ذلك بين قرشي وغيره . وكان منهم كثيرون يعدون بحق من أكبر رجال العالم في الحرب والسياسة (٤)

١ — أعقب عبد مناف بن قصي : عبد شمس والمطلب ونوفلا وهاشما .

٢ — سمي هاشما لهشمه الثريد لقومه بمكة وقد أصابهم حقط .

٣ — وإنما سمي حلف الفضول لانهم حلفوا أن يردوا الفضول إلى أهلها أولانته يشبه حلف ثلاثة من جرم كل واحد منهم يقال له الفضل . سيرة بن هشام ص ١٢٥-١٢٧

(١) Naeldeke. Historians' History of the world, vol. VIII. p.8.

وما زال فضل قريش يزداد بين القبائل حتى كان عبد المطلب الذى اشتهر بحجر
بئر زمزم (١) سنة ٥٤٠ م وفى عهده خذل الله أبرهة الأشرم وصدته عن مكة
والبيت الحرام ، ونجت مكة فى أيامه من خطر الأحباش فذاعت شهرته وقصدته
القبائل من أطراف الجزيرة . ذلك أن أبرهة قد كتب إلى قيصر الروم فى ذلك الوقت
أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء ، وسأله المعونة ، فأرسل اليه التصناع وأمدّه بالقسييفساء
والرخام . فلما تم بناؤها ، كتب أبرهة الى النجاشي أنه يريد أن يصرف اليها حجاج
العرب ويحول تجارة قريش إلى صنعاء .

فأثار ذلك حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بن كنانة حتى قدم اليمن
ودخل الكنيسة وعبث بآثارها وانتكح حرمتها ، فغضب أبرهة وأقسم إيهب من
الكعبة ، وجرّد جيشاً عظيماً من الأحباش سيراً أمامه الفيلة ، ويمشط الكعبة وعسكر
بقرب مكة (٢) فى مكان يقال له المغمس (٣) إذ دارت المناوشات بين الأحباش
والعرب ، ويقول الطبرى (٤) أن أبرهة لما نزل المغمس بعث رجلاً من الحبشة
يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى الى مكة ، فساق إليه أموال أهلها
من قريش وغيرهم وأصاب مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش
وسيدها فهمت قريش وكنانة وهزبل ومن كان بالحرم من سائر الناس ، بقتاله ورأوا
أن لا طاقة لهم به . وبعث أبرهة حناطة المحيرى إلى مكة ، وقال له سل عن سيد هذا
البلد ، ثم قل له إن الملك يقول لكم إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم

(١) يقال أن اسماعيل لما عطش ضرب بقدمه الأرض فنبع الماء وظهرت بئر زمزم

(٢) ذكر سديو (Histoire générale des Arabes, vol. I. p. 14)

أن عدد هذا الجيش كان أربعين ألفاً على حين ذكر غيره أنه بلغ ستين ألفاً

(٣) المغمس بتشديد الميم وفتحها موضع على ثلثي فرسخ من مكة فى طريق
الطائف ؛ رجم فيه الحجاج قبر أبى رغال الذى كان دليل أبرهة .

(٤) ج ٢ ص ١١١

تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ، فان لم يرد حربي فأتني به . فلما دخل حنابلة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ف قيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم . فقال له حنابلة انطلق إلى الملك فانه قد أمرني أن آتيه بك . فاطلقت معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر ، فلما تقابل مع أبرهة قال لترجمانه : حاجتي إلى الملك أن يرد علي ما تبيع أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتي ، أتكلمني في مائة بعير قد أصبتها لك وتترك بيتنا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا لتكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الابل وإن للبيت ربا سيمنعه ، ثم عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت فأبى ، فخرج عبد المطلب حائفا وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش وقال :

يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا لمنعمهم أن يخربوا قراكا (١)

اعتزم دخول مكة وهدم الكعبة وهياً فيله . وكان اسم الفيل محمود . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل : ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود أو ارجع راشدا من حيث جئت فأنك في بيت الحرام ، ثم أرسل أذنه فيرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد (٢) في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهول ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة ففرك . فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف (٣) ، مع كل طائر منهم ثلاثة

١ — سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ — ٥٣ الطبري ج ٢ ص ١١٣

٢ — توغل ٣ — هكذا قالوا عن هلاك جيش الحبشة . ويبدو أن المراد أن

ميكرو أرمز قد تفشى في الجيش فهلك

أحجار يحملها : حجر في متقاره وحجران في رجليه أمثال الحص والعنوس ، لا تصيب منهم أحدا إلا وهلك (١) وقد ورد ذكره في القرآن في سورة الفيل .

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول (٢) هذا ويقول الأستاذ براون (٣) عن غزو الأحباش للكعبة :

«The year of the elephant marked an epoch in the development of their national life.

هذا ويعد عام الفيل فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب القومية : كانت هذه الحادثة التاريخية فاتحة خسير على العرب عامة وقريش خاصة ، حتى أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم ، فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها ونشرت دين توحيد جديد هو دين الحنيفية ، إذ لو أتيح لهذا الجيش النصر والظفر لتغير وجه التاريخ ولا ينتشر الدين المسيحي في بلاد العرب ولا تصرف الناس عن مكة إلى صنعاء . ولما ذاع نبأ أصحاب الفيل بين العرب زاد احترامهم للحرم وقالوا : «أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم»

تجارة قريش

لئن حالت تربة الحجاز ومواطن قريش دون اشتغالهم بالزراعة ، فقد أيقظت في نفوسهم روح التجارة . وقد ساعدتهم على ذلك مركز مكة الجغرافي وأصبحت مكة منذ القرن السادس الميلادي واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة فكانت قوافل قريش معروفة ومخزومة عند العرب فكانوا يسرون آمنين مطمئنين ، فجابت

١ - سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٢ - ٦١

٢ - سورة الفيل ١٠٥ . الطبري ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤ ، وأخبار مكة

للأزرقي ص ٨٦ - ١٠٢ . بتصرف وأخبار الأول لابن اسحاق ص ١٩ - ٢١

Rayed Ameer Ali. p. 41

(٣) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1. pp. 179-181

قوافلهم هذه البلاد طولا وعرضا كما فعل أهل اليمن من قبل ، فوصلوا إلى غزة وبیت المقدس ودمشق ، وعبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة ، وكانت ميناء جدة ، وتبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا ، واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة ، فكانت تحمل كنوزها إلى القطيف في إقليم البحرين ، إذ تنقل في القوارب مع اللؤلؤ الذي كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسي إلى مصب الفرات .

وتقع مكة في نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوبا والشام شمالا . وبها عين زمزم التي كانت تردّها القوافل لتأخذ منها ما تحتاج اليه من الماء . وكانت إبل قريش تحمل من أسواق صنعاء ومن موانئ عمان واليمن الطيب والبخور الكثير الاستعمال في المعابد والكنائس والقصور إلى البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط وكذا المنسوجات الحريرية والجلد والأسلحة . كما كان يشتري من أسواق بصرى ودمشق القمح والمصنوعات وزيت الزيتون والحبوب والخشب . وكانت تأتي التوابل من بلاد الحبشة ، بينما كانت تجيء من مصر المنسوجات التي كانت تسمى بالقباطي وكانت ترد إلى موانئ بلاد اليمن من الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق المنسوجات الحريرية والمعادن النفيسة

وكان من أثر انجرار قريش فوائد معنوية وأدبية ومخاطبتهم لأقوام مختلفين كالفرس والروس والروم من ذوى الحضارات القديمة والآداب التالدة ومعرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية ، وتثقيف عقولهم . ومن هنا حسنت إدارتهم لشئون الكعبة وسهلوا على الناس القدوم إليها وشجعوهم على الحج إلى بلدهم . كانوا يرحلون رحلتين في العام : رحلة الشتاء إلى اليمن . ورحلة الصيف إلى الشام . وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ، فكان يتوجهون إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الأخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء (١)

١ — صبح الأعشى ج ١ صفحة ٣٥٨ ، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٨٢ ، وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، طبعة بغداد سنة ١٢٨٠ هـ ، ص ٦٩

لا يلا ف قریش ایلا فہم رحلة الشتاء والصیف فلیعبدوا رب هذا البيت الذی أحلهم من جوع وآمنهم من خوف، — قرآن کریم
ولوعورة بلاد العرب احتکروا تجارة البلاد السعيدة ، اليمن ، والشام وغيرهما واستقلوا بتبادل سلعها . وكان من أثر احتکارهم لتلك التجارة وانتشارها في مكة أن أنرى أهلها ثراء کبیرا . ولم یکن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للغروسة بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا یمارسونها منذ نعومة أظفارهم (١)
وكان منهم الأثرياء کأبي سفيان والولید بن المغيرة وعبدالله بن جدعان الذی استطاع أن یجند فی حرب الفجار مائة رجل ، وكان القرشيون بمثابة الوسطاء بين أقليم البحر الأبيض المتوسط فی الشمال — حيث الشام وفلسطين وسواحل آسيا الصغرى ومصر الشمالية — وبين ذلك الاقليم الموسمی الذی تکثر به الخبیرات المعروفة من توابل وحاصلات أخرى هامة . وما أدى الى هذا ما بدامن عناية القرشيين بالوقوف على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة (٢)

القراءة والكتابة والعلوم والشعر

أما التعليم فی هذا العصر فلم یکن منتشرأ فی بلاد العرب ، لأن العرب لم یکن لهم بالعلوم عهد . إنما كان الرجل إذا أحس من أهلها بالحاجة الى ذلك تعلمها وكان النبي صلى الله علیه وسلم أول من عنى عناية خاصة بتعليم العرب الكتابة والقراءة ، بأن عهد الى أسرى بدر الذین یعرفون الكتابة والقراءة والعاجزين عن دفع الجزية بأن یعلم کل منهم عشرة من أبناء المسلمين مبادئ الكتابة والقراءة .

(١) Gibbn. Vol. IX, p. 94

(٢) Wellhausen. Reste Arabischen Heidenthums, Vol. II. p. 39 seq.

أنظر کتاب عمرو بن العاص للدكتور حسن ابراهيم ص ٢٣ — ٢٤

ثم إنه كان لاجتماع الشعراء في مكة وفي سوق عكاظ أثر في حياة العرب الأدبية ومن هؤلاء الشعراء من كان يحب طريق المناذرة ويتصل بالروم عن طريق الغساسنة وبالفرس والروم معا عن طريق التجارة . كما تلقوا بعض المبادئ الدينية عن اليهود وعن نساطرة الحيرة . وقد ظهر أثر تلك الأفكار في شعر الشعراء كقوس بن ساعدة وأمية ابن أبي الصلت . وفي خطب الخطباء وأقوال الحكماء من العرب مثل أكرم بن صيفي وورقة بن نوفل . أما العلوم التي حذقها العرب بحكم البيئة التي نشأوا عليها وطبيعة البلاد التي درجوا على أرضها فهي : علم الأنواء ، أي تعرف أوقات نزولها الغيث ، وعلم الأثر فقد كانت لهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام ، وقد ساعدتهم على ذلك تلك الصحراء المغطاة بالرمال التي تنطبع فيها آثار الأقدام . ثم علم الأنساب ، فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متناحرة متدبرة . ومن ثم دفعتهم الحاجة الملحة إلى أن يحفظوا أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم أو شن الغارة على أعدائهم أو المنافسة على مركز الرياسة فيهم ، كذلك كانت تعقد المعاهدات وتمضى المحالفات في تلك المجتمعات . ومن ثم ظهر الشعراء وكانت لهم جلسات ممتعة يتبارون فيها في الشعر ، وأصبح تبادل الأفكار والمنافع هو الغرض الأصلي من تلك المجتمعات (١)

ولئن كان الشعر العربي مقفى إلا أن القافية ليست خاصة بالشعر ، فقد تقفى العبارات التي لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث ذات الخطر والتي ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة ، وذلك مثل نبوءات بعض المتنبيين وحكم الحكماء . يقول نلدكه : « ولما كان هذا النوع من الشعر يرجع إلى عصر غير معلوم وأنه قد ظهر وانتشر بادية ذي بدء بين الأغريق والروم في القرن الرابع الميلادي

(١) Naeldeke. Historians, History of the World Vol. VIII. pp. 8-9
Wellhausen. Reste Arabischen Heidenthums. Vol. II. p. 89 seq.

فليس بعيداً أن يكون ثمة ارتباط من وجه ما بين ذلك الشكل من الشعر وبين الشعر العربي ، وخصوصاً في استعمال تلك الطريقة الفنية التي لا يبعد أن تكون قد وصلت الى العرب في ذلك الوقت . على أنه يغلب على الظن أن يكون الشعر العربي قد ابتدأ بالنثر المقفى ثم تطور حتى انتهى إلى ما نراه عليه اليوم من البحور والأوزان ، ومع ذلك فإن هذه المسألة لاتزال محلاً لاختلالات كثيرة ، ولم تقم للآن أدلة قاطعة نستطيع الأخذ بها . على أن أخذ الشعر العربي أوزانه عن الشعر اللاتيني أو اليوناني لا يحيط من قدره ، كما لا ينقص من طرافته تلك الدقة في مراعاة هذه القافية واستيلائها على النفس ؛ حتى ان العربي الذي لم يمرن على الأدب والذي لم يكن له من الثقافة حظ كبير أو قليل ، ليحفظ تلك القصائد والمقطوعات الشعرية وينقلها مع الرعاية التامة والمحافظة الشديدة لتلك الأوزان النظمية . على الرغم من أنها تختلف كثيراً في وزنها وقافيتها عن المقاييس النظمية للشعر اللاتيني واليوناني هذا وينتاول الشعر العربي الحياة العادية والشئون الحوية للبدوى »

وقد مهد الطريق للدين الاسلامي بعض مشاهير الشعراء الذين ثقفت عقولهم الأسفار الطويلة والمشاهدات الجمة ، والذين اختلطوا بالمسيحيين وترددوا على بعض أقبال (١) العرب . وكان العربي يحرص الحرص كله على الامتناع عن القتال في بعض أشهر السنة ، وهي الأشهر الحرم كما قدمنا . وكانوا يتهادنون وتضع الحرب أوزارها بين جميع القبائل في تلك الأشهر . أو يجتمعون لبعض النسك (٢) والشعائر الدينية وتكريم الآلهة والزلفى اليها

١ — القيل : هو الملك الصغير أى الخاضع لغيره من الملوك المستقلين

٢ — العبادة

اللغات السامية واللغة العربية

قلنا إن العرب هم الذين يتكلمون اللغة العربية (١) في بلاد عربية أصولهم عربية وأن الضاد رمز اللغة العربية واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، وسميت باللغات السامية تمييزاً لها عن اللغات الحامية واللغات الآرية. ولئن كان يبدو أن هذه اللغات السامية من أصل واحد - فإن كثيراً من الكلمات مشترك بينها، مع اختلاف قليل أحياناً، كالذي بين العبرية والعربية فبعض الكلمات بالشين في اللغة العربية وهي بالسين في اللغة العبرية، والألف في العربية واو في العبرية، فسلام في العربية شلوم في العبرية، وكذلك الثاء في العربية شين في العبرية كشور وشور، وما كان في العربي بالضاد في العبري بالصاد كأرض وأرض وهكذا. وقد كان لتقارب الأجناس أثر في اقتباس لغة من أخرى، فقد تأثر اليمنيون باللغة الحبشية لقربهم منها وكثرة اتصالهم بها كما تأثر الحجازيون بالعبرية. وللغات السامية مييزات تتميز بها عن غير هامن اللغات من ذلك اقتصارها في الكتابة على الحروف دون حركاتها، فلا يرسمون حروفاً دالة على الفتحة أو الكسرة أو الضمة كما هو الشأن في اللغات الآرية ومن ذلك، أيضاً، زيادة عدد حروفها عن اللغات الآرية وكذلك كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة كما أن هناك شها بين اللغات السامية في الأساليب وتراكيب الجمل والمفردات الدالة

(١) الضاد حرف مستطيل مخزجه من طرف اللسان إلى مايلي الأضراس وخروجه من الجانب الأيسر أكثر من الجانب الأيمن. ومن العامة من ينطقها ظاء باخراجها من طرف اللسان وبين الثنايا وهي لغة حكاها الفراء عن المفضل فقال إن من العرب من يبدل الضاد ظاء فيقول عظت - بتشديد الظاء - بني تميم، وفي الضابط الظابط ومن العرب من يعكس فيبدل الظاء ضادا فيقول في الظهر ضر. وهذا وإن نقل في اللغة وجاز استعماله في الكلام فلا يجوز العمل به في كتاب الله تعالى لأن القراءة سنة متبعة وهذا غير منقول فيها

على أعضاء الجسم والضاير. أما اللسان العربي فهو نوعان : لغة عربية جنوبية في اليمن ولغة عربية شمالية في الحجاز . فلغة الجنوب تشمل لغة سبأ ولغة حمير وقد يتساهلون في التعبير فيسمونها اللغة الحميرية وهي لغة أقدم من لغة الشمال وقد عثر في اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغا في التنوين وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة الحجاز وكذلك في حروف الكلمات فهمزة أفعال في بعض الكلمات الحميرية هاء . وقد وصل العلماء المحدثون إلى معرفة اللغة الحميرية والسبئية بما عثروا عليه من كتابات وأمكنهم أن يستنتجوا من ذلك قواعد للغتين . أما لغة الشمال أو لغة الحجاز فهي لغة العدنانيين وهي أحدث من لغة الجنوب وما روى إلينا من شعر جاهلي فهو بهذه اللغة العدنانية لأن الشعراء الذين قالوا هذا الشعر إما من ربيعة أو مضر وهما فرعان عدنانيان أو من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطى* وكندة وتنوخ .

وتعد اللغة العربية العدنانية — كما يقول علماء اللغات السامية — أقرب اللغات إلى الأصل الذي تفرعت منه اللغات السامية ، لأن هؤلاء العرب لم يمتزجوا كثيرا بغيرهم من الأمم ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم كما كان الشأن في كثير من الأمم السامية الأخرى كالعبرانيين والبابليين والآشوريين وحفظتهم الصحراء من غزو الأعداء وحكم الأمم الأجنبية كما حفظت لغتهم من أن تتأثر كثيرا بغيرهم .

كذلك تعد اللغة العربية أرق اللغات السامية لكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها وغنى معجمها فقد وضعوا لكل ما وقع عليه حسهم كلمة بل كلمات وفطنوا لكل تغير طرأ فوضعوا له اسما يدل عليه . وقد رقاها القرآن الكريم بما أدخل فيها من معان وألفاظ ثم بسطت نفوذها على كل البلاد التي فتحها المسلمون في آسيا وإفريقية وأوروبا فأثرت في هذه البلاد وتأثرت بها .

(١) راجع ص ١١٥ وما بعدها وص ١ وما بعدها من كتاب تاريخ الأدب العربي تأليف السكندري وأمين وزملائهما .

ومن أشهر القصائد العربية في العصر الجاهلي : المعلقات ، وهي اسم أطلق على قصائد طوال من الشعر الجاهلي . وسبب تسميتها بهذا الاسم ما رواه بعضهم من أن العرب عمدت إلى سبيع . قصائد اختارتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القبايط المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة . فنه يقال مذهبة أمرئ القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبيع وقد يقال لها المعلقات ، ومن أيد هذا الرأي ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وابن رشيق صاحب العمدة وابن خلدون في مقدمته وكلهم من المغاربة .

ومن العلماء من أنكر تعليقها على الكعبة وعنده أن هذه القصائد الطوال إنما جمعت في العصر العباسي ، جمعها حماد الرواية (أحد علماء الأدب ورواته والمتوفى سنة ١٥٦ هـ) ذلك أنه لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه القصائد وقال لهم إنها هي المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة . ولم يصح عند هؤلاء العلماء قول من قال إنها علقت على الكعبة .

ومن ذهب إلى هذا الرأي أبو جعفر النحاس أحد علماء اللغة والأدب المتوفى سنة ٣٣٨ هـ . وكذلك الباحثون المحدثون ينقسمون إلى مذهبين ولكل على قوله أدلة لا محل لذكرها هنا .

كذلك يختلفون في عدد المعلقات أو الطوال وعدد أصحابها ، فبعضهم يجعلها ثمانياً وبعضهم يجعلها عشراً . والقول المشهور أنها سبيع وأن أصحابها هم امرؤ القيس وزهير وطرufe وليبد وعترة وعمر وبن كلثوم والحارث بن حلزة .

وعلى الجملة فهي من خير شعر العرب وأدله على لغتهم وبلاغتهم ووصف حياتهم الاجتماعية ومناحيهم في الحياة . وقد عني العلماء بجمعها وشرحها شروحا مختلفة مختصرة ومطولة كما عني كثير من المستشرقين بترجمة بعضها إلى لغات مختلفة ودراستها والتعليق عليها .

أثر الحضارات السابقة المجاورة في الادب العربي

هذا وبعد أن دانت العرب بالإسلام انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها ، تدعو إلى الله مسلمة من سالمها ومحاربة من حاربها في نشر دعوتها ففتح الله عليها رحيب الأرض وأورثها ملك كسرى وقيصر واتسعت فتوحها في أقل من قرن من الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي وجبال البرانس من أسبانيا غرباً وعاملت أهل هذه البلاد بما اقتضته شريعة الإسلام من العدل والرحمة فدخل كثير منهم في الإسلام وتمازجوا هم والعرب معاملة ومزاوجة وتخلقا واعتياداً ، إذ كان الإسلام لا يفرق بين أحد من شعوب الأرض فجميع الأمم المسلمة فيه سواء ، وكل من دخل في طاعته ممن لم يسلم أصبح ذمة للمسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم . روعى ذلك أشد مراعاة زمن الخلفاء الراشدين . غير أن دولة بني أمية التي خلقتهم تمسكت بالشعائر العربية وتعصبت للعرب وآثرتهم بالولاية وقيادة الجند وقصرت أكثر مناصب الدولة عليهم مما جعل الأمم المغلوبة تنفّر من العرب وتؤلف من شعوبها فرق الشعوبية التي كانت تعمل على التخفيض من غلوة العرب وتكيد السكيد لدولتهم . فلما قامت الدولة العباسية بنشر الدعوة إليها مراعاة للأمية كان أهم ما أعلنته من خطتها التسوية بين الشعوب المسلمة والخاضعة لحكم الإسلام وخاصة الفرس فبدأت دعوتها في أقصى ديارهم بخراسان فتقبلوا دعوتها بقبول حسن وانضموا إلى لواء دعائهم هم والعرب اليمانية النازلون بخراسان والناقون على دولة بني أمية تعصبهم للعرب المضرة دونهم مع أن دولة بني أمية قامت بسيف اليمانية . فاكتمحت العباسية بهم وبالفرس الدولة الأمية ومنحتهم ما وعدتهم به بل غلت في حبها لافرس القديمة وآثرتهم بكثير من المزايا ، فكان لها منهم قواد جيوش وولاة وحجاب ووزراء وكتاب . ونقلت حاضرتها إلى جانب المدائن عاصمة الفرس القديمة اعتزازاً بالفرس وثقة بهم . ونقلت نظامهم الكسروي في تنسيق دواوين الدولة وأساليب الحرب

وحاكنهم في الآبنة والمساكن والملابس حتى الاحتفال بالأعياد الوطنية الفارسية فاصطبغت الدولة العباسية في جملتها بصيغة فارسية . على انه لما كانت حضارة الفرس غير مؤسسة على ثقافته العلمية في الرياضة والطب والهندسة وعلوم الطبيعة والمنطق والحكمة ونحو ذلك مما اقتضته الحضارة اليونانية بل إن الفرس أنفسهم ، عند ما أرادوا التوسع في العلوم اقتبسوا بعضها من اليونان وترجموه الى الفارسية في عصر كسرى أنوشروان — رأى أبو جعفر المنصور محاسنهم في ذلك فأخذ يقتبس أيضا لثقافة دولته من الحضارة اليونانية وتابعه أحفاده في ذلك . وكان بفارس والعراق والجزيرة وشمال الشام بقايا شعوب سامية وآرية أخذوا بحضارة اليونان ثم دان بعضهم بالنصرانية ولبشوا على معرفة باللغة اليونانية فنقلوا للخلفاء علوم اليونان وتعلمها منهم علماء العرب وهذبوها ونبغوا فيها وامتزجت مسائلها بعقائد المسلمين في المباحث الإلهية واستعملت طرق برهاناتها وجدلها في اثبات أصول الفقه ، فأصبحت الحضارة الإسلامية في الدولة العباسية في شكل فارسي في سياستها وإدارتها ومعيشتها وبشكل يوناني في ثقافتها العلمية السكونية وبشكل إسلامي في اعتقادها وعبادتها .

ثم أخذ نفوذ العرب السياسي في الدولة يتخبط جيلا بعد جيل ، فلم يكن لهم بعد قرن في المشرق وخراسان شأن سياسي يذكر ، وزادهم ضعفا قطع المعتصم أرزاقهم من جميع دواوين الجند وإحلال مواليسه من الترك محلهم ، فاندجوا في غمار العامة وتكسبوا بالزراعة والحرف وضعفت فيهم النعمة العربية فامتزجوا بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمجاورة . وتألفت من مسلمي هذه الشعوب أمة مسلمة ذات حضارة ممتزجة من حضارات شتى ، فيها محاسن هذه الحضارات ولكن الحرية التي منحتها الفرس والشعوب المستعجمة استغلها كثير منهم في الشر فمشا فيهم كثير من أمراض هذه الأمم الاجتماعية والخلقية التي كانوا يخفونها ، فجاهروا بها ، وجاهروا بكثير من عقائد الزندقة والاحاد ، مما أيقظ الخلفاء لخطر العاقبة ، فتبعوا الزنادقة والملحدون والفساق قتلا وجسدا ، وتجردت طائفة لمقامتها

بالوعظ والقصاص عن الانبياء والصالحين والترغيب في صالح الأعمال والتزهيد في الدنيا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشدد الحنابلة (وهم جل العامة في بغداد) في الإنكار عليهم ، وكان لهذه الطائفة المقاومة للبهتكن والفساق ، وعاظ وقصاص وخطباء ، وشعراء منهم أبو العتاهية فأجدى عملهم بعض الجدوى ، غير أن عدواها كانت قد سرت في بغداد بين الكتاب والشعراء من طغامة الموالي من الفرس وأهل السواد ، ومنهم سرت إلى أمثالهم من بعض السلاسل العربية ، فأثر ذلك في اللغة والآدب تأثيرا يينا .

كذلك كان تأثر الآدب العربي في الدولة الأموية بحضارات الأمم المغلوبة للعرب قليلا محدودا ، وكان الآدب محصورا في الشعر والخطابة وبعض الرسائل ، وكان كل خول الشعراء والخطباء قد تشنتوا : إما في بلاد العرب ، وإما في البصرة والكوفة ، وهما معسكران عظيمان بذتهما العرب وأسكنتهما مقاتلتها من الفاتحين وأبنائهم . ولم يكن قد تم استعرا ب العجم ولا انتشرت ثقافتها بينهم . ولم يكن كذلك شأن الآدب في العصر الاول من الدولة العباسية ، فان من هم بالاستعرا ب من أبناء الفرس في العراق وفارس وخراسان ، ومن غيرهم في الجزيرة الفراتية والشام وهر وأخذ نفسه بالثقافة الاسلامية وتعلم العربية ، لم ينضج استعداده لأن يمتزج بالعرب ويمتزجوا به إلا في أواخر الدولة الأمرية ، فلم يظهر لاستعرا ب ثمرة إلا في صدر الدولة العباسية ، فكان لكل من الحضارتين الفارسية واليونانية المتمثلة في بقايا السريان والنبط والروم ، أثر في آدب اللغة منذ ذلك الحين .

ثم إن الدولة العباسية خولت الحرية للشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم وتفيل الفرس مزايا حرما العرب أنفسهم ، كان هؤلاء المثقفون منهم بالثقافة الاسلامية العربية أول من استجاب للدعوة العباسية واقتدى بهم كل من طمع إلى شرف الرياسة أوسعة الجاه في هذه الدولة ، فأسلم الكثير منهم مخلصا للإسلام أو منافقا ، ومضوا يتعلمون العربية وأدبها ، ويفقهون في الدين حتى كان منهم ومن قبلهم

من مخلصيهم أئمة للإسلام في التفسير والحديث والفقه والعربية ، وأخذ عنهم المسلمون عربا وغير عرب أصول دينهم وأدب لغتهم ، وكان منهم كبار الكتاب الأوائل الراضعين لأساس صناعة الأنشاء (الكتابة الفنية) في الدواوين وكان منهم شعراء أحدثوا أحداثا جديدة في أغراض الشعر ومعانيه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والأمراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وسير ملوكهم وأبطالهم وقصصهم وأسماءهم وخرافاتهم المحكية على أسنة الطيور والبهاائم والجن والشياطين ، وكاد منافقوهم للإسلام والمسلمين كيدا عظيما ، فدرسوا على أهل الغفلة كثيرا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله وعلى أصحابه ، وصنعوا على أسنة الأعراب شواهد من الشعر وقصائد طنانة نخلوها فحول الشعراء ، ونقلوا إلى العربية في السر كثيرا من كتب زنادقة الفرس وملاحدتهم ، فأفسدوا عقول كثير من للناس .

أما الشعوب الداخلة في طاعة الفرس والروم من بقايا الأمم السامية واليونانية فقد ورثوا عن قدامتهم حضارات مختلفة ، وأخصها الحضارة اليونانية من الحكمة والرياضة وعلوم الطبيعة والمنطق والفلك والجغرافية والموسيقى ، وكانت هذه العلوم قد امتزجت بمباحث النصرانية واليهودية ودرست في كنائسها ويجمعها باللسان اليوناني القديم ، فنقل خلفاء العباسيين كتب هذه العلوم على أيدي العارفين باليونانية ، وبعثوا بالبعوث العلمية إلى مدن الروم والقسطنطينية لتعلم اليونانية وترجمة كتبها ، فنقلوا معظمها إلى العربية وتعلمها المسلمون وحذقوها وصححوها ، فكان لها تأثير كبير نافع في المباحث الدينية من علم الكلام وأصول الدين وصناعة الجدل والمناظرة ، وادخال قضايا العلوم ومذاهب الفلاسفة في الشعر العربي ، وتأثير سعى في عقول المستضعفين فأضاف إلى فرق الملاحدة فرقا أخرى ، وظهر أثر ذلك في الشعر والأدب . وأحدثت في كتب العلم لغة تأليفية تقاس بمقيار المنطق لا بالبلاغة العربية .

وليس بعسير أن نتعرف كيف تأثر الأدب العربي الجاهلي والإسلامي بالأدبين

الفارسي واليوناني في الدولة العباسية بمقايسته بما تأثر به الأدب العربي الذي كان معروفا قبل العصر الحاضر بالأدب الغربي الحديث الذي اقتضى ذبوعه بيننا أخذنا بالثقافة الغربية في جميع مظاهر حياتنا السياسية والاجتماعية والفردية، وكثرة قراءتنا وترجمتنا للاداب الغربية حتى أصبح الأدب الغربي متغلغلا في كتابتنا الصحفية والقصصية وفي لغة التمثيل والخطب والتعليم والمرافعة والنقاضي، كما امتد أثره إلى الشعر العربي الذي بقي محافظا على أكثر فنونه وأغراضه ومعانيه وأسلوبه أكثر من ثلاثة عشر قرنا، هذا وإن أكثر فنونه التي كان ينظم فيها قد هجر أو كاد فمثلا هجر النسيب بذكر الديار والأطلال والغزل بالمذكر ووصف النوق والظعائن وسرى الليل والتحدث عن غيرة أهل المحبوبة كما هجر الهجاء المقذع والاستجداء، واستعيض من ذلك الشعر القصصي والحوار التمثيلي، والشعر السياسي بألوانه التي لم تكن مألوقة في الشعر السياسي القديم: كالتذمر للوطن والوطنية. والحكومة الدستورية وحرية التفكير. وكالوصف للآلات والمخترعات التي نجمت عن تسخير البخار والكهرباء والاحتدام (الاحتراق الداخلي) كوصف القطار والباخرة والسيارة والطيارة والمنطاد والخيالة والبرق والمذياع. وكذلك شعاع الوصف لمشاهد الطبيعة وأحوال النفس في قبضتها وبسطها، وحبها وبغضها، ووصف الصور المعنوية وتخيل أنها صور حسية وحقائق مشاهدة، وكثيرا ما تنظم فيها المقطعات بل القصائد والموشحات بل الدواوين بعنوانات غريبة كالدمعة المتحيرة، وخفقة القلب، ووحى الضمير، والسقوط في الهوة، والنظرة البريئة وسداجة الطفولة وبطش والقوة اخفاء العلم، وكالتأمل، والطموح، والثروة، ونحو ذلك من الأغراض التي يتوخاها الشعر الافرنجي. وطبعي ان تستلزم هذه الفنون والأغراض الحديثة معاني جزئية تخرج عن حد المحصر مستمدة من ثقافتنا العصرية ومن البيئة التي فيها وكنائهما مصبوغة في جملتها بالصبغة الغربية، كما تستتبع التعبير عنها بلغة هجر فيها كثير من الألفاظ والأساليب القديمة واستحدثت فيها ألفاظ وأساليب مترجمة عن مثلها الأجنبي، وأظهر ما نرى ذلك في شعر جوالى العرب فيساوراء البحار كما ميريكاً بعامة البرازيل والأرجنتين بخاصة

الاديان عند عرب الجاهلية

كان دهما العرب يدينون بالدين الوثني . ويقال إن الذي نقل الوثنية الى العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي . وفي ذلك يقول الشهرستاني : « وأول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي لما ساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت ، ثم سار الى مدينة البلقاء بالشام ، فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه . أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية ، نستنصر بها فننصر ونفسق بها فنفسق . فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما من أصنامهم ، فدفعوا اليه هبل ، فسار به الى مكة ووضعه في الكعبة ، — « اديان العرب في الجاهلية لنعمان الجارم ، ولم يكن هبل وحده هو معبود العرب ، فقد انتشرت الأصنام بعد ذلك في أنحاء الجزيرة العربية على شكل أشجار وحجارة مصورة وغير مصورة .

وكان للعرب الوثنيين كثير من الأماكن المقدسة ، غير أن معتقداتهم الدينية لم تكن من الجدد في شيء كثير . ولا شك أنه كان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير على العادات التي خلفها لهم آباؤهم ، وكانوا محافظين عليها شديدي التمسك بها ، ولو أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة كتبهم . ولكن الوثنيين في شمال بلاد العرب كانوا أكثر حماسة من غيرهم وأشد تعصبا لديهم ولا اتصالهم بالمسيحيين في الشام وفلسطين . وكذلك كانت الحال في اليمن لاتصالهم بالأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية .

وكان العرب يقدمون القرابين لآلهتهم ويسعون في مواكب حول معابدهم وكان المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ — ٥٥٤ م) في الحيرة يقدم كثيرا من أسرى المسيحيين تكريما للسيار فينوس Venus « الزهرة » : كما كان يقدم عرب شبه جزيرة سيناء القرابين البشرية لهذا السيار نفسه . وقد سبقهم الاسرائيليون منذ عهد بعيد الى مثل ذلك . ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين المتتمين

الى الآديان الأخرى أثر كبير في احياء الحماس الدينى . وقد قضى على تلك القرايين البشرية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . (١)
وهناك من يذهب الى أن عرب الجاهلية كانوا لا يعبدون الأصنام لذاتها ولكن تقربا الى الله قال تعالى : ما نعبدكم إلا ليقربونا الى الله زلفى ،
وقد ذكر القرآن بعض أصنام العرب ، وأشهرها اللات (٢) والعزى (٣) ومناة (٤) . ومن أعظم أصنامهم هبل ، وكان من أصنام الكعبة ، وهو مصنوع من العقيق على صورة إنسان . وقد كثرت الأصنام عند العرب حتى روى أن المسلمين أخرجوا من البيت الحرام ٣٦٠ صنما حين فتحوا مكة وكانوا يستفتحون بالأزلام عند أصنامهم ولاسيما هبل .

المسيحية في البلاد العربية

كانت المسيحية ظاهرة في قبائل تغلب وغان وقضاة في الشمال وفي بلاد النين في الجنوب . وقد ادخلها إلى بلاد العرب أباطرة القرن الرابع الميلادى كثيرا ، على أن حكومة رومة لم تحفل بنشر هذا الدين . على أن العرب — وإن لم يعتنقوا المسيحية ويدنوا بها — فقد انتشرت المسيحية في بلاد العرب من الجنوب عن طريق الحبشة والشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع وكانت

Noelcke, *Historians' History of the World*. Vol. VIII. pp. 9-10

٢ — اللات : معناه الآله ، وعرفت في آثار تدمر والنبط ، وكانت تمثل في صخرة في الطائف ٣ — العزى : كانت تمثل في شجرات في وادى نخلة عن يمين الذهاب من مكة الى العراق ٤ — مناة : إلهة القضاء ولاسيما قضاء الموت وكانت تعظمها قبائل الأزد والأوس والخزرج

ومنذ جملة قرق ، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة ، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام (١)

اصنام العرب والفن التصويرى

يقول الدكتور زكى محمد حسن ان التصوير عند الكثيرين الى العصر الحاضر معدود من أنواع النشاط السكالية . وقد كان الكلام والبلاغة أقرب الفنون الى العرب وزادتهم بساطة الاسلام بعدا عن فنون النحت والتصوير ، ولا سيما أن المسلمين كانوا في البداية بعيدين عن الترف والمدينة ، وأن الجماعة الاسلامية الأولى انصرفت عن الدنيا « مرضاة لفقراء رعيتهم وكسرا للنفس عن شهواتها ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها . وأعرضت بعض الأمم السامية عن الصور ، ولما كان للصور عند هذه الأمم من أثر سحرى يلحقها بالاطلاس ولكن أعظم ما عرضت له في هذا الصدد حجج القائلين بأن التصوير لم يكن مكروها في عصر النبي عليه السلام ، وأن هذه الكراهية نشأت بين الفقهاء في النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، وأن الأحاديث المنسوبة اليه موضوعة ولا تعتبر لإلacen رأى السائد بين الفقهاء في العصر الذى جمع فيه الحديث ودون . وقد فتدت هذه الحجج الواحدة بعد الأخرى وانهت الى أن التصوير بأنواعه كان مكروها في عصر النبي وفي فجر الاسلام ، ولعل الفقهاء بالغوا في التعبير عن هذه الكراهية بتلك الأحاديث المنسوبة إلى النبي والتي تفيد التحريم الصريح ، وعند من لا يؤمن بهذا التحريم الصريح أن الأمر ليس في صميم العقيدة الاسلامية ، لأن تلك الكراهية كان أساسها الرغبة في إبعاد المسلمين عن عبادة الأصنام والشرك بالله ، وغير معقول أن يقصد بها التحريم المطلق

ولاسيما بعد أن يبعد عهد المسلمين بالوثنية ويثبت سلطانهم ويصبح للتصوير فوائد علمية لاسيما إلى نكرانها .

على أن هناك من يذهب إلى أن التصوير لم يكن محرما في عصر النبي لأن العرب حينئذ لم يعرفوا التماثيل والصور ، وإنما أصبحت الفنون التصويرية حراما حين اتصل العرب بالروم والفرس وعرفوا ما كان عندهم من صور وتماثيل .

وقد أدلى الاستاذ الكبير الآب لامانس في المقال الذي كتبه سنة ١٩١٥ قد في المجلة الأسبوعية عن حكم الفنون التصويرية في فجر الإسلام (ص ٢٤٠ — ٢٤٣) كتب أن خطر التماثيل لم يظهر للنبي ، لأن البيئة التي كان يعيش فيها لم تكن كاليثية الاغريقية الرومانية التي ازدهر فيها فن النحت ، ولأننا — إذا استثنينا اليمن وبلاد النبط والاقاليم الواقعة على حدود سورية والعراق — رأينا في بلاد العرب عند ظهور الاسلام ديانة فتيشية Fétichisme يعبد أصحابها الاحجار والاشجار ولا يصنعون معبوداتهم وإنما يتخذونها بما يعثرون عليه في الطبيعة ، فلا ينحتون صوراً لآلهتهم بل يعبدون كتل الاحجار ذات الاشكال المختلفة — وقد يكون بعضها بارزا في الجبل أو متأثرا بعوامل التعرية تأثرا يكسبه شبيها ضئيلا بصورة آدمية ويرى لامانس أننا لانعثر في بلاد العرب على تمثال صحيح إلا في أطراف شبه الجزيرة إذ اتصل القوم بالأمم الاجنبية وتأثروا بها .

صحيح إن العرب في الجاهلية كانوا يعبدون الاحجار . وكان الذي سلبهم إلى عبادة الاوثان والحجارة أنه كان لا يظن من مكة ظاعن إلا احتمال معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصبا به بمكة ، فثيما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة (١) وكان بعض هذه الاحجار صخرة مربعة مثل « اللات » (٢) أو لوحا من الحجر الابيض كذي الخلفة (٣) أو صخرة طويلة

١ — كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٦ « الطبعة الثانية »

٢ — المرجع نفسه ص ١٦ — ٣ — المرجع نفسه ص ٢٤ .

مثل « سعد » (١) أو تنوماً في الجبل ، كأنه تمثال انسان ، مثل « الفلس » (٢) . كما كان العرب في الجاهلية يعبدون بعض البيوت ويعظمونها تعظيمهم الكعبة . ومن هذه البيوت « ريام » ، (٣) في صنعاء ومثل كعبة بنى الحارث بن كعب بنجران (٤) وكعبة إيراد بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة (٥) وكنيسة القليس في صنعاء (٦) ومن الخطأ القول بأن العرب لم يعرفوا الأصنام على هيئة الانسان الا في أطراف شبه الجزيرة . فالحق أن مؤرخي العرب الاقدمين ، وعلى رأسهم ابن الكلبي المتوفى نحو سنة ٢٠٤ هـ ٨١٩ م ، ذكروا بين الانصاب التي كانت العرب تعبدها تماثيل على صورة الانسان ، في الحجاز وفي الكعبة نفسها : منها هبل ، « وكان من عقيق احمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب » (٧) ومنها اساف ونائلة ، وقد زعموا انهما كانا رجلا وامراة من جرهم دخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وأتيا المنكر فسخا حجرين ووضعهما العرب عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكشهما وعبدت الاصنام عبدا معها (٨) وإلى ذلك كله — اختلف اللغويون والكتاب في تعريف الاصنام اختلافا يظهر منه أن العرب عرفت التماثيل كما عرفت الانصاب الطبيعية « فقلوا ما كان من حجارة تعبد فهي الانصاب . فاذا كانت تماثيل فهي الاصنام والاولئان وقيل المعمول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة الانسان فهو الصنم ، واذا

-
- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| ١ - المرجع السابق ص ٣٦ - ٢٧ | ٢ - المرجع نفسه ص ٥٩ |
| ٣ - المرجع نفسه ص ١١ - ١٢ | ٤ - المرجع نفسه ص ٤٤ - ٤٥ |
| ٥ - المرجع نفسه ص ٤٥ | ٦ - المرجع نفسه ص ٤٦ |
| ٧ - المرجع نفسه ص ٢٨ | ٨ - المرجع نفسه ص ٩ و ٢٩ |

كان من حجارة ففروث... الخ (١) وما واده المؤرخون والمحدثون وجود
ثلاثمائة وستين صنم في الكعبة يوم فتح مكة. وإذا بدلنا جدلاً بأن الكعبة لم تكن
تسع مثل هذا العدد الكبير من الأصنام، فلا يريب أنها كانت تضم أصناماً كثيرة
لشقي العشائر العربية، وفي إشارة الكتاب القديم إلى هذه الأصنام ما يشهد منه
أنها - أو على الأقل بعضها - كانت على صورة إنسان. ومن ذلك ما ذكره ابن
الكلبي ص ٣١ عن النبي عليه السلام حين دخل الكعبة بعد الفتح والأصنام
منصوبة حول الكعبة فجعل يطعن بسية قوسه في أعينها ووجوهها ويقول: نادى جاء
الحق وزهى الباطل إن الباطل كان زهوقاً ثم أمر بها فكشفت على وجوهها ثم
أخرجت من المسجد فحرقته. وإذا بدلنا ما وجدناه من الأصنام ما وجدناه
وهكذا يبطل عندنا قول الذين يزعمون أن فنون النحت والتصوير لم تكن
مكروهة عند النبي وفي فجر الإسلام لأن العرب في الحجاز لم يعرفوا التماثيل إلا بعد
أن زاد اتصالهم بحيرانهم من الروم والفرس. فالحق أنهم عرفوا التماثيل في الجاهلية
بل نسبوا إدخالها في الحجاز إلى عمرو بن لحي، قدم بها من الشام ونصبها حول
الكعبة (٢)؛ ولست نسي أن عرب الحجاز في الجاهلية كانوا حلقة الاتصال بين
الشام واليمن وكانت بينهم جاليات يهودية حرم عليها النحت والتصوير حتى لا تتخلف
الصور والتماثيل آلهة من دون الله عز وجل. لا يختلفون في
ما وجدناه من الأصنام في الجاهلية.

كان اليهود يتكلمون اللغة العربية. وكانت أسماؤهم عربية. وقد اختلف المؤرخون

١- راجع التصوير عند العرب التيفوت باشا ص ٤٨ - ٤٩ والأصنام لابن
الكلبي ص ٣٣٣ و ٢٠ - الأصنام لابن الكلبي ص ٨ - أديان العرب: نعمان الجارم

في أصل هؤلاء اليهود ، فذهب بعضهم إلى أنهم عرب اعتنقوا الديانة الموسوية وعند آخرين إنهم يهود هاجروا إلى بلاد العرب . ومهما يكن من شيء ، فإن العرب لم يعرفوا الديانة الموسوية ، وإنما انتقلت إلى بلادهم من الخارج . ويقول « نلدكه » ، إن هؤلاء اليهود الذين أتوا باليهودية هم من سكان البلاد العربية ، وأنهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية في التوحيد ولو أنهم كانوا شديدى التمسك بدينهم (١) . وقد انتشرت اليهودية ببلاد العرب قبل الاسلام بقرون ، وتكونت فيها مستعمرات يهودية وأشهرها يثرب - وهى التى سميت بعد بالمدينة - كما تكونت مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادى القرى وفي يثرب وهى أهمها . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة (٢)

وكان من بين العرب أناس مستنبرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى معتقدات أرقى منها ، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ووجد من بينهم أناس دعوا إلى دين توحيد جديد له علاقة كبيرة أو قليلة بالمسيحية ودعوا إلى نيل عبادة الأصنام والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، وكانوا يعتقدون في البعث وبوجود إله واحد يحاسب ويجازى على أعمال الناس من خير وشر . ويطلق على هذه النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو الثائبون المعترفون . وكان من هؤلاء أمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف وكان يؤمل أن يكون النبي المنتظر ، فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حقد عليه ومنهم ورقم بن نوفل ، وقس بن ساعدة الإيادى الذى كان أشهر قضاة العرب وفصائهم وخطبائهم . وقد سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على ترك العادات العربية المذولة ويبشرهم ببعث الرسول ، وقد قال

فيه الرسول « يرحم الله قسا إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده » (١) وقد وجد بينهم من أخذ الزندقة عن الخيرة وقالوا بالله النور والظلمة أو إله الخير والشر ، كما وجد بينهم صابئة وعبداء للنجوم وبحوس . هذا ويبدو أنه لما ولد سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت الوثنية في ضعف كما انتشرت المسيحية في بلاد العرب . وكذلك كان لليهودية أشياع كثيرون ، أضف إلى هذا أنها ساعدت تلك العقيدة القائلة بالتوحيد .

ولم يقدر لأي دين من هذه الأديان الخارجية الفوز والغلبة في بلاد العرب فقد كانت المسيحية إذ ذاك مذهباً معقداً تعددت فيه الفرق واختلفت . وكانت اليهودية دين الشعب المختار الذي لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم كما ضعف مذهب التوحيد لما لاقاه من المعارضة من العناصر المقتبسة من دين زرادشت (Zoroaster) . ومع ذلك فقد مهدت المذاهب والأفكار والآراء المسيحية واليهودية والفارسية الطريق للدعوة الإسلامية والوحدة العربية يبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم

١ - راجع خطبة قس بن ساعدة في صبح الأعشى ج ١ ص ٢١٢ وما كتبه

ولهوزن Wellhausen عن ديانة العرب في كتابه Arabischen Reste

يدعما ويثبتها فأدبى هذا الى انصراف الناس عن التفكير في شئون السياسة ووسائل
الحكومة . ومع أن حيوية هذا النظام أخذت تتضائل ونحتق شديداً فشيئاً إلا أنه لم
تتجه الرغبة يوماً الى تغيير عنيف قد يربك التضامن والاستقرار الاجتماعى . فعاش
العرب في دنياهم مكسفين بأنفسهم عن سواهم سائرين في طريقهم المألوفة سير أسلافهم
غير ملقين بالآلى ما تضطرب به أوروبا من التطور السياسى والاقتصادى ، إذ كانوا
ينظرون الى الفرنجة ، نظرتهم الى شعب بربرى يهيم فيما وراءهم من الفياثى . ذلك
أنهم كانوا عند العرب ، ككباراء ، تفضل السلطان فتصمم امتيازات تجارية فيما سكتوه
من مدن بلاده وموانئها . راجع الأستاذ نجيب فى كتابه « العرب فى القرن التاسع عشر »
كانت هذه العزلة عن العالم سبباً فيما صدم العرب من انتهاك حرمتهم عندما شهدوا
وعانوا تدخل أوروبا فى أموره . فقد أحاط بهم الفرنجة وحاصروا بلادهم غربا
وشرقا وأملوا إرادتهم على السلاطين وفرضوا سطوتهم على من دونهم من الامراء
والزعماء واشتكت الجيوش الفرنجية ، فى حروبهم وتدخل قناصل الفرنجة ،
وتجارهم فى حياتهم الاقتصادية وشئونهم الخاصة . فكان القرن التاسع عشر جلسة
من اطراد التدخل الأوربى فى حياة العرب ومن التفكك المستمر فى عرى النظام
القديم وكذلك من محاولة العقلليات السياسية المثقفة فى الأقطار العربية أن تدرك
وتستخدم العوامل التى أدت الى اكثار شأن أوروبا وبسط نفوذها . وكان أكثر الناس
تأذبا من هذا الاتجاه هم المسلمون المخلصون ، الذين تعودوا أن ينظروا الى الاسلام
على أنه يجمع كل حق وكل علم وإلى أنفسهم على أنهم المثل الأعلى الذى يجب أن
تحتذ به الشعوب الأخرى . فإذا بهم يتصلون - للمرة الأولى فى تاريخهم - بشعوب تتعالى
عليهم وتسفه كل ما به يعتدون . فكانت هذه الحالة النفسية ، أكثر مما كانت الثورة
السياسية والتطور الاقتصادى مشار كل ما حفل به المستقبل من وجوه النزاع والكفاح
فيبدأ فى أول الأمر أن التيار الأوربى سيجرف كل شىء أمامه . فبينما كانت
أغلبية العرب غافلة عن إدراك هذه التغيرات التى تأخذها من كل جانب ، كانت

هناك أجيال جديدة تتلقى العلم في مدارس أنشأتها الجاليات الأجنبية أو مدارس
وجهت وفق أساليب التعليم الغربي ثم تخرج من هذه المدارس الى حياسة أكثر
ما فيها من المنشآت ومن المبادئ . مشتق من الحضارة الغربية . وأهم من ذلك ، هذه
الصحافة العربية الحديثة التي أخذت تنشر الأفكار الجديدة نشرأ واسع النطاق فتنشئ
بذلك عقلية جديدة تواجه وتحابه العقلية التي قامت على التقاليد الاجتماعية والدينية
القديمة . ومع أن هذه النظم الجديدة عجزت عن أداء مهمتها على أكل الوجوه ولا
سيما في المناطق التي كانت تحكمها تركيا ، إلا أنه لم يكن ثمة سبيل الى الرجعة الى الأساليب
القديمة وعلى الأخص فيما يتعلق منها بالسياسة

على أننا إذا ذهبنا الى ما هو أعمق من ذلك ، ألفينا أن الغزو الاوربي أدى في للبلاد
العربية الى صراع أخذ يعنف ويحتدم على مر الايام . فقد فتح الغرب آفاقا جديدة
أمام الشباب ، أمام الجيل المتحمس الغيور المجدد المصلح الساعي الى اثبات نفسه
ولكن ما يملك الشباب دائما من القلق والضيق وما يتقصه من الخبرة والتجربة
وما يتقسمه من عامل المصالحة والعداوة مع الحياة القديمة - كل هذا خلق حالة نفسية
مريرة مجعدة ، أدت الى كبح جماح الثورة التي كادت نارها تشب . على أن المعركة
العنيفة الطويلة ظلت ناشبة بين فلسفتي الجيل القديم والجيل الحديث ، وظلت
تشارك حيويها في حياة الشعوب العربية ولم يبد أنها ستقف رجاها أو ستخفف من
جذوتها يوما ما . ولكن شيئا واحدا اتفق عليه الجيلان منذ بدء المعركة الى يومنا
هذا ، هو أن مجيء أوروبا الى بلاد العرب قد أيقظها من سباتها العميق طوال العصور
الوسطى وأن لا سبيل الى النوم والخنول مرة أخرى . فأخذ الشعور القومي ينبعث
ويحيا بطيئا في أول أمره مطرد القوة متسع النطاق فيما بعد ، حتى صار المحور الذي
يرتكز اليه العالم العربي في جهاده القومي من الناحيتين المادية والمعنوية التي زحفت
عليه من الغرب تريده على الخضوع لها والغناء تحت سطوتها .

لم يطرأ تغيير كبير على الأقاليم العربية منذ الفتوح التي سجل بها القرن السابع فبسطت آفاقها من الخليج الفارسي وجبال إيران متجهة غربا مارة بسورية وفلسطين ومصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش حتى تنتهي بشاطئ المحيط الأطلسي وكان العرب في إبان قوتهم سادة على أكثر اسبانيا والبرتغال وجزر بحر الروم ومازال سكان مالطة الذين يتكلمون العربية شهوداً على ما كان للعرب من قوة بحرية فافقة في هذه الأرجاء ، كما أنهم أسسوا دولا مازال قائمة على شاطئ افريقية الشرق وفي جزر الهند الشرقية ، وكانت أهم منطقة نفذ اليها الاسلام في خلال السنين الالف الأخيرة منطقة السودان الشمالية .

وثمة ظاهرة عامة تشترك فيها جميع الاراضي العربية هي أنها محوطة بصحارى تنصل بينها بمفاوز يشق اجتيازها ، ولعل هذا هو مايدعو عامة الناس إلى تخيل العرب « بدواً » يضربون على ظهور الابل في شعاب الصحراء . ولكن العرب ينقسمون — وكانوا على الأرجح منقسمين دائماً — جماعتين أساسيتين : سكان المدن المستقرين ، ورعاة البادية الرحل ، وبينهما طبقة من الزراع شبه مستقرة وشبه مرتحلة . وابن المدينة — لا البدوى — هو الذى تزعم في جميع العصور مازهر من الحركات السياسية ، وهو مثابة ما تجميع من الثقافة العربية . أما البادية فكانت تقوم بدور اختزان القوى الناضجة الخالصة التي تعوض الأمة عما يفقده سكان المدن من حيويتهم نتيجة ما يتعرضون له من أسباب الوهن والانحلال . ولكن هؤلاء البدو إذا تركوا وشأنهم كانوا قوة فعالة في التخريب والتدمير إذ لا ينفكون عن تهديد الأمة والحضارة فيما يجاورهم من الأمصار المستقرة التي تمثل واحات الحضارة وسط صحراء من الجاهلية ، فكانت في كفاح دائم لتدفع عن نفسها عادية البدو عليها وتسليم اليها وتهديدهم منشأتها وحضارتها . وقد ظل هؤلاء البدو ، ولاسيما في العراق والجزائر ، يهددون آثار الحضارة خارج المدن المسورة المحصنة ، ولم تستطع الحكومة العثمانية التي كانت تتولى أمر جميع البلاد العربية — ماعدا مراكش

منذ القرن السادس عشر أن تقوم بممل حاسم لكيج جماع البدو ورد عاديتهم
ولكن لما جاء القرن التاسع عشر تغير المجري ، فان الحكومة القوية المركزية
التي أنشأها محمد علي في مصر لم توفق فحسب الى إخضاع الجماعات البادية التي تضررت
في أرجاء وادي النيل ، بل استطاعت أن تقهر الامبراطورية البدوية القوية التي
أقامها اللوهابيون في الجزيرة العربية وأخذوا يهددون بها أجوارهم في العراق وسورية
ثم أخذت الحكومة العثمانية - بعد أن اعتدت بقوات حربية جديدة وفق الاساليب
الاوربية - تقيم حكم القانون والنظام فيما يخضع لها من الاقاليم العربية . ومع أن
الصعاب التي واجهتها كانت أكبر مما واجهت مصر ، ومع أن ما اتخذت من الوسائل
لتنفيذ خطتها كان ناقصا عطلا ، إلا انها وفقت - إلى حد ما - إلى كسر شوكة
البدو وتأمين رجال المدن وزراع القرى . ويمكن أن ندرك مدى الجهد الذي بذلته
تركيا اذا قدرنا أن فرنسا - وهي أوفر من تركيا سلاحا ومالا - قضت سنين
عديدة وضحت بجموع من أبنائها ، حتى أمكنها أن تنشر الهدوء والسلام في ربوع
الجزائر وحدها .

وثمة مسألة أخرى : هي أن للسياسة التي اتخذها العرب الفاتحون قبل الشعوب
المقموعة لها الى يومنا هذا ، نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة في الاقطار العربية . فقد
كانت الفتوح العربية نتيجة حركة قومية تنيرها وتلهبها العقيدة الدينية ، فأخذ أبناء
الشعوب المغلوبة الذين اعتنقوا الاسلام يندمجون شيئا فشيئا - بوجه عام - في
الشعب العربي الناشئ الكبير . ولكن بعضا من الشعوب النائية عن الجزيرة العربية
المتحصنة في أطراف الامبراطورية الاسلامية استطاعت أن تحتفظ - رغم تدنيها
بالاسلام - بقوميتها الممثلة في لغتها القديمة وبعض تقاليدها . من هذه الشعوب
الأكروا الجاثمون على جبال الشمال في آسيا الوسطى ، والبربر المنتشرون في شعاب
أفريقية الشمالية الغربية ، فقد ظل هؤلاء ومثليهم من العرب بشيء من
الخصائص القومية ، وان كان من الاسراف أن نتحدث عن شعور قومي قوي بين
هذه الجماعات نمت في وسطها ثقافة اسلامية .

ثم هناك أولئك الذين احتفظوا بعقائدهم القديمة - وهم المسيحيون واليهود وظلوا حتى الآن أقليات محمية مستمتعين في الغالب بتسامح كبير . ففي كل قطر عربي باستثناء الجزيرة العربية - تقوم الى يومنا هذا أقليات جنسية أو دينية لا تندمج اندماجا تاما في هذه العقائد والتقاليد التي يرجى أن تقوم على أسسها القومية العربية المنشودة

بل إن في العرب أنفسهم شيئا من خطوط الفروقة والانقسام يرجع سببها ومشتقها الى عوامل تاريخية قديمة قامت في بدء التاريخ الاسلامي ولهذا كانت أشد تأثيرا من سواها في تجميع شمل الوحدة العربية جمعا وثيق العرى . فهناك الفروقة بين السنيين والشيعة التي ترجع الى هذه المنازعة لعائلية عمن هو أحق بالوراثه السياسية بعد الرسول والتي تطورت واتسعت فأدت الى فرق دينية تمثل كلا منها عقلية مختلفة عن الأخرى . وما زالت الشيعة قائمة في العراق غالبية في اليمن ولكن لا وجود لها في غيرها من البلاد الاسلامية وهناك خلفاء الخوارج المتطهرين المتطرفين في عمان وفي بعض مناطق الجزائر وهناك الوهابيون في أواسط الجزيرة العربية وهم وسط بين الشيعة والخوارج

على أنه ليس من اليسر أن نبين أثر الانقسامات الطائفية في مجرى المسائل السياسية والاجتماعية في الأقطار العربية . فالوطنيون المتطرفون يجادلون شأنها أو يقللون من تأثيرها ويستدلون على ذلك بكثير من المناسبات التي اتحد فيها أبناء جميع هذه الطوائف فيما أقيم وأثير من المظاهرات والاعمال السياسية العنيفة . ولكن من المؤكد أنه رغم أن وحدة الشعور فيما يتعلق بالشؤون الخارجية لا سبيل الى انكارها إلا أن لهذه الخلافات الطائفية أثرا ثانويا وغير مباشر في تحقيق الاستقرار الداخلي في العالم العربي . على أن هذه الفوارق المتعلقة بشؤون الذين صارت أقل أثرا وأهون شأن من الفوارق التي تعانيتها بعض الشعوب التي تختلف جماعاتها في تقاليدها وعاداتها ونظرتها الى الحياة .

لقد أفاق العرب من غفوتهم ولن يغفلوا مرة أخرى وخلصت سياستهم مما ران عليها دهورا من الجود والتهاون ونبذوا الحياة الهادئة الوداعة التي استسلموا في ظلها للاستكانة والخضوع وغدا العالم العربي من أقصاه الى أقصاه يفكر ويدبر ويسعى ويكافح .

وقد حولت الجماعات الاجنبية المنبثة في ثنايا الشعوب العربية - وما تزال تحول - الأفطار العربية دولا حديثة . فأخذت شعوبها بعد أن غادرت القواعد التي رست عليها عهدا طويلا تسامل في قلق ولطفه : أين تولى وجهها ؟ وغدا شعور العرب بانفسهم ينبعث ويتحفز وتتجمع قواه ومضى زعمائهم الفكريون يعملون لتجديد مثلهم وأهدافهم الثقافية في هذا العالم الجديد .

وتقوم القومية العربية - كما تقوم كل قومية أخرى - على أساس من وحدة الشعور بين جماعاتها ويتألف هذا الشعور من الكبرياء والاعتزاز بالرسالة المجيدة التي أداها الاسلام وبالأثار العظيمة التي أقامتها وخلقتها امبراطورية العرب وبهذه التقاليد الثقافية التي يمثلها الأدب العربي مقترنا بهذا كله شعور بالغيرة من سيادة أوربا المادية وانكارها تدعيه لنفسها من تفوقها الخلق وجميع هذه العناصر التي يتألف منها الروح القومى شائعة بين العرب في جميع أقطارهم . ومن الخطأ بل من الخطر أن نزعّم أنها لم تنفذ بعد الى « جمهور الأمة » في هذه الأفطار .

واذا ذكرنا وقررنا أن القومية في العالم الاسلامى قامت في بادى أمرها على أسس دينية لأسس جنسية تبينا أن الأهداف الأولى التي ترمى اليها هذه القومية هو الأفكار والأعمال التالية : طرد « الفرنجة » وإعادة انشاء الامبراطورية الاسلامية كما كانت في عهد الخلفاء الأوائل واثبات قيم الاسلام الروحية والخلقية أمام العالم جميعا . وقد طرد الفرنسيون من الشام أخيرا

على أن هذه القومية الاسلامية ناهيا شىء من التعديل حين انشقت القوميتان التركية والارانية في العهد الحديث عن الوحدة الاسلامية الكبرى فاضطر

زعماء العرب الى أن يتخذوا بدلا منها قومية عربية أضيق نطاقا لأنها لا ترمى الى انشاء الامبراطورية الاسلامية بل تطمح فحسب الى استرجاع امبراطورية عربية كهذه التي كان يتولاها خلفاء دمشق في القرنين السابع والثامن (وذلك باستثناء ايران وان كان بعض الخياليين يحلم باسترجاع قرطبة وغرناطة) وما زال هذا الحلم يترامى الى يومنا في مخيلة كثيرين من الوطنيين الذين يأخذون الأمور في يسر وبساطة.

ولكن ظهر في السنين الاخيرة طراز من التفكير يقدر الحقائق السياسية والاقتصادية تقديرأ أكثر ملاممة للواقع ويدرك تطور التاريخ وأحداثه فهما أكثر دقة ووضوحا ويقيم وزنا أكمل وأوفى للبادئ الثقافية الغربية وأخذ هذا الطراز الفكرى يملأ أذهان سياسة العرب ومفكرهم ويهديهم طريقا أدنى من سابقتها غاية وأيسر اجتيازاً. فهاذا كانت نتائج هذا التفكير الجديد ؟ انه لم يؤد الى الاتجاه الاعمى الى أوروبا بل أدى الى اختفاء هذا « التفرنج » الذى اتخذه - عن حسن نية - بعض المصلحين الأوائل وعاد الجيل الناشئ يكبر ويحل التقاليد الاسلامية سواء فى سيرة الأفراد الخاصة أو على أنها عنصر حيوى من عناصر الكيان القومى . ومن ناحية أخرى أخذ يخفى رأى الغلاة الذين كانوا ينقدون ويسفهن كل ما تعتد به أوروبا وذلك اذا استثنينا نفرا قليلا من محترفى الدين المتعصبين وما يتبعهم من جمهرة الناس الجاهلة. أما جميع المسلمين المستنيرين فيريدون أن يسلكوا طريقا وسطا فيجنون خير ما فى الشرق والغرب من الثمار . وهم يعنون بذلك محاولة مزدوجة : ترمى إلى الغاء تقاليد العصور البائدة العقيمة، وتسعى فى الوقت ذاته الى حماية العالم الاسلامى من القوى المدمرة التى تنطوى عليها الحضارة الغربية . وبذلك تظهر - فى الوقت الملائم - المثل العليا المنشودة للحياة وللثقافة العربية

« وثمة فكرة تنمو وتنتشر الآن مؤداها أن الذكرى التاريخية لم تعد تكنى أساساً للقومية العربية . نعم سيظل للذكريات المجيدة وللمفاخر المشهودة مكانة عالية تجتمع عندها عواطف العرب جميعا وليس فى وسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم الحافل

تجرد الاتراك إثر ما أصابهم من أحداث قومية خطيرة . وسيظل الاسلام أهم صفحة في هذا السجل الماضى الى مرتبة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون الى انشاء مثل عربية عليا . ولكن هذا الماضى الذى يظل الجميع بلوائه ، ينطوى فى الوقت ذاته على أسباب تاريخية تعمل للفرقة لا للوحدة فإذا نحن اعتمدنا على الروابط الدينية وحدها وجدنا فى العالم العربى أقلية دينية قد تنال من قوة القومية الإسلامية ولا سيما أنها تضم نفرا كبيرا من أكثر الوطنيين غلوا وتطرفا . فضلا عن ذلك فإن العالم العربى يحفل بجماعات وعناصر جديدة يهيمها الحاضر . أكثر مما يهيمها الماضى ويعنيها أن تعيش وسط الدنيا التى تكتنفها بدل ان تعيش على ذكرى دنيا غابرة ومن شأن ذلك أن يفقد الماضى شيئا مما له من التأثير المعنوى . ولهذا فإنه إذا أردت القومية العربية أن تغلب على ما يواجهها الآن من الصعاب فعليها أن تنظر الى المستقبل قدر ما تنظر الى الماضى وعليها أن تبنى نفسها على قواعد تلائم ما تفتقر به من الذكرى وما تطمح اليه من الآمال .

وقد أبانت تجارب ربع القرن الأخير فى وضوح أن تقسيم العالم العربى الى عدد من الدول الضعيفة الصغيرة يؤذى الشعور العربى إيداء بالغا . وإذا كان لكل إقليم عربى مشكلاته الداخلية الخاصة بشؤون وحدته واستقراره وحياته الاقتصادية إلا أن كثيرا منها يمكن التغلب عليها إذا أخذت بعلاج واسع النطاق لا يتقيد بمحدود السياسة المحلية الضيقة . وقد استطاعت بعض الاقطار المتجاورة بفضل ما بينها من النية الحسنة أن تزيل ما يثير بينها النزاع وأن تحل مكانها أسباب التعاون ومن المرجح أن ينمو هذا الروح بين الاقطار العربية ليسهل تجمعها فى وحدات كبرى . ولكن يجب أن نذكر منذ الآن أن الوحدة العربية الكبرى لن تتم بفضل الذكرى الماضية فأثرها - مهما يكن - ضئيل بطيء . بل نتيجة عمل مفاجئ . ليس فى الامكان التنبؤ عن وقته ولا عن صورته (١) .

(١) هذا رأى المستشرق المرحوم « جب » فى كتابه « العرب » . وقصدتم بعدئذ إنشاء جامعة الدول العربية

ويجب أن نذكر دائما أن العرب اليوم يختلفون اختلافا كبيرا عن العرب في
سنة ١٩١٤. فإن ما حققوه من وجود التطور والارتقاء في هذه السنين ما كان
يخطر ببال أولئك الذين لم يعلمهم التاريخ الماضى مدى الشجاعة العرب السريعة لما
يحيط بهم من ظروف الحياة، ومدى تقدمهم السياسى المفاجئ. ولكن لهما يكن
من قدرة هذه الأرض العربية الخصيبة على أن تنمى بذور الحضارة وتؤتى ثمارها
إلا أن ما تنفقر إليه البلاد العربية من تدعيم بنائها السياسى ومن إقامة جاتها
الاقتصادية، يجعل الوحدة العربية وحدها - مهما تكن قوتها - غير كافية لتحقيق
هذه الغاية وما تتطلبه من الوقت الطويل والجهد العظيم، فلا غنى للعالم العربى إذا
عن لون من ألوان التضامن مع العالم العربى، يضمن له - أطوارا لا تقلدهم السياسى -
والاقتصادى. ولا هذا ما قبله ورفضه جميع الساسة العرب الذين يعرفون ببلد نظرهم
ونقل رأيهم على اعتبار أنه ضرورة سياسية تحتمها ظروف بلادهم، ولكنهم
تواضوا وأصرروا دائما على ألا تكون هذه العلاقة، علاقة بين السيد والتابع في
ميدان السياسة، ولا علاقة القوى للضعيف في ميدان الاقتصاد
رابعة نأشأ له ببها شأنا. لهما فاجأه انتشاره في بلاد العرب، وقد رأت أن
واللهمة التي تلقى بها هذه العلاقة الخطيرة على مثلك فائدة العرب وأوروبا على من
أعظم الجوارح التي تختبر وتلجج لفقدان كرامتهم السياسية. فالعالم العربى الذي يتابع
سيره وتطوره في سبيل تجميع قواه السياسية وتدعيم حياته الداخلية يتطلب عمولا
مرة نادرة تعدل وتحور من آن لآخر في صلاته بالعالم الغربى. وما من شك في أن
الجرح القديم ما زال ثابتا دما نوحا والى يطلبه التصفقا، وحكى يمكن أن تنهأ
الصدقة النامية والتعاون الوطيد بين العرب وأوروبا، إذا وفق كل منهما إلى رعاية
حقوق الآخر ومصالحه، وتقدير ماله من المزايا المعنوية، أه. من كلام د. جب

شمائل العرب

وقال بوترام توماس الكاتب الرحالة الانجليزي^(١) : ليس في العالم أمة تفوق العرب في الكرم المطبوع . فأنهم ليعطون باليدين ويعطون عطاء القلب المغمم بأريحية العطاء ، لا يشحون ولا يحسبون حساب المثوبة المنظورة ، وإنما يجودون عفو السليقة المطبوعة على هذه الخصال . وقد هزنى الاعجاب عشرين مرة لا مرة واحدة أو مرات قليلة بما شهدت من الدلائل الصغيرة العارضة التي تشف عما جبل عليه رفقاء البدو من السجايا الانسانية . فقد كنت بعد ساعات العطش والركوب المضنى : أخف ومعى واحد أو اثنان منهم الى عين ماء طال بنا ارتقاها لنسبق الى ورودها ، فكان السابقون معى يرقبوني وعلى وجوههم أمارات الرضى والاعتباط إذ أنا مقبل على الماء أطفئ غلتي في شوق ولهفة . بيد أن واحداً منهم لا يبيع نفسه قطرة من الماء يبلل بها شفتيه قبل أن يصل رفاقه المتخلفون ، ولعلمهم لا يصلون إلا بعد ساعات طويلة ليشربوا معاً مجتمعين . ولاحظت مرة أن أحدهم قد ادخر كسرة خبز أعطيته إياها ليقاسمها رفيقه . وندر جداً أن عبرنا بخيمة كائنة ما كانت من الضعة والشظف دون أن يعدو الينا صاحبها ملحاً علينا في مقاسمته قعب اللبن والتمرات التي عنده وربما كان في أشد الحاجة اليها . وانك لغريب ما رأيك من قبل ولن يراك بعد ارتحالك ، ولكنه على هذا يؤثرك على نفسه ويعطيك ما هو في أمس الحاجة اليه . . وقال في موضع آخر إنه كان آمناً على حياته مع أنه كان يحمل المال الكثير ويعلم رفاقه ما يحمل ولا يخشون وترأ ولا عقاباً من أحد لو سفكوا دمه وسلبوه ماله

(١) ترجمة وتلخيص للاستاذ عباس محمود العقاد ، مجلة الهلال ، والمؤلف

بوترام هو أحد الانجليز الواقفين على الشئون العربية مثل لورنس وعبد الله فليبي وجارفس والجنرال سبيرز والآنسة فرياستارك .

أما رأيه في فضل الحضارة العربية على الغرب والعالم المتمدن فهو رأى ينضج بهذا السخاء وحب الثناء ولا يخالف المشهور المأثور من أقوال العلماء ، وهو يلاحظ أن الاسلام لم يكن حفيماً بالموسيقى لما يقترب بها من اللهو والمجانة ، ولكنه يرى أن المسلمين كانوا أصحاب الفضل الأول في تعليم الأوربيين ضيظ الآلات على حساب النسب الرياضية بعد أن كانوا يضبطونها بالمرانة والسماع ، وإن فلسفة ابن رشد كان لها أثر في تطور المذاهب المسيحية فوق الأثر المعروف لها في تطور العلم والتفكير ، وإن شعر الأندلسيين كان له أثر في الشعر الفرنسي ومن ثم في معظم الأشعار الأوربية .

وقد بحث المؤلف في أصول العرب القديمة فجاء فيها بأقوال قد يؤكد لها المستقبل بالتأييد وقد يمرض لها التحيص ببعض الشك أو التعديل ، ولكنها بلا جدال هي أحدث الأقوال وأوفرها حجة عند المقارنة بينها وبين سائر الآراء التي يذهب إليها الباحثون في أصول الأجناس فهو يرجح رأى العلامة الكبير د ارثر كيث ، الذي درس جماجم العرب المحدثين وهياكلهم وقابل بينها وبين بقايا العصور الدائرة منذ آلاف السنين . وخلاصة هذا الرأى أن الأجناس الحامية كانت فيما قبل التاريخ تسكن نطاقاً من الأرض يمتد من افريقيا الى بلاد الملايا في آسيا الشرقية ، ثم غلب عليهم الشماليون في الهند وفي شبه الجزيرة العربية ، وإن هؤلاء الشماليين قد أغرام بالوفود الى شبه الجزيرة خصبها وغزاره مائها وطيب مناخها يومذاك بالقياس الى الاقطار الشمالية التي كانت تغمرها الثلوج وتقل فيها خيرات الطبيعة ، والأرجح أن الشماليين الوافدين كانوا ممن يعيشون على الصيد ولا يحسنون الزرع ولا الرعاية وتدل المقارنة بين الجمجم والملامح على اشتراك ثلاثة عناصر في تكوين القبائل الموسومة باسم القبائل العربية ، فهناك الجنس الاسود الآتى من الجنوب ، والجنس المستدير الرأس الشبيه بالارمنى الآتى من الشمال ، والجنس الضيق الجمجم الآتى من شواطئ البحر الابيض ، وهى تتميز وتنضج الفوارق بينها الى اليوم .

وسمى هذا عهد عهدها بالعالى بغير ما قاله من قبلها من أنها راسخة على دهرها
لأنه كان عهداً من العهود التى لا تتغير ولا تتبدل ولا تتغير ولا تتبدل ولا تتغير ولا تتبدل
والأثر للادوة الإسلامية
وقد كانت الامم المسيحية تسمى بالاعلى راسخة على دهرها من قبلها من أنها راسخة على دهرها
يقول الدكتور ثورنيليان حزين إن توسع العرب فى الجاهلية لا يتصل بالظروف التى
الجغرافية لشبه الجزيرة الحامية وهو تغيير ناشئ من الخلو والافتقار للتدريجى فى القرون
السابقة لظهور الإسلام بصفة خاصة. أما القول بالعبثية التى اكتسفت توسع العرب
بالبر من شمال الجزيرة نحو داخلية آسيا وشمال إفريقيا، وبالبحر من جنوب الجزيرة
نحو شرق إفريقيا والشرق الأقصى - فإن أول ما يسترعى النظر هو أنه على الرغم من
أن أحوال الجلفان قد حلت تبدل بها منذ القرن الثالث الميلادى حتى بلغت أقصاها
حول عام ١٠٠٠ بعد الميلاد، فإن توسع المسلمين من شبه الجزيرة قد لم يأت إلا بعد
نحو قرن وثلاث من ذلك وقد قضى له العرب فترة طويلة قبل ظهور الإسلام وهم لما
تبعوا الإسلام معاً لم يبق لهم من الجاهلية إلا القليل من مبادئها
(١) الجاهلية هو العصر الذى ساد الجهل والجهل فيه، أى قبل أن تطلع على
العرب شمس الإسلام، وللتى أحاديث كثيرة فقد قال مشيرى الفتنة بين قبيلتي
الأوس والخزرج فى المدينة: يا معشر المسلمين اتقوا الله. أيدعوى الجاهلية
وأنا بين أظهركم بعد أن هذا كرم الله إلى الإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية
وقال لآلئ ذن: انك امرؤ فاك، جاهلية. وقاله عمر: اتى نذرت فى الجاهلية
أن أعتكف ليلة. وقالت عائشة: كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء
وقول عامة مسلمى العرب: كنا - يا رسول الله - فى جاهلية. هذا وقد يكون لفظ
الجاهلية، اسماً للحال أو لشيء الحال كما جاء فى الأمثلة المتقدمة، وعلى هذا فإن
الجاهلية - وإن كانت فى الأصل صفة - إلا أنه قد غلب عليها الاستعمال
فصارت اسماً. ومما يكون من شئ فإنه يبدو أن الجاهلية ماثلة - على نوع ما -
للعصور الوسطى التى يطلق عليها أيضاً عصور الظلام

يتشاحنون فيما بينهم ، وتدور بينهم الحروب والآيام ، أو يهاجرون وينقلون من مكان إلى آخر في داخل حدود الجزيرة ، ولم يأت توسعهم إلى خارج تلك الحدود إلا مع ظهور الاسلام ومع ذلك فلم يكن ظهور الاسلام العامل الوحيد الذى أضاف الى العوامل الطبيعية ، أو الذى أبرز قيمتها وكشف عن مفعولها ، بل وجود عوامل بشرية أخرى ساعد بعضها على التوسع وزاد من حدته ، وإن كان بعضها الآخر قد أدى إلى إرجاء ذلك التوسع وتأخير ، مما ترتب عليه انقضاء قرن أو قرنين بين حلول الجفاف وتوسع القبائل إلى ما وراء الجزيرة شرقا وغربا .

فلقد هاجرت قبيلتنا تنوخ وهما فرع من أزد وقضاة هاجرتا في القرن الثالث الميلادى من شرق اليمن إلى جنوب نجد ، ثم إلى ساحل الأحساء فحدود العراق الغربية إذ استقرت القبييلة الاولى وألفت دولة اللخمين وأهم مدنها الحيرة على الفرات بمقربة من كربلاء وانتقلت الثانية إلى شرق الشام وألفت دولة الغساسنة ومن أهم مدنها بصره ودمشق . وقد كان لنشأة هاتين الدولتين العربيتين على حدود كل من إمبراطوريتي الفرس والروم علاقة بالحالة السياسية في الشرق الأدنى إذ ذاك ، فقد أرادت الإمبراطوريتان العظيمتان أن تؤمنا حدودهما من ناحية البدو والصحراء فشجعنا العرب على استقرار المهاجرين في دولتين ، تقع إحداهما تحت النفوذ الفارسي وترعى مصالح الفرس من ناحية البادية ، ونقع الأخرى تحت النفوذ الرومى وتحمى مصالح الروم من ناحية البادية أيضا . وقد وجد البدو في ذلك مخرجاً من شدتهم ، لاسيما وان الجفاف لم يحل مرة واحدة وانما جاء تدريجيا ، وفوق ذلك فقد نشأت اتصالات بين هؤلاء الأعراب على جانبي بادية الشام ، امتد أثرها الى أراضي الإمبراطوريتين ، فأصبح الأعراب بالتدريج رسل التجارة والتبادل بين الإمبراطوريتين ، وأقادوا من ذلك كثيراً ، إذ نشأت الطرق التي تعبر البادية ، وتسير عليها القوافل مشرقة ومغربة بالسلع والمتاجر بين الفرس والروم ، وبين خليج فارس وشرق البحر الأبيض المتوسط . وهكذا وجدت العناصر المنتشرة

من داخلية الجزيرة ملجأ على حدود الامبراطوريتين العظيمتين ، إذ استقر بها
الترحال ، وأدى ذلك الى انقراج الأزيمة التي ترتبت على الجفاف ، واشتغل العرب
في شمال الجزيرة بالنقل والتجارة الى جانب اشتغالهم بالرعى الذي لم يعد يكفى
وحده لسد أودهم . وكان من نتائج ذلك كله أن تأجلت حاجة العرب الى التوسع
والفتح والانتشار . كذلك كان لاضمحلال طريق الملاحة في البحر الأحمر في أواخر
عهد الروم (القرن الخامس الميلادي وما بعده) أثره في ظهور طريق البر الحجازي ،
وهو طريق رحلة الشتاء والصيف بين اليمن والشام ، واستطاعت قوافل الجمال في
هذا الطريق الذي يصل الجنوب بالشمال أن تحل محل تجارة البحر بين عدن القديمة
وخليج السويس والعقبة ، وقد أفاد عرب الحجاز لا سيما قریش من هذا التحول
من تجارة البحر الى تجارة البر ، بل كان ذلك أحد العوامل في ازدياد أهمية مكة ،
وغيرها من محطات القوافل على طول الطريق . وقد انصرفت جهود الأعراب
والبدو في هذا الاقليم عند ما ازداد الجفاف وقل الكلاء والمرعى الى الاستقرار
في الواحات ومحاط القوافل ، أو الاشتغال بالتجارة ونقل المتاجر والسلع فلم يكن
ثم ما يحمل الأعراب والبدو على الهجرة والتوسع خارج بلادهم إلا بعد ذلك ،
أى حين ضعف كل من الفرس والروم في أواخر عهدهم ، وقلت تجارة
الامبراطوريتين ، وكسدت أسواقهما . فلما ظهر الاسلام في القرن السابع الميلادي
كان عرب البادية متأهبين بل في حاجة حقيقية الى التوسع والانتشار طلبا للعيش
والحياة .

وبما نذكره هنا أنه كان للامبراطوريتين الفارسية والرومية كثير من القوة والمنعة
في أول الأمر ، بل لقد استطاعت كل منهما أن تسخر العرب لمصلحتها ، وأن
تستخدمهم في تأمين حدودها . ولكن تلك المنعة كانت في طريقها الى الانقضاء .
فلقد تشاحن الفرس والروم فيما بينهم قرون متلاحقة مما أتاح للعرب الافادة من
ضعف جارتيهما العظمتين في الشمال الشرقي والشمال الغربي . وكان أن انفتحت

إحدى فترات الاصطدام العنيف بين الامبراطوريتين ، وما ترتب عليها من ضعف من الجانبين ، مع ظهور الاسلام ، فجاءت الفرصة مواتية لتوسع العرب السيامي وانتشار الاسلام في الوقت ذاته

هذا وقد كان العرب الأقدمون ، أو قل الساميون الذين في الجزيرة لا يعرفون غير الجمال وبعض الحمير . والجمال كما نعرف حيوان بطيء الحركة (فيما عدا فصيلة الهجين) ، يصلح لحمل المتساجر ونقل السلع على طول طرق القوافل أكثر مما يصلح للغزو والفتح السريع . ومع أن بعض الساميين في أقصى الشمال قد عرفوا الحصان منذ أيام الهكسوس (القرن الثامن عشر ق . م) ، ومع أن الحصان ازدادت أهميته في مملكة سليمان حوال عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، فإن من المرجح جدا أن فصيلة الحصان العربي الضامر الذي يعيش في داخلية الصحراء ، ويتحمل الجفاف وقلة الزاد ، لم تظهر الا في القرون الأولى من العهد المسيحي ، والحصان بطبيعته حيوان يعيش في مناطق السهوب (الاستبس) ذات المراعي القصيرة ، وموطنه الأصلي في داخلية آسيا ، وانتشر من هناك الى الشرق الأدنى ، ولكن استخدامه اقتصر على أراضي الهلال الخصيب وبعض بادية الشام في أول الأمر ، ولم يتأقلم ذلك الحيوان ولم يعتد البيئة الصحراوية الجافة إلا بعد أجيال عديدة من التربية والتوالد والاختيار ، حتى ظهرت الفصيلة العربية المشهورة بالضمور ورشاقة البدن وخفة الحركة . وقد كان لظهور هذه الخيول والجياد العربية في داخل البيئة الصحراوية أثره الكبير في انقلاب نظام الحرب عند العرب ، وليس أدل على ازدياد أهميتها من أن بعض أيام العرب قبل الاسلام كانت تعرف بأسماء الجياد كحرب داحس والغبراء . فلما ظهر الاسلام كان العرب يملكون من رباط الخيل ما أعدهم لهذا الحروب العالمية الجديدة ، وما مكنهم في النهاية من التوسع في المشرق والمغرب ولو أن العرب اقتصروا على الأبل لما استطاعوا أن يصلوا في فتوحهم إلى حدوده الهند والصين شرقا ، وإلى بلاد المغرب واسبانيا غرباً ، في مثل الوقت الذي آتمو

٤ تلك الفتوحات .

ويعد استئناس الحصان واستيلاء الفصيلة العربية منه عاملاً بشرياً ، لأنه إنما ينسب إلى استغلال الإنسان للمورد والبيئة والموارد الحيوانية وتوجيهها لاشباع أغراضه .

ولم يكن توسع العرب والمسلمين ^(١) من شبه الجزيرة في صدر الإسلام وبعد عمر ، أول حركة ينتشر فيها البدو والساميون من تلك البلاد ، بل إن هناك حركات أخرى مماثلة ، انتشر فيها أولئك الساميون ؛ فغزوا مصر القديمة حيناً أو أحياناً ، واستقروا في أرض آشور حيناً ، وتوسع بعضهم إلى بلاد الحبشة حيناً آخر . غير أنه لم يصحب تلك الحركات القديمة ظهور دين جديد أو ثقافة جديدة ؛ وإنما نشأ عن عوامل أخرى بعضها طبيعي ، كجفاف البلاد وضيق مواردها من فيها ، وبعضها بشرى سياسي ، كضعف الأمم المجاورة ذات الحضارة المستقرة مما أطمع البدو في الغزو وأغراه بالفتح ونشر السلطان . وإذا نحن أردنا أن نتفهم توسع العرب في العهد الإسلامي تفهماً صحيحاً . فإن من الواجب علينا أن نبحت مثل تلك العوامل الكثيرة ، التي أثرت في تلك الحركة ، ومهدت لها قبل ظهور الإسلام . وتلك العوامل يمكن تقسيمها قسمين : (أ) عوامل طبيعية ترجع إلى البيئة العربية (ب) عوامل بشرية تتصل بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في شبه الجزيرة نفسها ، وفي بعض البلدان المجاورة . وتمثل العوامل الطبيعية في البيئة العربية ذاتها ، التي تعد في جملتها بيئة فقيرة محدودة الموارد . ومن الطبيعي بين الحين والآخر أن يتكاثر الناس في مثل تلك البيئة بأكثر مما تحتمل ، وأن يترتب عليها إما أن توازن الطبيعة بين من تعولهم من الناس وبين مواردها الخاصة ، فيموت الزائدون على الطاقة ، على

(١) توسع العرب وانتشار الإسلام : بقلم الدكتور سليمان حزين

نحو ما يقتضى به تنازع البقاء فى بيئة فقيرة قاسية إما عن طريق المجاعة والضعف والمرض ، وإما عن طريق التشاحن والتقاتل من أجل العيش ، تقاطلا قد يتخذ شكل الحرب حيناً ، وقد يتمثل فى ظاهرات أخرى كوأد البنات والتخلص من العجزة والضعفاء والناقصين حيناً آخر ، ومثل هذا ، لا سيما التقاتل والوَأْد ، حدث فى شبه الجزيرة قبل الاسلام

وأما عن تكاثر السكان بما لا تطيقه البيئة والمورد ، فإنه يضطر الناس إلى الهجرة وطلب العيش ، من طريق التوسع بالبر أو بالبحر . وهذا أيضاً حدث فى أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة قبل ظهور الاسلام . كذلك يعد المناخ فى معظم شبه الجزيرة العربية من النوع الصحراوى الحار ، وإن كانت الأمطار متأثرة بنظام البحر المتوسط فى فى الشمال ، وبالنظام شبه الموسمى فى الجنوب . ومثل هذا المناخ يمتاز فى جملته بقلّة المطر ، واشتداد الحرارة ، مما يقلل من التأثير الفعلى للأمطار الساقطة بسبب التبخر السريع ، وجفاف التربة واحتراق النباتات ، ثم إن هذه الأمطار الشحيحة من النوع « الطارىء » غير المنتظم ، فليست لها مواعيد محددة أمر مضمونة . أضف الى ذلك أن بلاد العرب قد خضعت فى عصور التاريخ المعروفة إلى « أزمت مناخية » . تمثلت فى فترات جفاف شديد ، قل فيها المطر وازدادت ندرته وعدم انتظام سقوطه . بل إن تاريخ مناخ الجزيرة العربية ، سلسلة متلاحقة من من فترات رخاء نسبي ، ازداد فيها المطر زيادة طفيفة ولكنها هامة ، فازداد الرخاء وتكاثر الناس ، وفترات شدة ، شح فيها المطر فاقتقرت الحياة النباتية افتقاراً شديداً واضطر الناس الى الاختيار بين المجاعة والهجرة

وثمة أدلة كثيرة على أن مناخ بلاد العرب فى الشمال والجنوب ، كان أكثر مطراً منه الآن فى الفترة ما بين القرن الثانى عشر قبل الميلاد والقرن الثالث بعده . وأن الأمطار ، إذ بدأت تشح ابتداء من القرن الثالث الميلاد ، أخذت تقل تدريجاً حتى بداية من القرن السادس الميلادى فبلغ الجفاف أشده . ولا زالت بلاد العرب

تعانى فترة الجفاف حتى الآن. ويقول الدكتور سليمان حزين^(١) إن هذه الأدلة يرجع بعضها إلى دراسة الآثار القديمة. ويستخلص بعضها الآخر من دراسة النصوص التي خلفها القدماء: فأما عن الآثار، فإن كثيرا من جهات بادية الشام تكثرت بها آثار العمران القديم، من مدائن لحقها الدمار والجفاف كدمرو وغيرها، أو صهاريج قديمة بنيت ليجتمع فيها المطر الساقط في الشتاء، على حين أن الأمطار في الوقت الحاضر لا تنكفي لملئها بالماء، وقد امتلأ معظمها بالرمال. كذلك هناك آبار وعميون تعتمد على المياه الجوفية، وقد تبين أن مستوى هذه المياه في بعض الجهات كمنخفض الأزرق على حدود بادية الشام قد انخفض بمقدار مترين عنه في أيام الرومان. ولما كانت المياه الجوفية إنما ترجع في الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة، والتي تتسربها الأرض فإن انخفاض مستوى المياه الجوفية دليل قاطع على قلة الأمطار في الوقت الحاضر عنها في أيام الرومان. كذلك الحال في جنوب بلاد العرب لاسيما اليمن وحضرموت وسواحل ظفار إذ الأدلة الأثرية توضح تغير الأحوال المناخية وحلول الجفاف التدريجي. ففي اليمن مدائن كثيرة في بلاد الجوف ترجع إلى الحضارات المعينة والسبئية والحيرية وهي كلها في مناطق جافة في الوقت الحاضر. وحين فتح الأحباش اليمن، في أوائل القرن السادس الميلادي، اضطروا إلى أن يتخذوا لأنفسهم قاعدة جديدة في صنعاء بدلا من مأرب إذ كان الجفاف قد أخذ يحل بمنطقة مأرب، التي تقع على ارتفاع يقل عن صنعاء بنحو ألف متر، كما أن صنعاء تقع إلى الغرب من مأرب، وتلقى أمطار أغزر منها كما تقل فيها الحرارة مما يضعف التبخر ويزيد من التأثير الفعلي للأمطار الساقطة. والحق أن انتقال عاصمة اليمن ومقر الحكم فيها من مأرب إلى صنعاء، لم يكن اتفاقا وإنما كان راجعا إلى سبب جغرافي مناخي. ومنذ القرن السادس الميلادي حتى الآن استقر الملك والادارة، في منطقة الجبال العالية في القسم الغربي من اليمن، ولم يعد

العمران في يوم ما إلى منطقة مأرب الشرقية المنخفضة نسبياً ، إلى ما كان عليه أيام السبأيين والحميريين . وثم دليل آخر من أدلة الآثار التي توضح تغير المناخ وميله نحو الجفاف ، تلك الصهاريج العظيمة التي خلفها السبأيون والحميريون في اليمن . وهي تقع على ربوات مرتفعة ، بحيث تتلقى الماء النقي ، يستقى منه الناس طوال العام . أما في الوقت الحاضرة فإن الصهاريج الحديثة تبني كلها في القيعان وعند السفوح ، لكي ينحدر إليها من الماء ما يكفي للملئها ، ولا يحدث في الوقت الحاضر أن تمتلئ صهاريج القدماء القائمة فوق الروابي إلا في سنوات قليلة شاذة ، يشتد فيها المطر فوق المعتاد وفي معظم السنين لا يتجمع في تلك الصهاريج القديمة غير قليل من الماء لا يلبث أن تبس . ثم إن هناك آباراً كثيرة جافة في الوقت الحاضر ، أو يكاد يفيض منها الماء على حين أنها كانت فياضة في العصور القديمة ، وهناك أيضاً حقول منتشرة في أراضي الجوف الداخلية كانت تروى بمياه الأمطار ، إما بالمباشرة وإما بوساطة مشروعات الري التي أقامها القدماء ، من بناء السدود وتنظيم فيضان المياه المنحدرة من الجبال ، وأشهرها سد مأرب الذي يقال إنه قد تقوض في القرن الخامس الميلاد ، وكان سبباً في خراب مأرب وهجرة القبائل من منطقته إلى جنوب نجد ، ثم العراق والشام . صحيح أن هدم مثل ذلك السد ، قد استعجل خراب مأرب واضمحلالها كدنة وحاضرة ، ولو أن بعض الأحباش حاول إصلاح السد وترميمه ، غير أنه لا يبدو أن الحادث قد أدى إلى هجرة قبائل إقليم الجوف ، الذين كان كثير منها يعيش على الرعي ، فقد بدأ بعضهم كقضاة وأزد يهجر اليمن الشرقي منذ القرن الثالث الميلادي أي منذ أن بدأ تغير أحوال المناخ وحلول الجفاف التدريجي ، وقبل أن يتقوض السد بقرنين أو نحو ذلك . ويقال إن هذا السد قد تهدم أكثر من مرة كما يقال إنه كان هناك سدود أخرى . وإلى الآثار - ثمة قصص منها قصة كهل من أهل الخيرة (على الفرات) قابل خالد بن الوليد عندما فتح المدينة (٦٣٢ م .) وقال له إنه كان يشهد في أيام ضياء المرأة من نساء الخيرة تخرج لزيارة بعض أهلها في الشام ، فلا تزود بغير قليل من

الزاد، ولا تزال تنتقل بين الأماكن العامرة ذات المياه الجارية والأشجار المثمرة حتى تصل إلى الجانب الآخر من البادية. ثم يكشف الكهل لخالد عن حسرته لما حل من جفاف وقحط وخراب. وتنسب القصة إلى الكهل أنه عاش أكثر من ثلاثة قرون وهذا من باب الخيال والاختراع ولكننا إذا افترضنا أنه عاش على التقريب قرناً واحداً وعشرين عاماً فإن ذلك يمضي بنا إلى بداية القرن السادس الميلادي. ومن ذلك أيضاً ما خلفه كتاب اليونان والرومان على اليمن التي أسموها «بلاد العرب السعيدة»، نظراً لرخائها ووفرة ماؤها واخضرار مناظرها الطبيعية. وهو ما لا يزال صحيحاً ولكنه لا ينطبق إلا على المناطق العليا والغربية من اليمن. أما شرق اليمن الذي زاره استرابون مثلاً عام ٢٠٠ ميلادي، فلا يكاد ينطبق عليه ذلك الوصف إلا انطباقاً جزئياً بعيداً. هذا وما جاء في كتابات القدماء، ما ذكره عن بلاد حضرموت وواديها في شرق اليمن فهم يتحدثون عن ذلك الوادي على أنه مزرعة التوابل ونباتات البخور التي تصدر من هناك إلى موانئ اليمن ثم إلى أسواق الشرق الأدنى وبلاد الرومان. وبعض هذه التوابل ومواد البخور لا تبت إلا في الجهات الموسمية أو في شرق أفريقيا إذ الأمطار أغزر بكثير منها في حضرموت. ومع أن من المسلم به أن بعض التوابل كان يؤتى بها في الأصل من بلاد الهند إلى بلاد حضرموت ثم يعاد تصديرها إلى بلاد الرومان فإن مما لا شك فيه أن حضرموت كانت تنتج بعض تلك المواد في حين أن أحوالها المناخية في الوقت الحاضر لا تسمح بأنبات شيء من ذلك. كذلك يتحدث بعض كتاب اليونان والرومان عن حضرموت على أنها بلد غير صحي المناخ نظراً لأن حرارته الشديدة تصطبج بالرطوبة الشديدة. بل إنهم يؤكدون أن حقول التوابل والبخور لا يشتغل بها غير العبيد المسخرين الذين يموتون جماعات جماعات. وقد يكون هذا سر ما تخلف فيما بعد في اللغتين العربية والعبرية من اسم وادي حضرموت الذي يفسره بعض الباحثين على أنه مركب من لفظي (حضر) و (الموت) نظراً لعدم صلاحية

الفصل الثالث

الإسلام

معنى « إسلام » الخضوع أو الاستسلام وقد وردت هذه الكلمة إسلام في القرآن الكريم ثمانى مرات كقوله : « إن الدين عند الله الإسلام » . آل عمران آية ١٧ وفي آية ٥ سورة المائدة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وفي آية ١٢٥ من سورة الأنعام « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » .

ويقول صاحب الفضيلة والمعالى الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق^(١) في المعنى اللغوى والمعنى الشرعى لكلمة إسلام ما يلى :

١ — الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله النبى العربى المولود بمكة سنة ٥٧١ م المتوفى بالمدينة سنة ٦٣٢ م معروف باسم « الإسلام » منذ عهده الأول . وقد يسمى السلم بكسر السين والسلم بفتحها على ما ذكره لسان العرب . وهذه الأسماء الثلاثة هى ألفاظ عربية المادة والصيغة فلها عند العرب معان هى حقائق لغوية . ولما استعملت النصوص المقدسة الإسلامية هذه الألفاظ فى الدلالة على الدين الإسلامى كان ذلك بالضرورة تصرفاً فى المعنى اللغوى الأصلى . وقد جرى عرف العلماء على تسمية الألفاظ المستعملة فى معان وضعها لها الشرع بالأسماء الشرعية ، كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، وكالايمان والكفر . وربما خص ما يتعلق بالعقائد

(١) الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية

مثل الإيمان والكفر بالأسماء الدينية. ويذكرون في كتب أصول الفقه خلافا في
الأسماء الشرعية نفيًا وإثباتًا في الوقوع، على معنى أن ما استعمله الشارع من أسماء
أهل اللغة كالصوم والإيمان هل خرج به عن وضعهم إلى وضع مستحدث أو لم
يخرج به عن وضعهم وإنما استعمله استعمالًا مجازيًا جاريًا على أساليبهم؟ قال بالآول
القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٤ ١١٠٣ م وقال بالثاني الممثلة
والخوارج والفقهاء. ويستفاد من هذا البحث، الذي فصله سيف الدين أبو الحسن
على الآمدى المتوفى سنة ٣٨٣ ١١٨٦ م في كتاب «الاحكام في أصول الاحكام»،
ج ١ ص ٤٨ ٦١٦ — أن علماء الاسلام يعدون المعاني الشرعية متفرعة عن
المعاني اللغوية وثيقة الصلة بها

٢ — وقد عني المفسرون والمتكلمون والغريون وغيرهم من الباحثين برد
المعنى الشرعى للفظ «اسلام» إلى أصله اللغوى. وجمع الفخر الرازى المتوفى سنة
٦٠٦ ١٢٠٩ م في تفسيره لقوله تعالى: «ان الدين عند الله الاسلام» جملة
المذاهب في ذلك فقال: «وأما الاسلام ففي معناه في أصل اللغة ثلاثة أوجه: (الاول)
أنه عبارة عن الدخول في السلم أى في الانقياد والمتابعة. قال تعالى: «ولا تقولوا
لمن ألقى اليكم السلم لست مؤمنًا...» (س ٤ النساء مدنية آية ٩٤) أى لمن
صار منقادًا لكم ومتابعًا لكم (الثاني) من أسلم أى دخل في السلم كقولهم اسنى
وأقبط وأصل السلم السلامة (الثالث) قال ابن الانبارى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ
٩٣٨ م): المسلم معناه المخلص لله عبادته من فوهم سلم الشيء لفلان خالص له
فالاسلام معناه اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى، ج ٢ ص ٢٣ المطبعة الخيرية
سنة ١٣١٨ هـ

٣ — أما المحدثون فجمهرة المستشرقين منهم ترى: أن اسم (اسلام) يرجع
إلى معنى من الطاعة والخضوع غير ارادى أى التسخير لارادة قاهرة، يقول جولد
صهر Goldziher: «اسلام بمعنى خضوع أى خضوع المؤمن لله، وهذه الكلمة،

التي هي أوفى من كل كلمة غيرها في تعيين المنزلة التي جعلها محمد المؤمن في علاقته بمعبوده ، عليها طابع ظاهر من الشعور بالاتبعية والقدرة لا تحيط بها حدود ، ويجب على الانسان أن يستسلم لها مثيراً من كل حول له وقوة « (عقيدة الاسلام وشريعته) ص ٢ La Dogme et la Loi de l'islam . ويشير الى مثل ذلك القول (ارنولد) Arno d في الفصل الذي كتبه عن (اسلام) في دائرة المعارف الاسلامية Encyclopédie de l'islam ولا يختلف ما ذكره (بابنجر) Babinger في الفصل الذي كتبه عن الاسلام في كتاب « أديان العالم » Religions du Monde عن كلام (جولد صيهر) في شيء .

وقد تنبه (سيد أمير علي) الى أن أمثال هؤلاء المستشرقين جعلوا معنى الانقياد الذي فسر به لفظ اسلام انقياداً مطلقاً لارادة لا حدود لسلطانها ، ولا كسب لأحد معها فجاء يبين في كتابيه (روح الاسلام Spirit of Islam واسلام Islam) أن ليس في استعمال كلمة اسلام لغة أو شرعاً ما يدل على معنى الانقياد المطلق والخضوع المتضمن لمعنى الخير كما يفرضه عادة اكثر الباحثين من علماء الغرب . على أن (سيد أمير علي) يقرر أن المعنى الشرعي للاسلام هو السكد في تحرى الرشـد والتماس الفلاح بنزكية النفس كما يؤخذ من الآيات : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » سورة ٧٢ الجن (مكية) آية ١٤ . « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها » سورة ٩١ الشمس (مكية) آية ٧ - ١٠ . وذلك يستلزم معنى الطاعة الارادية ظاهراً وباطناً . والرشد هو الهدى والفلاح ، وهو الذي يهـدى اليه القرآن من تصديق خبر الله وامثال أمره . كما في كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ ج ١ ص ٤٠ - ٤٢

وبهذا البيان يتضح ما في كلام ادوارد سل من التعسف في تأويل رأى سيد أمير

على مقال أدوارد سل عن الاسلام في دائرة المعارف المعارف الدينية والحلقة ج ٧
وعند (أدوارد سل) ان جعل المؤلفين الاوربيين أن لفظ (اسلام) يعبر عن الاذعان
التام لارادة الله في كل شئون العقائد والاحكام توسع في فهم معنى اللفظ إذ هو انما يدل
على معنى أخص من الاذعان المطلق ، فهو انما يدل على الاذعان العملي ويستشهد
بقول سيد أمير على أن الاسلام هو تحرى الرشد ثم يحاول (ادوارد سل) أن يجعل
جملة ماورد في القرآن من لفظ (اسلام) ومشتقاته مؤديا معنى الانقياد الظاهر والطاعة
بالجوارح ويزعم أن المفسرين يبدو أنهم مجمعون على استعمال اللفظ في معنى آلى
ويقول : ان هذا يتفق وعدم ورود كلمة « اسلام » في السور الاولى ، إذ هي لم ترد
الا ثمانى مرات : منها ست في السور المدنية واثنان في السور الملكية الأخيرة
ويرجع ذلك الى أن أركان الدين العملية لم تصر جزءا منه على وجه قاطع حتى
كون محمد دينه في المدينة ، ويخلص من ذلك الى أن لفظ إسلام ، عند ما ينظر اليه
من وجهة النظر المحمدية يفقد كثيرا من جماله الروحي الذي يتجمع حول فكرة الخضوع
التام لارادة الله ويصبح مؤيدا للبدا اليهودي القائل بأن المهم ليس هو روح الشريعة
بل المهم هو مراعاة الاداء الصوري لواجبات ظاهرة خاصة . أما ودعوى « ادوارد سل » : أن
كلام « سيد أمير على » يفيد قصر الاسلام على خضوع الجوارح دون خضوع القلب
فما لا يمكن أن يؤخذ من عبارات « سيد أمير على » في كتابه ما يؤيدها . ومحاولة « ادوارد سل »
ان يجعل جملة ماورد في القرآن من لفظ « اسلام » وما اشتق منه مؤديا معنى الانقياد
الظاهر والطاعة بالجوارح فقط محاولة لاتقوم على اساس ، لان ما ذكر في القرآن من
لفظ « اسلام » ، وما اشتق منه مقابلا للايمان ومخالف له - بحيث يدل الاسلام على
العمل الظاهر والايمان على التصديق - لا يعدو ثلاث آيات على ماورد في كتاب
حجج القرآن ، لأبي الفضل احمد بن المظفر الرازى الحنفى ، أتم كتابه سنة ٦٣٠ هـ
١٢٣٢ م أو لا يعدو اربعا كما هو الواقع ، اذ ترك صاحب الكتاب آية ٥ س ٦٦
التحريم مدنية . اما اجماع المفسرين على استعمال لفظ اسلام . في معنى الى فغير صحيح
كما يتضح لكل مطلع على التفاسير المختلفة للقرآن . وسيأتى ما يؤيد ذلك فيما يلى . وعدم

ورود لفظ « اسلام » في السور الاولى لا ينتج ما يريد أن يستنتجه المؤلف فقد وردت صيغة اسم الفاعل من أسلم في ٣٩ آية ، المكيات منها ٢٤ ، والمدنيات ١٥ وبعض هذه المكيات في سور غير متأخرة كما في آية « أفنجعل المسلمين كالحجر مسين » سورة ٦٨ القلم (مكية) آية ٣٥ وهي السورة الثانية في ترتيب نزول القرآن على ما نقله صاحب الفهرست عن نعمان بن بشير ، وكما في آية ١٤ سورة ٧٢ الجن (مكية) التي ورد فيها الفعل أيضا . ولسكارادى فو Carra de Vaux رأى في معنى كلمة « اسلام » وأصلها بيته على الوجه الآتي :

« كان من تبع ابراهيم يسمى حنيفاً ومعناه المائل لانهم مالوا عن عبادة الاصنام التي كانت قد فشلت في العالم ، أو يسمى المسلم أى الذى يجدد ويصون الشيء سالماً . ذلك بأنهم جددوا وصانوا التوحيد الخالص . وتفسير (مسلم) بأنه المستسلم لله أبعد غوراً في التصوف من أن يكون المعنى الاصلى » (كارادى فو . مفكر الاسلام ج ٣ ص ٥٥) وهذا رأى غير وجيه من الناحية اللغوية فانه ليس في مادة « اسلام » ولا صورتها ما يؤيده على مقتضى أصول اللغة وقواعد الاشتقاق ، وما علينا بأن من مدلولات هذه المادة التجديد أو الصون ولا رأينا أن صيغة أفعل تفيد أحد هذين المعنيين .

١ - إن من تأمل فيما ذكره اللغويون من معنما مادة (سلم) على اختلاف ألفاظها وصيغها متحرياً البحث عما يصلح أن يكون أصلاً يتفرع عنه سائر المعاني وجد في كتب اللغة المعتمدة مثل كتاب الاشتقاق لابن دريد ، الصحاح للجوهري ، والمفردات في غريب القرآن ، ولسان العرب لابن منظور والمصباح المنير للفيومي - أن السلام بكسر السين والسلم بكسر اللام ، الحجارة الصلبة سميت بذلك اسلامتها من الرخاوة والواحدة سلية ، واستلم فلان الحجر الاسود هو افتعل من السلية ، وان السلم بفتحيتين شجر عظيم له شوك ورقة القرط يدبغ به واحد سلية بفتحيتين ايضاً كما نأسمى بذلك لاعتقادهم انه سليم من الآفات ويقال منه سليت الجلد بفتح اللام اسليه بكسرهما اذ

دبغته بالسلم . ولعل هذه المعاني هي التي ينبغي أن تكون الاصل الاول لمادة سلم
وعنها تفرعت جميع الاستعمالات الأخرى . ذلك بأن هذه المعاني هي أمور مادية
محسوسة قريبة الى حياة البدواة فهي أجدد أن تكون أصلا لوضع المعاني المجردة . وقد
ولد العرب من هذه المعاني معاني أخرى وضعية حقيقية قائمة على معنى الخلوص الذي
هو ملحوظ في المعاني .

وهذه المعاني الحقيقية المولدة هي : (١) معنى الخلوص من الشوائب الظاهرة أو
الباطنة ، وفي معاجم اللغة أن السلم بفتح فسكون والسلام والسلامة تكون بمعنى الخلوص
والتعري من الآفات الظاهرة أو الباطنة (٢) ومعنى الصلح والامان . ويقول اللغويون
إن السلم والسلم بكسر السين وفتحها لغتان في الصلح يذكرا ن ويؤثنان كالسلام (٣)
ومعنى الطاعة والاذعان فالسلم بفتحيتين على ما في كتب اللغة والسلم بفتح فسكون
والسلم بكسر فسكون ، الاستسلام والاذعان والطاعة .

ويرد اللغويون (السلام) الذي هو اسم من أسماء الله والسلام . بمعنى التحية والدعاء
لى معنى الخلوص والسلامة من المكروه والآفات . ورد السلم بمعنى اسلف الى هذا
المعنى غير عسير وفعل اسلم يستعمل فى اللغة على وجهين :

احدهما — أن يستعمل لازما الثانى — أن يستعمل متعديا واللازم يكون بمعنى
الدخول فى السلم بمعنى الصلح أو الطاعة . وقد ذكر علماء الصرف أن صيغة افعل اللازم
تأتى بمعنى الدخول فى شىء كاصبح بمعنى دخل للصباح وأقحط دخل فى القحط واعرق
دخل فى العراق . وأما المتعدى فصيغة أفعل فيه ترد للتعدية وهى تصير الفاعل قبل
دخول الهمزة مفعولا ، فاسلم الشىء لفلان متقولا بالهمزة عن سلم الشىء لفلان خلص
له من غير منازع كسلبه له تسليما المنقول بالتضعيف وحقيقة ممتاة أخلصه له وجعله
له سالما ولفظ «إسلام» مصدر أسلم لازما كان أم متعديا فهو صالح للدلالة على كل
ما يدل عليه الفعل من المعاني السالفة . هذه هى جملة المعاني اللغوية لمادة «سلم» وما
تفرع عنها وقد ورد فى القرآن استعمال كثير من صيغ هذه المادة فى معانيها اللغوية

فورد معنى الخلوص والبراءة من الشوائب الظاهرة والباطنة في الآية ٧١ من
من السورة ٢ البقرة (مدنية) « قال إنه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا
تسقى الحرث مسلبة لاشية فيها » وفي الآية ٨٩ من السورة ٢٦ الشعراء (مكية)
« إلا من أتى الله بقلب سليم » وورد في غير هاتين الآيتين أيضاً ، وجاء معنى الصلح
في معنى الآية ٣٥ سورة ٤٧ محمد مدنية « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأتمم الاعلون
والله معكم ولن يتركم أعمالكم » والآية ٦١ سورة ٨ الأنفال (مدنية) « وان
جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم »

واستعمل القرآن بعض صيغ هذه المادة في معنى الانقياد والخضوع كما في الآية
٢٦ سورة ٣٧ الصافات (مكية) « بل هم مستسلبون »

٢ — على أن القرآن استعمل لفظ (اسلام) وفعله والوصف منه في معنى
شرعى خاص . وقد اختلفوا في هذا المعنى الشرعى على مذاهب ثلاثة : •

١ — قال قائلون : أن الاسلام هو الايمان ، ومعنى الايمان باتفاق أهل العلم
من اللغويين وغيرهم (التصديق) كما في لسان العرب ، وذهب هذا المذهب الفخر
الرازى في تفسيره عند آية « ان الدين عند الله الاسلام » مستدلاً عليه

ب — وقال آخرون : ان لفظ (اسلام) يطلق في لسان الشرع على معنيين :
(أحدهما) الايمان (والثاني) معنى أعم من الايمان وهو الانقياد بالقلب أو
بالظاهر ، وقد نقل هذا المذهب الثوري في شرحه صحيح مسلم عن الخطابي

ومن القائلين بأن لفظ (اسلام) يطلق في لسان الشرع على معنيين من يفسر
هذين المعنيين بما فسرهما به الراغب الاصفهاني . فأحد المعنيين هو الايمان ، وهو
الاعتراف باللسان ، والثاني فوق الايمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف باللسان
اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر .

ج — وقال قائلون : إن الاسلام يطلق شرعاً على ثلاثة معانٍ ،
وعلى هذا جرى الغزالي في الاحياء وهذه المعاني الثلاثة هي

ولا إطلاق الاسلام بمعنى الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح ، مع اطلاق الايمان على التصديق بالقلب فقط ، وبذلك يكون الايمان والاسلام مختلفين ثانيا — أن يكون الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا ، ويكون الايمان عبارة عن التصديق بالقلب ، فالإيمان أخص من الاسلام . ثالثا — أن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا ، وكذا الايمان ، وعلى هذا فالاسلام والايمان مترادفان ٣ — وأثر الفرق الاسلامية ظاهر قوى في هذا الخلاف المرتبط بمسألة احتدم فيها النزاع بين الفرق وهي مسألة الكفر بارتكاب الكبيرة .

فالشعرية لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه ما لم يرتكبه مستحلا له غير معتقد تحرمة . خلافا للخوارج القائلين بأن مرتكب الكبائر يكفر ويؤول عنه الايمان . وخلافا للقدريّة والمعتزلة القائلين بأنه يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر ، فيكون بين الكفر والايمان — الابانة للشعرية ص ١٠ وشرح الفقه الأكبر لأبي منصور الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ص ٢ — ٤ طبع الهند بل ان الفرق جعلت مسألة المعنى الشرعي للاسلام والايمان ، من أسس نزاعها صراحة فالشعرية يقول في الابانة : « ونقول ان الاسلام أوسع من الايمان وليس كل اسلام ايمانا » ص ١٠ ، ويقول الطبرسي الشيعي في تفسيره بجمع البيان : « والاسلام والايمان بمعنى واحد عندنا وعند المعتزلة » ج ١ ص ١٧٥ طبعة فارس سنة ١٣٠٤ هـ فالخلاف على هذه المسألة انما هو في الحقيقة من تمحلات الفرق والتماسها دقائق البحث اندفاعا وراء جموح النظر فهو مصطنع اصطناعا .

٤ — ولكنهم يريدون أن يلتمسوا سببا لهذا الخلاف في القرآن نفسه وعندهم أن منشأه أن علماء الاسلام وجدوا في آيات القرآن ما ذكر فيه الاسلام مقابلا للايمان على وجه يشعر بالتغاير بينهما : « وقالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » آية ١٤ سورة ٩ الحجرات (مدنية) . « عسى

ربه ان طلقه ان يبذله أزواجاً خيراً ممن كن مسلمات مؤمنات ، آية ٥ سورة ٦٦ التحريم (مدينة) . « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات . . آية ٣٥ سورة ٣٣ الاحزاب (مدينة) . « الذين آمنوا بأياتنا وكانوا مسلمين ، آية ٦٩ سورة ٤٣ الزخرف (مكية) . كما وجدوا في آيات ما يدل على أن الاسلام والايمان واحد : « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ، آية ٨٤ سورة ١٠ يونس (مكية) . « فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، آية ٣٥ ، ٣٦ سورة ٥ الذاريات (مكية) . « يمتنون عليك أن أسلبوا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمين عليكم ان هذا كم للايمان ان كنتم صادقين ، آية ١٧ سور ٤٩ الحجرات (مدينة) وقد أرادوا التحلل من هذا الاشكال بأن جعلوا (للاسلام) في لسان الشرع معاني مختلفة .

على أن الامر لا يدعوا الى ذلك فان القرآن استعمل من مادة (سلم) صيغاً كثيرة في معانيها اللغوية كما استعملها العرب واسكنه استحدث للفظ (اسلام) وما اشتق منه معنى واحد شرعياً استعمله في آيات غير قليلة ، وهذا المعنى هو : التوحيد واخلاص النفس لله وحده لا يكون فيها لغيره شرك يعبد ويسمى الها . وهو معنى مولد من المعنى اللغوي الذي هو الخلو والسلامة . قال ابن دريد في كتاب (الاشتقاق) ج ١ ص ٢٢ : « واشتقاق المسلم من قولهم أسلمت لله أى سلم له ضمير ، أما سائر استعمالات القرآن لهذه المادة فاستعمالات لغوية جارية على الاوضاع والاستعمالات العربية الحقيقية وقد ذكر ما يفيد ذلك الزخشرى عند تفسير آية « ان الدين عند الله الاسلام » ،

٥ - والادلة على أن معنى الاسلام الشرعى هو التوحيد واخلاص الضمير لله من وجوه :

(أحدها) ان القرآن يقرر أن الدين واحد على لسان جميع الانبياء وهو الايمان

بما يجب الايمان به ، وانما تختلف الشرائع أى الاحكام العلمية : د شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدي اليه من يشاء ، آية ١٣ سورة ٤٢ الشورى (مكية)

يراجع تفسير الطبرى ، والكشاف ، والرازى ، والبيضاوى . وأولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجرا أن هو إلا ذكرى للعالمين ، آية ٩٠ سورة ٦ الانعام (مكية) يراجع الكشاف . و انزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا آية ٤٨ سورة المائدة (مدنية) . يراجع الطبرى .

ويراجع كتاب مفتاح دار السعادة الطبعة الاولى بمصر ج ٢ ص ٦٢١ ، ١٣٧ وكتاب حجة الله البالغة ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩

ودين الله الواحد الذى لا يدخله الفسخ ولا يختلف باختلاف الانبياء هو فى عرف القرآن المسمى اسلاما د ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فأن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أسلمتم ؟ فان أسلبوا فقد اهدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ، آية ١٩ ، ٢٠ سورة ٣ ال عمران (مدنية) يراجع الكشاف ايضا . اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً آية ٣ سورة ٥ المائدة (مدنية) . وهذه الآية الاخيرة نزلت يوم عرفة فى حجة الوداع . قالوا : ولم يشئ النبي بعدها الا ٨١ ليلة وهى تدل على ان الدين الذى هو الاسلام هو التنصيص على قواعد التوقيف على اصول الشرائع التى كملت فى القرآن . اما الاحكام العملية فهى تختلف باختلاف الانبياء والامم وقد تغير بتغير المظان ، ولم يجمعها القرآن الا

اجمالا بتبيينه الاصول التي تستمد منها تلك الاحكام ولم تكن كملت عند نزول الآية
راجع تفسير البضاوى لهذه الآية والمواقفات للشاطبي ج ٣ ص ٦٢ و ج ٤ ص ١١٦
و ١١٧ وقد ثبت بما ذكرناه ان الدين في عرف القرآن هو الايمان بالاصول الدينية
التي هي حقائق خالدة لا يدخلها النسخ ولا تختلف فيها الانبياء ، وأن الاسلام هو هذا
الدين اذ لادين غيره عند الله (ثانيا) ان صيغة الاسلام ، وردت في القرآن مضافة
في ثمان آيات ، ست منها مدنية وآيتين مكيتين . اما المكيتان فهما : د فن يرد الله ان
يهديه يشرح صدره للاسلام اية ١٢٥ سورة ٦ الانعام (مكية) ، د افن
شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، آية - ٢٢ سورة ٣٩ الزمر (مكيدة)
والآيتان صريحتان في أن الاسلام فيهما هو الايمان الخالص الذي موضعه الصدر
اي القلب .

اما الآيات المدنية فهي : د ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى
الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ، آية ٧ سورة ٦١ الصف (مدنية) . وتفسير
الاسلام في هذه الآية بالايمان تدل عليه الآيات اللاحقة دلالة ظاهرة ، د يحلفون
بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا ... ،
آية ٧٤ سورة ٩ التوبة (مدنية) .

والاسلام في هذه الآية مذكور في مقابلة الكفر وقد قبل الاسلام وما يشق منه
في القرآن بالكفر كما في هذه الآية واية ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا
ايأمركم بالكفر بعد اذ اتمتم مسلمون ، اية ٨٠ سورة ٣ آل عمران (مدنية) . وآية
د ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، آية ٢ سورة ١٥ الحجر (مكية)
وبالشرك في آيات عدة منها . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان
حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، آية ٦٧ سورة ٣ - آل عمران (مدنية) وآية
د قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطمع ولا يطمع . قل إني
أمرت ان أكون اول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين ، آية ١٤ سورة ٦

الانعام (مكية) . أما باقي الآيات المدنية فهي : آية ١٧ سورة ٩ الحجرات «مدنية» وهي من الآيات التي ذكرها كتاب «حجج القرآن» ، في حجج القائلين بأن الإيمان والاسلام واحد . وآية ١٩ سورة ٣ ال عمران ، وآية «ومن يتبع غير الاسلام ديناً فليكن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» آية ٨٥ سورة ٣ ال عمران وآية ٣ سورة المائدة .

وقد بين الزمخشري وغيره من المفسرين في تفسير هذه الآيات ان الاسلام فيها هو التوحيد واسلام الوجه لله . وذلك يقتضى ان لفظ «اسلام» لم يرد في القرآن الا مستعملاً في معناه الشرعى مرادفاً للإيمان .

«ثالثاً» ان القرآن سمي أتباع دين محمد «الذين آمنوا» في آيات منها : «ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» آية ٦٢ سورة البقرة «مدنية» . وآية «ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون والنصارى ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» آية ٦٩ سورة ٥ المائدة «مدنية» . وآية «ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد» آية ١٧ سورة ٢٢ الحج «مدنية» . كما سماهم المسلمين في آيات منها : «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، مله ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا . . .» آية ٧٨ سورة ٢٢ الحج «مدنية» . واية «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون» آية ١٠٢ سورة ٣ ال عمران «مدنية» . وفي ذلك اشعار بان معنى الإيمان والاسلام متفق غير مختلف

٦ — واذا كان الاسلام في عرف القرآن هو القواعد الأصولية التي يجب الإيمان بها والتي جمعها القرآن كاملة بحيث يعرف الاسلام بأنه هو ما اوحاه الله الى

نبيه محمد في القرآن ، وأمره بتبيينه للناس كما تشير اليه آية ، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ... آية ٤٤ سورة ١٦ النحل ، مكية ، فقد تطور استعمال لفظ الاسلام الى ما يشمل الاصول الاعتقادية ، او الفروع العملية وتطور استعمال لفظ الدين ، كذلك فاصبح تعريف الدين عند المسلمين هو : وضع الهى سائق لذوى العقول باختيارهم اياه الى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل . وهذا يشمل العقائد والاعمال ، كشاف اصلاحات الفنون ، ومع هذا التطور فقد بقيت بين المسلمين آثار العرف الشرعى الى اليوم فهم يقسمون الدين الى فروع واصول باعتباره منقسما الى معرفة هى الاصل وطاعة هى الفرع . ويقولون : ان العقائد يقينية فلا بد ان تكون ثابتة بطريق دينى يقينى قطعى وهو القرآن وحده إذ هو المقطوع به وحده فى الجملة والتفصيل اما الاحكام العملية فيكفى فيها الظن ، شرح المواقف ج ١ ص ٣٨ المواقفات ج ٤ ص ٣ ويقولون : ان النسخ لا يكون فى مسائل علم الكلام وانما يكون فى مسائل الفقه

ثم إن الخلاف بين المسلمين فى شؤون الاحكام العملية ليس له خطر الخلاف فى الامور الاعتقادية فالآراء المتباينة فى الاولى تسمى مذاهب ، وانباع كل يعتقدون ان مذهبهم صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرهم خطأ يحتمل الصواب . بل يرى بعضهم ان الحق يتعدد فى المسائل الاجتهادية باعتبار ان الله لم يكلف الناس الا بأن يبذلوا جهدهم فى تحرى الصواب فما وصلوا اليه بجهدهم فهو بالنسبة لهم الحق لا يجوز العدول عنه . ولست تجد شيئا من ذلك فى امور العقائد التى يؤدى الاختلاف فيها الى تفرق الفرق يكفر بعضها بعضا . والحق فى مسائل الاعتقاد واحد لا يتعدد وكل ما سواه باطل ، أحسن الفروض بالنسبة لصاحبها ان يعذر فينجو من عقاب الاخذ بالباطل « فصول البدائع فى أصول الشرائع » ج ٢ ص ٤١٧ — ٤٢٤

هذا والاعمال البدنية نفسها لا يكون لها اعتبار فى دين المسلمين بحسب صورها الظاهر وانما هى معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التى هى مصدرها ، يراجع كتاب « حجة الله البالغة » ج ١ ص ٤

الفصل الرابع

الدعوة الإسلامية في رأي السير توماس ارنولد

يقول الأديب محمد مهدي علام : لقد كتب الأوروبيون عامة ، والانجليز خاصة مئات الكتب عن الاسلام والمسلمين ، بعضها بحوث تاريخية ، ودراسات أدبية ، وبعضها وصف لأسفار ، وتسليط لمعادات واوضاع اسلامية او منجولة للاسلام ، كما ان بعضها قصصى أقرب الى الخرافة منه الى الحقيقة . وهناك عدد محدود من كتاب الانكليز امتازوا على سواهم بتوفرهم على البحوث الاسلامية ، وباخلاصهم للعلم في ذاته وبتزهمهم عن الغرض الذي يضل بالكاتب عن سواء السبيل ومن هؤلاء الذين بنوا دراساتهم على معرفتهم بالعريضة وآدابها تومس كرليل (Thomas Carlyle) . وذلك لميزة امتاز بها ، وهي أنه كان اسبق الكتاب الانكليز الى انصاف نبينا عليه السلام ، وديننا الحنيف . وطبيعي اني لن اعرض لكتاب القصص الذين قد يجمع بهم خيالهم الى كل عجيب غريب ، غير واقفين لتمحيصه لمعرفة مبلغ اتصاله بالاسلام ، وما عسى ان يكون فيه من عادات وتقاليده ترجع الى الاقليم نفسه ولاصلة لها بالاسلام . وثمة امر آخر لابد لي من الادلاء به وهو اني اذ اختار تلك الصفحات التي تمثل في رأي أفضل ما كتب الانكليز عن الاسلام ، من وجهة البحث العلمي ، لا انتقيد ضرورة بتأييد كل ما فيها من آراء ولا بمعارضة . فأنا انما اختارها لأنني ارى ان كاتبها قد سطر وافيا آراءه التي يدينون بها عن الموضوع

من غير تحيز ، وهذا هو ما يحلها منزلة الاحترام من نفسى ، ويجعلها اهلا لمرضاها على القراء فان منهم من لا يتردد فى اعلاء كلمة الاسلام ، والدفاع عنه دفاعا مستندا الى الحقائق المسلم بها ، والتاريخ الموثوق به . كذلك منهم من يعترف للاسلام ببعض الجهود والاعتبارات التى يعلمون انها تمتاز على نظيراتها فى المسيحية — يكتبون هذا وهم مع ذلك من خيرة المسيحيين الذين لم يتخلوا عن عقيدتهم . وهذا بما يزيد فى قيمة آرائهم ، إذ أنها لم تصدر عن تشيع للاسلام لانهم اعتنقوه ، فدفعهم الغيرة والحماسة الى الذود عن حياته ، وانما هى ثمرة لبعوث دبوب ، واستخلاص للحقائق من بين أتياه الخرافات والخزعبلات .

ولابدأ الآن بصفحة من كتاب الدعوة الاسلامية، (The Preaching of Islam) الذى ألفه المرحوم الاستاذ سيز تومس آرنولد Sir Thomas Arnold . وقد كان لى شرف صداقته منذ ايام دراستى فى جامعة لندن التى كان يحل فيها كرسى الاستاذ للغة العربية ، حتى وفاته منذ عشرة اعوام . وقد تناسول المؤلف فيما يقرب من خمسمائة صفحة تاريخ الدعوة الاسلامية منذ صدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر الى فجر القرن الحاضر ، منتقلا بالقارىء من قطر الى قطر ، معددا الوسائل التى استخدمها الداعون الى الاسلام ، مستندا فى كل ما كتب الى الاسانيد التاريخية . ولقد وجه كثيرا من اهتمامه الى التفرقة بين ما كان شائعا فى أوربا بما يسمى تاريخ الاضطهادات الاسلامية ، وتاريخ الدعوة الاسلامية . فهو ينحى اللائمة على خطاب الليل الذين يتخذون من بعض الحوادث المنعزلة التى لا تستند الى روح الاسلام سلاحا يشهرونه فى وجهه الاسلام ، بدعوى انه دين القتال ، قام على أسنة الرماح ، وحاد السيوف . استمعوا اليه حين يقول : « ولقد كان اول الجهر بمبادئ هذه « العقيدة الاسلامية » الى أهل جزيرة العرب . . . على لسان نبي جمع تحت رايته امة كانت من قبل شعوبا وقبائل متفرقة . وبما منحهم هذه الحياة القومية الجديدة من روح ، وبالحماسة والغيرة اللتين وهبتا لجيوشهم قوة تكاد تستعصى على

الهزيمة ، تدفع جموعهم في ثلاث قارات فاتحين حاكمين . ولقد كانت سورية ، فلسطين ، ومصر ، وشمال افريقية ، وبلاد فارس اول البلاد التي اذعنت لحكمهم وبتقدمهم غربا الى اسبانيا ، وشرقا الى ما وراء نهر السند ، كان اتباع النبي - بعد وفاته بقرن واحد - حكاما على عاهلية اعظم من العاهلية الرومانية ابان اوج عظمتها ، ويبين الكاتب قوة الاسلام الروحية في انتشاره اذ يقول :

ومع ان هذه العالمية الواسعة قد انقسمت فيما بعد ، وتضاءل السلطان السياسي الاسلام ، ظلت فتوحاته الروحية في طريقها لا يعترضها معترض . ففي الوقت الذي خربت فيه عصابات المغول بغداد (سنة ١٢٥٨ م) ، وأغرقت في بحر من الدماء بقايا مجد العباسيين ، وفي الوقت الذي طرد فردناند فيه المسلمين من قرطبة . . (سنة ١٢٣٦ م) ، ودفعت الجزيرة للملك المسيحي ، غرناطة آخر معقل للمسلمين في اسبانيا ن الاسلام قد اكتسب اتباعا جديدا في جزيرة سومطرة ، كما كان على وشك ان يبدأ انتشاره المظفر في جزائر الملايو . .

ويزيد المؤلف هذه النقطة بيانا بذكر حادثتين في التاريخ الاسلامي تدلان على تلك العظمة الروحية التي تغلبت على عوامل الضعف السياسي . ولقد حقق الاسلام في ايام تدهوره السياسي بعض انتصاراته الرائعة : ففي حادثتين تاريخيتين هامتين وطئت اقدام الكفار المتبررين رقاب المسلمين - الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر ، - والمغول في القرن الثالث عشر - وفي كلتا الحالتين اعتنق الغالب دين المغلوب . كذلك نقل المبشرون المسلمون عقيدتهم من غير مساعدة سياسية الى افريقية الوسطى والصين ، وجزائر الهند الشرقية . وكما تعيش الديانات الأخرى في قلب البلاد الاسلامية تشملها رعاية الحكم الاسلامي ، كذلك يعيش الاسلام - بما له من قوة معنوية ، وقدرة على مشاكلة العصور والبيئات المختلفة - بين الأمم غير المسلمة . يقول المؤلف : « واليوم تمتد العقيدة الاسلامية من مراکش الى زنجبار ، ومن سيبيريا الى الصين ، ومن البوسنة الى غانة الجديدة . وكذلك نجد

عدد من الجمعات الصغيرة التي تعتنق دين النبي محمد في بعض البلاد التي من بين سكانها عدد كبير من المسلمين كالصين وروسيا ، مما يشهد بحياة العقيدة الاسلامية بين غير المسلمين . ومن هؤلاء المسلمين من يتكلمون اللغة البولندية ومنهم من هم من اصل تاتاري من لتوانيا

ولأعد الى سيرتومس ارنولد اذ يقول : « ويرجع انتشار هذه العقيدة في مثل تلك الرقعة القسيحة من الكرة الأرضية الى اسباب ، اجتماعية ، وسياسية ، ودينية . ولكن من أقوى الاسباب الفعالة في انتاج هذه النتيجة الباهرة تلك الجهود المتواصلة للمبشرين المسلمين الذين افنوا انفسهم مقتدين في ذلك بالنبي نفسه في سبيل هداية الكفار . » وعلن الكاتب ان التبشير اساس من أسس لاسلام الأولى ، لافكر نبقت متأخرة في عصر من عصوره ، مستشهادة على ذلك بعدد من آي القران الكريم ولكنه ينحى باللائمة على كتاب الأوربيين الذين كانوا يصورون الدعاة من المسلمين بصورة الطغاة الجبارين ، فيقول :

« على انه لا يجوز لنا ان نلمس الروح التبشيرية للاسلام في قسوة المضطهدين ، او حماسة المتعصبين ، الا بمقدار مايجوز لنا ان نلمسها في مغامرات تلك الشخصية الخرافية — شخصية الجندي المسلم يحمل في احدى يديه سيفاء وفي الأخرى مصحفاً ويشير المؤلف الى ان هذا الخطأ في تفسير الفتح الاسلامية نشأ من الاعتقاد بأن الحروب التي حاربها المسلمون لمد سلطانهم على بلاد غير المؤمنين كانت ترمي الى ان الغرض من تلك الحروب هو تحويلهم عن دينهم . ثم بقول :

واتما نلمس روح التبشير الاسلامي في المجهودات الرزينة الخالية من كل حفيان ، التي نقل بها رجال الدين والتجار عقيدتهم الى كل ريع من ربوع المعمورة ولم يكن اتباع هذه الوسائل السلمية في الدعوة والتبشير مقصودا على الاحوال التي جعلت فيها الظروف السياسية استخدام القوة والقسوة مستحيلا أو عملا اخرق

وجهة الاسلام في رأى الاستاذ جب

يقول الاستاذ محمد مهدى علام منذ نحو عشرة اعوام أنه كان يتناول الشاى مع الاستاذ د جب ، فى القاهرة : « وساقنا الحديث يومئذ الى البحث فى تقدير كتابات مؤلف مصرى له صيت ذائع فى الشرق الاسلامى . واذكر اننى قلت للاستاذ «جب» حينئذ اننى ارى ذلك المؤلف حاطب ليل يجمع بين الغث والسمين . ولكنه قال لى نه يهتم بكتاباته لا لقيمتها فى ذاتها ، بل لأنها تمثل مرحلة من مراحل التفكير فى البلاد الاسلامية ، وأنه لذلك يجمع كل كتاباته غنة كانت أو سميصة ، لأنه مادام يكتب ، ومادام يجد قراءة ، فلا مفر للمؤرخ الأدبى من درجه فى سجل المؤلفين . ولقد وقفت يومئذ على ناحية اخرى من النواحي العلمية التى يشغل بها الاستاذ جب لى جانب لغوياته وأدبياته - تلك هى تاريخ الحركة الفكرية للعالم الاسلامى . وأسوق اليكم ملخصا لفصل كتبه فى كتابه «وجهة الاسلام» ضمنه رأيه فى ذلك الموضوع .

يحاول المؤلف ان يجيب عن سؤال هام وهو : هل للعالم الاسلامى أواصر قوية ، أو يمكن تقويتها ، بحيث تضمن بقاءه كتلة متينة ، عوامل تسيطر على اتجاها شعوبه وتطورهم ، وتجعل منهم فئة ثقافية مستقلة ؟ أم أن التهام المدنية الغربية به ، وانتشار الآراء الحديثة بين اهله ، ونشوء الحاجات المتجددة ، سيفرق كلمة الأمم الاسلامية ، ويفصم عرى الوحدة الاسلامية التى تجمع مئات الملايين تحت دين واحد ونظام واحد ،

ويرى الكاتب ان « أهم ظاهرة بدت فى البلاد الاسلامية منذ القرن العشرين هى انها لا تقتفى أثر المدنية الغربية بحسب ، بل ترغب فى ذلك الاقتفاء . ولقد يصعب ان يجد امة اسلامية واحدة قد رفضت عوامل المدنية الغربية رفضا تاما فى كل منحنى

من مناحى حياتها وتفكيرها . فلم نر زعيما إسلاميا قد نهض ينادى بما ينادى به غاندى من اشهار الحرب على المدنية ، الشيطانية ، بل على العكس من ذلك — على الرغم من وفرة النقد الموجه (من المسلمين) إلى فروع المدنية ، المادية ، — ينادى كل زعيم بأن حزبه يرى إلى ادارة شئون بلاده السياسية والاقتصادية على الأساليب الغربية .

ومن الطبعي أن البلاد المختلفة في العالم الإسلامى تختلف في مقدار ما انتحلت من المدنية الغربية ، ولكن الذى لاشك فيه أنها قد أخذت جميعا بقدر من تلك المدنية . ثم يرجع الكتاب ذلك الاقتباس إلى مراحل عديدة . أولا :

« وأول مرحلة كانت بالتقليد والاقتباس من الأوضاع الظاهرية للمدينة الغربية . » وقد بدأ ذلك باقتباس الأسلحة والفنون الحربية منذ أكثر من قرن . في بعض البلاد الإسلامية . وقد تلا ذلك عادة — وليس دائما — اقتباس الرى الغربى ، وفي بعض البلاد تناول ذلك هندسة البناء ، والأثاث ، والعادات الاجتماعية فالمسافر الذى يرسو على مدينة الإسكندرية أو بور سعيد ، يسافر إلى القاهرة في قطار فاخر ، وينزل في فندق في وسط المدينة ، أو يقيم في شقة أو بيت في الضواحي . ويجد كل نوع من المسليات العامة التى تقدمها اليه أية مدينة أوربية ولقد تختلف صور الحياة في الريف عنها في المدينة ، ولكن المتطلع لا يلبث أن يرى آثارا من تلك الحضارة تمتد الى الريف . فالسيارة والطيارة ومضخة البترول قد احتلت مكانها إلى جانب البندقية حتى في صحراء جزيرة العرب وفي وسط الصحراء الكبرى .

ويخرج المؤلف من هذه الملاحظات بنتيجة : هى أن سكان البلاد الإسلامية يرغبون في الانتفاع بالمخترعات الحديثة . وهو لاشك اتجاه يدل على اعترافهم بأن الغرب قد سبق الشرق في تلك الأمور ، ولكنه لا يستدعى أنهم ينظرون إلى الغرب في الشؤون الاجتماعية والسياسية نظرة احترام وقبول . وأبعد من هذا أن نستنتج أن قبولهم لتلك المخترعات دليل على تشربهم بروح المدنية الغربية . وما

لا شك فيه أنها لا تدل على خروجهم على الدين الاسلامى أو تضعف تعلقهم به .
ويضرب المؤلف مثلاً على تعلق المسلمين بدينهم ، حتى في شعارهم ومظاهرهم ، بالقبعة
التي رفضت لبسها البلاد الاسلامية التي ترتدى كل ماعداها من الملابس الاوربية
(إذا استثنينا تركيا) . فليكن كل عضو من الأعضاء أوريبا ، ولكن الرأس لا بد
أن يبقى اسلاميا . بل أن تركيا نفسها لم تقبل لبس القبعة ألا بعد كفاح عانت فيه
الحكومة الكالية أكثر مما عانت في ادخال أية عادة أوربية أخرى . ولقد أراد
ملك الأفغان السابق . أمان الله خان ، أن يلبس قومه القبعة ، فخلعوا عن رأسه التاج
« وكانت المرحلة الثانية باقتباس العلوم التطبيقية والصناعات الاوربية للحياة
الشرقية فتنمو الصناعة واتساع المدن القديمة ذات الأسوار اتساعا
هظليا أنشأ مجموعة من السكان المدنيين معظمهم من العمال والصناع
كما أن ادخال الآلات ووسائل النقل الحديثة قد استلزم وجود فئة من
العمال تشبه نظيرتها في أوربا وبمثل ذلك تطورت حالة الفلاح وصاحب
الأرض يحكم استخدام الوسائل الحديثة في الري والنقل والتسميد الخ ثم
أشار الكاتب إشارة عاجلة إلى نشأة المصارف القومية « كبنك مصر » وفروعه
بسوريا .

ويرى المؤلف أن أهم ظواهر المدنية الغربية في الشرق الاسلامى هي اقتباس
نظم الحكم ، ثم التربية والتعليم ، ثم الصحافة التي تقوم بمهمة الربى لعدد من القراء
الذين يعتمدون عليها في تنوير أذهانهم ، كما أنها لسان القومية ، ومغذية العاطفة
السياسية .

ويستخلص المؤلف من كل ما كتب أن الاسلام من حيث هو دين وعقيدة لم
يفقد من سلطانه شيئا يذكر على يد المدنية الغربية . أما في الحياة الاجتماعية فإن
المؤلف يرى أن المدنية الغربية هي الآن صاحبة النفوذ ويبدو من المستحيل
توجيه التيار الحديث عكس وجهته ، وإعادة الاسلام الى ما كان له من المنزلة القديمة

التي تجعله محتكرا لكل أثر اجتماعي وسياسي . . . وتريد أن نخالف المؤلف هنا في أن الإسلام كان قد ادعى أو يدعى لنفسه أنه الحكم الفاصل في الشئون الاجتماعية والسياسية . فلقد جاء الإسلام بنظم عامة في السياسة والاجتماع ، ولكنه ترك تطبيقها للمسلمين على حسب عصورهم وبيئاتهم ، يختارون منها ما يصلح لهم مادام في حدود تلك القواعد العامة . ألم يقل نبينا عليه الصلاة والسلام : « أنتم أعلم بأمور دينكم » ؟ ونظن أن المؤلف يقصد بعض الزميتين من رجال الدين في عصور سابقة إذ كانوا يريدون أن يفرضوا الإسلام على كل شيء ، وأن يفرضوا كل شيء على الإسلام ، فأساءوا فهم الإسلام وأساءوا إليه . ويطمئنني فيما أقول أن المؤلف راجع نفسه فيما بعد فيقول (ص ٣٤٣) : « ما زالت الأمم المسلمة شديدة الاستمسك بدينهم ، قوية اليقين بأنه خير دين » وأن العوامل الفعالة للإسلام من حيث هو عقيدة ومن حيث هو قانون للحياة ، ومن حيث هو نظام أخلاقي لسلوك البشر ، ما زالت قائمة على أساسها . »

ويزيدني طمأنينة أنه يضيف إلى ذلك ما يشعر بأنه كان يفكر في أولئك المتعنتين لا في الإسلام نفسه إذ يقول : « إن الساعة العنصرية التي كانت تتهدد (الإسلام) في نهاية القرن التاسع عشر قد انقضت ، ويرجع أكثر الفضل في ذلك إلى جهود الشيخ محمد عبده وتلاميذه . » أجل لقد قضت جهود الأستاذ الإمام وجهود السيد أحمد خان بالهند على تلك الزمالة التي كادت تشل الإسلام وتعوق تقدمه . فأطلقت من النشاط المتجدد ما لام بين تعاليمه وأوضاعه والحياة الجديدة للمسلمين في مختلف ديارهم

ويرى المؤلف أن معارضة الناس في قبول الإسلام قبولاً أعمى ، والمطالبة بالحجة والدليل قد أثمرت ربما كبيرا للإسلام لاختساره له ، كما ينادى بأن خلو الثقافة الأوروبية من الروح الأخلاقية : قد أثار في المفكرين من المسلمين روح الأصرار على الأخلاقية الإسلامية ، وخاصة روح الاخاء الذي هو عماد الحياة

الاجتماعية في الاسلام . . . وكلما تقدمت الديمقراطية في الدول القومية الحديثة زاد سلطان الفسكرة الاسلامية في علاقاتهم السياسية .

غير أن للاسلام فضلا آخر يؤديه للانسانية . فإنه ما برح أقرب الى الشرق من أوروبا . وله تقاليد مجيدة في التفاهم المشترك والتعاون بين الأمم . فلم تنجح جماعة في العالم نجاح جماعة المسلمين في توحيد مثل ذلك العدد الكبير المتنوع من الأجناس البشرية توحيداً تضمنت لهم به حق المساواة . فالمسلمون في البلاد الاسلامية وفي غيرها من البلاد التي هم فيها أقليات كالصين واليابان قد برهنوا على أن الاسلام ما برح قادراً على الملائمة بين الأجناس والتقاليد التي قد تبدو مستعصية على الملائمة . وإذا كان مقدراً للشقاق القائم بين أهل الشرق وأهل الغرب أن يحمل حمله التعاون بينهم فوساطة الاسلام في ذلك شرط لا مفر منه . ففي يده إلى حد كبير حل المشكلة التي تواجه أوروبا في علاقاتها بالشرق .

رسالة محمد والايمن بها

يقول محمد فريد وحدي بك عن رسالة محمد : لقد توسع الكتاب المعاصرون في استعمال كلمة (رسالة) ، فأطلقوها على كل عمل أدبي أو اجتماعي يضطلع به فرد من الأفراد لفائدة المجتمع الذي يعيش فيه ، فيقولون : قد أدى فلان رسالته الفنية على أكمل حال ، ونال إعجاب مواطنيه وشكرهم .

وهم ما استحسنوا هذا التوسع إلا لدلالته على أن كل انسان مدفوع بتأثير ميوله الطبيعية لأن يضطلع بعمل من الأعمال لمصلحة الجماعة التي يعيش بين ظهرانها وهو تعبير مجازي منقول عن بعض اللغات الاجنبية ، ومؤسس على المقررات البسيكولوجية .

فاذا حاول مفكر لا يعتقد بإمكان الوحي ، ولا يقول بالنبوة ، أن يقدر قدر الرسالة التي أداها محمد صلى الله عليه وسلم للمجتمع الذي نشأ فيه وللعالم أجمع ، في حدود الاستطاعة البشرية (العادية) ، وجد نفسه حيال حوادث ضخمة لا يعقل أن تتم الا في خلال آماذ طويلة ، وعقب تطورات متوالية ، ومقدمات متتابعة .

ماذا يجد ؟ يجد أنه صلى الله عليه وسلم ، في خلال سنوات معدودة ، أخرج أمة طغرة من حالة قبيلية كانت عليها ، إلى وحدة اجتماعية قوية التماسك ، سقطت فيها كل مميزات الحالة الأولى ، من التمايز بالانساب ، والتباهي بالألقاب ، والتناحر لانفه الاسباب ، فضلاً عن تجردها من كل غاية اجتماعية ؛ ونزعة عهرائية . ووجد جماعات كانت من حياتها الادبية في جاهلية جهلاء ، تتقلب في حمايتها ، وتعمل على ما تقتضيه من اعتصام حقوق المستضعفين ، وواد البنات والبنين ، وتأليه الاقوياء لاعلين ، والرتوع في أقذار الشهوات الجسدية ، وأقذاء المطالب الحيوانية ، عارية

من كل المطامع العقلية ، والمرامى العلوية ، نقلها محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمة تدين بالكرامة الانسانية ، وتشرب إلى المسكانات العقلية ، وتقوم على أرقى المبادئ الحكيمة ، وأشرف الأصول الأدبية ، وترمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، غير مفرقة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا مكترثة بالحوامل التي كانت أقامت الكبرياء ، وفرضتها الجهالة العمياء .

أمة لها مقاصد عالمية ، ومرام قصية ، من توحيد البشرية ، وإحالة أديانها إلى وحدتها الأصلية ، وحسم ما بينها من أسباب الخلافات العرضية .

ويجد أمة كانت تفخر بالأمية ، وتعزز بالحياة البدوية ، وتباهى بالتحلل من جميع الروابط الاجتماعية . قد استحالت فيها الحماسة الحربية إلى ضراوة وحشية ، والنزعة الاستقلالية إلى فوضى حيوانية ، لا يعتدون بأصل عقلي ، ولا يأبهون بمقرر علمي ، ولا يباليون بنظام عالمي ، انقطعوا في صحاريهم وديانهم إلى تقاليد موروثة لا يبيغون عنها حولا ، كانوا يقولون كلما نبههم إلى الانتقال عما هم عليه منذرهم : « انهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » ، وهذا نهاية ما يعرف من الجمود على القديم .

فما لبث محمد صلى الله عليه وسلم الاسنين حتى انقلبت حالتهم إلى ضد ما كانوا عليهم ، فرأيتهم منهومين . بالعلم ، مشغوفين بالنظام ، معنيين بالترابط والنظام ، قد استحالت ضرواتهم الحربية إلى شجاعة مشبعة بروح الرحمة ، وقافين مع الأصول معتدين بالمعارف المحررة كأنهم أعضاء أفاديميات ، محترمين للنظام العالمي العام ، وعاملين على الاندماج فيه .

وأعجب من كل هذا وأدعى للدهش والخيرة أن محمداً ﷺ أحاط إصلاحه هذا بضروب من المنازعات والحوافظ وأسباب البقاء وعوامل التطور ، جعلت عمله ثابتاً مستقراً لا يترزع بوفاته ، ولا ينحل بما يطرأ عليه من انتفالات الحكم

وآفاته ، فأحدث هذا المجتمع الفتى القليل العدد في المجموعة العالمية من التعولات ما لم يكن يحلم به أحد ، فزالت بواسطته ودل ، وخلقتها ذول ، وولدت مبادئ في الدين والأدب والسياسة لم تكن موجودة ونازعت الحياة مبادئ عنيفة كان لها السلطان المطلق على العقول والقلوب آماداً طويلة ، واضطرتها الى الانحسار والانكماش ، وما كانت غير برهة من الزمان حتى تبدلت الأرض غير الأرض والعقول غير العقول ، فاتجه العالم مدفوعاً بحركات قاهرة الى الخروج من جمود طال عليه الأمد فيه ، وحلت به حياة جديدة ، كان من آثارها نهوض الشرق من كبوته ، وتنبه الغرب من غفلته ، ولا يزال العالم يتطور تحت تأثير ذلك الانقلاب ولما يتم تطوره ، وإن يوماً من أيام الانتقالات الاجتماعية كالف سنة

فإذا أراد المتأمل بعد هذا البيان المجمل أن يقدر قدر رسالة محمد بين الرسائل الإنسانية التي قام بها الأفاضل ، ولم يكن مؤمناً بالنهضة ، حار أن يجد لها معياراً يزن بها ، وإذا عمد الى المقارنة بينها وبين غيرها لانتقول يجد البون بعيداً بينهما ، ولكننا نقول لا يجد تلك المقارنة ممكنة

نعم ، قد نبغ في الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنهم دون استثناء جاموا بالأوليات ، ثم كمل عملهم في قرون كثيرة بوساطة من تابعوا بعدهم من تلاميذهم فإن كانوا بسبيل تأليف أمة انحصر جهدهم في وضع الأساس ، لأن أعمارهم لا تتسع لأكثر من ذلك ، وتركوا لمن يجيء بعدهم رفع البناء ، وإن كانوا بصدد اصلاح المعتقدات ، وتهذيب العادات ، أنوا ببعض المقدمات ، ووكلوا لأخلاقهم القيام بما يستدعيه هذا الإصلاح من المحاولات ، ولكن محمد أجا بالنهايات ، فوضع أساس الاجتماع وأقام عليه البناء ، وأصلح المعتقدات بعد أن اجتث الوثنية اجتثاثاً لا تقوم لها بعده قائمة هناك ، وهذب النفوس ، وطهر القلوب ، وأثار العقول ، ولم يترك الأمة إلا وهي مثل أعلى لما يمكن أن تكون عليه جماعة من صحة الاعتقاد ، وترباط الآحاد ، وتوحد الوجهات ، وتكافل الطبقات ، وتضافر المهات على بلوغ أقصى الغايات

هذا من ناحية بناء المجتمع ، وأما من ناحية الظلم التي يجب أن يقوم عليها ، فقد جرت السنن العادية على أن تكون في مبدأ أمرها أولية ، ثم تتطور على طريقة تدريجية ، حتى تصل الى ما تصل اليه النظم الوضعية ، في مدى آماذ تعدد بالقرون ، ولكن محمداً خرق هذه السنة ، ولم يترك الأمة إلا بعد أن ترك فيها كتاباً شمل من أصول التشريع ، ومبادئ الاجتماع الراقى من العدالة والمساواة والحرية والديمقراطية وحدود الحقوق والواجبات ، ما لم تصل الأمم المتقدمة الى بعضه الا في العصور المتأخرة ، بعد قرون قضتها في الانقلابات والفتن والتورات

فاذا كان قصارى رسالة العبقري ، ركناً يقيمه في بناء المجتمع ، أو تجديداً يوفق اليه في ناحية من نواحي النشاط العلمى أو العملى ، ولهذا السبب يحشر في زمرة بناء الإنسانية ، ويتنافس البسيكولوجيون في دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وقد يبالغون فيعنون بقياس جمجمته ، وتعيين نسبة مخه الى سائر جسده ، وفي أية مكانة تضع رسالة محمد ، وبأية نهمة يجب أن يعكف على دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وفي أية زمرة يجب أن يحشر بعد ذلك من مؤسسى الإنسانية ؟

من الظلم البين أن نضعه في مستوى أصحاب الرسائل المجازية ، لأن البون سحيق بينهم وبينه ، أفلا يكون من العدل أن نضعه حيث وضع هو نفسه : بشر يوحى اليه ، ورسول خلت من قبله الرسل ؟

هنا تقوم عقبة كادام في طريق الذين لا يعتقدون بالوحى ولا بالنبوة ، فتراهم قد يعترفون بأن ما قام به محمد ﷺ عمل قد ليس له شبيه في أعمال العباقر ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعدوه من آثار عالم مافوق الطبيعة ، لأن هذا العالم عندهم غير موجود الا في خيال الذين يقولون به ، فكل ما في الكون في مذهبهم كوفى ، وكل عمل يتم فيه طبيعى ، حتى الروح والعقل والنواميس ، والنظم الوجودية ، والإبداعات الصورية والمعنوية

فهم يقولون : العلم الذى يجب أن يعول عليه دون غيره ، يشترط أن يكون

لكل حقيقة دليل محسوس ، ولا دليل لكم على امكان الوحي ، ولا على النبوة ،
الا ما تنتزعونه من خيالكم انتزاعاً ، فلا حق لكم في تكليفنا بعقيدة ليس لها أصل
تقوم عليه على شرط العلم

نقول : لو كنتم عنيتم باستيعاب المقررات العلية ، لما تعذر أن تجدوا للوحي
والنبوة ما يسوغهما منها . أما علمتم أن التنويم المغناطيسى أصبح من المقررات
العلية ، وأنه كشف أن للإنسان عقلاً باطنياً أرق من عقله العادى ، هذا لا يمكنه
أن يستمد معرفته الا بوساطة آلات وأعصاب ، وذلك يستمدها بذاته بغير وساطة
آلات ولا أعصاب ، وهذا ادراكه للوجودات محصور فى حدود الحواس ،
ودلك ادراكه غير محصور فيها ، فهو يرى ويسمع ويحس ويشم ويذوق ما هو
بعيد عنه بألوف الأميال ، وهذا تقوم الحوائل المادية عقبه دون ادراكه ، وذلك
لا يصدده حائل عن الادراك ، فهو متصل بالعالم اتصالاً مباشراً على حالة تشعر
بأنه من عالم أرفع منه بما لا يقدر ، ولا يججبه عن الظهور الا الحالة العادية التى
عليها الانسان ، ولكن متى يطلب هذه الحالة العادية بوساطة النوم المغناطيسى ،
خلقتها الحياة الحقيقية للروح ، ورثى رأى العين أنها ليست فى حاجة الى الحواس
الخنس فى الاتصال بمصادر المعرفة ، وأنها لا تنقيد بحوائل الزمان والمكان ، فاذا
كلفت أن تأتى بخبر من أقصى الأرض ، انتقلت اليه بمجرد الارادة ، وأنتك بما
تسأل عنه كأنه بجوارها ، وان سألتها فى أى عالم تعيش ؟ أجابتك أنها متصلة بعالم
ما فوق الطبيعة ، وأنها تقابل الأرواح المجردة فيه

أفلا تدل هذه الظواهر المحسوسة على أن للروح الانسانية اتصالاً باطنياً بعالم
أرفع من هذا العالم المادى ، متصل فيه بالأرواح المجردة ، وتستمد منه ما هى فى
حاجة اليه من القوة والمعرفة ، وأن (العلم الرسمى نفسه) هو الذى كشف هذا
الامر بعد أن دأب على دراسته من سنة (١٧٧٥) حيث أعلنه الدكتور (مسمر) ،
ودأب على تمحيصه الباحثون الى اليوم ؟

هذه حالة العقل الباطن في الانسان العادي ، فإذا تكون حالة هذا العقل اذا بلغ الانسان درجة الصفاء ، كما هو عند بعض الأفذاذ من الذين اتفق على عدم رسلا وأنبياء ؟ ألا يكون أشد اتصالا بالعالم الروحاني ، وأكثر قبولا للفيض الالهي ، من طريق غير طريق الحواس ، وهو ما اتفق على تسميته بالوحي ؟

ان (العلم) أثبت بما شاهدته من آثار ما أسماه بالعبقريّة ، ان من الناس من يلهمون بالابداع في بعض النواحي الهاماً من غير طريق التفكير ولا الجهد العقلي ، فيأتون بما لم يسبقهم اليه أحد ولم يكونوا هم يتخيلونه تخيلاً ، وكان (العلم) يسجل هذه الحوادث الفذة ، ويمتنع عن تعليلها لاستعصائها على كل آلة ، حتى اكتشف العقل الباطن ، وعرف أن له اتصالات باطنية لاعلم لصاحبه بها في (حالته العادية) فسهل تعليلها من هذا الطريق ، أفلا يمكن تعليل النبوة بهذه الاتصالات نفسها وان كانت هذه أرقى من تلك ، وأبعد منها أثراً ، وأرفع شأناً ؟

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول : في يوم العشرين من رمضان سنة سبع من الهجرة ، وقد أخذت مكة صولة الجيش الاسلامي ، ودهمها جند التوحيد من أعلاها وأسفلها ، خالد بن الوليد قائد الميمنة يدخل من الليط أسفل مكة يقود جموعاً من غفار وأسلم ومزينة وغيرها ، والزبير بن العوام قائد الميسرة يدخل من كدى أعلى مكة ، وأبو عبيدة بن الجراح في صف من المسلمين يدخل من أذاخر بين يدي رسول الله

وقريش والغافها حائرة ، منها من يعد للقتال ، ومنها من يدعو الى السلم ، ومنهم من ترددت به الفجاءة بين القتال والاستسلام ، فناوش قليلاً ثم سكن

ودخل رسول الله على راحلته مطأطأ رأسه كأنه ساجد على وجهه تواضعاً وشكراً . قد غص بصره عن هذا الجيش الكشيف ، وهذا الجند المطيع ، وهذه السطوة المحيطة بروحه على الحق الذي يدعو اليه ، والعدل الذي يقوم به ، والسلام الذي يبغيه ، والآلة التي يريد بها

هذه هي القرية التي أخرجت الرسول وصحبه قبل ثمانين سنة التي هاجر منها رسول الله وصاحبه يلودان بالغار ليختفيا عن الأبصار ، القرية التي أبت على المسلمين الإقامة فيها والخروج منها ، القرية التي آذت محمداً في دينه ونفسه وصحبه عشر سنين ، ثم اتبعته العداوة والحرب حيثما كان ، وهذه قريش التي سخرت بمحمد ودينه وآذت أصحابه ، وعذبت المستضعفين منهم ، وألجأتهم أن يهاجروا إلى الحبشة ثم إلى يثرب ، ثم حاربهم في بدر وأحد ، وألبت عليهم القبائل في غزوة الأحزاب فأحاطت بالمدينة تبغى استئصال المسلمين ، ثم ردت المسلمين عن دخول مكة معتمرين عام الحديبية

ليس في هذه البقعة جبل ولا شعب ولا واد ولا طريق إلا شهد بطش الباطل الكثير بالحق القليل ، والشرك العاق بالتوحيد الناشئ ، واستهزاء الجهالة الجفافة بالحكمة البررة ، وضوضاء اللغو تغطي على ترتيل القرآن ، وأصوات السخرية تحيط بتكبير القرآن

واليوم قد أخذت سورة الحق تهاويل الباطل ، وزلزل الجبابرة لسطوة المستضعفين ، وخرت الأصنام بكلمة التوحيد . أنه ليوم جزاء وانتقام وقصاص لمن يريد . وقد قال سعد بن عبادة وهو يحمل راية من رايات المسلمين داخل إلى مكة : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه »

كلا ! كلا ! ان محمداً لا يذم لنفسه ، ولا يقتص لأصحابه ، ولكنه رسول توحيد وداعية الفة وسلام . فقد لقي الجهل بالحلم ، والذنب بالعفو ، والاساءة بالاحسان والبغضاء بالمودة . رسول الله قائم بباب الكعبة يخاطب ليعلم هذه الجاهلية شرائع الدين ومكارم الأخلاق ، ويحطم في نفوسها الجهل والهوى والعصية كما أنزل عن الكعبة هذه الأصنام المخطئة الذليلة ، يقول :

« يا معشر قريش ، ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظما بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب »

ويقول : يا معشر قريش ، يا أهل مكة ! ما ترون إني فاعل بكم ؟ فيقولون : خيراً... أخ كريم وابن أخ كريم ، فيقول اذهبوا فأنتم الطلقاء.

قبائل هوازن وثقيف ترافع لفتح مكة ، وتخشى أن يمتد إليها سلطان الاسلام . فتخرج بقضها وقضيضها عامدة لحرب الرسول ، وتجتمع بوادي حنين بين مكة والطائف ، وتأتي الأنبياء رسول الله فيخرج من مكة بعد دخولها بخمسة عشر يوماً ، ويسير المسلمون للقاء العدو قبل أن يحيط بهم . عشرة آلاف أتوا مع الرسول الى مكة وألفان من أهل مكة ، يسيرون للقاء هوازن وثقيف ! ها هو ذا وادي حنين تنحط اليه الجيوش في الغلس معتدة بكثرتها معتزة بقوتها ، والعدو كامن في أحناء الوادي وأحشاء الظلام . يفجأ هذا الحشد العظيم فيضطرب ويموج بعضه في بعض ، يأخذ التيار من أراد الهزيمة ومن لم يردّها . وظن الذين لا يعرفون ثبات الايمان حين يطغى به الكفر ، وجلد اليقين حين يحيط به الشك ، وعزة الحق حين ينور به الباطل ، ظن هؤلاء أنها هزيمة طوت فتح مكة وما قبل فتح مكة من جهاد المسلمين وحسبوها حروباً تأكل حروباً ، وغفلوا عما وراء الحروب من عقائد وأخلاق زلزل المسلمون زلزالاً شديداً ولكن القطب لم يزل من مكانه . ثبت رسول الله ونادى العباس أصحاب بيعة الرضوان فاثألوا اليه بين الجموع كما ينساب الماء القليل بين الصخور والرصف

وخلق ثبات الايمان واليقين والحق من هذا التفرق اجتماعاً ، ومن هذا الاضطراب قراراً ، ومن هذا الفر كراً ، فاخرج من هذه الهزيمة نصراً مؤزراً لم يزع رسول الله هذا الفزع ، ولم تأخذه هذه الظواهر المائجة ، ولكن ثبت ثبات الايمان ، ورسخ رسوخ الحق . وكان المأزق الشديد يوم حنين كما كان في الموكب العظيم يوم الفتح ، واثقا بالله متوكلا عليه ، تجيش النفوس وهو مطمئن ، وتموج الجموع وهو ساكن . يوقره عظمة لا يهزها نصر ولا هزيمة ، ويقين لا يغيره أمن ولا فزع ، ووقار لا تستفزه رغبة ولا رهبة

واجتمع المسلمون بالجعرانة ، ما بين الطائف ومكة ، ومعهم من سبي هوزان وإبلها وشأنها ألوف كثيرة

وجاء وفد هوزان يسأل الرسول الكريم ، أن يرد عليهم أولادهم ونسائهم . قال رجل من بني سعد ، قوم حليلة مرضعة الرسول : « يا رسول الله انما في الحفاظ عمامتك وخالاتك وحواضتك اللاتي كن يكفلنك »

ولو شاء الرسول لجزى هوزان ما صنعوا ، وانهم لأهل للجزاء ، ولكنه لقي جهلهم بحلته ، وجرهم بصفحه كما فعل بأهل مكة ، قال : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فاذا أنا صليت بالناس فقولوا : « انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا » ، فلما اجتمع الناس للصلاة جاء الوفد فتكلموا بما عليهم الرسول ، فقال : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقال الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله . وأبى الأقرع بن حابس ، زعيم تميم ، وعيينة بن حصن زعيم فزارة . والعباس بن مرداس زعيم سليم أن يتركوا غنائمهم ، فوعدهم الرسول أن يعوضهم عنها حتى رضوا ، ورجعت هوزان بأبنائها ونسائها

وقسم الرسول الغنائم على أصحابها فأجز العطاء لجماعة من رؤساء العرب قرشيين وغير قرشيين ليثبت قلوبهم . ولم يعط أحد من الأنصار فغضب الأنصار وتكلموا فيما بينهم . وجاء سعد بن عباد سيد الخزرج فقال : يا رسول الله ! إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت هذا الفى الذى أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار شىء .

— فأين أنت عن ذلك يا سعد ؟ !

— يا رسول الله ما أنا الا من قومي

— فاجمع لى قومك فى الخطيرة .

اجتمع الأنصار في الحظيرة وهم عماد هذا الاسلام وجنوده ، اجتمعوا عاتبين على قائدهم العظيم ، يرون أنه آثر غيرهم من رؤساء العرب الذين ليس لهم في الاسلام فليت شعري ماذا يقول هذا القائد في ذلك وكيف يرضى خلع جنوده العاتبين !
استمع :

يامعشر الأنصار : ما قاله بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آنكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ .

— بلى . لله ولرسوله المن والفضل .

— ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟

— وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

— أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ثم لصدقتم : « أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، .. وجدتم في أنفسكم ، يامعشر الأنصار ، في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلوا ، ووكلتكم إلى إسلامكم .. أفلا ترضون ، يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ؛ ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ...

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

قال الأنصار ، والدموع تبل لحاهم ، وقد غسلت كلمات الرسول عتبتهم ، وأيقظت قلوبهم ، وزادتهم حبا للرسول وطاعة ، وأصابوا فيها ما يحقر كل ما أخذ الناس من مال ، وما يأخذون ، قالوا والدموع تبل لحاهم ؟
رضينا برسول الله قسماً وحظاً ...

الوحي للرسول

ويقول الأستاذ محمد خلف الله :

لعل « محمدًا » عليه الصلاة والسلام هو الرسول الوحيد الذي حفظ التاريخ من نواحي سيرته ما يفتح أمام الفكر آفاقاً جديدة من البحث في طبيعة النفوس العظيمة . ومع أن مصادر هذه السيرة لا تزال في حاجة إلى التمهيص والتحقيق ، فإن معالمها راجحة الصحة ، لقوة أسانيدها ، ولا تطابقها على ما يقتضيه منطق الحوادث والاجتماع ولتكرر الاشارات إليها في القرآن — وهو مرجع ثبتت صحته من الوجهة التاريخية . ومن أدق ما يسترعى النظر في حياة الرسول من الوجهة العقلية تلك اللحظات التي كان يخرج فيها عن مألوف كيانه الجسماني والنفساني ، ويتصل بأفاق علوية ملهمة يتلقى عنها فيوضاً من الالهام (inspiration) والوحي (revelation) ، حتى إذا سرى عنه هتف لسانه بما أفيض عليه من سورة أو حديث . وقد توخى الرسول الدقة في وصف هذه اللحظات ، ولم يفت أصحابه أن يلاحظوا ما كان يعتريه أثناءها من أحوال « فعائشة » تصف المراحل التمهيدية للرسالة فتقول : « أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان ماشاء الله ، ثم حُبب إليه الخلود فلم يكن شيء أحب إليه منها ، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله . ثم يرجع إلى « خديجة » فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء » . وتصف حاله أثناء الوحي فتقول : « كان ، إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه . ويتربد وجهه . ويجد برداً في ثناياه ، ويعرق حتى يتجدد منه مثل الجمان » . ويسأله « الحارث بن هشام » : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فيقول : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس — وهو أشده علي — فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي فيكلمي فأعنى ما يقول » . ويذكر « ابن عباس » ،

أن رسول الله ﷺ كان يعالج من التنزيل شدة - يحرك به شفتيه - فأنزل الله :
(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) أى إن علينا جمعه فى صدرك
ثم تقرأه (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) . أى استمع له وأنصت . (ثم إن علينا بيانه)
أى ثم علينا أن نقرأه - فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع له . فإذا
انطلق جبريل قرأه كما أقرئه .

رجع علماء الاسلام الى هذه الآثار . وما أشبهها فاستخرجوا منها كيفيات للوحي
بعدها « السبوطى » - مثلاً - فى « الاتقان » خمسا : إحداها أن يأتيه الملك فى مثل
صلصلة الجرس . وهو أشد حالات الوحي عليه . والثانية أن ينفث فى روعه الكلام
نفثا . والثالثة أن يأتيه فى صورة الرجل فيكلمه - وتلك أهونه عليه . والرابعة أن
يأتيه الملك فى النوم . والخامسة أن يكلمه الله إما فى اليقظة أو فى المنام . وقد ذكر
العلاء فيما ذكروا أنه كان للتنزيل طريقان : (أحدهما) أن النبى ﷺ انخلع من
صورة البشرية الى صورة الملكية . وأخذة من جبريل . و (الثانى) أن الملك انخلع
الى البشرية حتى أخذه الرسول منه .

وبعد . فكيف يعالج الفكر الحديث موضوع الالهام والوحي ؟ إن اتجاه
الدراسات العلمية الصحيحة الى التجارب الدينية أمر حديث العهد . ساعدت على
نشأته المادة التى جمعها علماء السلالات البشرية عن القبائل البدائية وشعائرها .
ومهدوا بها السبيل لمشوء علم الدين المقارن . ثم المادة التى جمعها علماء النفس عن ظواهر
التصوف والتدين . والحاسة للأفكار والدعوات الدينية . والتحول من عقيدة الى
أخرى . والصلاة وتأثيرها والتجلى لحظاته . منتفعين فى ذلك ببعض التأملات .
والتراجم الذاتية التى خلفها أمثال « أوغسطين » ، و « الغزالى » ، و « كارليل » ، و
« بنين » ، و « فوكس » ، وغيرهم من زعماء حركات الإصلاح والاحياء الدينى منذ
العصور الماضية الى أيامنا هذه . وهؤلاء العلماء حريصون أن يذهبوا الى أن العلم لم
يخترع بعد من الخطط والأساليب ما يمكن من دراسة هذه التجارب الروحية دراسة

هذه التجارب الروحية دراسة دقيقة ، وحرصون كذلك على أن يفرقوا بين الدراسة الوصفية لهذه التجارب ، وبين الحكم عليها من جهة قيمتها أو صحتها أو أصالتها . وهم حين تمتد بهم الدراسات الى أشخاص الأنبياء يصطدمون بعقبات ليس من الصعب تخطيها : فجمهرة الأنبياء قد عاشوا في أزمان متطاولة في القدم ، وتوارى عنهم غير مدونة إلا في القليل النادر ، وتجاربهم التي يتحدثون عنها تتصل بآفاق لم يقبس من سنها إلا القليل من بنى الانسان . غير أن العلماء الحديثين قد توافر لديهم من المعلومات التجريبية ، والنظرية عن العقل الانساني ما جعلهم يشبهونه — كما يقول « ستانلي هول » — بجبل الثلج العائم في المحيط — ثمة ظاهر فوق الماء ، وسبعة أثمانه تحت السطح — فالجزء الظاهر من العقل هو الشعور ، وسبعة الأثمان ماتحت الشعور . وهذه الطبقات العقلية المستترة هي مهبط الالهام على اختلاف درجاته ، ولا حد للآفاق التي تستطيع الاتصال بها ، والبنائيع التي تقدر أن تغترف منها . ومن عجيب أمر هذه الطبقات العقلية في بنى الانسان أنها موطن الحيوية الجياشة ، وملقى التيارات المختلفة من الرغبات والانفعالات ، ومن الصور والذكريات التي ترتسم في النفس من عهد الطفولة ، أو تنحدر إليها مع تراث الماضي ، أو تبقى فيها من تجارب الحياة ومآسيها ، وخيالاتها وأحلامها ، وأطاعها وآمالها ، وقصصها وأشعارها ، وكتبها وأساطيرها . فكل أولئك يتجمع ويحيى في طيات العقل وخزائنه ، ثم لا يلبث أن يجد طريقه — صريحا أو مقنعا — الى آفاق الحياة السلوكية أو التعبيرية ، في صور قد لا نجد لها في دائرة الشعور أسبابا معقولة ظاهرة فأونة تشق طريقها الى عقولنا الشاعرة على أجنحة الرؤى والأحلام ، وأخرى تسيرونا من حيث لا نشعر لتتحكم فيما يعرض لنا من أحوال الحب والكراهية ، والرضا والغضب ، واللذة والألم ، والتذكر والنسيان ، والصلاح والفجور ، ولكنها كثيراً ما تختار لظهور آثارها ، ميدان الانتاج الذهني والفني من كتابة أو خطابة أو شعر أو تصوير أو غيرها فإنك ترى الكاتب — مثلا — والفكرة تدور برأسه أياما ،

وهو يعالج منها ما يعالج في غدواته وروحاته ، حتى إذا حى الفكر وتتابع أوى صاحبنا الى مكتبه فجرى قلبه على القرطاس سهلا طيعا كأن مليما يملئ عليه . وترى الخطيب على منبر البيان ، وقد بدأ متعثراً لا يكاد يقيم جملة على أخرى حتى إذا اضطرب كيانه النفسى وعمرت الحماسة جوانبه ، تدفق في خطابته وامتلك زمام جمهوره . وترى الشاعر وقد لجأ الى خلوة من خلواته على منعطف نهر أو شاطئ بحر ، وفي روضة مزهرة أو صحراء مقفرة ، وقد ماجت جوانب نفسه بأنغام مختلفة كما تموج الخلية بجماعات النحل ، وربما مرت عليه ليلة بأكلها ، وخلع ضرس من أضراسه أهون عليه من قول بيت شعر حتى إذا تفتحت له خزائن الفيض الشعرى انهالت عليه المعانى انبثالا ، وجاءته الآيات ممسكة بأعنة قوافيها وخطبت وده كل عذراء من بنات القريض .

هذه اللحظات — التى يبدو فيها المنتج الفنى وكأنه خرج عن حاله الظاهرة الى خال أخرى باطنة ، أو كأن كنوز العبقرية الفنية قد تفتحت له بعد أن كانت مغلقة — هى التى يعينها الناس فى الغالب حين يتكلمون عن لحظات الإلهام الفنى ، وهى التى إذا وانت رجل الفن جاء إنتاجه عبقريا ملهما ، وجاءت آثاره رائعة خالدة . وهذا النوع من المفنن تعرفهم بسيماهم من أثر الفيض الباطنى ؛ وتستطيع أن تفرق بينهم ، وبين الشعوريين الذين يحى إنتاجهم وليد التفكير والانتقان ، والذين يعتمدون فى خلقهم الفكرى على عقلهم الواعى ، وإرادتهم الشاعرة ، أكثر مما يستمدون من عقلهم الباطن وخواطرم المدخنة . وتاريخ الفن فى الأمم المختلفة حافل بالإشارات الى هذه الينابيع العميقة التى كانت تنسب فى القديم الى قوى غاريجة عن طبيعة الانسان ، والتى يزعم العلماء الحديثون أنهم وجدوا أصولها فيما وراء الشعور من طبقات العقل الانسانى ، مستدلين على ذلك بما قرره كثير من مبدعى الفنون من أنهم أنشأوا أروع أعمالهم وهم فى غيبوبة حاملة ، وبما يلجأ إليه بعض رجال الفن أحيانا من الاستعانة على تنبيه الإلهام بتخدير الحواس الظاهرة بوسائل مصطنعة .

إذا صح هذا أفلا يكون من المعقول أن نتصور المتصوف والقديس والمصلح الديني على غرار المفسر في الهامه ، وأن نجد لأحوال هؤلاء واتجاههم الروحي مصادر في مقاصير عقولهم العميقة ؟ وهل نستطيع أن نخيط خطوة أوسع فتصور جانباً كبيراً من الهام النبوي على هذا الطراز ؟ النبي بشر ، وإذا كانت حكمة الله قد اقتضت أن يختار من البشر أنبياءه ورسله ، فهو القادر على أن يزود هذا الصنف من الخلق بأسمى أنواع الاستعداد لثبوت الهامه ، وأن يمدّها بالعلامات القاطعة التي تفرق بها بين الإلهام الصادق والوسواس الخادع .

لقد حرص محمد ﷺ على أن يذكر أصحابه وأتباعه — بين فترة وأخرى — بأنه ليس إلا بشراً رسولاً ، وردد القرآن هذه الحقيقة أكثر من مرة : (قل إنما أنا بشر مثلكم) . (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) . وأكدها أبو بكر (قوية مقنعة يوم أن كاد المسلمون يفقدون رشدهم لرفاه الرسول . فتمثل بقوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وقد عاش الرسول أيام رسالته إنساناً يأكل ويشرب ، وينام ويصحو ، ويحارب ويمجاهد ، ويتنصر وينهزم ، ويجوع ويألم ، ويسر ويحزن ، وتدمع عيناه لموت ابنه إبراهيم ، فيقول أصحابه : يا رسول الله — أتبكي وأنت رسول الله . فيقول : إنما أنا بشر ، تدمع العين ، ويخشع القلب ، ولا نقول ما يسخظ الرب . ويتنزل عليه الوحي فيعتريه شبه ما يعتري الأناسي حين تحمل بهم تجارب نفسية قاسية ، فيكرب ويتربد وجهه . وتلك تجارب إذا نظرنا إليها على أنها تجارب بشر رأينا فيها استمراراً للحالات ومقدمات سبقت النبوة . فقد عاش محمد في شبابه عيشة الشاب الصالح وعرف بين قومه بأخلاق هي في عرف المجتمع البشري أخلاق القديسين . فكان يصل الرحم . ويصدق الحديث . ويؤدى الأمانة . ويحمل الكل . ويعين على نوائب المعروف . وكان أبعد ما يكون شاب عن هو الصبا وضلالاته . وكان لا يحضر مجامع الأصنام التي كانت تعظمها قريش . . وتفسك لها النساءك ، حتى كان

من ذلك أن غضب عمه ، أبو طالب ، وغضبت عليه عمامه ، وجعلن يقلن : « انا
لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آل هنتا — أما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا
أو تسكر لهم جمعا ، وقد حدث مرة أن أجاب داعي قومه ، فذهب فغاب ما شاء
الله ، ثم رجع مرعوبا فزعا ، فقال له عمامه : مادهاك ؟ قال : « انى أخشى أن يكون
بى لم . . . فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشیطان وفیک من خصال الخير ما فیک —
فما الذى رأيت ؟ » قال : « انى كلما دنوت من صنم تمثل لى رجل أبيض يصيح بى :
ورامك يا محمد ، لاتمسسه . » قالت أم أيمن — راوية الخبر — « فما عاد الى عيد
لهم حتى تنبأ . »

فالأخبار التى بين أيدينا عن الرسول — إذن — تبعث على الظن بأنه كان يأخذ
نفسه فى شبابه ورجولته بنوع من الرياضة والعبادة ، والاستعداد لأمر كائن فى
الغيب ، فقد كان يحب الخلوة الى نفسه ، وكان يختلف الى الغار يتحنف فيه ، وربما
أخذ أهله معه فكانوا فى جواره مدة تحته . وكان جو أهل الكتاب من حوله
يرهص بنبي عربى قد آن أوانه يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . . . وكان
من أهل الكتاب أنفسهم أفراد انقطعوا للعبادة . كلهم يرجو أن يكون ذلك الرسول
بل يذكر بعض الباحثين الحديثين من تفرغوا لدراسة أنبياء بنى اسرائيل أنه كانت
منهم فى القديم طوائف تنقطع للرياضة والاستعداد للنبوة . وطبيعى أن يكون بعض
العرب قد وصل اليهم نبأ دعوة إبراهيم . (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
واسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن
ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا . وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا
وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك
أنت العزيز الحكيم) .

ويبدو أن « عبد المطلب » كان يلمح فى حفيده وهو صبي مخايل النجابة ، وبعد
الهمة . فكان يأنس به ويشجع فيه روح التطلع الى معالى الأمور . فقد ذكروا — مثلا —

أنه كان يفرش لعبد المطلب في ظل السكبة فراش . ويأتى بنوه فيجلسون حوالى
الفراش ينتظرون عبد المطلب . ويأتى محمد وهو غلام جفرا (ممتلىء الجسم) حتى
يرقى الفراش فيجلس عليه . فيقول أعمامه : مهلا يا محمد عن فراش أهلك . فيقول
عبد المطلب — إذا رأى ذلك منه — « ان ابنى هذا ليؤنس ملكا — أو إنه
ليحدث نفسه بملك » .

كذلك يبدو للتبصع لهذه الأخبار وللجو السياسى والاجتماعى والدينى الذى
عاش فيه محمد قبل أن يختاره الله لرسالته ما يؤكد الجانب الانسانى من شخصية
الرسول ، ويحس أن فى هذا التأكيد إنصافا لعظمة محمد وفيهما لنواحي نفسه الكبيرة
فالأراجيح أنه صلوات الله عليه جاهد كما يجاهد كل بشر فى سبيل أهداف روحية
سامية قد لا تكون معاملها تحددت فى ذهنه قبل أن تجيئه النبوة . وقد أخذ نفسه
بضروب الرياضة والتأمل حتى كانت جديرة بأن تكون صاحبة أروع كتاب وأخلده
على مر الأيام . ولا بد أن تكون سنو الرياضة هذه جعلت من جوهر عقله يتابع
صافية ملهمة . وقد جاء القرآن الكريم يصور موقف الرسول من الدعوة كما يمثل
نفسه فى حال حرارتها وهذوئها . وحماستها واطمئنانها وتغنيها بهجد بارئ السماوات
والأرض . وعملها الهادى . فى التقنين والتشريع . فكان من السور المكية والسور
المدنية . أو سور الموسيقى والحماسة والتأثير . وسور التشريع والتروية والتفكير .
وعند «نيكولسون» (فى كتابه التاريخ الأدبى للعرب) أن : «إذا أردنا أن نلتمس
دليلا على موهبة النبوة عند محمد فلنلتمس فى السور القصيرة الواردة فى نهاية القرآن
هذه السور كانت أول منازل — وإنك لترى فيها شعلة الإلهام تنقد خالصة فى قوة
طبيعية غير منقوصة » .

والمنصفون من الباحثين الأوربيين منفقون على أن متن القرآن كما وصل إلينا
صحيح صحة تسمو على كل شك . وأنه بجانب كونه كتاب دين — وثيقة جليلة
الخطر تصور مراحل الدعوة وشخصية الرسول محمد . وتتصل بحوادث حياته النبوية
انصافا وثيقا . وأن محمدا لم يكن مدعيا ولا مزورا . ولا مريضا بأعصابه . ولا
منحرف الطبيعة النفسانية ولكنه كان بشرا صادقا . ورجلا عبقريا . ونبيا ملهما .

نظرية وجود الاله والتدين له

ويقول الدكتور أحمد زكي بك المدير العام لمصلحة الكيمياء والأديب العالم الباحث : ينظر العلماء الى الأشياء ، يفحصونها من هذه الوجهة ، ثم من هذه ، ثم من تلك ، وهكذا حتى لا يكون فيها ما يستأهل الفحص ، أو حتى أن تعجز أداة فحصهم عن بلوغ تلك الجهات . فان فرغوا من فحصها في المكان بدأوا فحصها في الزمان . بدأوا دراسة : كيف هي اليوم من أمس . ثم كيف هي أمس من أمس الأمس . إن كانت مما يتم تغيره وتبدله في اليوم واليومين . أو كيف هي هذا القرن الذي مضى . فالقرن الذي سبق هذا . إن كان مما يتم تبدله وتغيره في القرون . ويسمون هذا التغير نشووا أو تطورا . وقد يعجزون عن دراسة هذا الموضوع في الشيء الواحد ، لأنهم لا يطاولونه عمرا . فيدرسون في الزمن الحاضر أشياء واحدة هي سواسية في حضورها ولكنها مختلفة في أعمارها وأدوارها وأطوارها . وقد تكون الأرض ، قد طوت هذه الأشياء في طبقاتها كما طوى الزمان قرونه . فينقبون عنها في بطن الأرض طبقة طبقة . وكل طبقة هي حياة قرن . فكأنما يكشفون عن كتاب من التاريخ بال تأكلت صفحاته واستحال بياضه . ولكن في تلك الصفحات بقية من أسطر كثيرا ما تؤدي معاني كاملة للعين التي اعتادت أن تقرأ خط الأيام والليالي في الحجر والتراب .

وفكرة الله . وهي ليست من المادة في شيء . بمحوها بحث الشيء الملموس الموزون . وبمحوها في الحاضر . في أجناس من الناس تعيش بأجسامها في القرن العشرين . ولكنها تعيش بعقولها في الماضي الجديد والماضي القديم درجات متفاوتات فكأنهم الأجيال الانسانية حشرت في الحاضر حشراً . أو كأنما هو الكتاب

بدأت لك صفحاته. لا متلاحقة على عادة الكتب. ولكن متجاورة تبسط فيها الخرائط بعضها الى جانب بعض. ونحو الله فكرة أيضاً في الماضي. في بطون الأرض. التنقيب عن آثار الأمم. ومن حسن حظ المؤرخ أن تلك الأمم جرت على بحسب أفكارها. بتصوير الحجر تارة، وبزويق الآنية تارة أخرى. حتى وبالكنا والنقش أحياناً

وما أقوى خيال الإنسان الذي يجمع من ذلك المبهم البالي. وهذا الحاضر الشئيت. ومن نفسه وهو يفكر أيضاً. صورة لفكرة الله كيف بدأت، وإلى أي شيء تاهت

فالتأليه بدأ عند الإنسان لما خرج بفكره عن حظيرة نفسه. وعند ما بدأ يرتقي درجات الثقافة الأولى. ويتطور ادراكه تطورت فكرته في الآلهة أو في الله حتى صارت إلى ما هي اليوم

والتأليه عبادة، والعبادة في صورها الصغرى اعجاب واحترام، لهذا عبد الإنسان أول ما عبد أشياء الكون عظيمها وصغيرها، ومظاهر الطبيعة الكبرى جليلها وحقيرها، فعبد الشمس وعبد القمر، وعبد النور وعبد النار، وعبد الرياح والأمطار. وعبد لهيباً يتفجر من الأرض، ولهيباً يتقدح في السماء، وعبد مظاهر القوة باديها وخافيها. ورأى في هـ، الخير فعبدها لخيرها ورجاء نفعها. ورأى في هذه، الشر فعبدها لاتقاء شرها. وعاش في أحضانها جميعاً وهو لا يكاد يعقل بما تفعل أو كيف تفعل شيئاً، فرأى أن يعيش في سلام مع الطبيعة ما عاش في أحضانها وليس بدعاً أن يترجح عند العلماء أن تكون الأرض أول ما عبد الإنسان، فالأرض منبت الطعام ومصدر الثروات. وتبينوا أن الشمس مصدر الأخصاب فعبدوا الشمس. وأن السماء تأتي بالماء فعبدوا السماء. ونظروا إلى المرأة تخصبها الرجل بمائه، وإلى الأرض تخصبها السماء بمائتها، فراعهم سر هذه الولادة وسر هذا الابلاد، فقالوا: إن إله الشمس ذكر، وإن إله الأرض أنثى. وآلهة الآلهة

كما تصوروا أنفسهم ، فزواجو بينهم ، وأولادهم بنين وبنات . وكانت الآلهة عديدة فزادوها بذلك عددا

وفي رجاء خيرها ، ودفع شرها ، ذبحوا الذبائح وقرّبوا القرابين ، وعزموا العزائم . وعوذوا بالرق

وتفرغ قوم منهم لهذه الناحية الروحية من معاش الناس لما اتسعت دائرتها وتعددت شواغلها . فكانت طائفة الكهان . فقامت تزيد العبادة تنظيما وترتيباً . وتزيد وسائل التقرب قدرة على إذكاء روحانية العابد . وزيادة غموض في صفة المعبودين . وبإعطاء الآلهة صفة الرجال والنساء ، أعطوهم أيضا أحداثا تجري للرجال وللنساء . فكان لكل إله تاريخ . ولكل أحدوثه وأحاديث . أو أقصوصة وأقاصيص . صار عليها عند القساوسة يعلونها الناس وكان كثير منها شعرا خالصا ضمن لها الخلود . مثال ذلك قصة أوزيريس ، رب المغرب من أرض مصر وما المغرب عندهم الا مدائن الاموات . فقد تزوج أوزيريس ايزيس . وكان له منها ولد أسموه حوروس . وكان - بيت رب الظلام والسواد . فقام بينه وبين أوزيريس شجار قضى فيه أوزيريس . فحزنت ايزيس على زوجها حزنا شديدا . وخرجت تبحث عن جثة زوجها فوجدتها أخيرا . ولكن أجزاء مزقتها رب الظلام ونثرها في أرض مصر ففرقها عليها تفريقا . فعادت تحزن من جديد . وخرجت تبحث عن جثة زوجها من جديد ثم تنتهي القصة بأن يلقى حوروس ، ابنها ، رب الظلام فيثأر لآبيه

ولم تكن الديانات في أول أمرها تعنى بتخلق الناس في حياتهم . ولا بمعاملاتهم ولا بالسياسة ينتهجها حكام الناس في إدارة شؤونهم . ولكن رويدا رويدا دخلت هذه الأمور فيها حتى صارت جزءا لا يتجزأ من الدين . ومن الأديان ما يق عهودا طويلة قاصرا على صلة الناس بالآلهة . دون صلة الناس بالناس وكان لكل قبيل من الناس آلهة . وكانت الناس في المهود الأولى تعيش

جماعات جماعات . كلها صغير . فلم يكن للآتم وجود . ولا للشعوب وجود . وكثرت الآلهة كثرة لا تحصى . ثم تطوروا سياسيا . واندجت القبائل فاندجت الآلهة . واختصروها اختصارا . وساعدهم على هذا الاختصار أن الناس كانوا في توجههم إلى الطبيعة قد وقعوا على قوى منها واحدة أسموها أسماء عديدة . فكل الذى فعلوه أن وحدوا الآلهة التى توحدت طبائعها . فأن هر عليهم هذا زواجوا بين الآلهة حتى لا يكون لقبيل على قبيل فضل

ومضى الانسان يرسم مملكة السماء على ما يرى من مملكة الأرض . وقد صارت شعوبيا عظيمة . وفوق كل شعب ملك واحد وله أعوان . إذن فهكذا يجب أن تكون مملكة السماء . فاختراروا من أربابهم ربا أعظم واحدا هو رب الشعب الواحد . أما سائر الأرباب فهم له أعوان . فكانت هذه الخطوة الأولى نحو التوحيد . فردق إله البابليين . وأشور إله الآشوريين . وتيشب إله الحيثيين . ورع آمون إله المصريين

وعند هذا الحد من الترقى الى معنى الاله الواحد . كان حسن التعامل بين الناس قد دخل فى معنى الدين وصار جزءا منه لا يتجزأ . كذلك دستور الناس الذى به يحكمون دخل فى معنى الدين فصار جزءا منه لا يتجزأ . وصار القانون كله لله . لا لا الله الواحد القهار الذى هو إله أهل الكتاب . ولكن إله شعبى يحيطه وزراء من آلهة أخرى دونه هم أسرته وأقاربه

ولعل أظهر صورة تترأى فيها درجات هذا التطور الدينى واضحة جليلة هى تلك التى تركها الزمان مرسومة فى ظلام قبورها وحيطان قصورها وبطون رمالها ففما قبل عصر الاسر كانت الاديان اختلاطا لا نظام فيها . ثم تأخذ آلهة المدائن تظهر . ثم يقوم قساوسة عين شمس بتقديم إلههم معبود الشمس رع حتى يتقدم الآلهة . ومن ورائه ثمانية منهم ، ثم تنتقل العاصمة المصرية من عين شمس إلى طيبة . وطيبة لها إلهها آمون هو لها وحدها . إذن فأمون رع . ورع آمون . وان

اختلفت أمتاؤهم . ثم يأتي من بعد ذلك اختاتون ، فيريد أن يوحد آلهة الملك فيتخذ الآلهة آتون ربا وحدا ؟ رمز له بقرص الشمس تخرج منه أشعة الشمس بأيدٍ عديدة هي رمز للمناشط الآلهة في جنبات الحياة . ولم يرد أن يغضب رجال الدين أكثر مما فعل ؟ فاقتر بالهتهم على أن تكون رمزا لتلك المناشط نفسها ، وإن يكون ربه روحا بلا جسم ، وفكرة بلا مادة ، وقرب له القرايين منحوتة فلم نجد عليها صورة لربه من إنسان أو حيوان .

فهذا هو الشأن في مصر . وهكذا كان الشأن في غير مصر . في بلاد الشرق الأخرى الكبرى التي شاد بها التاريخ وحفظت آثارها لنا الأيام فقد كان أول الأمر عند السومريين والآكادين والبابليين والاشوريين أخلاط من آلهة ، أو من معانٍ كاشباه الآلهة ، يختلط حابلها بنابلها ؛ ثم تتجسد الآلهة على القرون فتكون ذكورا وإناثا هي رموز وشارات لقوى الطبيعة في اختلافها ، ثم يتميز من بين هذه الآلهة إشتار « أمنا الأرض » . ويتمثل فيها معنى الخلق في الطبيعة والناس ، وتمثل فيها على الزمن معاني الرحمة والفران والعدل بين الخلائق . وتتألف حول بابل مملكة جامعة قوية متينة . فيصبح مردق إله بابل . وصاحب برجهما . رب الأرباب في المملكة جميعها . أرباب الأرض وأرباب السماء . والاشوريين . تنتهي بهم فكرة الرب في تطورها إلى آشور . إلى الرب الواحد الذي ليس مثله شيء . إلى الرب الذي ليس برب مدينة وليس برب لقوة من قوى الطبيعة . بل هو رب آشورية كلها وما أخضعته من أمم الأرض . والاشوريون أسياد الأرض . فالههم سيد الآلهة . فهو إله الناس أجمعين .

ثم يأتي عهد بني إسرائيل . ولهم ربهم — يهوه بالعبرانية — وكان ربا كمرdq وآشور . لافرق بينهما وبينه . وكانوا في تعبدهم يتوجهون إلى الشمس والسماء . ثم يأتي موسى رسولا فيحسم الأمر حسما . ويقدم للناس ربا غير الذي عرفوه . فرب موسى رب الناس أجمعين . وهو ليس برب الأرباب . فهو الرب الأواحد الذي ليس

من رب سواء . وهو ليس بمادة ولا يتقصر المادة ليتشكل الاشكال . بل هو قوة روحانية تملأ الوجود . وتحكم الوجود . وللرة الأولى في المعروف لا المقصوص من التاريخ صار الشرك كفرا . وللرة الأولى صارت عبادة الطبيعة قواها ومظاهرها ضلالة . وللرة الأولى صارت عبادة الأوثان إثمًا وبغيا . وتابعت الرسل من بعد ذلك لتزيد فكرة الله هذه الأخيرة ثبوتا .

واخيرا جاء العلم الحديث فلم يدعش شيء كدهشته لوحدة هذا الكون التي يراها في كل شيء . فبراهها في مضارب القمل في الأرض ومسارات النجوم في السماء . ولا يحسب حاسب ان كشف العقل البشري فكرة الله كان أيسر من كشف البخار والكهرباء . ولا يعين أحد رجال تلك القرون الأولى بأنهم لم يهتدوا الى كشف الرب بخطى أسرع . الا اذا هرّ عاب أهل العصر الحجري بأنهم لم يكشفوا بخطى أسرع مخانيء الفجح من الأرض وما تضمنه صخر الأرض الأصفر وترابها الأحمر من حديد . وكفى الانسان الأول توفيقا أنه تدرج الى معرفة الله بتأليه آثاره . فاقوى الطبيعة إلا هن آثار الله . وهل نحن في هذا العصر الحاضر نعرف من الله أكثر من آثاره ؟ وهل نحن في هذا العصر نعرف من الكهرباء أكثر من آثارها ؟ وهل سبيل الى معرفة الله والى تقديس الله . والى مزج كينونتنا بكيونة الله إلا بالتأمل والامعان والاستغراق في آيات الله حيثما وجدت من هذا الوجود . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه فيه تسميمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

هذا ومن فكرة الاله الواحد ، انتقل البحث إلى فكرة العدالة الالهية . وهنا موضع العناية وموطن الدرس كما أورده الباحثون .

فكرة العدل الالهى والايمان بالله

يقول الأديب على أدهم فى بحثه «العدالة الالهية» انه فى الاصحاح الثالث عشر من سفر أيوب يقول أيوب فى رده على أصحابه وتحدثه عن الذات العلية : إنه ولو قتلتى أبى أملأ له ، غير أنى أحتج عن طرقى أمامه . وهذه الكلمة التى يجمع فيها الايمان بطائف من الانكار والمروق ، وتمتاز فيها الثقة المطلقة بظل من الشك والارتياب ، تختصر تلك الحجج والبيّنات التى يقدمها أيوب دفاعاً عن نفسه ، وتعزيزاً لموقفه ، بعد أن حاول كتم بثته ، وقمع عواطفه ، والصبر على ما ابتلاه به الله من فادح الخطب ، ومبرح الألم ، ذلك السفر القيم البعيد المغزى المنسوب اليه وهو من أروع أسفار العهد القديم ، وأحفلها باللمحات الكاشفة ، والنظرات النافذة والخواطر الجريئة ، وقد تناول فى صراحة قليلة ، النظر موقف الانسان «مولود المرأة قليل الأيام ، كثير الشقاء » من الله «صانع عظام نفوت البحث وعجائب تفوق العد » والتمسك الانسان العدالة ، وبحثه عن الحكمة ، فى حوادث الحياة ، وحقائق الوجود ، وهو يصور أبدع تصوير وأدق وأصدق ، الصراع الشديد بين الشكوك التى تساور الانسان من ناحية وجود عدالة الهية متجلية فى تجارب البشر ، ومصاير الأمم ، والايمان القوى الذى يحاول أن يدرك عن نفسه غوالب الشكوك ، ويقتق هجمات ، وتمسكه فى النهاية من مطاردتها وقهرها . وهذا السفر يكشف عن مرحلة هامة من مراحل تفكير بنى إسرائيل الدينى ، عندما بدأت الشكوك تنسرب إلى الاعتقاد القائل بأن الرجل الصالح المستقيم ، يلقى فى حياته المثوبة العاجلة ، لاستقامة طريقه ، وسلامة طوبته ، وأن من يجانب الصلاح ويقترف الآثام يحل به العقاب ، وينال الجزاء الوفاق ، فقد لوحظ أن حقائق الحياة اليومية وحوادثها المتواترة المألوفة لا تؤيد هذا الاعتقاد الساذج ، ولا تؤكد أن الشرير يلقى جزاء شره ، وأن الخير بشاب على ما قدمت يداه ، بل قد يغلب على أمره وتجنح عليه استقامته . وقد أخذت هذه المسألة تشغل العقول وتقلق النفوس وتثير

الخواطر فهل يشكون في العدالة الالهية أو أن هناك في وقائع الحياة وحركات الكون ، عدالة تخفى على العين وتدق عن الفكر . متوارية في هذا الظلم البادى . وبذلك تتسع آفاق فكرة العدالة ، وتسمو وتسكتسح ما في طريقها من الاعتراضات التي تنم عن النظر السكليل والفهم القاصر ؟ وكان يزيد الأمر خطورة أن فكرة الحياة الأخرى لم تكن بعد قد استبانَت ظلّالها واتجهت اليها الأفكار . وسفر أيوب يتناول هذه المسألة بخدا فورها ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ، ويبين معضلاتها في صورة سافرة وبمنطق أخاذ وبلاغة ساحرة ، فأيوب في هذا السفر النفيس يتحدث عن حنين الروح إلى العدالة وطمئنها إلى الاطمئنان على إيمانها الصادق واستسلامها الكامل وثورتها على حقائق الحياة البغيضة وتجاربها المريرة . وما يثيره في النفس من ألم فشل الخيرين الصالحين والاتقياء البررة وتوفيق الأشرار الفجرة . وجماعة لمنافقين والسلاطين والدجالين ، بل يحاول أيوب أن يوضح أن السكوت على ذلك واحتماله والصبر عليه ، والاحجام عن مواجهته - ضرب من النفاق والمخادعة وعدم ضرب الأمانة فهل يقول لأصحابه في حوارهم معهم في الأصحاح الثالث عشر : ذلك كله قد رأيته عيني وسمعتة أذني وفطنت له وما تعلون فاني أنا أيضا أعلمه لا أقصر عنكم في شيء لكني إنما أخاطب القدير وأود أن أحاج الله . أما أنتم فأنتم تاضمدون بالكذب وطبكم باطل . من لي بأن تسكبتوا فيكون لكم في ذلك حكمة . اسمعوا جميعي وأصيخوا إلى دعاوى شفتي الأبرياء الله تتكلمون بالظلم . أم لأجله تنطقون بالبهتان ألعنكم تحابو نه أم عن الله تخاصمون ؛ أيمحمد ذلك يوم يفحصكم أم أنتم تتحدعون كما بخدع إنسان ؟ بل ليوب بختكم على محاباتكم الخفية وليرعينكم جلاله ويقع عليكم ذره ، فيجب إذاً مواجهة المشكل من جميع نواحيه والاحاطة بمحملته وتفصيله . وقد ظل أيوب خلال الشكوك التي طغت على نفسه والآلام التي وقذته محتفظا بيقينه في الله وأثقا منه متكلا عليه وفي النهاية زكاه الله وأيده لاستقامته التي أنكرها عليه أصحابه لما قرعت مروته الخطوب ، ونزلت به نوازل الشقاء . وواضح أن الفكر

التي يرى إليها السفر هي أن تلك النكبات المتلاحقة لا ينبغي أن تعصف باليقين ،
أو أن تضعف الإيمان ، لأنها اختبار يصهر معدن الرجل . ويعجم عوده ويخرج
منه المؤمن أقوى وأصلب وأظھر وأبقى .

ولكي يوضح السفر المظاهر المختلفة ، والجوانب المتعددة لهذا الشكل يعرض
المسألة في قالب تمثيلي وثوب روائي فهو يرسم لنا صورة شيخ أو أمير من أمراء
البادية جم الثراء ، عظيم الجاه . ورأس أسرة كبيرة وهو رجل موفق في أعماله بار
بأهله وبالناس يجبر كسر الفقراء ويغمرهم بشايب كرمه وينصفهم في مشكلاتهم ،
وبعضهم على احتمال الأعباء ، وهو يخشى الله ، فلا يتدخله العجب ، ولا يمشي في
الأرض مرحا ، وكلما أمعن في الخير وجاد بالهبات ، زكت ثروته ورغدت عيشته
ولفسمح له بأن يتحدث قليلا عن نفسه : « كنت انجي البائس المستغيث واليتيم
الذي لامعين له ، فتحل على بركة الهالك ، وأجعل قلب الأرملة متهللا ، لبست
العدل فكان كسافي ، وما برح قضائي حلي وتاجي ، كنت عيناً للاعمي ، ورجلا
للاعرج ، وكنت أباً للساكين أستقصي دعوى من لم أعرفه ، وأحطم أنياب
الظالم ، وأنزع فريسته من بين أسنانه

وعلى أن هذه الحياة المثمرة المباركة ، والسيرة الصالحة العطرة ، تعدو عليها
العوادي ويصيبها من الد ريب ، وذلك أن الشيطان يبدو أمام الله ويتحدى
صلاح أيوب ، وتدور هذه المحادثة بين الله والشيطان

الرب : « من أين أقبلت ؟ »

الشيطان : « من الطواف في الأرض والتردد فيها ،

الرب : « هل أملت بالك الى عبيد أيوب فإنه ليس له مثل في الأرض ، إنه

رجل سليم مستقيم يتقى الله ويحانب الشر ،

الشيطان : « أجانأ يتقى أيوب الله ؟ ألم تكن سبحت حوله وحول بيته وحول

كل شيء له من كل جهة ، وقد باركت أعمال يديه فانتشرت أمواله في الأرض ،

ولكن ابسط يدك وامسس جميع ماله فتنظر ألا يحذف عليك في وجهك ،
فيرخص الله للشيطان أن يختبر أيوب ويبلو عقيدته ، فيفنى تالده وطارفه ،
ويرميه بالمرض العضال والآلام المضنية ، ولكن أيوب ثبت ويصبر ، ولما قالت
له امرأته : « جدف على الله وموت » أجابها : « إنما كلامك كلام إحدى السفهات .
أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر ؟ » ولا يتخالجه الشك في الله ، ولكته على
عميق إيمانه وراسخ اعتقاده ، في كربة حرجة ، وأزمة شديدة ، وفي حدة ودهشة
من أمر العدالة الالهية . ولما جاء أخلاؤه لمواساته والتخفيف عنه والتهوين عليه ،
ورأوا شدة كآبته ، لم يكلمه أحد منهم بكلمة ، وبعد صمت طويل حاول أيوب
تنفيس كربه بالتحدث عما أصابه ، فانفجر قائلاً : « لا كان نهار ولدت فيه ولا
ليل قيل فيه قد جبل برجل ، ليكن ذلك النهار ظلاماً ، ولا رعاه الله من فوق ولا
أشرق عليه نور ، لتستبد به الظلمات وظلال الموت ، وليقر عليه الغمام وتروع
كواسف النهار ، وذلك الليل ليشمله الديجور ولا يحصين بين أيام السنة ولا
يدخلن في عداد الشهور ، ليكن ذلك الليل ثاكلاً ولا يسمع فيه ترنيم . لتظلم
كواكب غسقه ، وليترقب النور فلا يكون ولا ير أجفان الفجر . لم لم أمت الرحم ؟
هلا فاضت روحي عند خروجي من البطن ؟ ما كنت أخشاه قد غشيتني ، وما
فرغت منه قدرهقني ، فلا طمأنينة لي ولا قرار ولا راحة ، وقد داهمني
الاضطراب ،

وكبر على أصدقائه أن تنتقض مرائره ، ويهي جلده ، ويشور بالقضاء ثورته ،
فأخذوا ينصحوه بإعادة النظر في ماغصيه ، والاعتراف بالآثام التي استوجبت
سخط الله ، واستنزلت عقابه واشتدوا عليه في ذلك ، وسلقوه بألسنتهم ، وحاولوا
أن يفرضوا عليه فرضاً فكرة أن ما يصيب الإنسان من كوارث الدهر إنما سببه
أخطاء تورط فيها الإنسان ، وذنوب ارتكبها ، وأن على الإنسان أن يلقى الحادثان
بنفس راضية مستسلمة ، مذعنة للقضاء مطمئنة إلى عدالته . ولكن أيوب لا يقتنع

بهذه الحجة ويرفض رفضاً قاطعاً هذه الوجهة من وجهات النظر ، فهو أعرف من غيره بماضيه الناصع الصفحات وحياته الخالية من الشوائب . وهبه أخطأ مثل أبناء الأرض الفانين فأين عفو الله ، وواسع رحمته وفائض حنانه ؟ وكيف يلتمس الصفح ويرجو المغفرة عن آثام لم يقتربها ولم يأتها عنها خبر ؟ فهو يقول لأصحابه : « علموني وأنا أصبت أنبتوني في أى شيء ضللت ، ما أوقع كلمات الحق ؟ لكن في أى شيء ملامتكم » .

فينبرى له صاحبه بلدد الشوحى ويقول له : « الى متى أنت تنطق بمثل هذا وأقوال فيك كريخ عاصف ، ألعن الله يحرف القضاء ، أم القدير يأود العدل ، إن كان بنوك قد خطئوا اليه فقد أسلمهم الى يد معصيتهم ، أما أنت فإن بكرت الى الله والتبست رحمة القدير ، وكنت زكيا مستقيما فانه ينتبه اليك ويرد الى السلام مقر برك » .

ولكن أصحابه في واد وهو في واد آخر ، فهو يأبى أن يكون منافقا تجاه الله ، ولا يقبل أن يزيّف شعوره ، ويزور عواطفه ، ويقول كلاما هو غير مقتنع بصحته ، وهو يعلم علما ليس بالظن أن الله شديد البأس ، وأنه « يزلزل الأرض من أساسها ، فترتجف من عمدها يأمر الشمس فلا تشرق ، ويختم على الكواكب ، هو الباسط السماوات والسائر على من متون البحر ، ان سلب قن ذا يرده أو من يقول له ماذا تفعل ، هو يعلم ذلك كله ، ولكنه يود الاحتجاج بين يديه ، وعرض قضيته عليه » ذلك الذى يسحقني في الزوبعة ويشخني بالجراح لغير علة » ، وليس الله بإنسان مثله حتى يجاوبه ، ويرد عليه حججه ، وهو واثق من برائه ؛ ولذا يحرص على أن يستمسك بحقه ، ويرفع صوته ليقول : « ليرفع عنى عصاه ، ولا تروعنى مخافته ، حينئذ أتكلم ولا أرتاع منه ، لأننى لا أجِد مثل تلك التهم في نفسى » .

وأيوب ، كما يبدو من سيرته ، رجل إنسانى النزعة ، واسع العطف لا يعيش لنفسه وحدها ، فهو لا ينظر الى الرزايا التى أصابته من الناحية الفردية ، وانما يتخذ نفسه

متلا لما يحدث في الدنيا ، ويناضل عن قضيته من الوجهة العامة ، لأنها قضية البشر جميعا لا قضية أيوب وحده ، فالخطوط في الحياة البشرية غير قائمة على ذلك المبدأ البسيط مبدأ المثوبة والعقاب الذي يحاول أصدقاؤه أن يرغموه على قبوله ، وكيف يغالط في الحقيقة نفسه وهو يرى الصالحين الأتقياء يظلمون ويقهرون ، ويرى الأشرار يتقبلون في الرفاهة وأجوالهم زاكية ؟ فالخطوط ليست مرتبطة بالقسم الأخلاقية والفوارق الأدبية بين الناس ، وأحوال الحياة توحى الى الانسان أن السعادة والشقاء والآلام والمسرات موزعة في هذه الدنيا توزيعا غير معقول ، فهو يتساءل : « لماذا يحيا المنافقون ويسنون ولماذا يعظم اقتدارهم » ويصف فوضى الخطوط فيقول : « هذا يموت في معظم وفرة وقد عمته الدعاية والطمأنينة ، وذلك يموت في مرارة نفسه ولم يذق طيباً » .

وهكذا تروعه عثرات الحظ ، ومتناقضات الحياة ، ولكنها لاتهز اعتقاده بالله ولا تنال من يقينه ، وهذا الاعتقاد المتين يفجر في نفسه ينابيع الأمل ، والله في رأيه قد تفرد بالحكمة ، وهو يقول في ذلك : « أما الحكمة فأين توجد ، والفطنة أين مقرها ؟ لا يعرف الانسان قيمتها ولا وجود لها في أرض الأحياء ، الغمر قال ليست عندي . . . إنها محجوبة عن عيني كل حي ومتوارية عن طير السماء ، الهاوية والموت قالا قد بلغ مسامعنا خبرها ، الله يبصر سبلها وهو عالم بمكانها ، لأنه يبلغ بطرفه أقاصي الأرض ، ويحيط بجميع ما تحت السماوات ، وإذا جعل للريح وزنا ، المياه بمقدار وجعل أحكاما للمطر وسبيلا للصواعق القاصفة ، حينئذ رآها وأخبر بها وأثبتها وسيرها ، وقال للبشرها إن خشية الرب هي الحكمة واجتتاب الشر هو الفطنة ^(١) . » ولم يفارق أيوب اغانيه بالله في أشد أوقات محنته ، وعند ما اشتملت عليه الهموم ، وأرمرضته الآلام وانثالت اليه الخواطر السود ، وزعزت ثباته وهزت

(١) الاصحاح ٢٩ من سفر ايوب (الكتاب المقدس طبعة مطبعة اليسوعيين

بنيانه ، وانما تطلع الى استيضاح أثر العدالة الالهية ، والعناية الربانية في طرائق الحياة وتجارب البشر ، ولما أشكل عليه أمرها واستهمت طرقها ود من صميم نفسه وأعماق وجدانه ، لو أن الله يجعل طرقه وأساليبه قريبة من الأفهام بينة من المخلوقات حتى يكون إيمانهم بعدالته قائما على أساس متين ومدعما بالحجج الواضحة . وفي ختام السفر يجابوب الله أيوب من العاصفة ، ويوبخه عن نقص إيمانه ، ويقول له : « إني سأثلك فأخبرني اين كنت حين أسست الأرض ؟ بين إن كنت تعلم الحكمة على أى شئ أقرت قواعدها أم من وضع حجر زاويتها ؟ ... أأنت في أيامك امرت الصبح وعرفت الفجر موضعه ؟ ... هل اخترقت إلى لجج البحر أم تخطيت في مخادع العمر ؟ هل انفتحت لك ابواب الموت أم عاينت ابواب ظلال الموت هل احطت بعرض الأرض ؟ أخبر إن كنت عالما بذلك .. أأنت تشد عقد الثريا أم أنت تحل نطق الجوزاء ؟ ... من وضع الحكمة في الإعصار أم من آتى النوء الفهم ؟ .. أبحكنتك يستقل البازى فى الجو ويبسط جناحيه نحو الجنوب أم بأمرك يخلق النسر ويحمل وكره فى العلاء ؟ هل يخاصم القدير لاثمه ، ويحجب الله مشتكبة فيجيب أيوب قائلا : « هأنذا ذليل فماذا أجيبك ؟ إني أجعل يدي على فمي ، فيسترسل الله فى لومه وتعنيفه ويقول له : « أألك تنقض قضائى ، أتؤثمنى لتبرر نفسك ؟ أألك مثل ذراع الله اترعد بمثل صوته ؟ إذن فتزين بالعظمة والسمو والبس المجند والبهاء .. »

وحين يقر أيوب بمعجزه وحسور فهمه يقول : « إني قد نطقت بما لا ادرك ، بمعجزات تفوقنى ولا اعلمها . ويرفع الله غضبه عن أيوب ويتم عليه نعمته ويبارك آخرته ويفض على اصحابه لأنهم نفصوا عليه نعمته ويبارك آخرته ويفض على اصحابه لأنهم قد داهنوا فى دينهم ولم يتكلموا امامه بحسب الحق كعبده أيوب . اما بيت القصيد فى هذا السفر فهو ان مسألة الايمان بالله ليست مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاعتقاد بالعدالة المباشرة والتوبة السريعة والعقاب العاجل ،

الفصل الخامس

الاسلام دين الفطرة ولم يقم على السيف

قال المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش في كتابه الاسلام دين الفطرة :
 دلهج معظم الأوربيين وضعاف القلوب من المسلمين بأن الاسلام لم ينتشر ولم
 ترسخ قدمه في عالم الوجود الا لانه سعى والسيوف امامه تمهد له السبيل وتذل
 بين يديه العظام وتلجى المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم وصيانة لاملاكهم
 واسبابهم وقد ضربوا الأمثال بما اقام النبي ﷺ من سراياه ومغازيه ثم بما عمل
 خلفاؤه من بعد . على انهم لو قرؤوا القرآن وشيئا من التاريخ وسيرة النبي ﷺ
 وعرفوا شيئا من أخلاق العرب وعاداتهم في ذلك الوقت لما تطرق ذلك الخطأ الى
 عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم حتى يرموا النبي ﷺ وصالح سلفه
 بما هم براء منه . صحيح انه قد وجد من امراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام
 ودنسوه بما جنت ايديهم عليه ولكنني أريد أن اتكلم هنا في الاسلام من حيث
 هو كما اريد ان اتى على نبذ من تاريخ اسباب غزوات النبي ﷺ وحروبه لترى
 انه ﷺ ما بدأ أحد بعدوان في جميع ما أقامه من الحروب وما يتذكر الا أولو
 الألباب ولا حاجة لذكر ما كان عليه في بدء الدعوة من الانفراد والضعف وما
 أصابه من أهله وأقاربه من الأذى فان هذا بما لا يرتاب فيه أحد : ارسل الله بالهدى
 ودين الحق فجعل النبي يسار بدعوته من يثق بتوقد فكره وتمكن الانصاف من
 قلبه فلم يسئل لتأييد رسالته الا سيف الهدى والحجة الدامغة فمن آمن به ابو بكر
 وعثمان والزيد وعبد الرحمن بن عوف وابو ذر الغفاري . ومن السابقين الى
 الاسلام خالد بن العاص جاء النبي فقال له الى م تدعوا يا محمد فقال د ادعوك الى

عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن وأن لا تقتل نفسا حرم الله قتلها الا بالحق وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأن توفي الكيل والميزان بالقسط وأن تعدل في قولك ولو كان على ذى قرباك وأن توفي لمن عاهدت ، فأسلم وهكذا دخل هؤلاء الاشراف في الاسلام غير مهدين ولا ملجئين ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول في الاسلام إذ ذاك لارغبة في جاه ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم جاها وأقوى عصية أو نفذ كلمة من ذلك الفرد الذي أطاوعة وتبعوا شرعه وأحتملوا الأذى في تأييده (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعا متصدعا من خشية الله)

ثم جهر النبي ﷺ بالدعوة فسخرت منه قريش وكانوا يضحكون منه في مجالسهم وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم وتقبيح آلهتهم فأضمروا له العداوة والبغضاء ثم جاءوا الى أبي طالب عمه وقالوا له ان لك شأننا وشرفا ومنزلة منا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن تكفه أو ننازله وأياك حتى يهلك أحد الفريقين ثم أنصرفوا فعمظم على أبي طالب فراق قومه ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخي أبق على نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيقه فظن الرسول أن عمه خاذله فقال والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو اهلك دونه ثم بكى وولى وقد صادف النبي على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامرتهم ما خلد في التاريخ . ومن ذلك ما رواه البخاري قال (بينما النبي يصلي في حجر الكعبة اذ أقبل عقبة ابن أبي معيط ووضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ

بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم

واقدم عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير .
ذلك أبو بكر الذي كان في الجاهلية سيدا شريفا اشد عليه أذى قريش حتى أجمع رأيه على الهجرة إلى الحبشة لولا أن عاقله ابن الدغنة على أن يعبد الله في داره فيصلي فيها ماشاء ويقرأ ماشاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناءؤهم فلما ابتنى أبو بكر مسجدا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذي عاقدت الله عليه فاما ان تقتصر على ذلك واما ان ترجع إلى ذمتي فاني لا احب ان تسمع العرب اني اخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر فاني ارد عليك جوارك وارضى بجوار الله (كما في البخارى بتصرف)

تناقم الخطب واحدقت الفتن بالمسلمين حتى عجزوا عن احتمالها فأشار النبي ﷺ بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر منهم عشر رجال وخمس نسوة فلما أعيت قريشا الحيل عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلبوا محمد ﷺ للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة فأمر النبي ﷺ جميع المسلمين ان يهاجروا للحبشة فهاجر معظمهم . ولما رأى النبي ﷺ من قريش ما رأى جعل يخرج في الأسواق العريضة ويعرض نفسه على القبائل ليحملوه فكان منهم من يرده ردأ جميلا ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا حتى إذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على خزرج جاءهم رسول الله ﷺ فقال هل لكم في خير مما جئتم له ان تؤمنوا بالله وحده ولا تشرکوا به شيئا ثم تلا عليهم القرآن ولم يبق الا قليلا حتى امن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزدد قليلا فأثار ذلك من حق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغنون في ايدائهم للنبي على ما هو في كتب السنة الصحيحة . فلما علوا بما حالف الانصار عليه النبي ﷺ اجمعوا امرهم على أن يقتلوه وانفقوا

على أن ياخذوا من كل قبيلة شابا جلدأ ويجمعوا أمام داره فاذا خرجوا ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم فألهم الله النبي بجميع ما دبر له أعداؤه فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه . هكذا كان يحمل بدء الدعوة الاسلامية . واتي هنا لوائح اته لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئا من ذلك او يدعى ان سيفا أعمل في خلال تلك السنين فاعلى الا ان اسرد لك اسباب ما كان بعد ذلك من للغزوات والسرايا مختارا أشدها وأهمها في اظهار الدين فأقول :

أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش واخرجوه هو واصحابه من ديارهم فقال : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله » ، وقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث تقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فلم يبيح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب أباح الله للنبي أن يقابل كل معتد عليه فقال : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » وقال : « وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال ابجده لا يخالف في شيء ما يسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس . كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ولم يبيح لهم إلا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم .

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على ﷺ وهما بقتله واخرجوه من دياره هو واصحابه لأجل اضعاف شوكتهم وفل غراره حتى لا يتمكنوا من العودة إلى

محاولة قضاء مآربهم من النبي فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالقوه على النصر والتأييد فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضاء على دينه وشيعته فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم فكان من الحزم وسداد الرأي أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل ، فكان يرسل سرايا ويخرج بنفسه في المغازي حتى لا تمر غير لقريش الا صادرها وحرم المشتركين بما فيها من الامتعة فكان مرة يصيب منهم وتارة يخطئهم . فن أ كبر الغزوات التي انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى . خرج النبي صلى الله عليه وسلم مترصداً أعظم غير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشي ولا قريشية لها مثقال فصاعدا الا بعثت به في تلك العير

(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول في رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقى الجمعان وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم (ولقد نصركم الله بيدر وأتم أذلة)

(٢) كان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن يصليهم من أهل مكة ما لاقبل لهم به فلما كانت وقعة بدر الكبرى التي أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول فبدت البغضاء أفواهمهم وما تخفى صدورهم أكبر . فلقد قال رؤسائهم للنبي ﷺ وقد حذرهم عاقبة البغي « لا يغرنك يا محمد ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتته لتعلن من تلاقى » فبنقضهم ميثاقهم وبداءتهم بالعداء سار اليهم النبي ﷺ وحاصرم خمس عشرة ليلة فلما آنسوا من أنفسهم الضعف واستولى على أفئدتهم الرعب سألوا الرسول أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال فقبل منهم ذلك

(٣) عزم النبي ﷺ على الذهاب الى مكة لتأدية نسك العمرة فخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى إنيانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا ، فساروا

حتى نزلوا بأقصى الحديبية . ثم إن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده فذهب عثمان وبلغ ماحل فقالت قريش (ان محمدا لا يدخلها عنوة أبدا) ثم انهم حبسوه فشاع أن عثمان قتل فقال عليه السلام حين بلغه ذلك الخبر (لا تبرج حتى نناجزهم الحرب) وبایع أصحابه على القتال فخافت لذلك قريش فأرسلت سهيل بن عمرو في طلب الصلح فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التي منها وقف الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين

(٤) ثم أنصرف النبي والمسلمون قافلين الى المدينة في تلك السنة وعادوا لقضاء عمرتهم في العام التالي ثم عمل النبي ﷺ بمقتضى شروط الصلح فلم يخفر ذمة ولم ينقض عهداً حتى بدأت قريش بالعدوان

ذلك أنه قد دخل في عهد النبي ﷺ قبيلة يقال لها خزاعة كما دخل في عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر وكان بين هاتين القبيلتين اصغان كثيرة وترات قديمة ، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي ﷺ على مسمع من رجل خزاعي فقام هذا فضر به ، فأثار ذلك كامن احقاد بكر واستشاطوا غضباً فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم وقتلوا منهم فأرسلت خزاعة الى النبي ﷺ تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتهما

أما قريش فانها استيقظت فرأت انها قد نقضت بفعالتهما هذه شرائط عقد الصلح الذي تم بينهم وبين المسلمين فنذمت على هذه الفارطة التي ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ويمد في أجله فخرج حتى جاء الى النبي ﷺ وعرض عليه ما جاء به الى المدينة فقال له عليه الصلاة والسلام هل كان من حدث بعد . قال لا . فقال الرسول : فنحن على مدتنا الاولى واصلحنا السابق ولم يزد على ذلك . ومن المعلوم أن قريشا الآن قد عدت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق وقد شعر بما أضمره النبي ﷺ لقريش

فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائها فلم يفلح .
 أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر وأخبر
 ابا بكر ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفر
 الاعراب الذين حول المدينة وسار النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف
 مقاتل الى مكة حتى اذا وصل اليها امر خالد بن الوليد أن يدخل من اسفل مكة
 ودخل هو من اعلاها ونادى مناديه « الا من دخل داره واغلق بابه فهو آمن
 ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » نعم أنه أهدر دم جماعة
 وإن تعلقوا باستار الكعبة لانه عدهم كما يقال في هذا العصر « مجرمين سياسيين » .
 واعلم أنه لم يقاتل في هذا الفتح الا جيش خالد الوليد ولكن بعد أن تعرضت له
 قريش ليصدوه عن دخول مكة فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا وقتل من جيشه
 اثنتان فكان دخوله مكة عنوة . ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما
 كان عليها من الاوثان والادناس ثم خطب في الناس فبين كثيرا من الأحكام ثم
 ختم خطبته بقوله تعالى تعالى (يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
 شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله علم خير) . ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه
 الكريمة ما ورد في كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ليباع
 النبي صلى الله عليه وسلم فجاء وهو يرتعد خوفا فقال له الرسول « هون عليك فاني لست بملك
 إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

(٥) على أثر هذا الفتح المبين وتدمير عصابة الوثنيين أخذ الناس يدخلون في
 دين الله أفواجا الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الأولى فلقد اجتمعت اشراف
 هوازن وثقيف وقالوا قد فرغ محمد صلى الله عليه وسلم من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلننزله
 قبل أن يغزونا . أما النبي صلى الله عليه وسلم فانه فلما بلغه خبر استعدادهم لحربه أجمع رأيه على
 المسير اليهم فخرج في اثني عشر ألفا حتى وصل الى العدو فالتحم الجمعان وذلك يوم
 حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا وضافت عليهم الأرض بما

رحبت حتى ولوا مدبرين لولا أن الله أنزل سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم
بروح منه فلم يفته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله
عزيز حكيم . هذه هي جلى الغزوات وأقواها في تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية
سلطانه . فهل رأيت في جميع ما قصصته عليك ، وانه لحق ، أن النبي بدأ أحدا
بعدوان . كيف وهذا كتاب الله يقول (لا عدوان الا على الظالمين) .

ارجع الى كتب السير ووجد نفسك من شوائب التحيز فهل تجدن مغزاة
للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا

وخلاصة القول ان البصير بالتاريخ يشهد معنا ان المصطفى صلوات الله عليه وآله لم يسئل في
حياته سيفا لا رغام احد من الناس على الدخول في دينه ولكن الهدى هدى الله
هدى به من يشاء .

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف والارهاب
وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة كما قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

انظر الى ابداع كتاب الله في الرد على اهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح
مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب
والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين
بما كنتم تعملون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية قائلين إن
الاحكام يجب أن تكون مناسبة للزمان مختلفة باختلاف اهلها فيراعى في القوانين
والشرائع ، الا ما كن وطبقات العالم ودرجات ارتقائها في التحضر والفضل والتهذيب
ونحوها من الصفات التي تتفاضل فيها الامم وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ثم كما نلك
يهم وقد طفرت عقولهم فحكوا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبي عربي لم
يعرف من أحوال الامم الأخرى الا قليلا جدا ، كما أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من

الأمم المختلفة والاحوال المتباينة والعصور التي تكاد تكون متباينة في مقتضياتها ومطالبها واحكامها .

الأصل عند الأصوليين أن يكون دين الله في الأمم كلها واحداً تختلف أصوله باختلاف الأمم واحوالها وازمانها وامكنتها وانما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام الفرعية يشير الى ذلك قوله تعالى (انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده) الآية — جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به وتذكير الناس ان يتمسكوا به فما كان له ان يبطل حقاً او ينكر صالحاً او يحدد نبياً او يستقبح حسناً ولكنه جاء مؤذناً فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب وانه وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله غير مفرق بين أحد من رسله كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه أن ملة ابراهيم حنيفاً ، وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً فلم يأت النبي ^{صلى الله عليه وسلم} ببدع من الشرائع ولكن بما قرره الله من الحق وواحي به الى انبيائه من قبل كما قال عز من قائل (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) على اننا نعلم ما تقرر في الاسلام من ان شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ . فترى من جميع ما تقدم ان الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة في جعل ما سبق من الشرائع والاخذ بما تقرر من النواميس العسالة سواء ورد بها دين ابراهيم او دين عيسى بن مريم او غيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدمهم عن سبيل الله كثيراً واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلمهم اموال الناس بالباطل) فانهم لم يزالوا كذلك حتى جاء المصطفى ^{صلى الله عليه وسلم} حريصاً على المؤمنين رءوفاً بهم رحيماً لهم فأباح الطيبات من الرزق ولم يكلف نفساً الا وسعها فكان دينه بذلك اكثر الاديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها ولذا كان عليه السلام خاتم النبيين .

ولئن قيل كيف ذلك مع أن أكثر الأحكام النظامية والنواميس التعاملية قد وضعها بعد النبي ، الفقهاء والخلفاء والأمراء فلم يحط الإسلام في بدء نشأته بكل ما يلزم البشر من القوانين والأحكام ، قلنا إن جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام إنما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه بالأحكام العامة التي قررها لهم الشرع . فكل ما جاء مبنياً على قواعد الدين فهو دين سواء نص عليه الشارع نفسه أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح وهذا هو وجه كون الدين الإسلامي دين الأبد وختام الأديان .

أصول الإسلام

(١) الأصل الأول الاجتهاد وأعني به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل إليه الأفهام السليمة . فكل من يعرف لغة القرآن لا ينبغي له بحال ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح في السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الاجتهاد برغم أنف من أراوا أن يحجروا على العقول البشرية وقيموا عليها أوصياء من الأولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا فإن السلف الصالح رضى الله عنه ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله فعمل بما وصل إليه ادراكه وبلغه جمده ولو كان بعض ذلك خطأ في الواقع فإن الله لم يحرم من الاجر أى يجتهد . نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجراً واحداً ولمن اجتهد فأصاب أجريْن . أن أمر انسداد باب الاجتهاد أمر مبتدع بعد انقراض الصدر الأول منه لأسباب : منها انتشار العجمة في المسلمين وعدم استطاعة كثير منهم وكانوا لا يحسنون العربية أن يفهموا القرآن على وجهه . ومن الأسباب أيضاً فيما أظن جهل كثير من قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم وعدم معرفتهم أحكامه ولغته والافكيف عموا عن قوله تعالى (ولقد يمرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للذكر — فهل من مدكر) أى فهل من طالب علم منه ومتفهم له فيعان عليه أم كيف غفلوا عما قبض الله به الأولياء من المشركين

وندد عليهم اذ قلدوا آباءهم وقصروا أنفسهم على محاكلتهم فيما اعتقدوا ووفيا عملوا حيث قال (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع آباءنا أولو كان آباؤهم ليعلمون شيئا ولا يهتدون)

(٢) الأصل الثاني القصد في الاعمال واقامة ما لا يشق على النفوس من التكليف فلقد طالما نص القرآن الكريم على ان الله لا يكلف نفسا الا وسعها فكل ما ليس في وسع الانسان أن يقوم به فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ولا يوقعه في العناء والتعب ، فان هذا هو ما يفهم من التعبير بكلمة وسع التي معناها السعة وعدم الضيق ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو في الدين ففسد ورد في البخارى د لن يشاد الدين احد الا غلبه ، وورد فيه ايضا ان النبي ﷺ قال (سدودا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئا من الدجلة والقصد) ومن هنا لا ينبغي لمسلم أن يتغالى في دينه وأن يتباعد عن المباحات وأن يحمل نفسه فوق طاقتها ، فان هذا ليس من الدين في شيء . وأعلم أن المتغالين في دينهم أقرب الناس الى العجز عن القيام به واحتمال تكليفه ولقد قال النبي ﷺ (أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل) وقال (ان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) وقال الله تعالى (ما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال ايضا (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

ومن أحداث المسلمين ما رواء البيهقي مرفوعا ، اذا جاء أحدكم المسجد فليقلب عليه فلينظر أفيهما خبث فان وجد فيهما خبثا فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما ، وما رواه البيهقي أيضا عن أم سلبية ، أنها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشي في المكان القذر فقالت أم سلبية قال رسول الله ﷺ يطهره ما بعده ، وفي رواية له عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قلنا يا رسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريقين النجسة فقال النبي ﷺ الطريق يطهر بعضها بعضا ، وفي حديث البيهقي مرفوعا ، اذا وطئ أحدكم بنعليه في الاذى فان التراب له طهورا ، وقد رأى المالكية أن المعتمد في مذهبيهم ان ازالة النجاسة سنة أعنى انها لا تبطل الصلاة بوجودها وان كانت

مكرهه معها . فلم لا يصلى ذلك المسلم في نعليه ؟ ولم لا يصلى وفي سراويله قطرات البول ولم يسهل عليه التحرز منها . ولم لا يصلى المسلم في بلاد لم يستطع أن يستنجي فيها . أيطنون أن الله يريد بهم العسر مع أن الله يقول في قرآنه « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

(٣) الأصل الثالث من أصول الإسلام أنه لا ضرر ولا ضرار : فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله كما لا يجوز له أن يضار غيره فيدخل في ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق كالمسكر والمقامرة وإيذاء الغير بأي نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم كقتل النفس والمرفقة والرشوة والخذاع والتقوية والتدليس وشهادة الزور وهلم جرا .

لعلك اطلعت على ما قرره الفقهاء من إباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة منها أن يكون بالإنسان بخر أو راتحة نوم أو بصل أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل ما يضر أو تشمت من نفوس المصلين ولا يخفى أن هذا الأصل ينبئ عليه كثير من الأحكام الفرعية والنوازل اليومية في كل عصر .

(٤) الأصل الرابع سد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات فكل ما أفضى إلى مباح فهو مباح وكل ما وصل بك إلى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك في محرم فهو محرم . فكلما اردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلاً ما جاء به الشرع من إباحة تعدد الزوجات فإن هذه الإباحة قد قيدها الشرع بقيود منها العدل ومنها أن لا يفضى التزوج إلى ضرر أو محرم أو فساد . فإذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق وفساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد إحدى الزوجات إرضاء لغيرها أو قسوة عليهم وإيذاته لهم . فإذا قدرنا تلك الوسيلة وهي تعدد الزوجات بما تفضي إليه من المضار يمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج أكثر من واحدة إلا أن أمكنه أن يقوم بجميع ما شرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد (واعلم) أن من أهم أصول الدين

الخفيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به . فاذا غلب على الظن ان العمل مفضل الى محرم أو مكروه ، فانه يعطى حكم غايته فيحرم أو يكره فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق حتى يبنى عليه تحريم ذلك على الرجال ، فاننا على تسليم انه غير محقق جدلا ، لا يسعنا أن ننسكه انه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقيناً

(٥) الاصل الخامس من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى في هنا أن أقنط ما أورده الحكيم الشيخ محمد عبده في مقالات الاسلام والنصرانية ، إذ قال مانصه :

« اتفق أهل الملة الإسلامية الا قليلا من لا ننظر اليه ، على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل وبقى في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الامر الى الله في فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قواين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبهذا الاصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مهدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيل من أمامه جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد . فإذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا وأى قضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم اذا لم يسعهم هذا القضاء ان لم يكن في هذا تسع لهم فلا وسعهم أرض بجهالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وابعادها ،

وقال الاستاذ الشيخ محمد عبده في كتاب الاسلام والنصرانية : « أباح الاسلام لاهله التجميل بانواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتبهات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية . جاء في الكتاب العزيز (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا : انه لا يحب المسرفين . قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر

منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله ويهيب بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس . ان ربكم لرؤوف رحيم والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) ثم قال (وهو الذي سخر البحر لنا نأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه راتبتغوا من فضله واعلمكم تشكرون) ١٥

(٧) الاصل السابع وجوب امتثال ما قاله النبي ﷺ شرعا دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأى

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله ﷺ يقوم على رموس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقالوا يلقيحون . يجعلون الذكر في الانثى فتلقح . فقال رسول الله ﷺ ما أظن يغنى ذلك شيئا قالوا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله عز وجل .

وروى مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل فقال ما تصنعون قالوا كنا فنصنعه قال لعليكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال انما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر

وروى أيضا عن أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلحقون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيئا فر بهم فقال ما لنخلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمور دنياكم

كأنى بك ترى ما حكم به النبي ﷺ على نفسه وهو سيد المنصفين صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر وإن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم وأن عصمة الرسل إنما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئاً من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم أنه لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي ﷺ من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها ، لأن هذا ليس مما يوحى به إليه من الشرائع

(٨) الاصل الثامن : المساواة بين المسلمين في الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد فإن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلا يفضل أحداً في اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح (أن أكرمكم عند الله أتقاكم) فقد جعل الله الغنى والفقير والمأمور والامير والعزيز والحقير سواء في أحكامه سواء في ذلك الاحكام الدنيوية والاخرية واعد ذلك بصيغ العموم التي تراها في غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ويظهرون للعالم بسببهم وسواد موضع السجود من جباههم ، طالما حابوا الامراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم ، حرصاً منهم على استرضاء من لا يبصرون ولا ينفعون راضين بما سخط الله عليهم ، اذ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً فشحذوا كتبهم بما تضارب من الأقوال وخالفوا أمر القرآن كما في قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات) وقال تعالى (أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) وقال تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) واذا أردت أن تأتى على ماورد عن النبي ﷺ في الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) الاصل التاسع أن لا تزر وازرة وزر أخرى في سور الطور (كل امرئ بما كسب رهين) وفي سورة المدثر (كل نفس بما كسبت رهينة) وقال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وفي سورة النجم (أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن

ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى)
ولا يقال أن من أحكام الشريعة مالا يقتصر على الجاني كما في دية القتل فانها
على هاقلة القاتل وكما يؤخذ من قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم
خاصة) لانا نقول ان أمر الدية انما ألزمت بها العاقلة في الشعوب التي لها عصبية
قائمة ووحدة وعهد ، بحيث انهم يكونون يداً واحدة على سواهم . فاذا أصاب أحدهم
شيء تعاهد الباقي على الاخذ بثأره أو المطالبة بدينه كما هو الشأن بين البدو وكثير
من العرب حتى الآن ولذلك تجسد الفقهاء ينصون على أنه لا عاقلة في الامم التي
لا أثر فيها لتلك الاحمة التي تجعل الحى أو البطن أو القبيلة كأنها رجل واحد
فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم وهذا من الوجوه التي تبين لك كيف
جاء الاسلام مطابقا للاحوال البشرية ملائما لها على اختلافها

(١٠) الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام أو من
نصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما ان من أصوله
جواز التحكيم

وأعلم ان الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة
ونحوهما وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع امر تحديده الى الحكم ونوابهم
فقد أجمع الائمة على ان التعزير مشروع في كل جناية لاحد فيها ولا كفارة وجوز
الامام مالك للامام الحاكم ان يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة
أما التحكيم فقد أجازاه الشارع في الاصول المالية وذلك أن يحكم رجلان
بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى للفصل فيما شجر بينهما وقد ذهب بعضهم
الى اعتبار قول الحكم أمراً مقضيا لا يتوقف في تقريره وثبوته على أن يقرره قاض
شرعى ولا أمير ولا حاكم

(١١) الاصل الحادى عشر : تقدير كثير من الاحكام بما تعورف بين الناس .
ولا يخفى أن هذا الاصل قد أوسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع

النوازل على تغاير اشكالها وتباين أحوال أربابها . فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فإنه يراعى في تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين قرب نفقة تلائم زوجة ولا تلائم أخرى وقد كثر التعبير بكلمة « المعروف » و « العرف » في القرآن العزيز وعلق عليهما تقرير كثير من الأحكام . ومن البديهي أنه لا معنى للبروف والعرف إلا ما كان متعارفاً مألوفاً غير مستنكر كما أن المنكر هو ما لا يجرى به عرف وألفة فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى « طاعة وقول معروف » ، « الطلاق مرتان فأساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، وقوله « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ، وقوله « وعائروهن بالمعروف » ، وقوله تعالى « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » ، وقوله « وأتمروا ينسكم بمعروف » ، وقوله « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » ، وقوله « وان جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبهما في الدنيا معروفا » ، وقوله في شأن الأوصياء « ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » ، فترى في هذه الآيات وكثيراً غيرها أن الله تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات الى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما ، بل أطلق الأمر إطلاقاً . ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان . ولذا كان من القصور تعرض بعض من الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة و تقدير كثير من الأحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعملهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبي ﷺ ، كما أن من جمود القرينة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها فإن هذا تخريج للكتاب العربي المبين على غير ما أريد منه . وبما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بالفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للأحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال . فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات » و « صالحا » في كثير من الآيات فإن المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سوءاً كما يؤخذ من قوله تعالى (خلطوا عملاً صالحاً

وآخر سيناً) فان هذه الآية ناطقة بأنه كل عمل سيئ، فيدخل في ذلك الملك الجائر
والحاكم الذي أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد في عروقها
وتمشى الخلل في أطرافها حتى أصبحت لا تزدد الا نقصاً ولا تعظم الا فساداً فلا
جرم أن مثل هذا الحاكم لأشائبة صلاح فيه ولو قطع الليل تسليحاً وقرأناً. ومن هنا
فسر الشيخ محمد عبده قوله تعالى (ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) بأن المراد الصالحون
لعبارتهم بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لأنفسهم ما استطاعوا من القوة وأحسنوا الى
أنفسهم فكاتفوا الامم في الاخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتبسوا المسيبات الا من
أسبابها ولم يأتوا البيوت الا من أبوابها

ومما يتصل بهذا الباب، خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذى عليه القرآن
غير مرة، إذ قالوا إن التوكل هو تفويض الامر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك
الاسباب المألوفة. ثم ان منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الحشن ولم
يستزد حتى مات. ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن ان من يذكر
اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجاته ومن قرأ (ومن
يتوكل على الله فهو حسبه) كفاء الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده
العادية

شريعة الحرب ومذهب المسلمين في القتال

قلنا إن المسلمين في عهد النبي خاصة أرغوا على الحرب وقتال المشركين دفاعاً لاهجوماً . ذلك لأن الاسلام قد نشأ في أمة وفي أحوال جعلت دعواته في حالة حرب مستمرة ، مع أن القتال لم يكن أول رأى ذهب اليه صاحب الشريعة الاسلامية (١) فقد كان مأموراً في الابتداء بالصفح الجميل والأعراض عن المشركين ، ثم أمر بالدعاء الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، ولبث بضع عشرة سنة يئذ بالدعوة في غير قتال صابراً على شدة أذى العرب في مكة واليهود في المدينة ، فاذا جاءه أصحابه في مكة ما بين مضروب ومشجوج قال لهم **صلى الله عليه وسلم** أصبروا لا في لم أومر بالقتال وكانوا بمكة شذمة قليلة . ولما استقر أمره في المدينة وبايعه أهلها مؤثرين بحبته على محبة آبائهم وبنائهم وأزواجهم ، أمر بالقتال اذا كان البداية من المشركين « فان قاتلوكم فاقتلوهم ، وان جنحوا للسلم فاجنح لها ، اذن الذين يقاتلون بانها ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرون الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . ان مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » . ثم لما رمته العرب قاطبة عن قوس وتعرضوا لقتالهم من كل جانب ، كانوا لا يبيتون الا في السلاح ، ولا يصبحون الا فيه قائلين ترى نعيش حق نبيت مطمئنين لا تخاف الا الله عز وجل نزلت الآية : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

(١) ص ٧٢ وما بعدها من « الشرع الدولي في الإسلام » تأليف الدكتور القانوني نجيب الأرمنازي بك الوزير المفوض السوري في لندن

ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، ثم أذن بالقتال ولكن في غير الأشهر الحرم : « فإذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين » . ثم أمر به وجوباً من غير تقييد بشرط ولا زمان : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وقاتلوهم كافة كما يقاتلونكم كافة » . وكان عطاء يقول لا يحل القتال في الأشهر الحرم لقوله تعالى فإذا انسلك الأشهر الحرم الآية ، ولكن جمهور الفقهاء رأوا هذه الآية منسوخة بالآيات الأخرى . وقال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ثم استقر أمر غير المسلمين معه ^{صلى الله عليه وسلم} بعد نزول برامة على ثلاثة أقسام : القسم الأول — محاربون يجب قتالهم على الكفاية في كل عام ، والقسم الثاني — أهل عهد وهم المؤمنون من غير عقد الجزية أى صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوهم وهم آمنون على دمائهم وأموالهم ، والقسم الثالث — أهل ذمة وهم من عقدت لهم الجزية وثمة قسم آخر دخل في الإسلام تقية من القتل أمر النبي أن يقبل منهم علانيتهم ويكسر سرائرهم إلى الله تعالى . ثم إن مذهب المسلمين في الجهاد لم يصطبغ بصبغته المعروفة إلا بعد تطور سريع ، فقد أمر بالقتال لدفع المعتدين ثم لحماية الدعوة ، وكثرت الأحاديث والآثار في الحوض عليه وبيان فضله وما ادخر عند الله من المثوبة لأصحابه حتى كاد يعد من أركان الإسلام ، وهو كذلك عند الخوارج وقد سماه النبي سنام الدين . أما فريضة الجهاد فهي على نوعين أحدهما : فرض عين على كل من يقوى عليه بقدر طاقته وهو ما إذا كان النفي عاماً وهجم العدو على بلدة من بلاد المسلمين فتخرج المرأة بدون إذن زوجها ، والعبد بدون إذن سيده ، والمديون والكفيل حتى الولد لدفع العدوان والدود عن البيضة . وثانيهما فرض على الكفاية إذا قام به البعض ، سقط عن الباقي ، للحصول المقصود من اعزاز الدين وكسر شوكة المشركين وإذا اشتغل

جميع المسلمين بالجهاد لم يتفرغوا للقيام بمصالح دينهم ودنياهم ، وكان رسول الله
تارة يخرج وتارة يبعث غيره حتى قال : وددت أن لا تخرج سرية أو جيش الا
وأنا معهم ولكن لا أجد ما أحملهم ولا تطيب أنفسهم بالتخلف عني ولوددت أن
أقاتل في سبيل الله تعالى حتى أقتل ثم أحيى ثم أقتل ، وعلى إمام المسلمين في كل وقت
أن يبذل مجهوده في الخروج بنفسه أو يبعث الجيوش والسرايا ويؤمر عليها من
يكون صالحا لذلك حسن التدبير في أمر الحرب ورعا مشفقاً مستخياً شجاعاً ، وقد
عدّ فريق من المتأخرين نأهب الامام في كل سنة ، كافياً لاداء هذا الواجب ، ولا يجب
الجهاد اذا كان فرض كفايته على صبي ولا عبيد ولا امرأة ولا أعمى ولا مقعد
ولا أقطع لعجزهم عن القيام به . والجهاد يكون بغير حمل السلاح بالقول والبذل
والعمل الصالح في سبيله . والجهاد واجب عند أبي حنيفة على المسلمين الا انهم في
سعة من ذلك حتى يحتاج اليهم . وكان الثوري يقول قتال المشركين ليس بفرض الا
ان يكون البداية منهم ، فحينئذ يجب قتالهم دفعا ، وذلك لقوله تعالى « فان قاتلوكم
فاقتلوهم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ويستدل معارضوه في رأيه بآيات
وأحاديث أخرى . ومهما يكن من هذا الخلاف بين الأئمة في هل اذا كانت
الحرب تجوز ابتداء او لا تجوز فاننا ننظر اليه من وجهتين : الوجهة الاولى أن
الذي يتأمل في المواضع التي ورد ذكر القتال في القرآن ، يدرك ان القتال لم يشرع
الا للدفاع عن النفس ، وحماية الدعوة من أن تقف الفتنة في سبيلها ، مع النهي
الصريح عن الأعداء والأمر بالمحاسنة في بعض الأحيان ، ولعل خير ما يوضح ذلك
ما جاء في سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم
من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .
أما الوجهة الثانية فهي أن الامام الثوري وسواه أنكروا فريضة القتال ابتداء
وهم من كبار المجتهدين وأئمة الاسلام في صدره الاول ، وكما أن هذا المذهب في حرب
الدفاع من الامور التي نظرت فيها كثيراً ، عصية الامم ، وعقدت لأجلها المجامع

والمؤتمرات فأخذت العمود والمواثيق لتحريم حرب الاعتداء ، كما جاء في أحدث القواعد الدولية ، كذلك وجد عند المسلمين قبل ألف سنة مثل الامام الثوري من يقول في تحريم حروب الاعتداء .

هذا والحرب سيئة في نفسها عند علماء التوحيد ، لأن فيها هلاك خلق الله ، وتخريب ما يحتاج اليه الناس في معاشهم من نعم الله ، فهي شر كبير . غير أن هذا الشر يتمحل للغاية الحميدة التي تبتغي من ورائه من إعلاء كلمة الله والقضاء على فساد المشركين وبغيهم . ويقول ابن خلدون في مقدمته : ان الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها . وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتمصب لكل منهم أهل عصبية فاذا تدامروا لذلك وتواقنت الطائفتان احداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع ، كانت الحرب وهي أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب الله ولديته وإما غضب للملك وسمى في تمهيد . فالأول أكثر مايجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة ، والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالفقر كالعرب والترك والتركان والأكراد وأشباهم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم . والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد . والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها ، فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل . وقد حرم الاسلام الصنفين الأولين وأذن بالصنفين الآخرين

الجهاد الديني والغزوات (١)

قال تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » سورة البقرة . فقد بدأ النبي ﷺ بدعوة بعض أصحابه ممن كان يثق بهم ، فأسلم أبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص وعبيد الرحمن بن عوف وتبعهم غيرهم . ثم إن الرسول كان يعرض نفسه في موسم الحج على القبائل داعياً من أقبل إلى مكة من سائر العرب إلى الاسلام . وكان من هؤلاء جماعة الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فأجابوه إلى مادعاهم إليه من اعتناق الاسلام ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى هذا الدين ، فلم يبق دار من دور أهل المدينة إلا وظهر فيها الاسلام . مضى ذلك في جزيرة العرب دون أن يستل النبي سيفاً أو يقاتل عدواً وقبل أن يقوم بالغزوات . كذلك اتبع الرسول الطرق السلمية في نشر الاسلام خارج جزيرة العرب ، إذ كتب إلى الملوك والأمراء في ذلك العصر بدعوتهم إلى الاسلام بالطرق السلمية .

وقد آمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل إيلياء بكتاب ننقله عن الطبري (٢) : « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها ، أنه

(١) للغزوة هي ماخرج فيها الرسول مع المقاتلين . والسرية أو البعث ما لم تخرج فيها بنفسه ، فقد يعقد اللواء على رجل من أصحابه . وقد يطلقون على السرية غزوة (ولكن ذلك قليل) ، كما قالوا غزوة مؤنة وغزوة ذات السلاسل . وكانت الغزوات التي غزا فيها الرسول بنفسه سبعة وعشرين غزوة ، وكانت السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين ، وقيل أكثر من ذلك .

لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد ،

يقول السير توماس أرنولد^(١) : « لا يعرف الاسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول . فلقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قن الجبال ، واكتسحت في طريقها العواصم الاسلامية ، وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة . على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمت الأولى وأطلال مجده التالدة ، واستطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين المبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل في ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما المسيحية والبوذية ، وكانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار . وليس في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام — كل ديانة تنافس الأخرى — لتكسب قلوب أولئك الفاتحين الذين داسوا بأقدامهم تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقاليم والاقطار ،

ولقد كان أربك خان (Uzbeck Khan) ، الذي كان زعيما للقبيلة الذهبية (١٣١٣ — ١٣٤٠ م) ، والذي اشتهر بتحمسه الشديد للدين الاسلامي وحرصه على تحويل الكثيرين من الأهليين اليه ، أول من جد في نشر الاسلام في كافة أرجاء بلاد روسيا ويذكر لنا التاريخ أنه مع تحمسه للدين وتفانيه في الاخلاص له ، كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين . فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ، ورخص لهم بالتبشير لدينهم ونشره في بلاده . وحسبنا أن نذكر تلك الوثيقة^(٢) ،

(١) Sir Thomas Arnold. The Preaching of Islam. pp. 218-219.

(٢) عن كرامزين (Karamzin) Preaching of Islam. pp. 241-242

التي جاء فيها : « إن كنيسة بطرس مقدسة ، فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى على شيء من عقارها أو متاعها ، ولا أن يتدخل في أمورها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدي عليها ، فهو مجرم أمام الله جزاؤه منا القتل » (ج ٤ ص ٣٩١ - ٣٩٤) كذلك بدا ذلك التسامح جلياً في كتاب أرسله البابا يوحنا الثاني والعشرون في سنة ١٣١٨ م الى أذربك يشكر له عطفه على رعاياه من المسيحيين ويثني على تلك المعاملة التي كان يعاملهم بها أذربك . أما في بلاد روسيا فكان انتشار الاسلام بطيئاً حتى سنة ١٩٠٥ ، إلى أن صدر مرسوم حرية الدين في الامبراطورية الروسية .

وحين نشطت الحكومة الروسية في القرن الثامن عشر في تحويل القبائل الوثنية من المغول الى الدين المسيحي في سنة ١٧٧٨ أمرت كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي عهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك الوثنية دينهم القديم والتسك بالدين المسيحي وعقائده . وعلى الرغم من ذلك فإن الذين تعمدوا من المغول لم يدخلوا المسيحية إلا ظاهراً ولم يكونوا مسيحيين إلا بالاسم فقط . وسرعان ما تخلصوا من الكنيسة الأرثوذكسية ودانوا بالاسلام . ولم يكن هذا الدخول في المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم في الاسلام . كانت النفوس تتطلع منذ مستهل القرن السابع الميلادي إلى مصلح جديد . فقد تطرق الفساد إلى جميع مناحي الحياة ومال ميزان العدل بين الناس ببلاد العرب والفرس والروم^(١) ومن ثم بادر الناس الى الاسلام لما أمتاز به الديموقراطية الصحيحة والمساواة الحققة (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)^(٢) وقد أمضى الرسول في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة . ولقي من قریش هو

(١) تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) سورة الروم ٣٠ : ٣٠

والمسلمين صنوف الأذى فصبر على أذاهم ، وحثه الله تعالى على التذرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات ، وضرب له الامثال في الصبر والاحتمال . ومن ذلك قوله تعالى (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) (١) . ولما تفاقم أذى قريش للرسول وصحبه أمره الله تعالى بقتال المشركين ، وهو ما يعبر عنه بالجهاد أو القتال في سبيل الله ، وهو القتال الخالص لله تعالى وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيل الله في آيات بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة

تأييد الدعوة والقتال للدفاع عن النفس

وقد أذن للمسلمين بالقتال لأمور منها :

١ — الدفاع عن النفس . وفي ذلك يقول الله تعالى : اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، (٢) وقوله تعالى : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلواهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه ، فان قاتلكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، (٣) وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين

(١) سورة الأحقاف ٤٦ : ٣٥

(٢) سورة الحج ١٢٢ : ٣٧

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٩٠ - ١٩٣

يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا، (١) .

(٢) تأمين الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها ، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الاسلام الفتنة عن دينه كما حدث لعمار ابن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين . ولما تمالأ أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول أمره الله بقتال المشركين كافة وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، (٢) ثم إنه حين نقض يهود المدينة العهد الذى أخذه الرسول عليهم وانضموا الى مشركي قريش لقتاله نزل قوله تعالى (ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين)، (٣) وقد وعد الله المسلمين النصر على أعدائهم في الدنيا وبشرهم بالنعيم في الآخرة فقال (فليقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما)، (٤) وقوله تعالى « ولا تهووا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون كما تأملون وترجون من الله ما لا يرجون »، (٥) وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفافلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »، (٦) ذكر الواقدي (٧) أن رسول الله عقد في رمضان من السنة الأولى للهجرة

-
- (١) سورة النساء ٤: ٧٤ (٢) سورة التوبة ٩: ٣٦ (٣) سورة الأنفال ٩: ٥٨
 (٤) و (٥) سورة النساء ٤: ٧٤ و ٤: ١٠٤ (٦) سورة الأنفال ٨: ١٥ — ١٦
 (٧) تختلف الرواية العربية في أول غزوة رتاريخها وترتيب السرايا التي سبقت بدرأ ، فيزعم الواقدي أن سرية حمزة كانت في رمضان من السنة الأولى للهجرة كما يعدها الأولى . أما ابن هشام فيعدها مسبوقة بغزوة ودان ، وسرية عبيدة بن عبد المطلب الى ماء بالحجاز في اسفل ثنية المرة ، وعنده ان أول غزوة كانت في صفر من السنة الثانية (الطبري ج ٢ ص ٢٥٩) .

ليعترض عيرا لقريش ، لحزة بن عبد المطلب لواء في ثلاثين رجلا من المهاجرين وقد لقي أبا جهل في ثلثة رجل ، فجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، فافترقوا دون قتال . وقد أرسل الرسول عدة من السرايا بقصد الاستطلاع «والمناورة» ، حتى إذا كان شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج بنفسه إلى ودان (١) يريد قريشا وبني ضمرة فوادعته بنو ضمرة وعاد إلى المدينة : وفي شهر رجب من هذه السنة بعث رسول الله عبد الله ابن جحش (٢) ومعه ثمانية من المهاجرين وكتب له كتابا أمره ألا يفرضه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ويضى لما أمره به ولا يستنكر أحدا من أصحابه ففعل ، حتى إذا فتح الكتاب وجد فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم ثم عرض الرسول الأمر على أصحابه وخيرهم بين المضى معه أو الرجوع فوضوا ، ولم يتخلف عنه واحد منهم حتى نزل نخلة ، فمرت به قافلة قريش بتجارها وعليها عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمين عند ما اشتبكوا بهم ، ثم أسروا منهم عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة فقال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، ثم وقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . وعنفهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا وقالوا لهم : صنعتهم مالم تؤمروا به وقاتلتهم في الشهر الحرام ، فسقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا

(١) هي قرية بينها الأبواء ثمانية أميال والأبواء قرية بين مكة والمدينة . وتسمى هذه الغزوة غزوة الأبواء أيضا .

(٢) هو من السابقين إلى الإسلام . ولما بعثه النبي سماه أمير المؤمنين ، فكان أول من سمي في الإسلام بهذا الاسم . وهذا لا يتناقض مع القول بأن عمر أول من تسمى به من الخلفاء .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٢٦٢

بما صنعوا . فانهزت قريش هذه الفرصة ونادت في كل مكان بأن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال ، كما خاض اليهود في ذلك أيضا حتى غفر الله للؤمنين ودافع عنهم بقوله « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١) ولما وضعت الحرب أوزارها بعثت قريش في اقتداء الأسيرين فقال الرسول لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا (٢) ، فانا نخشاكم عليهما . فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم . فلما قدم سعد وعتبة أفداهما رسول الله . فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم وأقام عند الرسول إلى أن استشهد يوم بدر معونة .

تحويل القبلة

وبينما كان الرسول يعمل على نشر الدعوة خارج المدينة ، كان يفكر في أمر القبلة ويقلب وجهه في السماء ينتظر الوحي من عند الله ، وذلك لأنه كان في مكة يتجه الى الكعبة (٣) في صلاته . وقد جرت مشيئة الله تعالى بأن يمتحن المسلمين

(١) سورة البقرة ٢ : ٢١٧

(٢) يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، وكانا قد تخلفا عن عبد الله بن جحش في بحشما عن يعير ضل مهمما .

(٣) تفسير الطبري والفخرى الرازي سورة البقرة ٣ : ١٤٢ . وفيهما رواية أخرى عن ابن عباس أنه ن يتجه الى بيت المقدس . ولكنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس .

ومبلغ استمساكهم بهذا الدين وإذعانهم لربهم . فأمرهم بالتحول الى بيت المقدس بدلا من الكعبة ، التي هي بيت ابراهيم ومعقد فخار العرب واحترام قبائلهم جميعا والتي ألفوا التوجه اليها عن آبائهم . وقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي إلى بيت المقدس حتى شعبان من السنة الثانية للهجرة واليهود يجادلونه بما يعلمون وما لا يعملون ، ويلبسون الحق بالباطل ليقتنوا المسلمين ويوقعوا بينهم ، لما رأوه من قوة شوكتهم وعظم أمرهم ، بعد أن ظنوا إمكان اجتذابهم اليهم والاستظهار بهم على الجالية المسيحية وعلى المشركين من العرب ، فتصيح الجزيرة العربية يهودية كلها أو على الأقل منطقة نفوذ لليهود . فلما خاب أملهم في ذلك أخذوا يرجفون ويتحدثون بأن من واجب محمد ، وقد جاء مقفيا على آثار موسى وعيسى ، أن يذهب إلى بيت المقدس كما كان الأنبياء من قبله يفعلون ، ومنهم من يقول نحن علينا بمحمد قبلته ولولانا ما درى إلى أين يتجه (١) ، ومنهم من يتسائل ويعجب لمحمد هذا الذي يخالف دينهم ويتبع قبلتهم . وقد ألقى في روع الرسول إذ ذاك أن الله محوله عن قبلتهم هذه ، لأن من سنة الله تعالى أن يجعل لكل وجهة وقبله هو موليا . قال تعالى « ولكل وجهة هو موليها » (٢) ، ولأن الله ما جعل القبلة إلى بيت المقدس إلا ليمتحن المسلمين ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . لذلك كله توقع الرسول الوحي في أمر القبلة وانتظر حكم الله فيها فأنزل الله عليه « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون » (٣) وقال تعالى : « ولئن أنيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا

(١) الطبري ج ٢ ص ٣٦٥ ، وابن هشام ج ٢ ص ١٩٦

(٢) سورة البقرة

(٣) سورة البقرة ٢ : ١١٤

قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم (١) و (٢)

ومن الغزوات الكبرى غزوة بدر الكبرى : ففي رمضان من السنة الثانية للهجرة ، ندب الرسول نفرا من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهي قادمة من الشام . فلما علم بذلك أبو سفيان بن حرب رئيس القافلة بعث الى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهن ويستنفرنهم لاستنقاذها ثم غير طريقه ، وتوجه إلى البحر وسار بحذاءه حتى جاوز موقف المسلمين ، ثم انسل الى مكة دون أن تمس تجارة قريش بسوء . وقد التقى الرسول بقريش عند بدر . وكان عددهم بين التسعمائة والالف ، وفيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول وأبوجهل بن هشام بن المغيرة . فنصر الله المسلمين وقتل سبعون من رجال قريش وساداتهم . أما المسلمين فقد استشهد منهم أربعة عشر (٣) .

أما أثر هذا الغزوة أثر في تاريخ الاسلام . فقد كانت أول قتال جدي بين المسلمين وقريش انتصر فيه المسلمين على الكفار ، وتحلى فيه للبشر كين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفاينهم في نصره دينهم . وقد أحفظ ذلك رجال قريش ، فأجعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين وقد بلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم في تلك الغزوة أن سموها غزوة الفرقان ، لأن الله سبحانه وتعالى قد رقبها بين الحق والباطل وأعز الاسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسر كبرائهم مع قلة عدد المسلمين ، كما سموا كل من شهد بها بدريا ، وبلغ من تأثير قريش

(١) سورة البقرة ٢ : ١١٤

(٢) يقول البيضاوي في ذلك ، لعلمهم بأن من عادة الله وسنته تخصيص كل شريعة بقبلة ، ولتضمن كتبهم أن النبي ﷺ يصلى الى القبلتين ، كما يشير إلى أن قبلة اليهود الصخرة ببית المقدس وقبلة النصارى مطلع الشمس . ويروي أيضا أن من أوصاف النبي في التوراة التي كانت بين أيديهم أن قبلته الكعبة — سورة البقرة ٢ : ١١٥

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ — ٩٢٣ الطبري ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٩٧

لهزيمتها في تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب الرسول والقضاء على أصحابه ، ومن ثم ابتدأت سلسلة من الحروب كان النصر فيها حليف المسلمين . اللهم إلا في غزوة أحد ، وكان يتعرج مركز المسلمين ويتوطد بعد كل حرب تبعا لنتيجتها ، ولكنهم صبروا وأطمانوا إلى نصر الله وكانت العاقبة للمتقين —
اختلف القوم في النفل (١) الذي ساقه الله إلى المسلمين في غزوة بدر . فقد ادعاه الذين جمعوه ، كما ادعاه من باشروا القتال ومن أحاطوا بالرسول يحرسونه خشية أن يقتاله المشركون . وقد نسي كل فريق من هؤلاء نصيب الآخرين واستحقاقهم في النفل ، كما أهملوا من وكل إليهم الرسول أعمالا تتصل بالقتال وليست منه ، ومن تخلف عن القتال لأغذار كعثمان بن عفان الذي أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد في المدينة لتمرير رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التي فاضت روحها والمسلمون في المعركة ، وأتى البشير بالنصر وهم يوارونها التراب .

(١) النفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهرا بعد هزيمتهم في الحرب . وهناك الفى وهو أيضا مأخوذ من الكفار ولكن عن طريق صلح واتفاق معهم لم يوجف المسلمون عليه بخيل وركاب .

ويختلف النفل عن الفى . بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين ، أما أربعة أخماس الفى فانها تترك للرسول أو لأمام المسلمين ليصرفها في مصالح المسلمين التي منها الجيش . وأما خمس الفى أو الغنيمة فانه يقسم إلى اقسام : سهم للرسول « في حياته » يتفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين والسهم الثانى لذوى القربى ، والسهم الثالث لليتامى من ذوى الحاجات ، والسهم الرابع للمساكين ، والسهم الخامس لأبناء السبيل . ويدخل في الفى الجزية والخراج والعشر من المشركين . وهذا كله يختلف عن الصدقات فانها المال الذى يؤخذ من المسلم زكاة كان أو تطوعا . انظر كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢١-١٥١

ولما رفع الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى ويسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، (١). ثم أقبل رسول الله إلى المدينة واحتمل معه النفل وجعل عليه عبد الله بن كعب ، حتى إذا قربوا من المدينة قسم الرسول الغنائم بين المسلمين على السواء . وأعقب هذا غزوة أحد في النصف من شعبان في السنة الثالثة للهجرة وسببها أن قريشا أرادت أن تثارلما أصابها يوم بدر وكان الرسول ، إذا ما أرسل أميراً على جيش أو سرية أو صاه في خاصته بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث فأيتن ما أجابوك إليها فأقبل منهم وكف عنهم ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم أن فعلوا ذلك كان لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الفتي والغنيمة نصيب ألا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاسألوهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فانكم إن تخفروا ذمتكم وذمة أصحابكم خير أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم فانك لا تدري حكم الله فيهم أم لا ثم أقضوا فيهم بعدما شئتم . واليك ما جاء في كتاب لخالد بن الوليد إلى مرزبة فارس . أما بعد فاسلموا تسلموا والا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية والا فقد جئتم يقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر . وفي كتاب آخر له إلى ملوك فارس : أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم

والا كان ذلك وانتم كارهون . . . على ايدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .
ولما غزا سليمان المشركين من أهل فارس قال : كفوا حتى أدعوهم كما كنت
اسمع رسول ﷺ يدعوهم فاتاهم فقال : انا ندعوكم الى الاسلام فان اسلمتم فلكم
مثل مالنا وعليكم مثل ما علينا ، وان ابيتتم فاعطونا الجزية . . . وان ابيتكم قاتلناكم
قالوا : أما الاسلام فلا نسلم ، وأما الجزية فلا نعطيها ، وأما القتال فانا نقاتلكم ،
فدعاهم كذلك ثلاثاً فأبوا عليه فقال للناس انهضوا لقتالهم .

وعلى هذا يخلص مما تقدم أن المسلمين كانوا يدعون الناس للدخول في دينهم ،
فان لم يقبلوا يدعونهم للدخول في سلطانهم السياسي الذي عنوانه دفع الجزية ولا
يقاتلونهم الا بعد ذلك . والدعوة أو الأنداز قبل القتال على سنة الرسل وبواسطة
الكتب هو من قبيل ما يسمونه في أيامنا باعلان الحرب الذي لا بعد القتال جائزاً
يدونه . وثم ما يسمونه بالنبذ وذلك اذا كان المسلمون مواعدين فريقاً من اعدائهم
ورأى الامام نقض الصلح انفع بنذ اليهم وقاتلهم ، لأنه عليه السلام نبذ المواعدة
التي كانت بينه وبين أهل مكة . ولا بد من النبذ تحرزاً عن الغدر الذي نهى النبي عنه
وأن بدأوا بخيائنة قاتلهم ولم ينبذ اليهم لأنهم صاروا ناقضين للعهد بصنعهم . والآية
القرآنية تجعل خوف الخيانة سبباً للنبذ فقد قال الله تعالى : واما تخافن من قوم خيانة
فانبذ اليهم على سواء — أى على سواء منك ومنهم بالعلم بذلك — ولكن الفقهاء
لم ينظروا في الغاب الى خوف الخيانة وجعلت مصلحة المسلمين مسوغة للثقتن .
وقد جاء في السير الكبير تفصيل لهذا الموضوع فنقتبس منه ما يأتي :

ولو بدا للامام بعد المواعدة ان القتال خير فبعث الى ملكهم ينبذ اليه فقد صار
ذلك نقضاً لانه ليس للامام في التحرز عن الغدر فوق ما أتى به من النبذ الى ملكهم
وأخباره بقصد قتالهم . ولكن لا ينبغي للمسلمين ان يغيروا عليهم وعلى أطراف
ملكهم حتى يمضي من الوقت مقدار ما يبعث الملك الى ذلك الموضع من يتذرهم
لانا نعلم ان ملكهم بعد ما وصل الخبر اليه لا يتمكن من ايصال ذلك الى اطراف

ملكته الابد فلا يتم النبذ في حقهم حتى تمضي تلك المدة وبعد مضيتها لا بأس
 بالاغارة عليهم وان لم يعلم المسلمون أن الخبر اتاهم لانه ليس على المسلمين اعلامهم
 وانما عليهم اعلام ملكهم ثم على ملكهم اعلام أهل ملكته ، فان لم يفعل ذلك ،
 فانما أتوا من قبل ملكهم لامن قبل المسلمين ، ولكن ان علم المسلمون يقينا أن
 القوم لم يأتهم خبر فالمستحب لهم أن لا يغيروا عليهم حتى يعلموهم لان هذا شبيه
 بالخديعة ، وكما على المسلمين أن يتحرزوا من الخديعة عليهم أن يتحرزوا من شبه
 الخديعة وهذا على ضد ما يكون من النقص من قبلهم أما بجند أرسلوهم لقتال
 المسلمين أو برسول أرسلوه الى أمام المسلمين بنبذون اليه . فيومئذ لا بأس
 للمسلمين أن يغيروا على أطرافهم وان علموا أن الخبر ما وصل اليهم لأن النقص
 جاء من قبلهم وقد كان على ملكهم ان لا يفعل ذلك حتى يخبر به أطراف ملكتهم
 وهنا نقص نبأين من أنباء التاريخ لتأييد ما تقدم فقد روى ابو داود والترمذي
 وغيرهما أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى اذا غزاهم
 فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول الله اكبر وفاء لأعداء فظنوا فاذا هو
 عمر بن عتبة فارس الى معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول بينه
 وبين قوم عهد فليشهد عقده ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ اليهم على سواء
 فرجع معاوية بالناس . وقال البلاذري نقلا عن ابى عبيدة وسواه ، انه لما استخلف
 عمر بن العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا اليه ان قتيبة دخل مدينتهم
 واسكنها المسلمين على غدر فمكتب عمر الى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر
 فيما ذكروا ؛ فان قضى باخراج المسلمين اخرجوا فنصب لهم جميع بن خاطر الباجي
 فحكم باخراج المسلمين على ان يتابذوهم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب
 واقرروا المسلمين فاقاموا بين اظهرهم . وفي رواية ، فقال أهل السند بل نرضى بما
 كان ولا نجد حربا لان ذوى رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم واقنا معهم وامنونا
 وامناهم فان عدنا الى الحرب لاندري لمن يكون الظفر وان لم يكن لنا ، كنا قد
 جتلبنا عداوة في المنازعة . . — راجع السير الكبير ، نسخة مخطوطة ، ص ٢٨٤

اساليب القتال ووسائله

جاء في الاحاديث المأثورة عن الرسول ووصايا عديدة له وكذلك ورد عن الشيخين ابي بكر وعمر ما اتخذاه الفقهاء قاعدة في ذكر ما يجوز من أساليب القتال ووسائله . الى أمراء الاجناد . وهنا نذكر وصيتين لابي بكر واخرى لعمر من خير ما يعتمد عليه في هذا الباب في هذا الباب . فقد أوصى ابو بكر بعث أسامة بقوله : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تفرعوا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لما كله وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكتم بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون اقواما قد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله . واوصى ابو بكر يزيد بن ابي سفيان حين وجهه الى الشام فقال : يا يزيد سر على بركة الله فاذا دخلت بلاد العدو فكن بعيدا من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة واستظمر بالزاد وسر بالادلاء ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واخترس من البيات فان في العرب غرة ، واقلل من الكلام فان لك ما وعى غتك واذا أتاك كتابي فانفذه فانما أعمل على حسب انفاذه . واذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرهم واسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم . وفي رواية : وكن أنت المتولى كلامهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ولا تلحن في عقوبة فان ادناها وجمع ولا تسرعن اليها وأن تكسني غيرها واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله في

شرارهم ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه .

كذلك كان عمر بن الخطاب ، إذا بعث أمراء الجيوش أو صاهم بتقوى الله العظيم ثم قال عند عقد الألوية : بسم الله وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هراً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الرحمان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات . ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وابشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

وهذه الوصايا في آداب الجهاد من المفاخر الجليلة التي ورثها المسلمون من ذلك العهد القديم الزاهر ، وهي حقيقة بأن تكون من مفاخر القواد في هذا العصر الذي طوى أبعد المراحل في الحضارة ، وقد اتخذها الفقهاء عمدة وفعروا عنها وعن أشباهها قواعد كثيرة في أساليب القتال وما يباح منها وما لا يباح واختلفوا في كثير من المسائل . فلا يجوز قتل النساء والولدان فإن قاتلوا قتلوا مقبلين ولا يقتلوا مدبرين وإذا ترس المقاتلون في الحرب بذنائبهم وأطفالهم يتوقى قتل النساء والأطفال فإن لم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل النساء والأطفال جاز . ولا بأس برميهم وإن كان فيهم أسير أو تاجر ، وإن ترسوا بصبيان المسلمين أو بالأسارى لم يكف عن رميهم عند الشافعي وذهب مالك والاوزاعي إلى أنه لا يجوز بحال من الأحوال قتل النساء والصبيان ولو ترس أهل الحرب بهم . واختلفوا في قتل الشيوخ والرهبان فأحد القوانين أنهم لا يقتلون حتى يقاتلوا لأنهم موادعون كالذراري . والثاني يقتلون وإن لم يقاتلوا لأنهم ربما أشاروا برأى هو أنكي للمسلمين من القتال وكذلك يقال في شأن المرأة إذا كانت ملكة ولها رأى في الحرب . ويجوز لأمير الجيش في حصار العدو أن ينصب عليهم العرادات والمنجنيقات ويجوز أن يهدم

عليهم منازلهم ويضع عليهم البيات والتحريق ، وإذا رأى في قطع نخلمهم وشجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوة ويدخلوا في السلم صلحا فعل ، ولا يفعل إن لم يرفه صلاحا ويجوز أن يغور عليهم المياه ويقطعها عنهم لأنه من أقوى أسباب ضعفهم . وقد استدل الأوزاعي بظاهر ما ورد عن أبي بكر فقال لا يحل للمسلمين أن يفعلوا شيئا فيما يرجع الى التخريب في دار الحرب لأن ذلك فساد والله تعالى لا يحب الفساد وأستدل بالآية « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل .. » ويرى صاحب السير الكبير أن قتل النفوس أهم من ذلك كله ثم إذا كان مأمورا به لكسر شوكتهم ، فما دونه من تخريب البنيان وقطع الأشجار لأن يكون مأذونا به كان أولى . وأنا لنذكر في صدد هذه المناقشة أن هو فر رئيس الولايات المتحدة الأسبق اقترح اباحة تموين البلاد المحاربة حتى لا يؤذى غير المحاربين ولا يقاتلوا مكاره الحرب ، فرد عليه أحدهم بأن قتل النفوس شر من ذلك وجرائم الحروب أعظم من منع المؤونة عن غير المحاربين الذي يقصد منه تقصير أجل الحرب . وقد نهى عن المسئلة وحمل الرؤوس الى الولاية فقد حمل رأس بطريق الى أبي بكر فأنكر ذلك ، وفي رواية قال : لقد بغيتم وكتب الى عماله لا تبعثوا إلى رأس ولكن يكفيني الكتاب والخبر ، وإبانة الرأس مثله .

ولا يستحب قتال النساء مع الرجال في الحرب ، لأنه ليس للبرأة بنية صالحة للقتال . وقد نهى النبي ﷺ عن قتل النساء بقوله : هاء ما كانت هذه تقاتل فلم تقتل ، ولا بأس بقتالهن عند الضرورة . وقد جاء أن نساء خالد بن الوليد ونساء أصحابه كن مشمرات يحملن الماء للمجاهدين يرتجزن وهو يقاتل الروم . وجاء في أحاديث مختلفة أن النساء كن يخرجن مع النبي ﷺ للغزو فيسقين القوم ويخلفنهم في رحالهم ويصنعن لهم الطعام ويدوين الجرحى ويقمن على الزمى وإذا تقاتلت الصفوف في الحرب جاز عند الشافعي لمن قاتل من المسلمين أن يعلمهم بما يشتهر به بين الصفيين ويتميز به من جميع الجيش ومنع أبو حنيفة ذلك .

وليس له أن يجيب الى البراز الا على شرطين : أحدهما أن يكون ذا نجدة وشجاعة يعلم من نفسه أنه لن يعجز عن مقاومة عدوه . والثاني أن لا يكون زعيماً للجيش يؤثر فقدته فيهم فأن فقد الزعيم المدبر مفضل الى الهزيمة وعلى المسلمين مصابرة العدو عقد التقاء الجمعين بأن لا ينهزموا عن مثلهم فسادونه إلا لأحدى حالتين : إما أن ينحرف المسلم لقتال فيولى لاستراحة أو لمكيدة وأما أن يتحيز الى فئة أخرى لقوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا منحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة باء بفضب من الله » وإذا زادوا على مثلهم ولم يجد المسلمون الى المصاهرة سبيلاً جاز عند الشافعي أن يولوا عنهم غير منحرفين لقتال ولا متحيزين الى فئة . وقال ابو حنيفة عليهم أن يقاتلوا ما أمكنهم وينهزموا اذا عجزوا وخافوا القتل (١)

نشأة الجيش الاسلامي

في صدر الاسلام أنشأ المسلمون ديواناً للجيش ترتب فيه القبائل ويقدر العطاء للمقاتلة مع تعيين شروط اثباتهم ومراعاة الأوصاف اللازمة كالبلوغ والحرية عندمن اشتراطها ، والاسلام والسلامة من الآفات المانعة من القتال والاقدام على الحروب والمعرفة بأساليبها ، فاذا تكاملت فيه هذه الأوصاف كان لإثباته في ديوان الجيش موقوفاً على الطلب والايجاب . فأن كان مشهور الاسم نليه القدر لم يحسن اذا أثبت في الديوان أن يحلى فيه أو ينعت وان كان من المغصوبين في الناس حلى ونعت فذكر سنه وقده ولونه وحلى وجهه ووصف بما يتميز به عن غيره . وبعد تقدير العطاء بالكفاية حتى يستغنى بها عن التماس مادة تقطعه عن حماية البيضة . والكفاية

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ص : ٣٦ وما بعدها

معدودة من ثلاثة أوجه : أحدها عدد من يعوله من الذراري والماليك ، والثاني عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر ، والثالث الموضع الذي يحله من الغلاء والرخص فيقدر كفايته في نفقته وكسوته لعامه كله . واختلف الفقهاء إذا تقدر رزقه بالكفاية هل يجوز أن يزداد عليها . فمنع الشافعي من زيادته على كفايته وإن اتسع المال لأن أموال بيت المال لا توضع إلا في الحقوق اللازمة وجوز أبو حنيفة زيادته على الكفاية إذا اتسع المال لها (١)

ثم أصبح الجيش الاسلامي يتألف من مسترزقة ومتطوعة ولكل منهما حقه في بيت المال والصدقات . وكان الخلفاء يقطعون من رأوا أن له غناء في الاسلام ونكاية للعدو وذلك لعارة الارض وحماية الثغور فأنشئت على هذه الطريقة جوال عسكرية تدافع عن البلاد حيناً وهي قائمة بزراعة قطائعها . وقد عظم شأن هذه القطائع في مصر والشام أيام الأيوبيين والماليك فكان يأخذ منها الجنود أرزاقهم وأصبحت من أهم الأعمال التي ينظر فيها ديوان الجيش القديم . ومما يذكر أن نظام الملك انتقد هذه القطائع في كتاب أنشأ باللغة الفارسية وسماه «سياسة نامه» وارتأى التخلص منها بالشراء من أصحابها . أما قيادة الجيش وتعبئة الجنود فكانا من حق الخليفة أو من يقوم مقامه . ومن أحكام هذه الأمانة في تسيير الجيش الرفق بالجنود في سيرهم ، وتفقد خيلهم التي يجاهدون عليها وظهورهم التي يمتطونها وأن يراعى المسترزقة والمتطوعة ، ويعرف على الفريقين العرفاء وينتقب عليهما النقباء ، ويجعل لكل طائفة شعاراً يبدعون به ، ويتصفح الجيش ومن فيه ليخرج منهم من كان فيه تخذيل للجهاديين وارجاف للمسلمين أو عين عليهم للمشركين ، وأن لا يمالى من ناسبه أو وافق رأيه ومذهبه على من باينه في نسب أو خالفه في رأى ومذهب فيظهر من أحوال المباينة ما تفرق به الكلمة الجامعة تشاغلاً بالتقاطع والاختلاف ، وقد أغضى رسول الله ﷺ عن المنافقين وأجرى عليهم حكم

الظاهر حتى قويت بهم الشوكة وكثر بهم العدد وتسكملت بهم القوة (١) . ويلزم أمير الجيش في سياسة الجند حراستهم من غرة يظفر بها العدو ، واختيار موضع نزولهم للمحاربة ، واعداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعلوفة ، وتعرف أخبار العدو وتصفح أحواله ، وترتيب الجيش في مصاف الحرب ، والتعويل في كل جهة على من يراه كفوا لها ، وتفقد الصفوف من الخلل فيها ، وامداد كل جهة بميل العدو عليها ، وأن يقوى النفوس بما يشعرها من الظفر ويخيل اليها من أسباب النصر ، وأن يعد أهل الصبر والبلاء منهم بشواب الله لو كانوا من أهل الآخرة والجزاء والنفل من الغنيمة ان كانوا من الدنيا . وأن يشاور ذوى الرأي ويرجع الى أهل الحزم ، وأن يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده . وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال انهو جيوشكم عن الفساد فإنه ما فسد جيش قط الا قذف الله في قلوبهم الرعب ، ولا يمكن أحدا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصابة العدو وصدق الجهاد (٢)

ويلزم الجند في حق الأمير التزام طاعته والدخول في ولايته ، وأن يفوضوه الى رأيه ويكلوه الى تدبيره ، حتى لا تختلف آراؤهم فتختلف كلمتهم ويفترق جمعهم وأن يسارعوا الى امثال أمره والوقوف عند نهيه وزجره ، لأنهما من لوازم طاعته فان توقفوا عما أمرهم به وأقدموا على ما نهاهم عنه فله تأديبهم على المخالفة بحسب أحوالهم ولا ينالط ، وعليهم أن لا يتنازعوه في الثنائيم اذا قسمها ويرضوا منه بتعديل القسمة فقد سوى الله تعالى فيها بين الشريف والمشروف ومائل بين القوى والضعيف (٣) .

وذكر ابن خلدون في فصل الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها أن صفة

(١) الماوردي ص : ٣٠ - ٣١

(٢) الماوردي ص ٣٥ - ٣٦

(٣) الماوردي ص ٣٩ - ٤٠

الحروب على نوعين نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالسكر والفر. أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالسكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب و قتال الزحف أوثق وأشد من قتال السكر والفر وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح ، ويمشون بصفوفهم الى العدو قدماً كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته . وفي التنزيل إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . ومن مذاهب أهل السكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة . وكان الحرب أول الاسلام كله زحفاً وكان العرب انما يعرفون السكر والفر لكن حملهم على ذلك أمران أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون الى مقاتلتهم بمثل قتالهم (١) ، الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه ولما رسخ فيهم من الايمان ، والزحف الى الاستماتة أقرب . وأول من أبطل الصف في الحروب وصار الى التعبئة كراديس مروان ابن الحكم في قتال الضحاك الخارجي ، كما أن أول تعبئة عظمى قام بها المسلمون كانت في معركة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد وحسن تديره . وكان من مذاهب الأول في حروبهم ، حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذرا من البيات وتخاذل العسكر في ظلمة الليل ووحشته . وقد اتخذ ملوك الافرنج في جندهم واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالسكر والفر و قتال الافرنج بالزحف . وكانوا يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر و قتالهم على الطاعة . وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من ممالأتهم على المسلمين وقد ثبت أن النبي ﷺ استعان باليهود وبفريق من المشركين . وجاء في حديث ستصالحون الروم صلحاً وتغزون أتم وهم عدوا من ورائكم . وذكر الشوكاني في نيل الأوطار في باب ما جاء في الاستعانة بالمشركين أنه روى عن الشافعي المنع من الاستعانة

(١) الشرع الدولي في الاسلام للدكتور نجيب الأرمنازي ص ٨٤ وما بعدها

بالكفار على المسلمين لأن في ذلك جعل سبيل للكافر على المسلم ، وشرط بعض أهل العلم أنها لا تجوز الاستعانة بالكفار والفساق إلا حيث مع الإمام جماعة من المسلمين يستقل بهم في إمضاء الأحكام الشرعية على الذين استعان ليعكونوا مغلوبين لا غالبين . وقد استعان النبي ﷺ بيهود بني قينقاع على بني قريظة كما أن فريقاً من الصحابة أعان النجاشي على عدو نزل به . وينبغي للمسلمين أن لا يستعينوا بالمشركين إذا خافوا الفتنة وأن لا يقاتل مع أهل الشرك أهل الشرك فانما المسلم إنما يقاتل لنصرة الحق إلا إذا تحققت الضرورة

وعند ابن خلدون أنه لا يوثق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكال الأسلحة واستجاداتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ، ومن أمور خفية وهي إما من خدع البشر وحيلهم في الأرجاف . وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لاقدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب فيستولى الرعب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية ، ولذلك قال ﷺ الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة

واليك ما أوصى به على أصحابه يوم صفين في كلام له : فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الذراع واخروا الخسائر وعضوا على الأضراس فإنه أنبي للسيوف عن الهام والتوا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة وعضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب واخفوا الأصوات فإنه أطردهم للفشل وأولى بالوقار وأقيموا أريائكم فلا تميئوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر .

وقال عمر لابن عبيدة بن مسعود الثقفي لما ولاء حرب فارس والعراق اسمع

وأطع من اصحاب النبي ﷺ واشركهم في الأمر ولا تجعين مسرعا حتى تتبين
فأنها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المسكين الذي يعرف الفرصة والكف ،
وقال له في أخرى أنه لا يمتنعى ان أوامر سليطا الا سرعته في الحرب وفي التسرع في
الحرب الا عن بيان ضياع

وجاء في غيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري في كتاب « الحرب » ، انه قدمت
منهزمة الروم على عرقل وهو بانطاكية فدعا رجالا من عظمائهم فقال : ويحكم
اخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم اليسوا بشرأ مثلكم ؟ قالوا بلى قال : فأنتم اكثر
ام هم ؟ فقالوا نحن اكثر منهم اضعافا في كل موطن . قال : ويلكم فما بالكم
تنهزمون كلما لقيتموهم . فسكتوا فقال شيخ منهم : انا اخبرك ايها الملك من اين
توتون . قال : اذا حملنا عليهم صبروا واذا حملوا علينا صدقوا . ونحمل عليهم فنكذب
ويحملون علينا فلا نصبر . قال ويلكم فما بالكم كما تصفون وهم كما نزعون ؟ قال
الشيخ : ما كنت أراك إلا وقد علت من اين هذا قال له من اين هو ؟ قال : لأن
القوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر ولا يظلمون احدا ويتناصفون بينهم ، ومن اجل انا نشرب
الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بما يغضب الله
وننهي عما يرضى الله ونفسد في الأرض . قال صدقي ، والله لأخرجن من هذه
القرية فما لي في صحبتكم خير وانتم هكذا قالوا نشهدك الله ايها الملك ، تدع
سورية وهي جنة الدنيا وحولك من الروم عدد الحصى والتراب ونجوم السماء ولم
يؤت عليهم .

وذكر ابن النديم في الفهرست ما وضع في شأن القتال واساليبه ودخول المعاقل
وبث السرايا والكمون للعدو واستعمال النفط والتارو والمنجنيقات والعرادات وغير
ذلك من آلات الحرب التي يرجع تاريخ اختراعها الى عهود الرومان واليونان ،
واستعمل العرب النار اليونانية في أثناء الحروب الصليبية وقد كانت السبب الاكبر
في صدهم عن اسوار القسطنطينية .

ميل المسلمين الى المهادنة والمصالحة

وبما يدل على ان المسلمين لم يحاربوا على الاقل في صدر الإسلام إلا للضرورات والدفاع عن النفس وحماية الدين والدعوة اليه ، أن المجتهدين في الاسلام لم ينظروا الى نتائج الحرب كما لو كان الظفر لغير المسلمين بحيث يلزمونهم بالشروط التي يرونها ولا اذا احتل هؤلاء بلادهم وامتلكوها عنوة ، فالفقهاء الذين أكثروا في تفريع المسائل حتى ما ندر ان يحدث منها حقيقة لم يسنوا القواعد التي يسير عليها المسلمون بعد ما غلبوا على امرهم ، فهم يرون - كما جاء في الأحكام العسكرية للماوردي - انه على الأمير قتال العدو ما صابر وان تطاولت به المدة ولا يولى عنه وفيه قوة . ومصاربة القتال من حقوق الجهاد حتى يظفر الأمير بخصلة من اربع خصال : إحداهن ان يسلموا فيصيروا لهم بالاسلام ما لنا وعليهم ما علينا ويقروا على ما ملكوا ، وتصير بلادهم اذا اسلموا دار الاسلام يجري عليهم حكم الاسلام . ولو أسلم في معركة الحرب منهم طائفة قلت او كثرت ، احرزوا باسلامهم ما ملكوا في دار الحرب من ارض ومال . والخصلة الثانية أن يبذلوا ما لا على المسالمة والموادعة فيجوز ان يظفر الله تعالى بهم مع مقامهم على شركهم فتسبي ذرايعهم وتغنم اموالهم ويقتل من لم يحصل في الأسر منهم . والخصلة الثالثة ان يبذلوا ما لا على المسالمة والموادعة فيجوز للأمير ان يقبله منهم وان يوادعهم على ضربين احدهما ان يبذلوه لوقتهم ولا يجعلوه خراجاً مستمراً ويكون ذلك اماناً لهم في الانكشاف به عن قتالهم في هذا الجهاد ولا يمنع من جهادهم فيما بعد . والضرب الثاني ان يبذلوه في كل عام فيكون هذا خراجاً مستمراً ويكون الأمان مستقراً ولا يجوز ان يعاود جهادهم ما كانوا مقيمين على بذل المال لاستقرار الموادعة عليه

فان منعوا المال زالت المواقعة وارتفع الامان ولزم جهادهم كغيرهم من أهل الحرب وقال ابو حنيفة لا يكون منعهم من مال الجزية والصلح نقضاً لآمانهم لانه حق عليهم فلا ينقض العهد بمنعهم منه كالديون . والخصلة الرابعة أن يسألوا الامان والمهادنة فيجوز اذا تعذر الظفر بهم وأخذ المال منهم أن يهادنوا على المسألة في مدة مقدرة تعقد الهدنة عليها ، ولا يجاوز أكثرها عشر سنين فان هادنهم أكثر منها بطلت المهادنة فيما زاد عليها ولهم الامان فيها الى انقضاء مدتها ولا يجاهدون فيها ما أقاموا على العهد . وقد هادن رسول الله ﷺ قريشا عام الحديبية عشر سنين فلما نقضت الصلح سار اليهم عام الفتح محاربا حتى فتح مكة .

والى الوجوه الأربعة التي ذكرها الماوردي ثمة وجه خامس تنتهى به الحرب وهو التحكيم . والرجوع إلى المحكمين في فصل الخصومات معروف عند العرب قبل الاسلام ، وقد أمر به القرآن في الصيد وفي الشقاق بين المرء وزوجه . أما فيما يتعلق بانتهاء الحرب فهو يظهر لنا في أمرين : الأول . فيما اذا حاصر المسلمون حصنا لأهل الحرب فصالحوهم على أن ينزلوا على حكم رجل سموه ، الثاني فيما كان من التحكيم بين علي ومعاوية . وذكر ابو يوسف في كتاب الخراج وجوها شتى من نزول المحاصرين على حكم رجل سموه فله أن يحكم بقتل المقاتلة وسبي الذرية وله أن يحكم بأن توضع عليهم الجزية . ولو كان انما حكم فيهم أن يدعوهم الى الاسلام فدعوا فاسلموا فذلك جائز وهم أحرار مسلمون . وكذلك لو كانوا رضوا بأن يحكم فيهم الامام أو واليه ، ولو كانوا رضوا بأن يحكم رجل من المسلمين ونزلوا على ذلك فأتى الرجل الذي رضوا بحكمه قبل الحكم فينبغي أن يعرض الوالى عليهم تصيير الحكم الى غيره ، فان لم يقبلوا نبذ اليهم وكان على محاربتهم ، هذا إذا كانوا في حصنهم ، فان كانوا قد نزلوا ثم لم يقبلوا ما عرض عليهم ردوا الى حصنهم ثم نبذ اليهم . ولو نزلوا على حكم رجلين فأتى أحدهما قبل الحكم فحكم فأتى الثاني ؛ لم يجوز ذلك الا أن يرضوا به . فان اختلفوا ولم يرضوا بذلك سمو ثانيا مع الباقي مكان الميت . ولو لم

يمت واحد منهما وليكنهما أختلفا في الحكم فيهم لم يجوز ما حكم به أيضا ، ولو رضى كل فريق بحكم رجل على حدة لم يجوز ، ولو حكم الرجلان جميعا بأن يعادوا الى الحصن كما كانوا فان هذا ليس بحكم ، هذا خروج منهما كأنهما قالا : لا نقبل الحكم ، ولو حكما أن يردوا الى ما منهم وحصونهم من دار الحرب لم يجوز حكمهما وقد خرجا من الحكم ، ويستأنف التحكيم أن رضوا بذلك أو الحصار كما كانوا .

أما أمر التحكيم بين علي ومعاوية فهو سياسى أكثر منه شرعى . وقد كان سبب فتن كثيرة فى الاسلام وأدى الى نتائج سياسية وتاريخية خطيرة ، ونحن نلخص عن ابى الحديد فى أمر التحكيم ما يلى (١) :

أن الذى دعا اليه ، طلب أهل الشام له واعتصامهم به من سيوف أهل العراق ، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت ودلائل النصر والظفر وضحت وكانت الحرب أكلت الفريقين وليكنها فى أهل الشام أشد نكابة وأعظم وقعا فقد مسلوا الحرب وكرهوا القتال وتضعضت أركانهم ، فدعوا أهل العراق الى كتاب الله فاختلف اصحاب على عليه السلام فى رأى فطائفة قالت القتال وطائفة قالت المحاكمة الى الكتاب ، ولا تحل لنا الحرب وقد دعينا الى حكم الكتاب ، فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها ، ثم تداعى الفريقان وتوالى الرسائل بين علي ومعاوية فى تحكيم القرآن ليكون لها فيه حياة وعذر وبراءة وصلاح للامة وحقق للدماء وذهب للضغائن والفتن واحياء لما أحيا القرآن وإماتة لما أماته . فلما رضى أهل الشام بعمره وأهل العراق بأبى موسى أخذوا فى سطر كتاب المودعة وكتبوا بعد أن يحوا اسم علي من إمرة المؤمنين : هذا ما تقاضى عليه علي بن ابى طالب ومعاوية بن أبى سفيان : قاضى على ابن ابى طالب علي أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية بن ابى سفيان على أهل الشام ومن

كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، اننا نزل عند حكم الله تعالى وكتابه ولا يجمع بيننا إن إياه وان كتاب الله سبحانه وتعالى من فاتحته إلى خاتمته نحي ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن فان وجد الحكمان ذلك في كتاب الله اتبعاه وان لم يجداه أخذنا بالسنة العادلة غير المفرقة ، والحكمان عبدالله بن قيس وعمر بن العاص وقد أخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين انهما أمينان على أنفسهما واموالهما وأهلها والأمة لهما انصار ، وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعملوا بما يقضيان عليه بما وافق الكتاب والسنة وان الأمن والمواذعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين الى أن يقع الحكم وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكم بين الأمة بالحق لا بالهوى . وأجل المواذعة سنة كاملة فان أحب الحكمان ان يعجلا الحكم عجلاه وان توفى أحد فلا مير شيعته شيعته ان يختار مكانه رجلا لا يألو بالحق والعدل . وان توفى احد الأمرين كان نصب غيره الى اصحابه ممن يرضون أمره ويحمدون طريقته . اللهم اننا نتنصرك على من ترك هذه الصيغة وأراد فيها الحادا وظلما . وفي رواية أخرى زيادات منها : ليتخذان الكتاب أماما فيما بعثا اليه لا يعدوانه الى غيره ما وجداه مسطورا وما لم يجداه مسمى في الكتاب ردا الى سنة رسول الله ﷺ ، لا يعتمدان لها خلافا ولا يتبعان هوى ولا يدخلان في شبهة ، وان هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه الى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب ولا شرط بين الفريقين وبعد أن كتبت صحيفة الصلح والتحكيم أخذ الناس من كل جهة ومن كل (١) ناحية في جيش على ينادون أن لاحكم الا الله ويدعون عليا الى الرجوع على التحكيم قائلين لا نرضى أن يحكم الرجال في دين الله ، فكان على يقول : ويحكم أبعد الرضى والميثاق والعقد نرجع ، ليس الله تعالى قد قال أو فوا بالعقد ووقال أو فوا بعهد الله

إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . وكان يقول انى كنت نهيتكم عن الحكومة فأيتكم ، الآن تجعلونها ذنبا ، أما أنها ليست بمعصية ولكنها عجز من الرأى وضعف فى التدبير وقد نهيتكم عنه . ثم التقى الحكماء بدومة الجندل وأطمان أبو موسى الى عمرو بن العاص وأجمع الرواة على أنه كان مخدوعا ولم يكن صعبا على داهية مثل عمرو أن يقتاده ويستنزه عن رأيه ، وشهد الحكماء كثيرون ، فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها ولا ألم لشعبها من أن لا تتباين أمورها وقد أجمع رأيى صاحبى على خلع على معاوية وإن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يولون أمورهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى . فقام عمرو بن العاص فى مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا اخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فى الخلافة فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بخلافته .

ولما تم على أبى موسى ما تم عليه من الحيلة غم ذلك عليا وساء له ووجم له وخطب الناس فقال : الحمد لله وإن أبى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل .

... أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ونحلت لكم مخزون رأيى .. فأيتكم على إباء المخالفين الجفأة والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وضمن الزند بقدحه ، فكنت انا وأياكم كما قال اخو هوازن :

أمرتكم امرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصيح الا ضحى الغد
ثم قال : الا ان هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب واحببا ما أمات واتبع كل منهما عواء وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية واختلعا بما حكما فكلاهما لم يرشد الله فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للسير .

ولم يكن عجيباً أن يصدر مثل ذلك الحكم فقد كان ابو موسى مع ضعف رأيه ممن اعتزل الفتنة وكره الدماء وكان عمرو مع دهائه يحب في الفتنة ويضع وهو يرى يبصره الى ولاية مصر ، ويرى الذين اعتزلوا الفتنة شرار الناس لم يعرفوا حقاً ولم ينسكروا باطلاً ، على حين يراهم ابو موسى خير الناس ، خفت ظهورهم من دماهم ونخست بطونهم من أموالهم ، فالفرق عظيم بين الحكيمين .

وفي هذا الحديث الذي بين معاوية وعمرو ما يدلنا على كثير من أمر هذين الرجلين : قال معاوية لعمرو : ان أهل الكوفة اكرهوا علياً على ابي موسى وهو لا يريدونه ونحن بك راضون وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قليل المديّة وله بعد حظ ودين فاذا قال فدعه يقل ثم قل فأوجز وأقطع المنفصل ولا تلقه بكل رأيك واعلم ان خبء الرأي زيادة في العقل فان خوفك باهل العراق فخوفه بأهل الشام وأن خوفك بعلي فخوفه بمعاوية وان خوفك بمصر فخوفه باليمن وان أذاك بالتفصيل فأنه بالجلل . فقال له عمرو يا معاوية انت وعلى رجلا قريش ولم تنل في حربك ما رجوت ولم تأمل ما خفت ، ذكرت ان لعبد الله ديناً وصاحب الدين منصور ، وإيم الله لا فنين عله ولا استخراج خبأه ، ولكن اذا جاءني بالايمن والهجرة ومناقب على ما عسيت ان أقول ؟ قال قل ما ترى . فقال عمرو وهل تدعى وما ترى وخرج مغضباً كأنه كره ان يوصى ثقة بنفسه ، وقال لاصحابه حين خرج انما اراد معاوية ان يصغر امر ابي موسى لأنه علم اني خادعه غدا فأحب ان يقول ان عمراً لم يخدع اريباً ، فقد كدته بالخلاف عليه .

وجملة ما يقال في هذا التحكيم انه أول تحكيم عرفناه في التاريخ لفض الحرب وقد وضعت له شروطه وقواعده وحددت مدته وعين المكان الذي يجتمع فيه الحكيمان كما يصنع اليوم في شروط التحكيم ، ولكن جرى ايهام عظيم في ولهم بتحكيم القرآن فاتسع المجال لعمرو بن العاص ليأخذ من خصمه ما شاء .

ترجمة حياة المؤلف عبد الله حسين ومؤلفاته



المؤلف في نحو السابعة والأربعين ، ولد في القاهرة ونشأ في دار المؤيد رقم ١٥٨ شارع محمد علي ، وخريج مدرسة فيسكتوريا والجمعية الخيرية الإسلامية والشيخ صالح أبي حديد والأعدادية ، وكان أول طلبة البكالوريا وأول المدرسة كلها ، وكان أحد شبان ثلاثة قابلوا سعد زغلول وأصحابه في خلال الحرب العظمى قبيل عقد الهدنة وقبل أن تخطر بالبال فكرة تأليف الوفد المصري ، وقد وثقت صلات المؤلف بالزعيم سعد وتبودلت بينهما رسائل وأحاديث هي موضوع كتاب خاص ولقد أتسح للمؤلف مقابلة أعظم الرجال في أوربا كالبابا والبران ولويد جورج ومكدونالد وتشمبرلين وإيدن وموسوليني وبريان وبلوم كإدريس العمل في صحف

أوروبا، التي نشرت رسائله وأحاديثه ومعاصر في صباه للحركة الوطنية والفكرية الأولى، التي كان من أعلامها محمد عبده وعلى يوسف وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويز، وفي شبابه الحركة الوطنية الثانية التي بزعامة سعد زغلول وخريج مدرسة الحقوق الملكية (كلية الحقوق في جامعة فؤاد الأول)، وقسم الدكتوراه بمدرسة الحقوق الفرنسية «شعبة العلوم السياسية والاقتصادية» وقسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية القديمة والحاصل على دبلوم معهد الداسة الإيطالية، ودبلوم المعهد الألماني، وله رسائل وأحاديث في جرائد التيمس والمانشيستر جارديان والديلي ميل والاجبشيان ميل، والجازيت دي لوزان والبوبولو دي روما والجورنالي ديطاليا ولومانيتيه النخ.، وعضو اللجنة الاستشارية العليا للتعاون التي وضعت قانون التعاون في سنة ١٩٢٧، وأحد مؤسسي جمعية نهضة القرى، ومؤسس جمعية الشبيبة المصرية، وجمعية الدراسات السودانية وجمعية الدراسات الأفريقية، وجمعية الدراسات العربية والإسلامية، واتحاد صاحبة الأهرام، وعضو البعثة المصرية للسودان، وعضو لجنة جوبا، وعضو الاتحاد العربي، والاستاذ بقسم الصحافة بالجامعة الأمريكية إلى سنة ١٩٤٢. وقد أنشأ مجلة المفيد وهو في الدراسة الابتدائية والجريدة القضائية في سنة ١٩٣٠، ومجلة الإدارة والبوليس القضائي في سنة ١٩٣١ وله في باب التأليف كتب نفذ أكثرها سيعاد طبعها منقحة ومن هذه: — المرأة الحديثة وكيف نسوسها. التعاون الزراعي في مصر. السودان من التاريخ القديم إلى الثورة المهدية. والسودان منذ استعادته إلى تنظيم إدارته. السودان ورحلة البعثة المصرية في ١٩٣٥. المسألة الحبشية. شرح مبادئ القانون التجاري. مجموعات الجريدة القضائية. مجموعات البوليس القضائي. تاريخ ما قبل التاريخ. والملك عبد العزيز آل سعود والمملكة العربية السعودية، وفتحة الدراسات العربية والإسلامية، والحديدو عباس حلمي. والأزهر الجديد، وأحمد ماهر وأنجيل الوطني الجديد. هذا عدا الكتب التي تحت الطبع

الدراسات العربية والإسلامية

الملك عبد العزيز آل سعود
والملكة العريضة السعدية

بقلم

عبد الله م. بن

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مطبعة التوفيق سكة الشرفاوى باب الخلق مصر

كلمة المؤلف

لما كانت زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية للبلاد المصرية من العاشر إلى الثاني والعشرين من شهر يناير ١٩٤٦ أهم حوادث هذا العام من ناحية العروبة ومن ناحية تثبيت الصلات القوية بين المملكة على وجه التخصيص - فقد تهتمت بإعداد هذا الكتاب ، مجلداً فيه تفصيلات هذه الزيارات وتاريخ المملكة العربية السعودية حين آذنت هذه الرحلة المباركة بالتحقيق .

وصل إلى مصر حوالي منتصف شهر فبراير ١٩٤٥ (ربيع الأول ٢٠ ربيع الأول ١٣٦٤) ونزل في فندق أوبرج بحيرة فاروق وكانت رحلته في مخيم أقيم على ظهر مدمرة أمريكية وزار جلالاته جلالة الملك فاروق الأول والمرحوم الرئيس روزفلت والمستتر تشرشل والسيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يفاد منها عاهل العروبة بلاده إلى الخارج وكانت مع حاشيته وزار جلالاته الأهرام .

وبعد أن عاد جلالاته إلى بلادهم أتيح لصاحب الجلالة الفاروق الاجتماع بجلالاته في رضوى ، وتلقى الدعوة بزيارة مصر . وبإذن جلالة الملك عبدالعزيز إلى رد زيارة الفاروق بهذه الرحلة السامية الموفقة الخالدة الأثر التي من أجلها أقدم هذا الكتاب لعراة العروبة وأصدقائها أجمعين

عبدالله حسين

١٩٤٦ - ١٩٤٧



جلالة الملك فاروق الاول و جلالة الملك عبد العزيز آل سعود



الملك عبد العزيز آل سعود



الملك عبد العزيز في مكتبته يدير شئونه
على جازبه آلة التليفون



عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية



جلالة الملك فاروق الأول



الأبير نواف



سعادة الشيخ يوسف ياسين السكرتير
الخاص للملك عبدالعزيز ووزير الدولة
ونائب وزير الخارجية

خريطة بلاد العرب

الاصطلاحات

حدود المناطق الصحراوية
عروق القوافل القديمة
الرواسيات



خريطة بلاد العرب



سيز لوزكلي بك مستشار المفوضية السعودية صاحب التمر الملكي الامير فيصل



الحاج عبدالله فل

الشيخ ساطع وهبه

٢-	كلمة المؤلف
٦ - ٣	صور
٨ - ٧	فهرس
١٦ - ٩	العرب والعروبة
٢٥ - ١٧	التوسع الاسلامى برا وبحراً
٢٢ - ٢٦	العروبة والاسلام ، احياء عصبة القبيلة
٤٨ - ٣٣	الجامعة العربية فى حياتها القديمة ، الحجاز
٦٢ - ٤٩	نشأة المذهب الوهابى وتاريخ نجد
٧٦ - ٦٧	جلالة الملك بن سعود : للسيدة هدى شعراوى
٨١ - ٧٦	نشأة محمد بن عبدالوهاب ومذهبه
٩٤ - ٨٣	البروتوكول السعودى والمملكة العربية السعودية
٩٥ - ٩٤	مبايعة الملك عبدالعزيز فى الحجاز ، والتقدم فى المملكة السعودية
٩٧ - ٩٦	الملك عبدالعزيز : تعلم الشيخ يوسف يسن
١٠٢ - ٩٨	مشروعات جديدة
١٠٤ - ١٠٣	الملك عبدالعزيز وبعض أمراء العرب
١٢٠ - ١٠٤	الملك عبدالعزيز بقلم أمير الحج ابراهيم شيد الهادى باشا
	الملك عبدالعزيز كما عرفته بقلم عزام باشا بقلم جميل مردم بك ،
	ولاية العهد وحياة الملك الخاصة ، مجالس الملك ، رأى طيب جلالته ،
	بقلم الدكتور حسن الاشمرى
	مع عاهل الجزيرة ؛ واثنا سبة عيد جلوس الملك عبدالعزيز : بقلم السيد
١٢٧ - ١٢٠	خير الدين الزركلى ، جهاد بحلى : الاستاذ عبداللّه القصبى

١٣٧ - ١٤٠

١٤١ - ١٤٢

١٤٣ - ١٤٦

١٤٦ - ١٤٨

١٤٨ - ١٤٩

١٥٠ - ١٥٢

١٥٢ - ١٥٨

١٥٨ - ١٥٩

١٥٩ - ١٦٢

١٦٢ - ١٦٣

١٦٣ - ١٦٦

١٦٦ - ١٧١

١٧١ - ١٧٥

١٧٥ - ١٨٢

١٨٢ - ١٨٦

١٨٦ - ١٩٤

١٩٤ - ١٩٧

١٩٧ - ٢٠٠

البرنامج الرسمي لزيارة الملك عبدالعزيز

اليوم الاول للزيارة (١٠ يناير)

اليوم الثاني للزيارة (١١ يناير)

اليوم الثالث للزيارة (١٢ يناير)

اليوم الرابع (١٣ يناير)

اليوم الخامس (١٤ يناير)

اليوم السادس (١٥ يناير)

اليوم السابع (١٦ يناير)

اليوم الثامن (١٧ يناير)

اليوم التاسع (١٨ يناير)

اليوم العاشر (١٩ يناير)

اليوم الحادي عشر والثاني عشر

سفر الملك عبدالعزيز من مصر

التوديع والشكر

هدايا جلالة الملك عبدالعزيز

رسالة الملك عبدالعزيز الى شعبه

على هامش زيارة الملك عبدالعزيز

مسألة رشيد عافي الكيلاني

بين الملك عبدالعزيز وملك عربي

جغرافية المملكة العربية السعودية ٢٠٠ -

العرب والعروبة

للمؤرخين والرواة في تفسير كلمة «العرب» و«عرب» أقوال وروايات لا تخرج أكثرها عن دائرة التفسيرات اللغوية المألوفة في تفسير كل كلمة عويصة وكل اسم من الأسماء الغريبة. وعند الدكتور جواد علي، أنك إذا ما أردت نموذجاً من تلك التوضيحات والروايات فاقرا ما دون عن هذه الكلمة في كتاب «التيجان أو هب من منبه في ملوك الحميرين» ص ٢٠ مثلاً وهو رواية وهب بن منبه المتوفى بصنعاء حوالي سنة ٧٢٨ للميلاد وهو أسرايل يمانى يرجع في الأصل إلى نسب اليهود الفرس ثم أسلم. وإلى الروايات الأخرى المدونة في كتب التاريخ والأدب. ولا يهنا نحن في هذا الباب البحث عن أسباب تلك التسمية إلا عن الدوافع التي دفعت القوم على وضع تلك القصص والحكايات، وكلها مدونة معروفة، وأنا الذي يهنا في هذا الفصل هو تاريخ هذه الكلمة والوقت الذي ظهرت فيه. عرف المستشرقون في جملة ما عرفوه من النصوص القديمة بما أشرفياً يهود عهده إلى الملك شلمانصر الثالث (SALMANASSAR) تحدث فيه الملك عن معركة سميت باسم معركة «قرقر» qarqar وهي معركة هامة حدثت في حوالي سنة ٨٥٣ قبل الميلاد بين الآشوريين وبين حلف من الإمارات والمشيخات التي كانت تذكره الآشوريين. وقد ذكر النص في جملة ما ذكره من أسماء الذين انضموا إلى هذا الحلف اسم امرأة عربية اسمها «عربي» Aripī انضم أمير هذه الدولة العربية إلى الحلفاء وأمدهم بنحو ألف رجل وبعده من رجاله الذين قالوا الجنود الآشوريين.

أما ذلك الأمير العربي الذي قال الآشوريون فكان «جن-دب» (جنديبر) Ginlibu ولا نعرف اسم أبيه إذ لم يتعرض النص لذلك. والظاهر أنه كان معروفاً عند الآشوريين فلم يحدوا عنه حاجة تدعوهم إلى ذكر أبيه. وهذا الملك هو أول الملك العربي ولا شك يذكر اسمه في النصوص التاريخية المدونة في ملوك العرب الشماليين، وقد تغلب الآشوريون على ما يذكره النص الآشوري على رجال الحلف ونكلوا بهم تشكيلاً شديداً ويبدو بصورة عامة من النصوص الآشورية أن العرب كانوا يعاكسون

السياسة الآشورية يهددون طرق مواصلات هذه الامبراطورية في مختلف الأوقات والعهود
وفي عهد الامبراطور تغلا تيليسر الثالث (Tiglati-Plaser III) اضطر الملك الى
ارسال حملات تأديبية لاختضاع القبائل العربية . ويبدو أنها لم تتمكن من النجاح في
مهمتها نجاحا تاما حتى اضطرت أخيرا الى اتباع سياسة استرضاء رؤسا القبائل وشراء
قلوبهم بالمال . فانتخبت أحدا الأمراء العرب (auabu) من المعروفين بميلهم الى الآشوريين
ومن المؤيدين لهم وعينته حاكما عاما وأميرا مفوضا عليهم .

ولكن القبائل العربية لم تغير من خفتها نحو الآشوريين ولم تبدل سياستها العدائية
نحو هذه الامبراطورية بدليل ما قام به الملوك الذين جاءوا من بعدها الامبراطور ، بارسال
حملات على العرب بصورة متوالية .

وقد وردت لفظة « عرب » في هذه النصوص الآشورية بهذه الصور « aribi » ،
« عربو » ، « arubu » ، و « عربي » ، « arbi » ، و « عربي » ، « arabi » ، و « عربي » ،
« irebi » ولا تزال هذه الكلمة الأخيرة مستعملة في بعض جارات العراق كاسم علم يطلق
على الأشخاص . وتطلق كلمة « أعربي » ، « urbi » ، و « عربي » في العراق على
البدو لم يزل على البداوة .

وذهب بعض المستشرقين الى أن المقصود من « urbi » « عربي » الاعراب أي سكان
البادية . وأما البادية التي هي موطن العرب فيطلق الآشوريون عليها « aribi » « عربي »
وهي الصحراء الواسعة التي تفصل العراق عن الشام والتي تمتد حتى تصل حدود نجد
وهناك اصطلاح آخر ورد في النصوص الآشورية وهو « ماتو عربي » ،
« matu arbaai » ومعنى « ماتو » أرض فيكون معنى ذلك « أراضي العرب » . وقد
وردت هذه التسمية في نص يرجع عهده الى القرن الثامن قبل المسيح وقد استعمل البابليون
هذه الكلمة أيضا على نحو ما كان يستعملها الآشوريون ثم دخلت الكلمة إلى اللغة
الفارسية فاليونانية .

ومن الشعوب القديمة التي كانت على اتصال دائم بالعرب « العبرانيون » فقد كانت
بين العرب وبين العبرانيين حدود مشتركة وصلات تجارية قديمة كما كانت بينهم أيام سلم

وأيام حروب . لذلك تعرضت النصوص العبرانية لذكر العرب مرارا وتحدثوا عنهم في مناسبات عديدة ، تدل لفظة « arab » في جميع نروع اللغة السامية على مدلول واحد تقريبا وهو « البداوة » وسكنى الصحراء فكانت كلمة عرب مستعملة في اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربية الصحراء أى نوع خاص من قبائل الجزيرة العربية في حين كان لأهل المدن والعمران أسماء أخرى جاءت في كتب اليهود القديمة ، وقد وردت هذه التسمية في مواضع عديدة من العهد القديم جاءت تارة بمعنى « بادية » وتارة أخرى بمعنى الفقر والجفاف والحراب والوحشة كالذى يفهم مثلا من الآية الثالثة عشرة من الانجيل الحادى والعشرين من أشعيا . وهى تقابل كلمتى « waste » و « Desolation » الانكليزيين - راجع الكتاب المقدس وقاموسه - هيستنج

وجاءت في التوراة فقرة Massa ha arab وهى من عهد التوراة المتأخرة على رأى هاستنج المختص بأبحاث التوراة وقد فسرت في اللغة اليونانية القديمة بمعنى « بلاد العرب » وأصبحت ترجمة الآية بكاملها باللغة العربية بهذه الصورة « وحى من جهة بلاد العرب وفى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل المدانين » وقد خصصت هذه الكلمة فى هذه الآية . أما قبل ذاك فكانت تعنى البداوة والامعان فى العيش فى البادية

وتدل لفظة « عرابة » Arabah التى وردت فى العهد القديم بصورة الثنية على ما ذكرناه سابقا « عربية » غير أن « ها - عرابة » a, arabah: المسبوق باداة تعنى الوادى العميق الممتد من جبل الشيخ الى خليج العقبة وفيه الجولة وبحر الخليل وبحر الملح أو البحر الميت وقد يحتفى هذا الاسم بالنور بين البحر الميت والبحر الاحمر وقد يدل على الغرب شمالى البحر الميت .

ولا يعرف على وجه التأكيد ما يقصد من كلمة Arabi الواردة فى الآية ٢٠ من الانجيل الثالث من أرميا هل يراد من ذلك « اعرابي » أى أحد الاعراب من سكان البادية أو « عرب » وعمل كل فانه ان قصد الاول اتجهت الفكرة رأسا الى « بدوى » وان قصد الثانى اتجهت الفكرة الى عربى من أهل القرى والمدن والاراضى

وما يلاحظ أن صيغة Arab هى صيغة آرامية أكثر من كونها صيغة عبرية وأما الجمع وهو arbim من arbim ويرد فى مواضع من التوراة

فانه أقرب إلى العبرية منه إلى الآرامية . وأما السورة التي وردت عليها هذه اللفظة في الآية الحادية عشرة من الاصحاح السابع عشر من أخبار الايام الثاني فانها غير أصلية على ما يظهر لانها صيغة غير مألوفة «عربان» ان أول من استخدم (عرب) كاسم علم في العهد القديم على وجه التأكيد هو النبي ارميا وتقع نبوءته بين ٦٢٦ - ٥٨٦ قبل الميلاد إذ جاء . وكل ملوك العرب وأما العبارة الاتية (srere:Wæi,KcImàIke) فانها شرح صرف لما تقدم لاجل التوضيح ولا قيمة معنوية لها غير ذلك ، فغنى كلمة اوريب إذا العرب ولا شك من أن قصد النبي ارميا من تعبيره . وكل ملوك العرب أمراء ومشايخ العرب الذين كانوا يسكنون في البلاد العربية الشمالية وفي صحراء بادية الشام .

ويشك هاستنك في أن مقصود النبي من العرب قبيلة معينة أو جماعة معلومة تختلف عن القبائل والجماعات الاخرى من العرب بعض الاختلاف . والظاهر أن النبي ارميا لم يكن يحيط علما بالقبائل البدوية وهي كثيرة وبالغروع التي تشعبت منها . وكيف يحيط النبي علما بها ولم تكن لدى الاسرائيليين معلومات صحيحة واضحة حتى ذلك العهد عن العرب وكل ما كانوا يعرفون عن العرب لم يكن الا من قبيل المعلومات الابتدائية الغامضة المبهمة .

والحق أن العبرانيين لم يتصلوا بالعرب اتصالا تاما ولم يكونوا لهم فكرة واضحة عن القبائل العربية الا بعد تدهور القبائل الاسماعيلية (اسماعيل) الا بعد ضعف المدينيين والعماق (العالمقة) . حينئذ اتصل العرب بالاسرائيليين اتصالا مباشرا وعندئذ احتك الاسرائيليون بالعرب احتكاكا شديدا في خلال أيام السلم وفي أثناء أيام الحروب

ومهما يكن من شيء فان هنالك صعوبات كبيرة تلزخية في تعيين مدلول كلمة «عريب» الواردة في العهد القديم هل تعني «البدواة» أو تعني البلاد للعربية كلها أو جزءا معينا من الأجزاء التي سكن فيها هذا الشعب ؟ ولما ذكر النبي ارميا الاسماء التي ذكرت مع هذه الكلمة يربط الاسماء ترتيباً جغرافياً منتظماً . فبعد أن ذكر «عريب» و «وكل اللقيف» قال : وكل ملوك أرض عوص ، وكل ملوك أرض فلسطين ، واشقلوة وذرة وعقرون وبقية

اشددود وآدوم وموآب وبني عمون وكل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر
التي في عبر البحر وددان وبتاء وبوز وكل مقصوصي الشعر مستديراً وكل ملوك العرب وكل
ملوك اللقيف الساكنين في البرية .

ترى مما تقدم أن من الصعب تعيين المكان الذي سكنه العرب . وقد ترجم
مارتن لوثر « وكل ملوك العرب » بترجمة تختلف قليلاً في المعنى فقال « وكل الملوك الذين في
البلاد العربية » فقصده البلاه العربية لا الشعب العربي كشعب « أعراب » ونجد هذا الالتباس
في الترجمات الاوربية

ومنذ القرن الثالث قبل المسيح أصبحت كلمة « عرب » نوعاً عاماً تطلق على مختلف
القبائل التي انتشرت في شبه الجزيرة فأطلقت على العرب الذين كانوا يجاورون « الكوشيين »
وهم « الاحباش » على أكثر الاحتمالات وذكرت قبيلة [جشم] في مجموعة القبائل العربية
أشار الى ذلك « نخميا » في ذكرياته . وهذه القبيلة هي من القبائل الشمالية .

ومما يجب التنويه عنه هو أن لفظ « عرب » مهما قيل فيه فإنه لا يعني مايعنيه في الوقت
الحاضر من شعب واحد كان يسكن شبه الجزيرة برمتها بل كان يشمل نوعاً خاصاً من
القبائل وهي القبائل التي كانت تنقل في البادية من مكان إلى مكان طلباً للكلأ والماء
ومنابت الاعشاب

« وأما مايقال في المعاجم العربية من أن هناك فرقاً بين كلمتي عربي وأعرابي وتخصيص
الاولى بسكان المدن والثانية بسكان البادية فلم يحدث إلا في عصور قريبة من ظهور
الاسلام . أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقاً ، بل كان كل من الكلمتين يدل على
سكان البادية فحسب ؛ أما سكان المدن والامصار فكانوا ينسبون إلى قبايلهم أو يعرفون
بمناطقهم »

ويقال بأن « بني قديم » الواردة في العهد القديم والتي تعني « أبناء الشرق » أو « الشرقيين »
تقصده منها القبائل العربية التي كانت تسكن شرق فلسطين أو حوالى البحر الميت . ولعلها
القبائل التي كان يطلق عليها اسم « القبائل الاسماعيلية » ويقول أحد المستشرقين وهو ليوالد
يأن « قدموني » ترادف « بني قديم » وهي تسمية عامة تطلق على جميع القبائل التي انحدرت

من نسل «قطورة» زوجة إبراهيم على حد تعبير نسابي اليهودي .
وأما الاراغنى التى أقام فيها العرب وحلوا بها فقد أطلق عليها الاشوريون والبابليون
«ماتو أربائى» ومعناها «أرض العرب» وقد انتقلت هذه التسمية من البابليين إلى الفرس
ومن الفرس إلى الكتبة اليونانيين .

وعرف هؤلاء الكتبة شيئاً من أحوال العرب دونت في كتبهم : ذكر إسم عربى
اشترك مع من اشترك في معركة «سلاميس» وذكر هيرودوتس شيئاً عن
العرب وعن البلاد العربية وعلى الاخص العرب الذين كانوا فى المنطقة الواقعة بين سوريا
ومصر أى فى صحراء سيناء وفى المناطق المتصلة بهذه الصحراء والتي كانت لها روابط
وصلات بالعبرانيين .

وأطلق اكسنوفان على المنطقة التى سماها داريوس ويعنون بها الصحراء التى
تفصل أرض بابل رهى المنطقة التى ظل الكتبة السريان المتأخرون يطلقون عليها
لإسم (Arabs) وقد استوطنت فى هذه المنطقة قبائل عربية كثيرة .
وقسم كتبة اليونانيين البلاد العربية «الرئيسية» إلى أقسام مثل «العربية السعيدة»
و«العربية الصخرية» و«العربية الصحراوية» وأقسام أخرى .

وعرف العرب بتسمية أخرى هى saracens وهى تسمية شاعت بين الكتبة
اليونانيين . ويستفاد مما كتبه بطليموس أن «السريانيين» كانوا يقيمون فى منطقة شبيهة
جزيرة سيناء وأنهم كانوا من أتباع الإمبراطورية الرومانية وأنهم كانوا يتعرضون للتوغل
البحرية ويأخذون الكوس الفاحشة من القوافل التى كانت تمر بإرائهم .
وأطلق الاراميون على العرب لإسم «sarKajce» وتجد هذه اللفظة فى المتأخرة والديالوك
التي كتبها أحد تلاميذ برديسان حوالى سنة ٢١٠ لليلاد . وقد شاعت هذه اللفظة وأصبحت
تطلق على العرب عامة منذ هذا الوقت لدى السريانيين واليونانيين . ثم انتقلت إلى اليونانيين
ثم بقية الشعوب الاوربية .

وأما لفظه (Taits) فلظاهر أنها مأخوذ من كلمة «طى» وهى إسم اقليمية المشهور التى
كانت تسكن شمان نجد ثم ارتحلت إلى البادية الشمالية وإلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة . وقد

اكتسبت هذه القبيلة شهرة واسعة وخافتها الشعوب المجاورة حتى أطلقوا على جميع القبائل العربية لفظة **TaiTs** من باب اطلاق الجزء على الكل .

وهكذا شاعت هذه الكلمة وغطت مادونها من كلمات . فأطلق الاراميون في العصور المسيحية لفظة (**Tayayo**) على العرب ونقل الفرس هذه الكلمة بصورة محرفة تحريفاً يلائم لغتهم فقالوا « تاجك » في العهد الاخير .

فقد خافت الشعوب التي تاخمت قبيلة طى منها كثيراً والظاهر أنها كانت قوية شديدة المراس وقد أجمع الكتبة من يونان وسريان أنها كانت على جانب عظيم من الغلظة والحشونة وأنها كانت بدوية . ويقول يوحنا العمودي بأن أكثر قبيلة **Taito** لا يعرفون الحزن

أما النصوص القديمة التي عثر عليها في البلاد العربية الجنوبية فلم تذكر سوى كلمة « أعراب » ومعناها البدو والقبائل المتنقلة على نحو ما جاء في القرآن الكريم . وقد كان السبأيون والحيريون يميزون بين الحضر من أهل المدن وبين سكنة البادية وهم « الأعراب » . فكانوا يسمون الحضر بأسماء الاماكن التي يسكنونها أو بأسماء أجدادهم وقبائلهم فيقولون « بنو فلان » . وأما سكنة البادية فكانوا يطلقون عليهم بصورة عامة « أعراب » وينسبونهم الى المحل الذي يقيمون فيه فيقولون « أعراب تهامة » و « أعراب مأرب » وماشابه ذلك .

وبالنظر إلى عدم العثور على نصوص عربية قديمة كثيرة نستطيع بواسطتها معرفة آراء العرب أنفسهم في هذه التسميات فأننا لانستطيع إبداء رأى حاسم فيما ذكرناه من تسميات أطلقها الأجانب على العرب . وعلى كل فإن هذه التسميات على ما يبدو كانت خاصة بعرب الشمال الذين كانوا على اتصال مباشر بتلك الشعوب الغربية . فهي علامات فارقة كانت تميز تلك القبائل عن القبائل السامية الأخرى .

ان القبائل البدوية والقبائل التي هي على شيء من حياة البداوة لاتعرف عادة من معاني القومية والجنسية إلا معنى القومية القبلية . فالقبيلة في نظر البدوى هي الحكومة وهي القومية وهي الجنس وهي كل شيء . والارض التي تقيم فيها القبيلة هي الوطن يرتبط به مادامت القبيلة فيه فاذا انتقلت القبيلة الى أرض أخرى كانت الارض الجديدة

هي الوطن الجديد الذي بدافع عنسه ويجود بنفسه في سبيله - وراية القبياة هي الجنسية الوحيدة فيما بين القبائل وهي التابعة - وعلى قدر منزلة القبياة تكون منزلة لتابعة وقوة نفوذها في عالم القبائل السياسي - راجع قاموس هيرستنج

وعلى الرغم من اشتباك القبائل في وحدة الجنس ووحدة الأصل فإنها لم تكن تشترط في معاملاتها الخاصة هذا الشعور - فكانت تنظر الواحدة الى الاخرى نظرتها الى شعب غريب فتتحارب وتقاتل فيما بينهما وترتبط مع الاجانب وتحارب معهم ضد قبياة أخرى من أبناء جنسها - ولكن ضرورة التنقل من مكان الى مكان أجبرت القبائل القريبة على تكوين حلف فيما بينها وعلى الارتباط برباط العصبة - فصار هنالك حلف القبائل

وهذا الشعور هو الذي ألف فيما بين القبائل وجعلها كتلة قوية تصد عادية المعتدين - فظهر امرؤ القيس بن عمرو الذي ورد ذكره في حجر نمارة النيس في الجنوب الشرق من دمشق والمؤرخ في عام ٢٣٨ للميلاد الموافق ليوم ٧ بكسول من سنة ٢٢٢ - راجع ليدريارسكي اغيميس ج ٢ ص ٣٥ .

ان نص البارة هو أول نص عربي يشير الى ملك « ملك العرب كلهم » والذي حاز التاج وملك الاسدين ونزاراً وملوكهم وهزم مذحجاً وجاء الى نجران (أوزجى) في جميع نجران مدينة شمر وملك معداً ونزل بنية الشعوب ووكاه الفرس والروم فأبلغ ملك مبلان - راجع نص البارة ج ٢ ص ٣٥ .

ينظم من كل ما تقدم أن كلمة « عرب » و « العرب » لم تطلق في العصور التي تقدمت المسيح على العرب عامة وإنما كانت كلمات تدل على قبيلة معينة هي قبيلة شمالية - وأما عرب الجنوب فكانوا يسمى « موونيم » مثلاً أى مومنين أو سبذين ثم حيرين وقبائل أخرى - واستعملت « عريب » عند العبرانيين للدلالة على البدواة ، وكذلك استعملت عند عرب الجنوب -

والظاهر أن كلمة « العرب » كبنية تشمل جميع سكان شبه الجزيرة العربية لم تظهر الا قبل الاسلام بزمان ينظم - أنه لم يكن طويلاً يمكن أن يعود الى القرن الثالث أو الرابع للمسيح - ولم تطلق هذه الكلمة على سكان بلاد العرب الجنوبية الذين كانوا يختلفون في أنسابهم عن عرب الشمال ولذلك فرق النسابون بين الجماعتين -

التوسع الاسلامى برا وبحرا

عند الدكتور سليمان حزين في بحثه عن «توسع العرب وانتشار الاسلام» أن العرب في نظر غالبية الباحثين والمؤرخين «أمة برية بدأت حياتها في الصحراء» وأنشأت حضارتهم في بيئات برية داخلية، لا اتصال لها بالبحر إلا فيما قضت به الضرورة القصوى. بل إن النظر العامة نحو العرب تصورهم على أنهم بدو رحل يرعون الابل والاغنام «ويقولون المتاجر على ظهور جمالهم» سالكين طرق القوافل المعروفة في بلادهم أو في خارجها. على هذه الصورة إنما هي صورة جزئية لا تمثل الحقيقة كاملة. فالعرب هم قوم بحريون قديمون هذه الصورة إنما هي صورة جزئية لا تمثل الحقيقة كاملة. فالعرب هم قوم بحريون قديمون قديمون يسكنون البحار ويتنقلون بين المرافئ والموانئ كما يحبون الصحراء ويتنقلون بين الواحات والاسواق، بل قد يكون انتشار الثقافة العربية والاسلام بحراً أكثر طرقاته بالنسبة للباحث المدقق من انتشارهم بالبر على نحو يعرفه الجميع.

وقد كان طبعياً أن يصبح للنشاط العربى بجانب بحرى منذ البداية كما أن له جانباً برياً، فجزيرة العرب تقع بين بحار الشمال وبلدانها الحارة والموسمية من جهة أخرى وإلى الغرب منها يمتد البحر الاحمر كذراع من الماء يكاد يصل ما بين المحيط الهندي وبحر العرب جنوباً والبحر الابيض المتوسط شمالاً، كما أن إلى الشرق منها يوجد الخليج الفارسى كذراع آخر يحاول أن يصل ما بين تلك البحار. والظرر أن عدم اتصال كل من البحر الاحمر والخليج فارس والبحر الابيض المتوسط، كان في نشاط العرب في العمل والاشتغال بالوساطة التجارية والنقل، ليتم الاتصال بين البحر والشمال، فنشأت المرافئ والموانئ، حول سواحل الجزيرة، وامتد نشاط العرب فقط على طول طرق القوافل عبر الجزيرة «ولما كذلك في البحار مبتدئين من تلك الطرق على السواحل، أى من القواعد البحرية في الجنوب وفي الشمال».

وهناك ثلاث مناطق أساسية كانت كل منها قاعدة لتوسع العرب واشتغالهم بالنقل والتجارة البحرية ، كما انتشر الاسلام من كل منها إلى ما وراء البحار ولو بدرجات متفاوتة .

أما المنطقة الأولى في الشمال على سواحل فينيقية ، وهي تعادل سواحل لبنان في الوقت الحاضر ، أو قل إنها تمتد من حيفا شمالا . والنظر إلى سواحل الشام المطلة على شرق البحر الأبيض المتوسط يلاحظ الفرق الواضح من الناحية الطبيعية بين سواحل فلسطين وسواحل لبنان . فالأولى رملية منخفضة تكاد تخلو من المرافق الطبيعية ، فضلا عن أن الرمال والرواسب تتراكم على الساحل مع مرور الزمن ، مما يردم المرافق ، ويجعل من الصعب الاحتفاظ بالمساكن الشاطئية مفتوحة لسفن الملاحة . وكثير من مرافق هذا الساحل القديمة مثل غزة وغيرها أصبحت الآن بعيدة عن البحر المكشوف والمفتوح للملاحة ، أو على الأقل أصبحت تفصلها عن ذلك البحر الشطوط الرملية التي تعوق الملاحة . والواقع أن هذا القسم الفلسطيني من سواحل الشام لم يكن ليمثل في عصور التاريخ المتلاحقة منطقة بحرية متصلة التاريخ والنشاط ؛ وكلما ظهر فيه ميناء أو مرفأ تضافت العوامل الطبيعية من الإرساب البري والبحري على ردمه ؛ وقد نوجب أن نعم أن بعض الرواسب التي تتراكم على هذا الساحل ، والتي تعيق الملاحة (ولكنها تكون تربة صالحة للزراعة) تأتي أصلا من مصب نهر النيل ، حيث تطفو مياه ذلك النهر العذبة بما تحمل من ذرات الطين الخفيفة والمكونة من شظايا الميكات الرقيقة المجاورة أصلا من بلاد الحبشة تطفو تلك المياه العذبة الخفيفة فوق سطح مياه البحر المالحة ، وتتجه مع تيار شرقا وشمالا شرق ، حتى تصل إلى سواحل فلسطين وترسب هناك . ولعل في ذاك بعض ما يزيد من لرابطة الطبيعية بين وادي النيل الأسفل وهذا القسم من سواحل الجزيرة العربية .

أما سواحل لبنان فتقع عند سفوح جبال لبنان العالية ؛ فهي سواحل صخرية في كثير من أجزائها ويوجد بها عدد كبير من المرافق الطبيعية التي استخدمت في العصور القديمة ، مثل صور وصيدا ، والتي لا تزال تستعمل في الوقت الحاضر مثل بيروت . ولما نت عوامل الإرساب في هذا الساحل أقل كثيرا منها في ساحل فلسطين فقد احتفظ

هذا الساحل اللبناني بموانئه ومرافئه ، وقد مثل أقدم العصور المدخل البحرى للشرق الأدنى ؛ فضلا عن أن سكانه اشتغلوا بالملاحة والتجارة البحرية منذ القدم ، وكان لهم ضلع كبير فى نشر الثقافة من بلادهم وما وراءها فى البر الى كثير من بلدان البحر المتوسط وما وراءها . ويكفى أن نذكر مثالا واحدا من العصور القديمة هو توسع الزينقيين من هناك نحو شمال أفريقيا والحوض الزينقى للبحر المتوسط ، وأن نذكر مثالا آخر من العصر الحديث هو توسع اللبنانيين الى بلاد المغرب فى أمريكا . . . واللبنانيون هم خلفاء الزينقيين ورثوا عنهم حب المخاطرة والهجرة البعيدة وهم الآن يرون علم الثقافة العربية فى كثير من بلاد المهجر النائية .

وأما المنطقة البحرية الثانية ، التى توسع العرب منها وانتشرت بذلك الثقافة العربية والإسلامية ، فتقع على سواحل الخليج الفارسى وخليج عمان . وهى أيضا تنقسم قسمين . فأما الأول فساحل الأحساء والبحرين ، وأما الثانى فساحل عمان . والقسم الاول سهل رملى تقل فيه المرافئ الطبيعية عدا الكويت فى أقصى الشمال (وهو مينا حديث نسبيا) . والبحرين وما يقابلها من السواحل فى أقصى الجنوب . وقدار تبطت حياة سكان هذا الساحل منذ أقدم العصور بالبحر ؛ ولكن نشاطهم اتخذ اتجاها معينا ؛ فهم قد اشتغلوا بصيد اللؤلؤ والاتجار فيه ؛ وقد مونوا ببضاعتهم الثمينة أسواق الشرق وبعض أسواق الغرب القريب فى البحر المتوسط . واستطاع تجارهم فى بعض رحلاتهم نحو الشرق أن يحملوا معهم ثقافة العرب . وأن يذشروا بدينهم ولو بقدر محدود .

وأما القسم الثانى الذى يشمل سواحل عمان . فانه يحاذى الجبال الداخلية المرتفعة . وتوجد به بعض المرافئ الطبيعية الصالحة . وأهمها مسقط ؛ كما أن أهله اشتغلوا بالنقل والتجارة البحرية منذ القدم . واختلط نشاطهم أحيانا بنشاط أهل السواحل الفارسية المقابلة لاسيا أهل هرمز وجزيرتها ، وامتد نشاط العانيين فى بحر الهند وجنوب آسيا . ولكن أغلب ذلك النشاط اتجه نحو شرق أفريقيا وجزيرة زنجبار (زنجبار) التى ارتبطت بسلطنة عمان بأوثق الصلات . وقد حمل العانيون الثقافة العربية الإسلامية ونشروها على طول ساحل أفريقيا جنوبا حتى خليج سافالا . كما أنهم توغلوا فى بعض الجهات نحو

داخلية شرق أفريقيا ولو في نطاق ضيق .

وأخيرا نصل إلى المنطقة البحرية الثالثة . التي انتشر العرب منها ونقلوا ثقافتهم ودينهم إلى ما وراء البحار . وهي منطقة اليمن وحضرموت في جنوب غروب شبه الجزيرة . وهذه المنطقة مكنتها في تاريخ العرب وحضارتهم ؛ فقد نشأت بها حضارات عريقة قبل الإسلام . وكان لأهلها اتصال قوى بسكان السواحل الإفريقية المقابلة . والتي كانت تعرف هي وبلاد اليمن معا باسم بلاد « بنت » التي اتصلت بمصر القديمة بواسطة التجارة البحرية . وقد استمر عرب الجنوب في نشاطهم التجاري خلال العهد العنفي والسبأى والحيرى . كما أصبحت بلادهم لاسيا اليمن معقلا للون من الثقافة السامية ؛ وانتشر الساميون من هناك إلى بلاد الحبشة . حتى إذا ما جاء الإسلام استمر أهل اليمن في نشاطهم التجاري البحري . لاسيا من بعض المرات . كمدن والحما ؛ ولو أن أغلب النشاط البحري جاء من بلاد حضرموت . وعلى يد الحضارة الذين يعدون بحق ، فينيقي البحار الجنوبية ؛ فقد كانوا رسل الثقافة العربية والدين الإسلامى إلى ما وراء بحر العرب وبلاد الهند حتى جنوب شرق آسيا ، حيث استقروا في بلاد الملايو وجزر الهند الشرقية (أندونيسيا) ، ونشروا الدين الإسلامى بين سكان البلاد لاصليين . لاسيا في جزيرة جاوه وبعض أجزاء الملايو وسومطرا وبعض جزر الفيليبين . وترجع بداية وصول العرب إلى جنوب شرق آسيا وجزرها إلى القرن العاشر الميلادى ؛ ولو أن بعض تجارهم استقر قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة في بعض موانئ الصين الجنوبية مثل كانتون وغيرها . واستمر اتصال العرب بجنوب شرق آسيا منذ ذلك الوقت ، ولو أن مبلغ نشاطهم في الإشتغال بالتجارة والتبشير بالدين الإسلامى قد اختلف من وقت لآخر . ومن لحظة لآخرى . فهم في موانئ الصين ذاتها كانوا يعيشون في « مستعمرات » أو « أحياء » خاصة بهم . زار بعضها ابن بطرطوة في القرن الرابع عشر . وتحدث عن ثروة أفرادها وما كانوا يتمتعون به من حقوق وامتيازات . أما في جزر الهند الشرقية فقد كثر اختلاطهم بالأهالى وبذلك انتشر الدين الإسلامى بين السكان الاصليين .

أما انتشار العربية والدين الاسلامي من بلاد العرب بالبر من شمال شبه الجزيرة نحو داخلية آسيا من جهة ، ونحو شمال إفريقيا من جهة أخرى . فأننا إذا نحن صرفنا النظر عن بعض البعثات التي حملت رسالة الاسلام إلى بعض جهات آسيا خارج الجزيرة ، ونظرنا إلى توسع العرب في ذلك الاتجاه على أنه يمثل حركة انتشار عامة ، فإننا نستطيع أن نقسمه مراحل متتابعة على النحو الآتي :-

المرحلة الأولى :- من ظهور الاسلام حتى بداية القرن الثامن الميلادي (أي خلال معظم القرن الأول الهجري) . وقد انتشر الاسلام في هذه المرحلة من داخلية الجزيرة إلى سهول الهلال الخصيب ، ثم اتجه شرقا حتى عم هضبة إيران ، ووصل إلى السهل الجنوبي من تركستان الغربية . ويلاحظ في هذا الدور . أن وجود جبال طوروس وأرمينيا ، التي تنجبه سلاسلها من الشرق إلى الغرب ، وتقل فيها الممرات من الجنوب إلى الشمال ، جعل من الصعب على العرب أن يتوسعوا في ذلك الاتجاه نحو أرمينيا وبلاد القوقاز ، وبذلك استطاعت أرمينيا أن تحتفظ بمسحياتها ، ولم ينتشر الاسلام في بلاد الأناضول إلا على يد الأتراك (والعثمانيين منهم على الخصوص) الذين قدموا من الشرق إلى الغرب ، أي في اتجاه سلاسل الجبال ، على نقيض العرب الذين كان انتشارهم من الجنوب ، فاصطدموا بالجبال في شمال الجزيرة ، واضطروا إلى التوسع شرقا في اتجاه إيران ، حيث الممرات السهلة من أراضي العراق نحو تلك الهضبة ، وأراضي قزوين الجنوبية ثم تركستان .

المرحلة الثانية :- من بداية القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن العاشر (أي منذ أواخر القرن الأول الهجري حتى أواخر القرن الرابع) وقد انتشر الاسلام في هذه الفترة في بقية أراضي تركستان الغربية ، وأراضي « ما وراء النهر » بين سيحون وجيحون ، ووصل في انتشاره إلى حدود تركستان الصينية ، وقد أصبحت تركستان الغربية في هذه المرحلة قاعدة قوية للإسلام . فانتشر منها في القرنين العاشر والحادي

عشر الميلاديين إلى مرتفعات أفغانستان ، التي تربطها بتركستان ممرات صالحة . ثم انتشر الاسلام من أفغانستان إل شمال غرب الهند ، حتى وصل في النهاية إلى البنغال من جهة ، وإلى بعض جهات الدكن من جهة أخرى ولعل من المفيد بهذه المناسبة أن نلاحظ أن انتشار الاسلام برأ إلى الهند لم يأت عن طريق إيران مباشرة ، وإنما جاء عن طريق إيران ، فتركستان ، فأفغانستان ، فالهند ؛ لأن طبيعة الاقليم في شرق إيران وما يتاخها من أراضي باوخستان لاتلائم التوسع والانتشار ، ولا طرق التجارة ، وبذلك اغنط العرب والمسلمون في توسعهم إلى الانحدار أولا إلى تركستان في شمال إيران ، ثم العودة من هناك جنوباً نحو أفغانستان والهند ، وقد سلك الاسلام في توسعه نحو الهند الشمالية الغربية الطريق التي سلكتها العناصر الآرية القديمة في توسعها من داخلية آسيا نحو الهند .

المرحلة الثالثة - من بداية القرن الحادى عشر الميلادى إلى أوائل القرن الثالث عشر (أى خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة) وقد انتشر الاسلام في هذه المرحلة انتشارا بطيئاً في أراضي تركستان الشرقية ، وواحات حوض تاريم إلى قلب آسيا . وبذلك وصل المسلمون إلى حدود الصين الأصلية . وإن كانت بعض بعثاتهم قد وصلت الصين ، وحملت الاسلام إلى تلك البلاد ، منذ أواسط القرن الثامن الميلادى . وتعد هذه المرحلة الثالثة في الحقيقة فترة انتقال بين المرحلتين الثالثة والرابعة .

المرحلة الرابعة - وقد اتفقت وعصر فتوحات المغول في أوائل القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع للهجرة) واستمرت حتى اليوم . فقد ظهرت قوة المغول في القسم الشرقى من سهوب آسيا الوسطى ومنغوليا ؛ ثم توسع فرسانهم بسرعة خاطفة ، فاحتلوا الصين من جهة ، ووصلوا إلى جنوب روسيا وداخلية أوروبا الشرقية من جهة أخرى ؛ كما توسعوا نحو الأراضي الاسلامية في الشرق الأوسط .

ولم يكن المغول مسلمين في أول الأمر؛ ولكن الاسلام انتشر في عهدهم انتشارا عظيما؛ ومن المفيد أن نذكر بهذه المناسبة أن عصر فتوحات المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، كان يمثل عصر ضعف سياسي وعسكري بالنسبة للإسلام والمسلمين في غرب آسيا؛ وأن المغول في أول الأمر اتفقوا مع المسيحيين ضد المسلمين؛ ومع ذلك فقد أفاد الاسلام من تلك الفتوحات إلى أبعد حد، وبما لم تفده أية ديانة أخرى في آسيا؛ ومع أن الاسلام لم ينتشر كثيرا في بلاد منغوليا ذاتها، وهي الوطن الأصلي للمغول، فإنه انتشر في بعض جهات شمال الصين ومنطقة بكين، كما نفذ من شمال غرب الصين إلى مقاطعة يونان في جنوب غرب تلك البلاد. أما في غرب آسيا فقد انتشر من تركستان إلى بعض جهات جنوب شرق روسيا، كما امتد بعد ذلك عندما جاء الأتراك وحلوا في السيادة محل المغول إلى داخلية الأناضول. ثم شبه جزيرة البلقان على نحو ما هو معروف.

ولعل في تاريخ انتشار الاسلام في هذه المرحلة الرابعة، لا سيما في عهد فتوح المغول، بعض ما يدحض الحجة القائلة بأن الاسلام لم ينتشر إلا في عصور قوته العسكرية، وأن العرب إنما نشره بحد السيف؛ فقد عاصر انتشاره أيام المغول فترة كان فيها الاسلام والمسلمون في غرب آسيا ضغفاء غاية الضعف من الناحيتين السياسية والعسكرية.

كل هذا عن توسع الاسلام بالبر نحو داخلية آسيا. فأما عن انتشاره نحو إفريقية فقد فتح العرب مصر في وقت باكر على يد عمرو بن العاص، وبذلك أصبحت لهم قاعدة في شمال شرق تلك القارة، انشروا منها سريعا إلى شمال إفريقية في بلاد برقة ثم تونس ثم المغرب الأقصى. وهناك اتخذوا لأنفسهم قاعدة جديدة انشروا منها على يد طارق بن زياد إلى بلاد الأندلس، حيث استقر الإسلام فترة، ثم اضمحل بعد أن تراءى العرب تلك البلاد.

ولكن من المهم أن نلاحظ أنه على الرغم من توسع العرب على طول الساحل

الإفريقي الشمالى ، فإن الإسلام لم يحل سريعا محل الديانات والعقائد القديمة . ففي مصر مثلاً لم يدخل المصريون فى الإسلام دفعة واحدة . بل بقيت الكنيسة القبطية قوية حتى انتمست على نغمها فى القرن الخامس عشر يوماً بعده ، وانصرف المصريون عنها أفواجا ، وأقيمت غالبيتهم الساحقة على الدين الجديد ، حتى فى مصر الوسطى التى كانت أحد معاقل الكنيسة القبطية : كذلك فى بلاد برقة . بقيت الكنيسة المسيحية قوية حتى القرن الثامن الميلادى . ولم تنحرف على يد العرب الفاتحين ، وإنما جاء ضعفها على يد القبائل الصحراوية المحلية ، التى لم تسكن إذ ذاك تعرف المسيحية ولا الإسلام . وكذلك فى بلاد المنزب الإقصى بقى الإسلام مقصوراً فى أول الأمر على العناصر العربية النازحة إلى تلك البلاد . وبعض القبائل المحلية التى اختلطت بها ، أما البربر فى الجهات الجبلية النائية فقد بقوا على دياناتهم وعقائدهم القديمة بمنعة قرون ، وبعد أن استقر الإسلام فى شمال غرب إفريقيا بدأ ينتشر منذ القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين إلى بلاد موريتانيا على السواحل الغربية ، حتى وصل إلى بلاد السنغال فى غرب إفريقيا ، ومن هناك انتشر مع سهول السودان الغربى فى جنوب الصحراء الكبرى حتى وصل إلى منطقة البحر الأعلى وبحيرة تشاد .

وكما انتشر الإسلام على طول الساحل الشمالى الإفريقى . كذلك انتشر من مصر مع وادى النيل نحو الجنوب . وإن كان الانتشار فى هذا الاتجاه جاء متأخراً . فلم تتوسع القبائل العربية التى وصلت فى موجات متلاحمة عن طريق طريق شبه جزيرة سيناء مع وادى النيل نحو الجنوب وتسعاً ملحوظاً إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى . ثم اشتدت موجات التوسع والانتشار فى القرن الرابع عشر ، عندما انتشر الإسلام فى السودان الشمالى . ثم اشتد بعد ذلك إلى بلاد الفنج فى جنوب أرض الجزيرة من جهة . وإلى بلاد كردفان ودارفور ووادى اتشاد فى الغرب من جهة أخرى . وهناك التقت موجة الإسلام الآتية من السودان الشرقى

والمتجهة نحو الغرب مع موجة الإسلام التي أشرنا إليها والتي أتت من بلاد السنغال والسودان الغربي وانتهت نحو الشرق .

وهكذا أتى انتشار الإسلام إلى السودان الشرقي عن طريق مصر ووادي النيل ، ولم يأت مباشرة من الحجاز عبر البحر الأحمر إلى السودان إلا بقدر محدود ، وهذا في حد ذاته يبرز من قيمة الارتباط الثقافي بين مصر والسودان . ولكن على الرغم من انتشار الإسلام مع وادي النيل نحو الجنوب ، فإنه لم يحل محل القعائد الدينية السابقة في الحال ، ففي بلاد النوبة العليا ، اذ انتشرت المسيحية من مصر أيضا ، واستقرت على ضفاف النيل في دنقلا وبلاد مروى بقيت تلك الديانة قائمة قوية هنا حتى القرن الخامس عشر الميلادي عندما بدأ الإسلام يحل محلها بالتدريج . من كل ما تقدم يتبين أن الإسلام عندما انتشر من شمال شبه جزيرة العرب نحو داخلية آسيا من جهة وشمال إفريقيا من جهة أخرى إنما انتشر في مراحل ، وأدوار استغرقت أكثر من سبعة قرون فيما يتصل بآسيا . وأكثر من ثمانية أو تسعة قرون فيما يتصل بإفريقية ؛ ومعنى ذلك أن انتشار الإسلام لم يأت دفعة واحدة كما قد يبدو لأول وهلة ، كما أنه لم يساير توسع سلطنة العرب في كل الأحوال ؛ وقد رأينا أن انتشاره في داخلية آسيا قد عاصر فترة ضعف عسكري وسياسي ظاهر

العروبة والاسلام

عند المسيوميش الصحافي اليوغسلافي أن هناك (تطوراً حميداً) ذلك أنه بعد النشاط العظيم الذي كان يديه ولادة الأمور في العالم العربي الى وقت قريب ، ظاهرة سياسية لها قيمة نظرية أكثر منها عملية لمستقبل الشرق الأوسط . وقد قام هذا الشك بسبب المنازعات التي حدثت في الماضي بين الدول العربية الحرة نتيجة لانهايار الامبراطورية العثمانية . على أن هذا الرأي لم يلبث أن تغير حينما أخذت الاحزاب السياسية والصحف العربية الكبرى تؤيد قضية تضامن العالم العربي . فأتى نداء الصحف ودعوة الزعماء العرب الى التعاون الوثيق ترحيباً عظيماً بين جماهير شعوبهم التي ترتبط فيما بينها بتاريخ مشترك واحد كما ترتبط أكثريتها العظمى بدين واحد هو الاسلام .

ومن جهة أخرى فإن الصورة المروعة التي ظهرت بها الحرب في أوروبا فدمرتها تدميراً منتظماً كاديمتد الى الشرق الأوسط . هذه الصورة عادت على العرب بدرس مفيد نافع . (عوامل النجاح) ولما كانت الدول العربية تدرك قيمة مالديها من ثروات - وتقدر مالمركزها الجغرافي والسياسي من شأن وأهمية - فانها فهمت أن التضامن وحده هو الذي ينقذها من مثل المصير الذي آلت اليه أوروبا - وهو دون سواه يحملها من بين الاعضاء المحترمين الاقوياء في عالم ما بعد الحرب وعلى هذا الاعتبار يكون من الممكن معرفة بدء العصر السياسي الجديد في الشرق الأوسط وتوضيحه - وهو العصر الذي سجله وأيده تأييداً تاماً زعماء العرب في اجتماعهم الاخيرة .

وليس في استطاعة أحد أن يتنبأ اليوم بما ستكون عليه طبيعة الاتحاد العربي وبما سيصير اليه شكل التعاون بين الدول العربية . ولكن جميع الدلائل تؤكد أنه سوف يصبح حقيقة لها دون شك نتائج عظيمة الشأن في موقف الشرق الأوسط بأسره - وفي منطقة البحر المتوسط الشرقية كلها . لان الدول العربية تسيطر على أراض تبلغ مساحتها نحو أربعة ملايين كيلو متراً مربعاً - ويقطنها أكثر من خمسة وثلاثين مليون نسمة . والحق

أن القسم الأكبر من هذه المناطق الشاسعة صحارى قارية وأراض غير مزروعة - ولكن بفضل الوسائل الفنية الحديثة يمكن أن تستثمر هذه البقاع استثمارا كبيرا في الانتاج الصناعى كالبترول والمواد الكيماوية .

(نتائج عظيمة) ولاريب في أنه سيكون من أهم نتائج التعاون بين الدول العربية تعزيز أواصر التضامن في العالم الاسلامى الذى تتألف قراته من الشعوب العربية وتوجد في أقطاره الاماكن الاسلامية المقدسة .

ومن هذه الناحية تعتبر كل من المملكة العربية السعودية ومصر متممة للآخرى - لانه اذا كانت الاولى مثوى النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقصده مئات الالوف من الحجاج - فان الثانية تملك أهم أداة للدعاية الدينية ونعنى بها الجامع الازهر الذى يؤمه الطلاب من جميع أنحاء العالم الاسلامى ويعدون فيه أنفسهم لنشر عقيدتهم الدينية .

هذا ويبلغ عدد المسلمين في العالم كله ٢٤٠ مليوناً من الانفس - منهم ١٧٥ مليوناً في آسيا و ١٥٥ مليوناً في أوروبا بينما يقيم في افريقيا نحو ٥٥ مليوناً أى أكثر من ثلث سكان هذه القارة (مقارنات رائعة) ولقد دلت التجربة على أن عدد الذين يعتنقون الاسلام في

افريقيا يزداد بسرعة مذهمة كما دلت على أن الدين الاسلامى يتوغل في هذه القارة السوداء وهكذا منذ بدء القرن الحالى ارتفع عدد المسلمين في افريقيا الشرقية من ٢٥٠٠.٠٠٠ الى ٣ ملايين نسمة وكان الامر على مثل هذه الحال في المناطق المجاورة وفي الممتلكات الفرنسية أما الزيادة في عدد المسيحيين فمن تفسير سيرا أبطاً من ذلك بنسبة واحد الى خمسة وبالنظر الى جميع هذه الاعتبارات والى كافة الاحتمالات الممكنة يرى المراقب المتحيد نفسه مسوقاً الى القول بان العالم العربى يملك عراجل هامة تمكنه من أن يهيىء لنفسه مستقبلاً رخياً ودوراً فعالاً في الشؤون والاعمال التى تتعلق بهذا القسم من الكرة الارضية - ولا سيما أن دول الجلفاء العظمى تبدى استعدادها للمعاونة في هذا السبيل .

والا كانت مصر اكبر الدول العربية وأرقاها حضارة وأعظمها رخاء فلا ريب في أنها ستقوم بدور بالغ الأهمية في جامعة الدول العربية - وذلك لأنها تمتدح على وجه الخصوص بقيادة ملك شاب موهوب ذى ثقافة عالمية سرف يكون أمامه متسع من الوقت

للاشراف على تحقيق هذه المشروعات الكبيرة .

(أقليات سعيدة في ظل الاسلام) وينبغي ألا تقوتنا الإشارة الى أن وجود عناصر غير اسلامية بين الشعوب الاسلامية لا يثير أية مشكلة في وجه الاتحاد العربي - لأن هذه العناصر عاشت قرونا عديدة الى جانب إقرارها من المسلمين متمتعة بحقوق التسامح أو وجدته الوصية التي تركها مؤسس الاسلام واننا لنذكر المثال التالي من التاريخ توضيحا لمدي هذا التسامح .

حينما فتح السلطان سليم الاول في مستهل القرن السادس عشر سوريا وفلسطين ومصر وبلاد ما بين البحرين اعتزم أن يرغم سكان هذه البلاد من غير المسلمين على اعتناق الاسلام ومن لم يذعن منهم لمشيئته قتله وقضى عليه وقد وافق جميع الرؤساء غير الدينين على قرار السلطان - دون أن يجراً أحدهم على معارضة هذا العامل الطاغية . ولكن رجلا واحدا هو زامبيل على أفندي شيخ الاسلام هو الذي اجترأ على معارضة السلطان - مذكرا اياه بأقوال المكتب المقدسه التي تكفل الحرية المطلقة للاديان الاخرى كما تضمن لها سلامة البقاء والدوام الى جانب الدين الاسلامي .

وقد روى المؤرخون العثمانيون أن السلطان سليم اضطر لأول مرة في حياته الى إلغاء هذا القرار الذي اتخذه .

فهذه الروح البصيرة التي يتمتع بها زعماء الاسلام وقادته هي التي وضعت الاساس القوي للتوازن الوثيق بين شعوب الشرق الاوسط .

وكان من نتيجة ذلك أن استيقظ ضمير هذه الشعوب سعيها الى الظفر بهذا التعاون الذي أخذ يظهر الآن الى عالم الوجود بفضل المساعي التي بذلتها مصر الحديثة والدور الجوهري الذي اضطلعت به في هذا السبيل .

أحياء عصبية القبيلة

عن الدكتور سعيد نوفل أنه قد تمياً للحجاز حين كانت المدينة عاصمة الإسلام أن يحمل علم النزعة الدينية ، وأن يحارب النزعة القبلية ، ويحطم ما قد يثبت لها من فروع ، أو ينمو في جذعها من غصون . فإذا انتهى عصر الخلفاء الراشدين غلب الحجاز على أمره . وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية . بل صار الحجاز مأوى للتأثرين من بني هاشم والزيبرين والأنصار . فالحجازيون نصرّوا علياً وبايعوه بالخلافة ، ولم يستطيع خصومه البقاء بينهم ، فرحل طلحة والزيبر وعائشة إلى العراق . وحين استتب الأمر لمعاوية ، سكّت الحجاز سكوت المغلوب . لا الراضى ولهذا كان يثور على الأمويين كلها سنحت الفرصة . كان من العسير دلي معاوية أن يأخذ البيعة من أهل الحجاز لابنه يزيد . وبعد وفاة معاوية ومذبح الحسين بن علي بكر بلاء ، أعلن أهل المدينة خلع يزيد ، وطرّدوا عامله ، وبايعوا ابن الزيبر ، فأرسل إليهم الخليفة جيشاً من الشام هزم المدنيين ، وقتل بزهره الشباب من المهاجرين والأنصار ، ثم سار مسلم إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزيبر الذي بايعه الحجازيون جميعاً بالخلافة ، فحاصرها بجيشه ، ونصب عليها المجانيق ، وكاد يستبيح منزل الوحي الأول ، لولا وفاة يزيد وعوده إلى دمشق .

وانتهى الأمر بثورة المضريين ، عدا بني أمية من قريش على مروان بن الحكم ، فلم يطمئن له الأمر حتى هزمهم في مرج راهط ، مستعيناً بالخميريين عليهم وأنفذ الحجاج في جيش كبير إلى مكة فحاصرها ورمى السكبة بالمجانيق ، واستطاع هزيمتهم بطول الحصار وقتل ابن الزيبر .

وهكذا قدر للحجاز أن يكون مرتعاً لبعث العصبية القبلية ، كما كان من قبل موئلاً للقضاء عليها .

وحاول عمر بن عبد المزي ، وإلى الحجاز من قبل الوليد الأول ، أن يصلح

مافسد في أمر الحجازيين بالتودد إليهم ، لكن الدسائس لم تلبث أن عزلته .
 بذلك عاد الحجاز إلى خمرل الذكر ، وذهبت شهرته ، ولم يبق له سوى موسم
 الحج ، وانقلب سكان الحجاز ونجد إلى حياتهم المحدودة ، وانصرفوا عن السياسة
 والجيش ، وأقبلوا على الغزل الجاهلي والمجون القديم ، يعيشون في مأوى ينسبون آلامهم .
 وقعت السياسة على الأمويين ، وخاصة من بعد معاوية بإحياء النزاع القبلي .
 فكان الخليفة يصطنع القبائل التي تناصره ويستبد بالقبائل التي تعاديه . ولهذا أثارت
 الفتن القبلية وانبعث الماضي بكل ما فيه من ألوان شعرية وخصومات وغفر
 بآيام والمواقع .

ويتمثل هذا النزاع القبلي ، وبعث الماضي بعثا ضاربا عينا ، في قول الأخطل
 يمدح عبد الملك بن مروان ، ويهجو قيسا وبنى كليب ويعرض عليهما :

بنى أمية إني ناصح لكم فلا يدين فيكم آمنا زفر
 واتخذوه عدوا إن شاهدته وما نقيب من أخلاقكم وعمر
 إن الضميمة تلقاها وإن قدمت كالعر يكمن - حينئذ - ينشر

وهي أبيات طويلة منها :

فلا هدى الله قيسا من ضلالتها ولالعا لبني ذكوان إذ عثروا
 ولم يزل بسليم أمر جاهلها حتى تعاني بها الإراد والضمر
 أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر
 وقد نصرت ، أمير المؤمنين ، بنا لما أتاك بطن الغوطة الخبير
 أرايت جاهلية أمعن من أن يستمع أمير المؤمنين إلى شاعر نصراني ، ينال
 من القبائل الإسلامية ، ويمن على الخليفة بنصر تغلب له ؟ إن هذا قد يدعوا نايبا ،
 وقد أدى هذا ببعض المستعصين إلى الطعن على بني أمية ، لكن الحقائق الأدبية

لاتوزن بميزان غيرها ، وهالك من الظروف ما يقضى بركوب الصعب
وساوك الوعر .

وقد أنكر هذا أحد المسلمين المعاصرين وقال لعمر بن العلاء : « يا عجباً
للأخطل ! نصراني كافر ، يهجو المسلمين ! » لكن الإحياء للعصبية الجاهلية كان من
الوضوح بحيث استحق عجب أبي عمرو من هذا العجب فأجابه :
« ويا السكع ، لقد كان الإخطل يحمي وعليه جبة خز ، وفي شقه ساسلة ذهب ،
تنفض لحية خمر ، حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن . »
وهكذا نرى الخلفاء الأمويين يحبون العصبية الجاهلية والآداب الجاهلية إحياء .
ولا يأبهون في سبيل هذا الإحياء لشيء .

وكانت الجماهير على دين ملوكهم ، تطرب للشعر الجاهلي وتشغل نفسها
بالماضي الوثني : نزاعه وبطولته وأخباره . والروايات الأدبية والتاريخية مليئة
بالقصص الدالة على هذا .

هل وجد عامة الشعب في هذا الشعر تمثيلاً لماضيهم فاعتزوا به ؟ وهل
أصبحت الجاهلية تتراءى في عيونهم جميلة تستهوى الأبصار ، وتعجب القلب والعقل ؟
وهل ألم بهم ما يلم ببعض الشعوب في الفترات التاريخية من التعلق بالماضي ؟ وهل
خشى العرب أن تنسيهم الحضارة الجديدة حياة البداوة التي نجم فيها سر قوتهم وغلبتهم
الأسدين فارس والروم ، فاعتزوا بهذه الحياة وعاشوا فيها عقلاً وقلباً « وإن عاشوا
في الحضارة جسداً وحساً ؟ ربما صبح هذا ، وهو غير بعيد ، فقد خشى عمر بن
الخطاب قبلاً من الحضارة حين تغيرت بشرة العرب المحاربين في فارس ، وسأل
الرسول متعجباً : ماذا غير ألوانكم ؟ فقالوا : إنها وخومة البلاد . حينئذ أمرهم أن
يبنوا البصرة والسكوفة على حدود الحضر والبادية . وكان حريصاً على أن
يحيا حياة أقرب إلى الحياة البدوية ، فلم يرخص بناء المنازل الحجرية إلا بعد أن

التهمت النيران ديارهم ، وكان يتوجس خيفة على مصير العرب كما انتهت المغامرات
وأسباب الترف عليهم .

وظل هوى المسلمين العرب متعلقا بالجاهلية إلى ما بعد هذا العصر حتى قال
الجاحظ نفسه : إن الناس بماثر العرب في الجاهلية أشد كفاً .

وعجب من أنهم لا يقدسون أيام الإسلام وانصراته ويفتخرون بأنباء رؤسهم
فمنعتهم بنظائر الجاهلية « مع أن الإسلامية تربو على الجاهلية أو تماثلها على الأقل .
لكن ذلك كله لم يقف دون الترف ، ولم يحل دون الأخذ بأسباب النعيم .
فقد كانت عوامل التطور أقوى من كل عائق ، وكانت الحضارة تأخذ طريقها إلى
القلوب والعقول .

الجامعة العربية في حياتها القديمة

يتردد ذكر الجامعة العربية والوحدة العربية والاتحاد العربي وجامعة الدول العربية منذ سنى الحرب العالمية الأولى والثانية واليوم . وعند الدكتور سليمان حزين أن أليف جامعة الدول العربية قد أثار اهتماماً كبيراً في العالم العربي خلال العام الأخير ، وأن اختلاف وجهات النظر وتباينت البواعث على هذا الاهتمام ، فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربي إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ، وتطلع غير قليل من يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفريق وبعض جهات آسيا العربية ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ؛ ووقف العالم الخارجى بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحبذ لها ، وبين مرتاب فى مراميها وأهدافها ، أو محايد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينتظر ليرى ما يكون من أمرها فى المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث أنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها أمر يشجع أو حادث ترتقب نتائجه وتخشى مضاعفاته ؛ فذلك كله شأن أهل السياسة . وقد يكون من الخير أن ندع ذلك إلى معالجة الموضوع من ناحيته العلمية الخالصة ، التى يرتكن إلى الأسس والمقومات كما يراها طالب الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل فى هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءاً ديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرز ما فى وضعها الصحيح أو فيما يقرب منه ، ويكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمتها ومزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجى من جهة أخرى .

يحتل الشرق العربى موقعاً جغرافياً فذاً فى قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هى آسيا وأوروبا وإفريقية ، التى كان لكل منهما دورها الخاص فى تاريخ البشرية ؛ ويمتد من سواحله من الشمال بحر قزوين كان مهداً لكثير من المآثر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذى امتاز بهدوء مياهه وانتظام ريجه وانتشار جزره وكثرة تعاريج سواحله وخلجانها ، اذ قامت المرافئ والموانئ منذ أقدم العصور ، كذلك يتوغل فى هذا الشرق العربى من الجنوب ذراعان للمحيط الهندي والبحر العربى هما البحر

الأحمر وخليج فارس ؛ وقد ارتقت كلا منهما سفن الملاحة آتية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق إفريقيا . ولكن الاتصال البحرى لم يكن تاما بين بحار الجنوب وبحار الشمال ؛ وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ؛ فكان لزاماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ؛ ومن هنا أصبح اسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحرى بحار الجنوب اغير وجه التاريخ تديراً تاماً ، ولما كانت اشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية ، وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

صحيح أن هذا الشرق العربى فى جنوب غربى آسيا وشمال شرق إفريقيا قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالمية وتاريخ البشر بوجه عام ، وساعده على ذلك أنه كان مهبطاً لكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ؛ كما نشأت فيه عدة إمبراطوريات امتدت نفوذها و سلطاتها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الإثنين معاً . وكان فوق ذلك مهبط الديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ، ومنه انتشرت ؛ ومبعث كثير من ألوان الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصددده - أو أن أجزاء منه على أقل تقدير - كانت مركز القوة السياسية الأولى ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . وإذا قيست أهمية أقاليم وجه الأرض فى تاريخ البشر بطول الحقبة التى كان فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لكانت لهذا الإقليم المسكنة الأولى بين الأقاليم . . . ولعل من الخير والانصاف أن تتمثل هذه الحقيقة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغير الظروف والأحوال فى الوقت الحاضر والزمن الذى نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخى الصحيح .

ويُلف هذا الشرق العربي في داخلته من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينظم سقوطها ، وتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ؛ فلا يستقر بها السكان إلا في عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التي سار عليها - بدءاً من الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر وحملوا معهم أنواع الفكر والثقافة ؛ فكان ذلك الاحتكاك المستمر في بعض الواحات ومراكز الاتصال ؛ ولقحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداية . كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بينتهم أفكرى إلى الخارج ؛ وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة . حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفينة والحارة . ولم يكن غريباً بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة في حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوي الذي تمثل في حياة النبي عليه الصلاة والسلام .

وعلى جانبي تلك النواة الصحراوية الداخلية التي تمثل قلب الشرق العربي . والتي لم تكن نواة صماء . وإنما اخترقتها الطرق في جميع الاتجاهات . ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل - كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة في أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية . أو يتوافر بها الماء من الجارى والأنهار . ويحيط أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب . لاسيما الجنوب الغربي والجنوب الشرقي ؛ كما يحفها النطاق الآخر من جهة الشمال . ويميد خارج الجزيرة إلى شمال شرق إفريقية ؛ ففي جنوب صحارى بلاد العرب ونجداتها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعُمن ، وهي كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت في اليمن وأطراف حضرموت ، الحضارات المعينية والسبئية والحيرية في ألف السنة السابقة لميلاد المسيح والخمسة عشر سنة اللاحقة به . ونشأت في عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشيء الكثير ؛ ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن . وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل أن السومريين أنفسهم ربما جاءوا في الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا في جنوب العراق وسواء أصبح هذا أم لم يصح . فإن اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين في عمان

وحضر موت والين بسكانها الشماليين أمر تاريخي قديم لاجدال فيه . وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص في العصر الجاهلي وبعد ظهور الإسلام . وكان لهؤلاء الجنوبيين فضل كبير في نشر الثقافة العربية والدين الاسلامي بالبحر إلى شرق إفريقيا وجنوب آسيا وجزر الملايو وأندونيسيا ؛ فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ؛ وقد عرف الحضارة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسي الحالي لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، في حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت وعمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربي من ناحية الجنوب . ولا بد أن ينتظر اليوم الذي تتضمن فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة ، أن يتسق تكوينها السياسي مع تكوينها الجغرافي ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعاً .

كل هذا عن النطاق الذي يصف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالي ذو الحياة المستقرة والمدن الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، كما يمتد إلى شمالي شرق إفريقيا لتدخل ضمنه مصر ووادي النيل الأوسط في السودان ، فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا لالهلال شقان هما العراق والشام بمناهما الأوسع . والعراق في جملته سهل منبسط تحف به الجبال في الشرق والشمال ، وتجري فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون ورواقدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات عريقة ، وهناك الجبال التي تفصل بين سوريا وسواحل لبنان . والأولى ذات حيضان وسهول داخلية ، تتجه نحو البادية ، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً . أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلي الضيق تتجه نحو البحر المتوسط ، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين . وقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربي بحياة الملاحين في شرق البحر المتوسط ، وثقافة الإغريق والروم الشرقيين ؛ وظهرت آثار ذلك في العهد المسيحي ، وفي الكنائس الطائفية التي لا تزال قائمة حتى الآن .

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هناك شرق الأردن وفلسطين ؛ وهما في الحقيقة
 يمثلان منطقة واحدة ، وإن كان يقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت
 إلى شطرين ، داخلي هو شرق الأردن ، وساحلي هو فلسطين . وقد يكون من المهم
 هنا أن نلاحظ الفرق الكبير في التكوين الطبيعي بين ساحل فلسطين من جهة وساحل
 لبنان شمال حيفا من جهة ثانية ؛ فالأول رملي منخفض تكثر به الرواسب ، ويكاد ينحدر
 من المرافئ الطبيعية الصالحة ، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التي كانت تخترقه
 أوتسير على طولها وتربط ما بين مصر وشبه جزيرة سيناء من ناحية ، وداخلية الجزيرة
 العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى ، أما ساحل لبنان من حيفا
 شمالاً فصخري في أكثر أجزائه ويوجد به عدد من المرافئ الطبيعية التي استخدمت في
 العصور القديمة مثل صور وصيدا ، والتي لا تزال تستعمل في الوقت الحاضر مثل بيروت .
 وقد مثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحري الأساسي لتجارة الشرق الشامي من الهلال
 الخصيب ؛ واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور . فكما تحكم الفينيقيون في
 تجارة مملكة سليمان البرية التي كانت تشمل أراضي فلسطين والشام الداخلية ، كذلك استمرت
 موانئ لبنان ومرافئه الساحلية متحركة في تجارة الشرق الأدنى في العصور الوسطى ،
 ولا تزال في الوقت الحاضر تلبس اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونه
 قبل أن تضم إلى تركيا) في تجارتها البحرية . ولذلك كله فقد يكون من الخير في معرض
 الحديث عن التكوين السياسي والقومي لكل من سوريا ولبنان أن تجمع بين حقيقتين
 لا سيال إلى الأخذ بأحدهما دون الأخرى : فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة
 الطبيعية والتوجيه الإقليمي والتاريخ الثقافي تقضي بأن يكون لكل منهما كيانه القومي
 والسياسي المستقل .

وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحياة الاقتصادية السليمة المادية المشتركة تقضي
 بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقين التوأمين في أسرة الأمم العربية .
 فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافي الضيق ، وانتقلنا إلى شمال
 شرق إفريقية وجدنا أرض وادي النيل ، التي ارتبطت في تاريخها الطويل بالشرق الآسيوي

المجاور ؛ وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج في بعض أدوار ذلك التاريخ والحق أن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق افريقية وجنوب غرب آسيا فهي كلها تؤلف إقليما جغرافيا واحدا ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ، فأعدت طريقا طبيعيا سهلا يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالي لشبه جزيرة سيناء ، إذ تسقط الأمطار في فصل الشتاء تنثشر بها كثران الرمال المنتشرة على الساحل ؛ وتختزنها لتغذى بها المياه الجوفية طوال العام وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سيناء الشمالي هذا هو طريق القوافل السامية العديدة التي جاءت من الشرق إلى مصر في أيام قدماء المصريين كالهكسوس وغيرهم ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامي . وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب في أعصر التاريخ المختلفة ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى . فهو مفتاح مصر من ناحية الشرق وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين وجانب من طريق السيارات إلى الجليل . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها الأمريكية . وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من أن نشير خاصة إلى موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرق . ذلك أن فلسطين بوصفها الحال هي الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربي . فحدودنا العربية من الشرق لا تلتصق بلدا غيرها ولا يمكن أن يتم الاتصال البري بيننا وبين بقية بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين . وإذن فإن بقاء فلسطين خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزا حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة فيعزق مثلا تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسير تبادل المنتجات والمتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة . أو تعوق مرور أنابيب البترول الحجازية إلى إحدى موانئ سواحل مصر للتشكيب والتصدير . أو تعرق أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق . أو غير ذلك من الحالات التي قد تبدو افتراضية محضنة في الوقت الحاضر . ولكنهما قد تصبح واقعية ومؤلمة لئلا تمل فلسطين ما يريد لها العرب من كيان سياسي عربي مستقل .

وفوق ذلك فان لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية فهي قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ، وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان الشرق العربي كله . وإذا لم يضمن العرب أعضاء الجامعة الجديدة أن تبقى فلسطين للعرب . وإذا لم يضمنوا فوق ذلك أن تبقى أرضها في أيد صديقة حتى يتم إنشاء الدولة الفلسطينية العربية ، فانهم لا يضمنون شيئاً بالنسبة لكيان الجامعة كلها من الناحية العسكرية . ولعل مصر تتأثر من هذه الناحية أكثر من غيرها . فهي كما ذكرنا تقع وحدها في جانب من فلسطين ، ويقع باقي أعضاء الجامعة في الجانب الآخر كما أن فلسطين وشبه جزيرة سيناء كانا على الدوام مصدر خطر بالنسبة لمصر وطريق غزوات تاريخية كثيرة أتتنا من الشرق أيام قدماء المصريين والفرس والاعريق والعرب والأتراك . وحتى الإسكندر الأكبر نفسه الذي بدأ حملاته من بلاد مقدونية واليونان . أتى مصر عن طريق فلسطين . فقد كان غزو مصر من هذه الجهة سهلاً ميسوراً . بل كان فيما يبدو أسهل من غزوها بطريق البحر .

ومع ذلك فقد يفيد أن نضيف هنا أن مصدر الخطر بالنسبة لمصر يتعدى فلسطين إلى ما وراءها من جهة الشمال . ومن الحقائق العسكرية القديمة أن من يريد أن يدافع عن مصر إنما يجب أن يقف فوق تلال سوريا وجبال لبنان . وقد كان «تحتمس» الثالث أول من أدرك هذه الحقيقة من العسكريين القدماء . فرائاه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد يقهر بمحلاته السبع عشرة المشهورة إلى فلسطين أولاً - ثم إلى لبنان وسوريا ثانياً - ليس من حدود مصر من هذه الناحية - ولعل هذه الحقيقة التي أدركها تحتمس منذ خمسة وثلاثين قرناً قد عادت فبرزت في أيام المماليك عندما دافع سلاطين مصر عنها في عين جالوت . ثم في حمص وغيرها وردوا عنها خطر التزو المغولي ثم برزت مرة أخرى في ثوب جديد في أيامنا نحن عندما وجد الحلفاء أنفسهم مضطرين إلى مهاجمة سوريا ولبنان خشية أن يوطد المحور أقدامه فيها فيكون مصدر خطر حقيقي بالنسبة لمصر والشرق العربي جميعاً .

على أن الامر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربي ولا عند أنها تكون جزءاً أساسياً من هذا الاقليم الذي تشغله بلدان الجامعة ، وإنما يجب

في الوقت نفسه أن نلاحظ أن مقومات الحياة في مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الآسيوي ، هي وادي النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تعتمد حدود مصر « الحيوية » في هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثير من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصلحتها في الجنوب استمساكاً بصلاتها ومصلحتها في الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق ، ولما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة واحتكاك الفكر وانتشار القامة ، كان الاتصال بين مصر والجنوب قائماً كذلك على هذه الأشياء جميعاً وعلى شيء آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحس المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية في ربوع السودان ، بل تخطوه إلى بلاد أخرى في شرق إفريقيا . وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة . لا بد أن تنتهي مهما طال الزمن ، ومهما كثرت العراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة - وما أمر الله - به أن يوصل بين مصر والسودان . وإلى أن يتم ذلك ينبغي أن نواجه الحقيقة المزدوجة ، والتي لا يمكن تجاهلها . وهي أن مصر لن تجد أمنها كاملاً إن هي اكتفت بتحقيق صلاتها المسكونة مع الشرق العربي الآسيوي دون أن تستكمل وحدتها في الجنوب . وأن هذا الشرق العربي ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معاً عضواً أساسياً عاملاً في جامعة أمم الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة . نستطيع أن نعرض في إيجاز لتاريخ الحركة التي انتهت بتأليف الجامعة ، فقد يتبر ذلك التاريخ سبيلنا في تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها ، واستشفاف بعض ما قد ينتهي إليه أمرها في المستقبل ، وهذه الحركة كغيرها إندماجات وليدة تطور بطني في الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربي في الشرق القريب . وتطور يطيء أيضاً (وإن لم يخل من مقابلات وتحولات سريعة أحياناً) في علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامي عامة بالعالم الخارجي . وقد تذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداء بحركات

سياسة كبرى صحت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابعة رغم
تقلب السيادة وانتقالها في النهاية من أيدي العرب إلى أيدي الأتراك؛ ودخل
الشرق أثر ذلك في عثم مظالم ساءه الانحلال والركود؛ فقد احتفظ العالم الإسلامي
في جملة باستقلاله السياسي خلال قرون ثلاثة أو تزيد؛ حتى إذا ما انتهت القرون
الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر؛ وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر
نكاذك فاتحة عهد جديد إذ كانت هذه أول ضربة وجهه إلى قلب مصر والشرق العربي؛
والعالم الإسلامي لفتت النظر إلى أهميته لا الكامنة؛ بقيمة بالنسبة للتسابق الأوربي
نحو السيطرة العالمية. ومع أن حملة نابليون هذه أخذت في غرضها المباشر من
احتلال مصر وقطع الطريق على الانجليز إلى إمبراطوريتهم في الهند؛ فإنها كانت
نقطة تحفول في تاريخ عامة واتصال الشرق بالغرب والعالم الإسلامي التاريخ.
بأربا بصفة خاتمة. وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب
نابليون أثرا وأبعها ذكرا على الزمن.

وقد تتابع الضخام الأوربي والتوسع السياسي على حساب العالم الإسلامي
خلال القرن التاسع عشر. ولم يكن غريباً أن يؤدي انفراد النمط والتوغل في
بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسي. فنشأت في الربع الأخير من القرن
لماضي حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغاني. وهي حركة «الوحدة
الإسلامية». التي رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية واعزاز جازاتها دفعاً للخطر
الاجنبي. وقد فسرت هذه الحركة إذا بآراء تفسيرات مختلفة. فقل بعضهم أنها
أحياء لحركة الترسيع الإسلامي القديمة وأنها تنطوي على خطر كبير وشر مستطير
بالنسبة لأوروبا والمسيحية عامة وقال بعضهم لهم وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف
وأن تعلن الجهات المسلحة فإنها ستسبب روح التعصب وتندى عناصر الحق
ولسكراهة التي لا بد أن تجر الشرق والغرب في النهاية إلى التخاصن والحرب. وقالت
وفئة قليلة أن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخاً في الهواء يثير الزوابع المحلية

ولكنه ان يستطيع أن يبعث في الشرق روح الجهاد كما بعثها ظهور الإسلام للمرة الأولى. والحقيقة أنها كانت حركة طبيعية، ونتيجة لازمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز؛ ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة. وليس أدل على أن الدافع السياسي الكامن في هذه الحركة كان أقوى من الدافع الديني الظاهر؛ من أنها مابثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحورت وانقلبت بالتدريج في أوائل القرن الحالى الى حركتين عنصريتين في داخل العالم الإسلامى: وهما حركة الوحدة الطورانية أو التركية. وحركة الوحدة العربية. وكانت هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هي موجهة ضد الغرب المسيحى.

والذى يعنينا في شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية في الوعي السياسى الحديث للشرق العربى. ولم يكن هذا الشرق في أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير من ضنط أوروبا المسيحية. فيما عدا مصر التى استولى عليها الانجليز. بل كان ذلك الشرق في حملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم. لذلك لم يكن هناك سبيل الى أن تتخذ الحركة العربية مظهراً دينياً؛ وانما هي قد ظهرت على حقيقتها منذ البداية. ولكنّها كانت بذلك أدعى الى القوة. وأدنى الى الحقائق العملية من الحركة الإسلامية الأولى؛ الى أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى. وكانت أجزاءه أكثر تقارباً وتماسكاً. وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً. وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار المتباعدة. والمصالح المتفرقة. والثقافات المختلفة. والاتجاهات المتباينة التى يصعب الجمع بينها فى كيان سياسى واحد. لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية لعلها فى الوقت الحاضر أصحح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية. وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عند ما انحاز العرب الى جانب الحلفاء ضد تركيا التى انضمت الى المعسكر الألمانى النمساوى. ومع ذلك فإن

مال العرب الواسعة وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود. ذلك أن الحرب التي أبرزت قيمة الموقع الجغرافي والعسكري للشرق الآسيوي القريب أطمعت فيه الدول المستعمرة وذات المصالح في الشرق عامة. وقد جاهد العرب وناضلوا في إزاحة سلطان الأتراك، ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقبيا جزئيا محدوداً، وفي المناطق الداخلية البعيدة من الجزيرة كمنجد أو المنزوية أو غير المعروفة كآين الأعلى. أما السواحل العربية والمناطق الهامة في المرور والمواصلات والذنية بموارد الزيت وغيرها فقد امتدت إليها أيدي غارية سافرة أو خفيفة مستورة فكان فتح واحتلال وكان نفوذ وانتداب وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر بعد أن حاربت أمريكا أن يكون لها يد ثم كفت عن ذلك وبقيت بعيدة عن الشرق ومشكلاته.

وفي هذه الأثناء كان الوعي السياسي في الشرق العربي قد دخل في المرحلة الثالثة من مراحل تطوره الحديث إذ أخذ الشعور القومي المحلي يتسرب إلى هذا الشرق بتخالف أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين؛ وأخذت فكرة «الامة» تتبلور في أوطان صغيرة وأقاليم محدودة، ولم يعد أساس فكرة محدودة «القرمية» الامة، الاشتراك في الدين كما كانت الحال في المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ولا الاشتراك في اللغة والثقافة كما كانت الحال في المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية، وإنما أصبح ذلك الأساس هو «الوطن» و«القومية مثل الوطنية» التي تتصل ببيئة معينة وإقليم معين تدير داخل حدوده جماعة بشرية تتشابه بين أفرادها المصالح ومقررات الحياة مادية ومعنوية ويكون من المسرور توجيه جهودهم والاعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التي اصططنعها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة في أوروبا خلال الجيلين السابقين. وكانت شعوب الشرق العربي قد أخذت بها تدرك أن الأوروبي

والاوضاع السياسية قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه من قبل ، فمشروع الوحدة العربية لا يسئل تنفيذه في صورته النظرية ، كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تنكفي أساسا لقيام الوحدة السياسية والقومية اذا اختلفت مراحل النضج السياسي وتباينت نظم الحكم في مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية ما لبثت أن جمات بعنصر جديد ، أو هي بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى في الحرب العالمية الأولى ميدانا ثانويا اذ به يصبح في الحرب الثانية ميدانا أساسيا من ميادين القتال تجتمعت فيه القروات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ودارت فيه ملاحم كبرى كان بعضها فاصلا وحاسما في تقرير مصير الحرب كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة . وبكثير جدا من شؤونه التفصيلية الخاصة ، وأبهر ذلك أهل الإقليم الى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعا جغرافيا بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ؛ وما تسابقت الأمم المتحاربة الكبرى في زحفها نحو هذا الموقع الا لقيمتها الفاصلة في كل ما يتصل بالسيطرة العالمية في الحرب والسلام على السواء ، وما دام الأمر كذلك فإن مصائر الشرق الأدنى وتاريخه القابل سبقي مرتبطة أشد الارتباط وأوثقه بالشؤون العالمية والمصالح الدولية . ولن يفيد في مثل هذا الموقف الدولي أن يكون لكل وطن صغير في الشرق العربي استقلاله القومي فقد لا يلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح التي قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هي قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتى الريح الصرصر على كل شيء ، وتطوح بأهل المشرق الى أسفل الدرج من جديد .

في هذه الظروف بدأ القائمون على شؤون أمم الشرق العربي يدركون ضرورة إيجاد نوع من التعاون بينها جميعا ، لعل ذلك يشد من أزرها ويقطع الطريق على بعض ذلك

التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال، يفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد يساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون أن بريطانيا التي تجمع لها من الخبرة والتجربة في شؤون هذا الشرق والمصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية قد أحست حاجتها إلى أن تسير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن فأعربت عن عطفها غير المباشر على ما قد يبذله قادة الشرق العربي أنفسهم من مسعى في سبيل التعاون المنشود وهكذا تهيأت الظروف وتسابقت الحوادث حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية الآن .

على أن من المهم أن نلاحظ أن هذه «الجامعة» العربية بتشكيلها الحالي تعد خروجاً واضحاً واضحاً على مبدأ «الوحدة» العربية كما كان مفهوماً من قبل؛ وقد تقدمت شعوب الشرق العربي حينئذ نحو الاستقلال القومي ، فنظرت — أو نظر بعض منها على الأقل — إلى «الوحدة» السياسية على أنها رجوع إلى وراء ؛ وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ؛ بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومي في كثير من الأشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص في الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع معه قادة الشرق أن يفكروا حتى في إقامة «اتحاد» من الأمم أو القوميات العربية على نحو ما في الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء «بجامعة» تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل . ولا ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة وفي حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة . وضماناً لما عسى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لا بد أن يترتب على اجتماع كلمتهم في عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة تجد فيه صدى ولا تردداً .

مع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة كما أخذ به

كان خيرا ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربي واقايمه من وحى سياسى قومى وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى . وقد لا يبعد أن ثبت الأيام أن هذه الخطوة التى خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه فى الاتجاه الصحيح . وأن السياسة التى أماتها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة فى قابل الأيام أداة صالحة لتحقيق التعاون الدولى فى هذا الاقليم الذى يعد محكاً خطراً للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال كثرة أعضائها الحاليين ، وتمهيد سبيل لسائر بقية الشعوب العربية التى لاتزال خارج الجامعة . ولكنها تتوق الى الانضمام إليها فى يوم من الأيام .

وبعد فإن الشرق العربى كان منذ أقدم العصور مدرسة الانسانية فى كثير من الاشياء فيه نشأت غير واحدة من المذنيات القديمة ، وفيه ظهرت الاديان السماوية ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال وفيه احتك الشرق بالغرب فتمعارف الاثنان وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم . وقد جاز الشرق العربى فى تاريخه الطويل بكثير من التجارب والاحداث ولا شك أن تاريخه القابل سيخفل به ماضيه وربما كان مرجع الاضطراب السياسى وعدم الاستمرار فى هذا الاقليم الا أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة فى الحياة والحكم والثقافة وكل جديد فيها لا بد أن يتسق مع القديم الذى لم يستطع الزمن أن ينسجه . ولذلك كان طبعيا ألا تستقر النظم الجديدة فى سهرة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربى ير الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ، فهو يحاول أن يوفق فى نظامه السياسى بين القومية الضيقة التى تربط بوطون معين ، وأمانى قومية لا تخلو من أنانية وبين التعاون الدولى فى جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدى هذا التوفيق إن نجح الى تهذيب الشعور القومى وتلطيف روح العصبية الاقليمية

على نحو يعلم الأهم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها فيما تنتسب إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة ، بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هي نجحت — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثالا يحتذى فى مناطق مشابهة فى العالم ، كأمرىكا اللاتينية ، التى تشترك أممها ، أو تكاد تشترك فى اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ، أو كأهم جنوب شرق أوربا التى تشترك فى الموقع الجغرافى والمصالح الاقتصادية ؛ وإن تباينت فى الجنس والثقافة . . . ومن يدرى ! لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً فى التنظيم والعلاقات الدولية يضيفه الشرق إلى ما قدم للإنسانية والعالم فى تاريخه الطويل من دروس . راجع توسع العرب وانتشار الاسلام : للدكتور سليمان حزين



صورة المدينة المنورة وفى داخلها المسجد النبوى

الحجاز

يطلق الحجاز على الاقليم المعروف باسمه في بلاد العرب ويحده البحر الاحمر غربا ،
ونجد شرقا اخذا بالقياس الجغرافي الجديد الذي يجعل نجدا اقليما مستقلا ، أما في القديم فكانوا
يعدونه جزءا منه ، وبلاد الشام شمالا ، وعسير جنوبا ويقطعه من الشمال الى الجنوب جبل
السراة ويبلغ طوله من الجنوب الى الشمال نحو ١٥٠٠ كيلو متر وعرضه من الغرب الى
الشرق ٣٠٠ كيلو متر . ومن مدنه المشهورة مكة وهي عاصمته من القديم والمدينة
المنورة وجدة والطائف وينبع والوجه والعلا وضياء وسكانه من العرب ينقسمون في الوقت
الحاضر الى قسمين : حضريون وهم سكان المدن ويتألفون — ولا سيما سكان المدن
الثلاثة الاولى — من امشاج شتى وعناصر مختلفة وبدوهم سكان البادية ، وينقسمون الى
قبائل وأنفاذ ولا يزالون على ما كانوا عليه قبل الاسلام ..

وكان الحجاز بما فيه نجد قطرا مستقلا في الجاهلية لاسلطان لاجنبي عليه وفيه نشأ
للاسلام ومنه خرج المسلمون الاولون الذين اكتسحوا العالم ودوخوا الممالك ولم يخضع
في جميع ادواره التاريخية لسلطة غير اسلامية . ولما دالت دولة اترك العثمانيين في أثناء
دولة الحرت العظمى قامت فيه هاشمية أدناها العربية الشريف حسين باشا بن علي عاشت عشر
سنوات (١٩١٦ — ١٩٢٤) وحلت محل الدولة السعودية القائمة الآن ويقدر سكان الحجاز في
الوقت الحاضر مليون نسمة منهم ٤٠٠ ألف يسكنون المدن والباقي ينزلون البادية .



نشأة المذهب الوهابي وتاريخ نجد

يقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الاسلامي جزء ٤ ص ١٦١ وما بعدها أن مؤسس المذهب الوهابي ولد محمد بن عبد الوهاب في العونية من نجد في العام اثنائة والسادسة عشرة بعد الألف الموافق ١٧٠٤ للمسيح ويقال أن جده سنيان وكان منسوباً إلى آل البيت وناشأ في بني تميم؛ قد رأى فيما يرى النائم ناراً خرجت من سرتة فأضاعت البوادي كلها. فعبر بعضهم هذه الرؤيا بأنه يخرج من صلبه وجل يهدي الأقسام ويؤسس ملكاً كبيراً فكان ذلك الرجل هو حفيده محمد بن عبد الوهاب بن سليمان.

طلب محمد بن عبد الوهاب العلم في دمشق. وتشرب مبادئ الامام الحافظ حجة الاسلام بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. وأبن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول أئمة الحنابلة. ثم رحل إلى بغداد والبصرة. وهناك أيضاً ازداد رياء من موارد المذهب الحنبلي. وأخذ يفكر في إعادة الاسلام إلى نقاوته الاولى، عقيدة الصحابة والتابعين. ويسمى الوهابية يسمعون مذهبهم عقيدة السلف. ومن هناك أنكر الاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور والاستغاثة بغير الله وغير ذلك مما جعله من باب الشرك واستشهد على صحة آرائه بالآيات القرآنية والاحاديث المصطفوية كما أورده ابن قيمية. وكان في ذلك الوقت ما يرى يقال له محمد بن سعود قد أعصوبت حوله قبائل «العتوب» «عزة وهي القبيلة التي ينتسب هو إلى أحد أنحاذها ولد علي وتولى رعايتها ولقب بالأمير. فتلحقه عوة ابن عبد الوهاب بالقبول وجعلها شعار امارته واتخذ عاصمة امارته قصبة الدرعية. ويتنام أن ولده سعود كان شيخاً عليها فكتب كتاب سفلجها بالحرايب وبنادق القليل وجعل معها طائفة مراديف أي ركاب الذلال مثي كل خلف الآخر وأخذ بعد ذلك يفزو البلاد

المجاورة ويبت الدعوة لعقيدة السلف ، ففي سنة ١١٥٩ استولى على العونية وحرمله
ولكن عصت دعوته الرياض التي كان فيها دهام بن دواس فقاتل ابن سعود وقصد المنفوحة
من بلاده ، وبقي الفريقان يتصاولان سنين حتى غلب ابن سعود على الرياض . وكان
محمد بن سعود قد أصيب بمرض فسلم مقاليد الأمور الى ولده عبد العزيز ، فجد هذا في
غزو جواره وبث الدعوة فكانت الحرب معه سجالا . وحدث أنه وقعت في يده أسرى
من اليمن فأساء معاملتهم فزحف اليه أحد أمراء اليمن حسن بن هبة الله وانضمت اليه
زعما من الاطراف ومن جملتهم ابن دواس الذي انتقض على ابن سعود في الرياض فحضر
هذا في الدرعية ، ولكن ابن هبة الله اضطر الى المعاد الى وطنه فلم يقدر ابن دواس
على « الدرعية » . وانتهت الحرب بعقد الصلح . على أن دواس بعد ذلك عانى كثيرا من
مقاومة ابن سعود . حتى لجأ الى الاحساء ، وتبعه أكثر سكان الرياض فدخلها عبد
العزيز بن سعود سنة ١٧٧٢ فوجدها خاوية على عروشها وكانت الغارات مستمرة بين
آل سعود وبني خالد أصحاب الاحساء وبني المكرم أصحاب بحران اليمن وفي سنة ١٧٦٥
توفي محمد بن سعود تاركا الامارة لولده عبد العزيز الذي كان لا يقصر عن أيه حزم
وعزما وبسالة واقداما . فأخذ يجبي من أبناء الدعوة الوهابية العشر للانفاق على الكتائب
والسرايا . واستولى على بلاد وأرجاء واسعة من جملتها مدينة الدلم ووقعت الوقائع بينه وبين
حاكم الاحساء سعدون . فاستنعت مدينة بريدة من القصيم على سعدون وبقيت في يد الوهابي .
وتوفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ٢٩ شوال سنة ١٢٠٦ الموافقة ١٧٩٢ في الخامسة
والثسعين من عمره وقد كاد يكف بصره . وكان قد نسل ١٨ ولدا اذ كان قد اقترن بزوجات
متعاقبات وكانت الدرعية عاصمة الدعوة الوهابية ستا واربعين سنة وستحدث عن المذهب
الوهابي طويلا .

وسنة ١٧٩٢ تمكن عبد العزيز بن محمد بن سعود من الاستيلاء على الاحساء وخلص

من ههما وقيل كان ذلك سنة ١٧٩٥ فوجه قوته لقتال الشريف غالب أمير مكة . ولما بلغ الباب العالي استفحال أمر الوهابيين أمر سليمان باشا والى بغداد بتجهيز حملة عليهم : فسير جيشا الى الاحساء فلم يفوز بطائل بل زحف الوهابيون نحو العراق . وفى ٢٠ نيسان عام ١٨٠١ دمهم منهم ١٥ ألف مقاتل مدينة كر بلاء فذبحوا قسما من أهلها وأخذوا مشهد الحسين بن على رضى الله عنه وحازوا كل ما كان مجموعا فيه من النفائس التى تأتى من زوار العجم ولم يشغل ذلك تلى ضائرتهم لأنهم ينظرون الى كل من يعظم القبر ينظرهم الى الكافر . وقيل كان ذلك سنة ١٨٠٢ وبالحساب العربى ١٨ ذى الحجة سنة ١٢١٦ وان سبب هذه النكبة هو تعدى قبيلة الخزاعل اليشعية على قافلة وهابية . فطبق خبر هذه القافلة جميع العالم الاسلامى لاسيما فارس وازمع فتح على شاه تجهيز جحفل عدته مائة ألف مقاتل يفزوه به الوهابيين فى عقر دارهم وكذلك سليمان باشا والى بغداد أخذ فى أعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ؛ ولكن فاجأت العجم حرب مع الروس وفاجأت سليمان باشا فتنة فى بلاد الاكراد فانصرفت الهمم عن قتال الوهابى وفى ذلك الوقت وقعت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين على اماره مكة فتغلب غالب على أخيه واستعان عبد المدين بابن سعد فزحف هذا الى الحجاز وهزم الشريف غالبا واجتاح الطائف وتقدم الى مكة وكانت اذ ذاك قافلة الحج الشامى تحت إمرة عبد الله باشا والى الشام قد قاربت البلد الامين فأرسل عبد الله ابن سعود يسأله ماذا يريد أن يفعل فأجابه الأمير عبد العزيز أن موكب الحج الشامى له أن يرمى ويقضى مناسك الحج وبعد ثلاثة أيام يمكنه أن يبرح وكان الامر كذلك فاستنصر الشريف غالب عبد الله باشا على ابن سعود فلم يقدر أن ينصفه لقلة ما معه من القوة وما فارق عبد الله باشا البلد الحرام حتى دخل ابن سعود فنصب الأمير عبد المعين مكان أخيه ، وهدم أضرحة الاولياء ورفع التحف والنفائس التى كانت مودعة فى الحرم الشريف وطرده الباعة من صحنه ووقع ذلك

في ٨ المحرم سنة ١٢١٨ وفق ٣٠ نيسان سنة ١٠٨٣ أما الشريف غالب فانهزم الى جده عند القائد شريف باشا فصمد ابن السعود اليهما فلم يقدر على فتح جدة وظهر الطاعون في تلك الجهات فكف عن الحصار وافكأ قاصدا المدينة المنورة فلم يوفق الى أخذه فعاد ادراجه الى نجد ولم يبق بمكة غير ٢٠٠ رجل من جماعته فنار بهم أهل مكة وذبحوهم.

وكان رجل شيعي فارسي وقيل من العمادية قتل أولاده في موقعة كربلاء وعزم على أخذ بأرهم فذهب الى ديار ابن سعود وتظاهر بالوهابية وبقى على ذلك سنة وهو يترصد عبد العزيز بن سعود ليفتك به . وفي ١٨ رجب سنة ١٢١٨ (٣ تشرين الثاني ١٨٠٣) بينما كان الأمير عبد العزيز يصل العصر طعه الشيعي بنجر أرداه قتيلا وكان عمره ٨٢ سنة فقبضوا على القتال واحتزوا رأسه وقيل أحرقوه ، فقام بالامارة بعده ولده سعود فاقتفى أثر أبيه في الزو والفتحات فاستولى على البحرين وبلاد الجوا م (١٨٠٤) وغزا بلاد فراع ذلك الباب العالي فصدرت الاوامر الى علي باشا والى بغداد بتجهيز حملة الوهابيين من عرب وكرد ، وشد أزره بعبد الله باشا والى الشام وشريف باشا قائد جدة . وجاء امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية منضمما الى الدولة لمقاتلة الوهابيين الا أن التجهيزات الحربية أبطأت ابطاء شديدا أمام مسقط فآب الى بلاده وفي الطريق صادفه قرصان الجوازم فقتلوه . وخيم المدسك الذي جهزه علي باشا مدة أشهر في الحلة لم يقم الا بمناوشات خفيفة ثم استدعى فلي كرتستان لاختاد نار ثورة شبت فيها . فاهتبل الوهابيون هذه الأثرة وعادوا الى الاحجاز ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الأولياء وأخذوا ما في الحرم الشريف اليرى بالمدينة من الجواهر والتحف وبعوها بالمزاد العلني شاذبو قناديل الفضة والشمعدانات والآنية الفضية كلها ووزعوا ايمانها على حامية البلدة الطيبة ووقع ذلك سنة

١٢٢٠ وفق ١٨٠٥ ، ثم توجهوا صوب مشهد على رضى الله عنه في العراق وكسبوه بيانا فاحس بهم الخفراء فايقتوا أهل البلد فناروا بهم ودفعوهم عنه وامتد الصريح الى الاعراب الذين حول النجف فجذبوا في أثر انوهابيين فمكسروهم فانقلبوا صوب السماوة ؛ فلم يكن ووقع . ذلك سنة ٨٨١ . حظهم فيها أسعد وانصرفوا الى ديارهم في ٢٨٠٧ .

الا أنه في السنة التالية اجتاح الوهابيون عانة على الفرات ، ثم زحفوا الى دمشق وعليها يوسف باشا الملقب بالكنج (الشاب) ، فآخذوه على غرة فاضطر الى مصانعتهم ووعدهم بأن يقبل الدعة الوهابية هو وأهل الحاضرة ، وأدى اليهم مبلغا من المال على شرط أن لا يعارضوا قافلة الحج في مسيرها ، فقبضوا المال وساروا بخفلة القافلة مسافة ثم لم يلبثوا أن يخاصموا قافلة الحج واستولوا على مئة هؤلاء وعادت القافلة أدراجها وعاد الوهابيون يحاضرون دمشق فكان الوالى في أثناء ذلك أعد عدة الدفاع فلم يقدرُوا عليها وصادف نفائس قرى النرطة وارتحلوا .

وكان الامير سعد بن عبد العزيز رجلا ماهرا في السياسة ، فرأى ما دام انه مقاوما للسلطنة معشانية فلا بد له من أن يضافي أعدادها فتروء الى شركة الهند الانكليزية والى العجم وأمر جماعته بالحفاظة على قافلة الحج الفارسي تزلوا الى فتح على شاه ثم كر العجم الوهابيون على العراق فوجدوا من واليه الجديد سليمان باشا غير ما وجده من على باشا من الخزم والقوة وانقلبوا على أعقابهم وهزمهم قبيلة المنتفق في سوق الشيوخ ، وكذلك غزوا سوريا ففشلوا عند الحلب وبين حماه حمص . وكان قرصان الجوازم ملاؤا خليج فارس عينا فسرح اليهم الانكليز من الهند أسطولا انضم اليه أسصر لها مسقط قدمروهم وازالوا معرفتهم ودمروا رأس الخيمة مرسى مراكبهم

ولما ضاق ذرع الدولة العثمانية بالوهابيين رمتهم بمحمد على باشا أمير مصر ، فجهز هذا جيشا عقد لواءه لآبيه طوسون باشا ؛ فسار برا الى ينبع ميناء المدينة ومعه الخيالة

وافقه بالسنين من طريق البحر . وتقدم الجيش نحو المدينة فوصل الى بدر ثم لقي العدو بالجديدة ، فحمل في البداية حملة صادقة ولكنه لم يلبث أن وجد من صعوبة الاماكن وكفاح العدو ما أسامه فخارت قوته وانهمز تاركا في يد العدو سبعة مدافع . فارسل محمد على الى ولده مددا واستمال طوسون من جهته قبائل البدو ولحق به رجل من قواد الوهابيين اسمه ابن شديد كان أظلم الجوبنة وبين ابن السعود فزحفت طوسون الى المدينة النبوية ودخلها (١٨١٢) بعد حصار ٧٥ يوما وبعد أن استقرت العساكر المصرية صمدت الى قتال الوهابي بمكة ، فانهمز عبد الله ابن الأمير سعود منها الى بلاده ودخلها الجيش المصرى أيضا وفر أيضا عثمان المضايقي قائد الوهابيين بالطائف من تلك البلدة ثم أسر . ثم تقدم مصطفى بك قائد الجيش المصرى الى طرايه (التي وقعت فيها الواقعة بين الأمير ابن سعود والأمير عبدالله بن ملك الحجاز وملك شرق الاردن اليوم وكانت مشؤومة على عبد الله) فلقي فيصل بن الأمير سعود بجيشه فالتحم الجمعان وخرج الوهابيون وأمامهم امرأة شيخ قبيلة صديح فصدقوا الحملة فهزموا المصريين واستولى على مدافعهم وعدتهم .

فلما رأى محمد على وعورة التجريد ركب بنفسه البحر الى جده فزله في ١٨ أغسطس عام ١٩١٣ وعزل الشريف غالبا من أمارة مكة ووضع مسكانه الشريف يحيى ابن الشريف سرور بحجة أن غالبا قد أساء السياسة فأرسلت الدولة غالب الى سلانيك حيث توفي سنة ١٢٣١ (١٨١٦) .

ونشبت الحرب بين المصريين والوهابيين في طراية ولكن لم يتمكن المصريون من خفض شوكة هؤلاء بالرغم من تحريض محمد على وانهياله اعطياته وجوارئه المستسلمين من قواده واجناده وكان الوهابيون قد احتلوا قنفذة بإساحل البحر الاحمر فأحلاهم منها الجيش المصرى لكنهم عادوا فاسترجعوها . وفي ٨ جمادى الأولى عام ١٢٢٩ (٢٨ أبريل ١٨١٤

توفي الأمير سعود في الدرعية عن ٦٨ سنة، وكان شهيدا مقداما عادلا في الحكومة فقام مقامه عبد الله كبير ولده .

وتقدم عابدين بك بكرة مصرية الى زهران (باليمن) فآزمو . وتقدم الوهايون ثانية وصاروا على وشك أخذ الطائف وتخرج موقف الأمير طرسون بن محمد على فتقدم محمد على بنفسه ورد فيصل بن سعود الى الورا . واسترجعت عما كر مصر قنطرة وسار طرسون من المدينة المنورة بألفين وخمسمائة فارس فاستولى على جنوب من القصيم فالتمس عبد الله بن سعود الصلح فأجيب اليه على شرط أن يعترف بسيادة السلطان، وتم الصلح على ذلك الشرط وعاد محمد على وولده طرسون الى مصر . إلا أن محمد على طلب من عبد الله بن سعود الذهاب الى الأستانة لعرض طاعته للسلطان فتلكأ بن سعود عن الذهاب ، فأبى محمد إلا أن يشخصه فعرف ابن سعود أن لا بد من استئناس الحرب وأخذ يحصن الدرعية بالمدافع ، وشرع محمد على من الجهة الثانية يتأهب لحملة ثانية يقردها ولده إبراهيم باشا . وفي ٢٧ ايلول سنة ١٨١٦ وصل إبراهيم الى ينبع بحرا وصعد الى المدينة المنورة . ومن هناك سار بجيشه قاصدا ديار ابن سعود ، فحاصر الرس وفتحها بعد حصار شديد قاتل فيه الوهايون قتال أبطال ، ثم زحف الى بريدة وحظيرة من القصيم واستولى عليها ثم على شقرا وبعد أن دوخ جميع هذه الأطراف قصد الدرعية فوافها في ٦ نيسان ١٨١٦ وبدأ يحاصرها فكانت وقائع وأحوال تشيب الأطفال ، ولكن ابن سعود بعد دفاع طويل طلب الصلح وقدم بنفسه على إبراهيم فأكرمه وأرسله الى أبيه بمصر فأرسله محمد على الى الأستانة وقيل أنه أوصى الدولة أن لا تقتله ولكن جرى القضاء بخلاف الوصية فقتل في ساحة أيا صوفيا في ١٧ كانون الأول سنة ١٨١٨ وقتل معه كاتب سره وأمين خزانته . ولما عاد إبراهيم باشا من نجد وثب مشارى أخو عبد الله ابن سعود على الدرعية واستولى عليها فأرسل محمد على قائد اسمه حسين بك فظفر بمشارى وقبض عليه

وأرسله الى مصر فمات في الطريق . وهدم المصريون أسوار الدرعية ووضعوا حامية وقائد اسمه اسماعيل باشا ثم صرفوه وأرسلوا محله خالد باشا ، وروى هذا عابداً مبارا فحش في ظم التجديدين ، فصاروا البيصر حول تركي بن عبد الله الذي كان محباً في الصبره فبرز من محبته وتولى القيادة وذبح جميع العساكر المصرية التي كانت في الدرعية وجوارها ففر خالد باشا الى القصيم وأقام تركي ابن عبد الله بر سعود بالرياض وجعلها كرسى إمارته وبنى فيها قصراً وجامعاً كبيراً وحكم أسوارها وكان الخبر وصل الى مصر عن ثورة نجد الجديدة فسيرت مصر جيشاً بقيادة حسين باشا فتسحب الوهايين الى الوراء ودخلوا صبحارى اليامة فتعقبهم حسين باشا الى تلك القيا في خانة الادلاء فهاك كثير عسكره من العطش ورجع هو بشرذمة من حاشيته . فلما رأى محمد علي ماحل عسكرهم قتال الوهايين وترك تركي وشأنه فبقى هذا في الرياض أميراً . ونحو سنة ١٢٨٣ أرسل ابنه فيصل لفتح الاحساء فينبأ هو سائر اليها ورد الخبر إن أحد أقاربهم مشارى بن عبد الرحمن بن حسن شن مشارى بن سعود طعن والده تركي وهو يصل فقتله فعاد فيصل أدراجه فوجد مشارى متحصناً بالقصر فقاتل وشدد الحمله الى أن هجم على مشارى عبد الله الرشيد (جد أمراء حائل) فقتله . بلما بلغ الحكومة المصرية ما حدث بالرياض وجدت الغرة لأئحة فأرسلت خورشيد باشا بقوة أغارت على وادى حنيقة وتقدمت نحو الرياض ، ففر فيصل مشرعاً وأقام المصريون مكانه خالداً أحداً حفيد أخ لعبد العزيز ابن سعود فلما فاق المصريون البلاد طرده عبد الله بن ثنيان فجاء الى جدة . أما فيصل فبعد هذه الهزيمة حج البيت الحرام وجاء الى الشام نافث علماء الحنابلة وظهر منه أنه أقلع عن الامارة وزهد في الحكم الا أن التجديدين عادوا قانديره في الامر فعاد الى الرياض فقبض عليه (٢٥ رمضان ١٢٥٤) وأرسله الى مصر فوضعوه في قلعة بقرب السويس ، وأقام خورشيد باشا مكان فيصل عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم ثنيان بن سعود .

ثم عاد للحكم عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة. فبقي في الإمارة إلى ١٨٨٨، إذ ترفى وضم ابن الرشيد الرياض إلى أمارته. فأخذ عبد الرحمن بن فيصل يقاتل لاسترجاعها فلم يفلح وسنة ١٨٩١ نصب الأمير محمد بن رشيد أميراً على الرياض مجدداً ثالث أولاد فيصل بن تركي فلبث فيها إلى أن مات، فأقام عليها ابن رشيد عاملاً من قبله ثم ثار عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل سنة ١٩٠٢ وعاونه الشيخ مبارك الصباح صاحب الكويت، وانتزع الرياض من يد آل الرشيد ونشبت بين الفريقين الحرب قاسية ما آل الرشيد بالأتراك ولا سكن لم تعرض الدولة أن تكسر ابن سعود مع محافظتها على ابن رشيد ورغبت في حفظ الموازنة.

فبقيت أمانة الرياض وحائل متناظرتين لا تكاد الحرب بينهما تتخمد وكن أكثر النزاع على بلاد القصيم التي منها مدينتا بريدة وعنيزة. وما لاشك فيه أنه بعد وفاة محمد بن رشيد، أكبر أمير خرج من هذا البيت، استجد ابن سعود قوته الماسية وصارت أمانة حائل تحت خطر ابتلاعه إياها لولا صرخة ثمر لابن رشيد والقواء الدولة العثمانية نظرها عليه. وما زال الأمير عبد العزيز بن فيصل يتولى وينشط حتى وقعت الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية فاهتبل هذه الغرة واستولى على الأحساء والقطيف ونواحيهما وكانت هذه من قبل متصرفية تابعة لولاية البصرة. فانتظرت الدولة ريثما انقضت السبل وشرعت تفكر في أمر استرداد هذه البلاد؛ ولو أدى الأمر إلى استئصال الحسام. وقبل الحرب العامة ببضعة أشهر تولى نظارة الحرية المرحوم أنور باشا، وكان برنامج السياسة اتحاد المسلمين يعلم كل كما أحد، فكان يكره سفك الدماء فيما بينهم لاسيما مع الأخطار المحيطة بهم جميعاً. ولم يكن عنده روح النفاسة لأتوة العرب كما كان عند غيره، فكان يرسل بالأسلحة والعدد الحرية إلى ابن رشيد وإلى الإمام يحيى. وقد لاه بعض الأتراك على عمله هذا فقال له: تسليح رجالاً قد يحجبهم يوم يستعملون فيه هذا السلاح في قتالنا،

قال له أنور ؛ أترى لو هاجمت اليمن أو نجدادولة أجنبية نقدر ان ندافعها نحن من هنا قال : لا . قال أنور ؛ إذا كنا لا نقدر أن نحافظ عليها أفلا نمنعهم على الأقل من المحافظة على أنفسهم فاخرس أنور بهذا الجواب . ثم استشرني مرة في أمر ابن سعود فأبدت له رأي وهو أن تصافي الدولة ابن سعود وتجعله من أعضائها بدلا من أن يكون من أعدائها فوجدته متشبعا بهذا الرأي عازما على مصالحة بن سعود والادريسي ، وكان يريد انفاذ الاستاذالمرحوم الشيخ صالح الشريف التونسي لمخاطبة الادريسي في الصلح على أن تبقى بيده المقاطعة التي كان فيها من بلاد عسير ، ثم أخرج سفره الى عسير نشوب الحرب العامة . وقبل نشوب الحرب العامة بقليل اتفقت الدولة بسياسة أنور رحمه الله مع الامير عبدالعزيز البعويدي على أفضائه الاحساء والطائف وسائر لواء نجد والاعتراف بامارتيه على ما كان في يده من قبل وما دخل فيها من بعد ؛ على شرط أن يعترف هو بسيادة الحضرة السلطانية وأحسن السلطان برتبة المشيريه السامية . ورغب على منيف بك مستشار الداخية يومئذ في تحرير كتاب بالعربية الى الامير عبدالعزيز المشار اليه ، توضح فيه الدولة خطة سياستها في نجد وبلاد العرب . فحررته له فبكل ما أصاب به هو اقامة العدل ، وتأمين المسالك برفع المنازعات من بين المسلمين بدون تمييز بعض على بعض ، وأن الدولة تمده بكل ما يلزمه منها لأجل تحقيق هذه المقاصد . ولما اشتعلت الحرب العامة راسلت الدولة الامير ابن سعود في خوض غمرائها الى جانبها ، فلم يجب طلبها لا كرها لها بل خوفا على بلاده من الانكليز لا سيما بعد أن رأى تقدمهم في العراق على أن من الجهة الثانية لم يأت عملا تقدر ان تعاتبه الدول عليه بالرغم من مساعي الانكليز لديه في ذلك ؛ فكانت خطته في هذه الحرب التزام الحياد التام وبعد أن وضعت الحرب أوزارها جرت وقائع بينه وبين ملك الحجاز لا نرى حاجة لتذكرها نظرا لحدائثها وكنا نود أن تكون كلمة الامراء بمجموعة لتمكين هيئة هذه الامة من قلوب أعدائها وانقاذها

من الورطة التي وقعت فيها الحرب العامة . هذا وان ابن سعود استولى على حائل وأزال إمارة الرشيد وتلقب الأمير عبد العزيز بسلطان نجد وهو في الواقع ممن تتعقد بهم آمال الأمة العربية فعسى وأن يوفق الى تحقيقها كي لا أن تند الأيدي النارية الى الجزيرة نفسها ويتسع الخرق على الرافع .

وحيث أننا سردنا هنا تاريخ آل سعود فلا بأس بأن نردفه بخلاصة أخبار آل رشيد حتى يكون تاريخ نجد الحديث كاملاً فتقول :

عبد الملة بن علي الرشيد من بني جعفر من قبيلة شمر الكبرى استولى سنة ١٨٣٥ على مدينة حائل وقتل شيخها صالحاً من بني علي الذي كان عاملاً على جبل شمر من قبل آل سعود ولما كانت سبقت لعبد الله المذكور خدمة عظيمة لفيصل بن تركي من آل سعود بقتله مشاري ابن عمهم الذي قتل تركي غيلة ونزاعاً على ملكهم كافأه فيصل بإقراره على إمارة حائل فشرع عبد الله وأخوه عبيد يوطدان دعائم إمارتهما حتى أطاعتها جميع شمر . ولما احتل خورشيد باشا المصري القصيم طرد طرد عبد الله الرشيد من حائل فبقى مطروداً الى سنة ١٨٤١ إذ برح المصريون تلك الأرض فرجع عبد الله الى إمارته بجائل ثم توفي عبد الله خلفه ولده طلال فاستولى هذا على الجوف ، وتياه وخيبر ، وجانب من القصيم وأحسن الإدارة وأمن الطرق وكف غارات الأعراب وفي أيامه تراخت علائق الطاعة منه ومن قومه شمر لابن سعود وتوفي طلال في صفر عام ١٢٨٣ وقيل في ١٧ ذي القعدة عام ١٤٨٤ (آذار ١٨٦٨) قبل منتجراً ،

وخلف طلالاً أخوه متعب فنزاعاً على هذا ولداً أخيه بندر وبدر فقتلاه في اثنين ربيع الثاني سنة ١٢٨٥ (٢٣ تموز ١٨٦٨) وقيل بل في ٢٠ رمضان سنة ١٢٨٥ (٤ كانون الثاني ١٨٦٩) .

وفي ٢٠ رمضان عام ١٢٨٦ ثار محمد بن عبد الله الرشيد على بندر ابن أخيه فقتله

والحق به اخوته وأبناء أخوته كافة ، وانفرد بالامارة وهو واسطة عقد آل رشيد وامتد حكمه الى أطراف العراق والى مشارف نواحي المدينة والى اليمامة ما يلي اليمن . وغلب على نجد كلها ؛ وادخل ابن سعود في طاعته بعد أن كان الرشيد تبعا لآل سعود . وكل هذا التبسط الذي تبسطه في الملك كان بحزمه وعزمه وسداد رأيه وبعد همته وحسن سياسته . وكان صارما في الحكومة لكنه كان عادلا ، فأمنت في أيامه بما لم يسبق له وكانت الاعراب تخشى مجرد ذكر اسمه واصبح هو سلطان البرية . ومن جملة تديره أنه تقرب جدا من رضى السلطان عبد الحميد ، وكان من أشد الناس تعلقا بطاعته وفي كل سنة كان يقدم الى السلطان عددا كبيرا من الجياد العرب فخطى عند السلطان خطوة لم تكن لاحد من أمراء العرب وعرضه الدولة العلية عضدا تاما اتسع به ملكه وقويت شوكته وفي أيام محمد الرشيد زار جبل شمر ونجد عدة من سياح الافرنجة مثل البارون ولده وبلونت وهوبر واوتنغ وغيرهم . ومات محمد في كانون الاول عام ١٨٩٧ ولم يعقب ولدا .

فخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب وكان سفاكا للدماء ساء الادارة ف وقعت الفتنة بينه وبين جيرانه وتألب عليه ابن صباح صاحب الكويت وابن سعود امير المفتق وقاتلوه قتالا شديدا . وسنة ١٩٠٢ تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود من استرجاع الرياض وما زال عبد العزيز الرشيد في قتال مع أعدائه حتى قتل في ١٤ صفر عام ١٣٢٥ هجرية .

فخلفه ولده متعب ولم يطل أمره أكثر من سنة وذلك أن سلطان بن حمود بن عبيد بن علي الرشيد كان متطلعا الى الامارة فذهب الى الاسنانة يتقرب الى الدولة فأرسل الأمير متعب يخبر الدولة بمقاصد سلطان هذا فاعرضت عن سماع كلامه فقفل الى الشام وبينما هو بدمشق التمس الأمير متعب من الدولة اعتقال سلطان فصدر الامر لتناظم باشا واليها يومئذ

بالقبض عليه فوجد من أنذر سلطانا في الحال ففر مغذا السير الى جبل الدروز . وأول قرية وصل اليها الصورة الكبرى قرية ابن ظهر الدين من مشايخ الدروز وهي من وادي اللوى على مسافة سبع ساعات من دمشق . فاسرع ناظم باشا بارسال خيل في أثر سلطان فلم تدركه الا في الصورة في منزل ابن ظهر الدين . فلما عرف هذا أنه هو ابن رشيد طرد خيالة الدولة ، واجتمع الدروز حول سلطان ، وساروا به الى قرية شيبا فنزل عند شيخها أبي طلال العمرى ومن هناك ذهبوا الى المقرن القبلى عند مصطفى باشا الأطرش شيخ ذلك المقرن فاقام في ضيافة مصطفى باشا نحو شهر ، ثم رغب في أن يعود الى نجد فزوده بما يازمه وأرسل معه رفقا يرأسهم الشيخ العيسى رتعان بن ماضى حتى وصلوا به الى نجد وبعد الوصول بمدة تنزى على متعب فقتله في ذى القعدة سنة ١٣٢٤ وقيل في شعبان من تلك السنة وصار أميراً محلله لكنه لم يطل أمره ؛ وبعد أشهر قلائل طرد من الامارة وقام مقامه أخوه سعود بن حمود الذى ثار عليه حمود بن سبهان وجلس مكانه وبعد ذلك جاء بنو سبهان بسعود بن عبدالعزيز كان قائداً لمحبة فى المدينة المنورة ، فلما بلغ الرشيد أجلسوه على كرسى الامارة سنة ١٣٢٦ وبقى أميراً الى الحرب العامة ١٩١٤ - ١٩١٨ فجعلت الدولة العثمانية عنده البكباشى عزيز الكردى معتمداً ثم أرسلت المرحوم الشيخ صالح التونسى فى مهمة ثم عينت عبد الحميد بك ابراهيم باشا المصرى فبقى أكثر سنى من الحرب فى حائل يجهز فى منع الدسائس الاجنبية من التأثير فى بن الرشيد ولا سيما أن السبهان كانوا باطناء لما لى للاكليز فبقى سعود بالرغم من مساعى اخواله السبهان معتمداً بحبل الدولة وقاتل برجاله جماعة ملك الحجاز الحسين بن على حليف دول الحلفاء وما زال كذلك حتى دارت الدائرة على الدولة ففقد النصير وتنزى عليه اخواله والسبهان وقتلوه وضم ابن سعود حائل وتوابعها الى ملكه واعتقل كل من بقى من آل الرشيد طوى بساطهم ؛ والله يرث الارض ومن عليها

وعند الدكتور محمد عبد الله ماضى أن آل سعود ينتسبون الى عنزة احدى قبائل

رابعة كانوا قبل ان يتصل بهم المصاح الدينى الامام محمد بن عبد الوهاب ، كغيرهم من شيوخ المقاطعات لتجدية محدودي النفوذ ، لا تمتد سلطانهم الى أكثر من مقاطعتهم التى يسكنونها ، والتى كانت مؤلفة من بلدة الدرعية وما يحيط بها ، وما زالوا على هذه الحال حتى وفد محمد بن عبد الوهاب فى عام ١١٦٠ من الهجرة على محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى ، وتحالف معه على أن يحميه ويساعده فى نشر المبادئ الدينية الإصلاحية ومنذ يومئذ مضى آل سعود بشرون الدعوة الوهابية ويفتحون البلاد المجاورة باسم هذه الدعوة ، فقامت دواتهم الاولى على هذا الأساس ، وبسطوا نفوذهم على جميع انحاء الجزيرة العربية تقريبا ، وامتد سلطانهم من ضواحي دمشق فى الشام ، وقلب العراق شمالا ، الى رأس الخيمة فى عمان وريد فى اليمن جنوبا ، ومن سواحل الخليج الفارسى فشرقا الى سواحل البحر الاحمر غربا .

قامت هذه الدولة اذن على أساس دينى اسلامى قوامه المبادئ الوهابية والعمل على نشرها ، وليست هذه المبادئ الإصلاحية الدينية التى دعا محمد بن عبد الوهاب الى العمل بها والتى عرفت بين الناس بالمذهب الوهابى شيئا جديدا خارجا عن مبادئ الاسلام ، وهى فى حقيقتها راجعة الى تعاليم "دين الحنيف المعروفة ، وترجع اليه فى اصولها وفروعها اذنى من حيث العقيدة دعة سنية سلفية تدعو الى الاخذ بمذهب السلف الصالح خاصة فيما يتعلق بآيات الصفات واحاديثها وتكاد تكون تعاليم الوهابيين فى هذه الناحية مطابقة تمام المطابقة لما كتبه ابن تيمية وتلاميذه فى كتبهم . أما من حيث التطبيقات العملية فى الفروع من الابدات والمعاملات ، فالمذهب الوهابى فى جملة هو مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وان كان الوهابيون ينفردون عن بقية الحائلة فى أمرين : الأمر الاول أنهم ينكرون على من قد أحدا غير الائمة الاربعة — مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل — فى مذاهبهم ، لعدم ضبط المذاهب الاخرى فيما يرون والامر الثانى هو أن الوهابيين فى بعض المسائل الفرعية اذا صح لهم فيها رأى مزيد بنص جلى من كتاب أو سنة غير

منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه ، وقال به أحد الأئمة الثلاثة غير ابن حنبل وأخذوا به وتركوا مذهب ابن حنبل في هذه المسألة بخصوصها ، كما في مسألة ارث الجد والاخوة وأى الفريقين يقدم على الآخر في الارث فانهم في ذلك يخالفون رأى ابن حنبل ويتبعون رأى الأئمة الثلاثة الآخرين فيقدمون الجد بالأرث ، لأن هذا هو الذى صح ندهم وترجح . ولكن الوهابيين بعد هذا يتمسكون بحرفية النصوص ، ويتشددون في نكار الوسيلة وانكار البدع المستحدثة الامر الذى كان من اسباب الخلاف عليهم ورفضهم امامهم منه براء فهم من خيرة المسلمين المتمسكين بمبادئ الاسلام . والعاملين على نشره وسيادته بالرغم مما يلصق بهم في بعض العهود . وبالرغم مما يقع من عامتهم من تشدد وتطرف في أنكارهم ما ينكرون .

وكما قامت الدولة السعودية الاولى التى استمرت من سنة ١١٦٠ الى سنة ١٢٣٣ هـ (من سنة ١٧٤٧ الى سنة ١٨١٨ م) على أساس من الدين . قامت الدولة الثانية التى امتد حكمها الى سنة ١٢٣٦ الى سنة ١٣٠٩ هـ (سنة ١٨٢٠ - ١٨٩١ م) على هذا الأساس الدينى نفسه . وكذلك قامت الدولة السعودية الحديثة التى أسسها صاحب الجلالة الملك العظيم عبد العزيز آل سعود . فى يناير سنة ١٩٠٣ ، استعاد جلالته مدينة الرياض عاصمة نجد . وانتزعها من خصومه آل الرشيد . فاستعاد بذلك ملك آياته الأكرمين وكان رجاله على قنهم قدماً نفوسهم من قوة الايمان بمبادئهم . اعتقادهم بأن عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله حتى ينتصر زعيمهم السياسى الدينى عبد العزيز آل سعود ، ويستأنف الحكومة الدينية الوهابية فى نجد . فتحكم بالدين وتنشر الدعوة الوهابية .

يمثل هذه الروح استقبال سكان الرياض وما يحيط بها زعيمهم الملك عبد العزيز آل سعود حين وفد عليهم فاتحاً . فسهلوا عليه المهمة . وامتلات نفوسهم بشراً عند ما تغلب على حامية المدينة ثم ساعدوه على تحصينها . وتمكن نفوذه فيها ، وعلى توطيد دولته والاستيلاء على بقية البلاد النجدية تباعاً . وبذلك قويت الدولة وقامت على أساس من الدين .

ويمثل ما كان لمبادئ الدين الاسلامي على الدولة السعودية من فضل في قيامها ؛ كان الجدة المبادئ ذاتها الفضل في توطيد دعائها واتساع رقعتها وتمكين نفوذها ؛ ففي سنة ١٩١٠ بعد أن توج حلالة الملك عبد العزيز آل سعود انتصاراته على خصومه بحمل الاتراك على سحب جيوشهم من نجد وعلى الاعتراف به حاكما لنجد ، وبعد أن قضى على الثورة الداخلية رأى أن يضع خطة ناجحة لاصلاح نفوس البدو وإزالة الخلافات التقليدية بين البدو والحضر ، ثم بين القبائل البدوية بعضها وبعض ولم يسعفه في هذا الا الدين فبث العلماء النجديين الوهابيين في سائر انحاء البادية يدعون بدعوة الاسلام وينثرون مبادئه ، حتى اعتنقها هؤلاء البدو وأخذ جلاله بن سعود يؤلف جماعة الاخوان التي شملت ابناء البادية فتزيت اخلاقهم ، واستقامت سيرهم واستقروا في القرى التي بناها لهم ، وأخذوا يزرعون على مياه الآبار التي حفرها لهم في الصحراء كما أصبحوا رعية طيبة صالحة تحافظ على الأمن وتنفذ النظام . وجيشا قويا مطيعا يبيع نفسه في سبيل الله وطاعته لرعيه . ولم تتم الفتوحات التي قام بها عبد العزيز بعد ذلك في الاحساء سنة ١٩١٣ وفي سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ وغيرها من الفتوحات الا بياض هذا الروح الذي تمكن من نفوس الاخوان الوهابيين النجديين حتى جعلهم لا يخشون الموت في سبيل الله فاستطاع بذلك ابن سعود أن يضم بلاداً الى بلاده وأن ينشر السلم الوهابي السعودي على غلب انحاء الجزيرة العربية التي تعرف اليوم بالمملكة السعودية ،

جلالة الملك ابن سعود

للسيدة هدى شعراوي هاتم

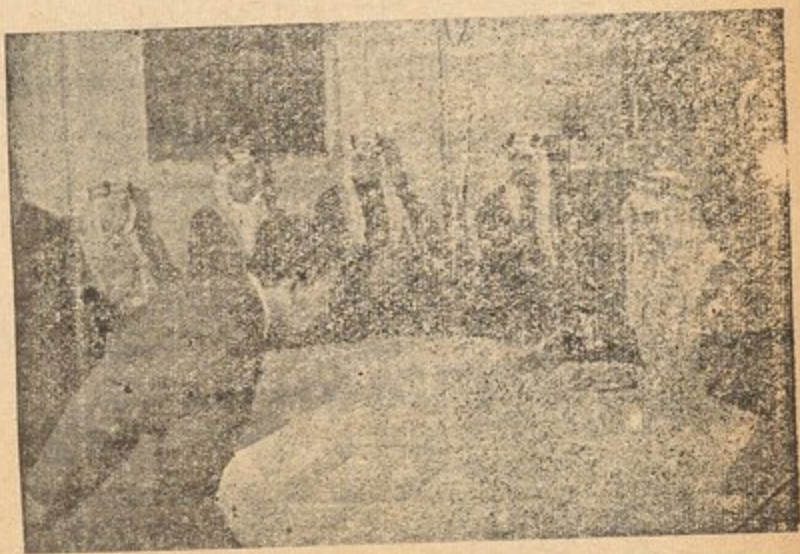
لا تزال نساء الحجاز محجبات ، فمن لا يغادرن منازلهن اطلاقاً ؛ الا لضرورة قاهرة
وكان من أثر هذا التحجب الشديد أن معظم السيدات هناك لا يعرفن القراءة والكتابة ولا
يوجد في الحجاز طبعاً ، معاهد لتعليم المرأة ويصعب على الطيب تشخيص أمراس
السيدات الحجازيات وهن محجبات .

وقد لاحظت في بيوت الكبراء والوزراء التي دخلتها أنها لا تختلف في أناقها وعظمتها
عما نقرأه في ألف ليلة وليلة .

والذوق العربي العباسي يكاد ينطق في كل قطعة من أثاث الغرف . وعندما دعيت
لمقابلة الملكة وجدت أن كل المدعوات من أهالي مكة يعرفن البروتوكول مثل الاوربيات
تماماً ، وكانت المائدة الملكية عامرة بأشهى الاطعمة الشرقية المعروفة وأشهى الاطعمة
العربية أيضاً وقد أكلت هناك أنواع الفطائر — المارون جلاسيه — ولاحظت
على الحاضرات انهن يجدن استعمال أدوات الطعام ، وكانت الجواري وحدهن يقمن
بخدمتنا وباعداد كل شيء وكانت جلالة الملكة . وهي في الخامسة والاربعين . ينظن
بحياها الناضر بالجمال الهادي . وقد أعجبتني هدوؤها في حديثها وفي حركتها . وكانت
تجلس بيننا على أريكة متسعة تحوطها الحشيات الحريرية . ولاحظنا أن زوجات الوزراء
كن يجلسن امامها على أرض الفرقة تاً دبا . ولما انصرفت شيعتني الى الباب احدى الجواري
وكانت تحمل مبخرة من الذهب .

وتشرفت بعد ذلك بمقابلة جلالة ابن سعود . وقد لاحظت أن الذين يقومون على
خدمتنا عنده رجال مدججون بالسلاح .

وقد ذكرت له اعجابنا نحن المصريين واعجاب الشرق عامة بموقفه من قضية فلسطين فقال : ان دفاعنا عن فلسطين إنما هو دفاع عن أنفسنا .
ولما حملت له شكرى وشكر المصريين جميعا على كرمهم وحسن استقبالهم وضيافتهم للملكتنا المحبوب . أجاب : أننا لم نعلم نحو أخى فاروق بكل ما يجب له .



من الأمراء السعوديين — من اليمين : الأمير فيصل ، فالأمير محمد ، فالأمير عبدالله فالأمير نواف . أما الواقف موظف يدعى محمد الغزاوى

نشأة محمد بن عبد الوهاب ومذهبه

كما قلنا نشأ في بلدة تسمى « العيينة » في نجد . وتعلم دروسه الاولى بها على رجال الدين الحنابلة ، وسافر الى المدينة ليتعلم تعلمه . ثم طوف في كثير من بلاد العالم الاسلامي فأقام نحو أربع سنين في البصرة وخمس سنين في بغداد وسنة في كردستان وستين في همدان ثم رحل الى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ثم رحل الى « قم » ثم عاد الى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر . ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة عن مسألة التوحيد التي هي عماد الاسلام وشعارها لا اله الا الله ، وهي التي تميز الاسلام بهادعوة « محمد » (ص) فلا أصنام ولا أوثان ؛ ولا عبادة آباء وأجداد ولا أحباب ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا سمي هو وأتباعه أنفسهم « بالموحدين » ، أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليه خصومهم واستعمله الاوريون ثم جرى على الألسن .

وعند الدكتور أحمد أمين بك « أن التوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم والمسيطر عليه وواضع قوانينه التي تسيّر عليه والمشرع له وليس في الخلق من يشار كه في خلقه ولا في حكمه ولا من يعينه على تصريف أموره لأنه تعالى ليس في حاجة الى عون أحد مهما كان من المقربين اليه هو الذي بيده الحكم وحده وهو الذي بيده النفع والضر وحده لا شريك له فبني لا اله الا الله : ليس في الوجود دو سلطان حقيقة تسيّر العالم وفقاً لما وضع من قوانين الا هو وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم الا هو وهذا هو محرر القرآن وقل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . »

إذن فما بال العالم الاسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة الى الإشراك مع الله كثيراً من خلقه أولياء يحج اليها وتقدم لها النذور ويصدق

ففيها أنها قادرة على النفع والضرر، واضرحة لا عداد لها تقام في جميع أقطاره؛ يشد الناس إليها رحالهم. ويتمسحون بها ويتدللون لها ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم وليس هذا إلا كما كان يقول مشركو العرب «ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» وقولهم «هؤلاء شفعاؤنا عند الله».

بل إن أهل بلدة «منفوحة» بإمامة يعقودون في نخلة هناك أن لها قدرة عجبية، من قصدها من العوانس تزوجت لعامها وهذا الغار في السرعة يحج إليه الناس للتبرك، وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا وفي شجرة الحنفي ونعل الكنشي وبوابة المتولى وفي كل قصر حجر وشجر؛ فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد؟

كذلك فكر «محمد بن عبد الوهاب» في أن الله وحده هو مشرع العقائد وهو وحده الذي يحال ويحرم؛ وليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين فالله يقول: «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»، فكلام المتكلمين في العقائد وكلام الفقهاء في التحايل والتحریم ليس حجة علينا إنما إيماننا الكتاب والسنة وكل مستوف أدوات الاجتهاد له الحق أن يجتهد بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الاحكام — حسب فهمه لتصوص الكتاب وما صح من السنة — ما يؤديه إليه اجتهاده. وإفقال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين إذ أضاع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون وراء جملة في كتاب أو فتوى من مقلد مثلهم.

وهكذا شغلت ذهنه فكرة العقيدة مجردة من كل شريك في التوحيد والتشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة.

هنا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب. وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات.

وهو كما أوضحنا قد اتقى في دعوته وتعاليمه عالما كبيرا اظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر وهو «ابن تيمية» وهو مع أنه حنبلي فقد كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة

وكان حر التفكير في حدود الكتاب وصحاح السنة ، ذلق اللسان ؛ قوى الحجة شجاع ، القلب لا يخشى أحدا الا الله ولا يعبأ بسجن مظلم ولا تعذيب مرهق . فهاجم الفقهاء والمتصوفة . ودعا الى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها . واث في ذلك الرسائل الكثيرة ولم يعبأ الا بما ورد في الكتاب والسنة . وخالف إمامه أحمد بن حنبل اذا أداه اجتهاده الى ذلك .

درس محمد بن عبد الوهاب ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية فأعجب به وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفي المتحف البريطاني بعض رسائل لا بن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب . فكان ابن تيمية إمامه ومرشده وباعث تفكيره . والموحى اليه بالاجتهاد والدعوة الى الإصلاح .

دعا مثله الى رد البدع . والتوجه بالعبادة والدعاء الى الله وحده لا الى المشايخ والأولياء والأضرحة . ولا بواسطة توسل ولا شفاعة . وزيارة القبور إن كانت فلعنة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع ، وهم لا يملكون شيئا بجانب الله وقوانينه الثابتة التي لا تتخلف والتي نظم الله بها كونه . فالذبح للقبور والنذور لها والاستغاث بها والسجود عندها شرك لا يرضاه الله وهو عدم التوحيد — الذي جاء به الاسلام — من أساسه ومثل ذلك تخصيص القبور وبناء الأضرحة وتشيد الابنية عليها وكسوتها بالحجر المذهب وما الى ذلك . فكل هذه لا يعرفها الاسلام .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد .

وكانت جزيرة العرب عند ما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته — أشبه شيء بحالتها في الجاهلية : كل قبيلة تسكن موضعا ويرأسها أمير منها : هذا أمير في الاحساء . وهذا أمير في العسير وهؤلاء أمراء في نجد ولا علاقة بين الأمير والأمير والاعلاقة الخصومة غالبا

ثم توزعها أينما الخصومة بين البدو والحضر فن قدر من البدو على خطف شيء من الحضر فعل . ومن قدر من الحضر على التكبيل يبدو فعل . والطرق غير مأمونة والسلب والنهب على أشدهما وسلطة الخلافة في الأستانة تكاد تكون سلطة اسمية ومظهرها تعيين الاشراف في مكة وإمدادهم ببعض الجنود وكفى .

لقد بدأ محمد بن عبد الوهاب يدعس دعوته ، — التي ذكرناها ، في لين ورفق بين قومه ثم أخذ يرسل الدعوة لأمراء الحجاز والعلماء في الأقطار الأخرى حاثا لهم على استنهاض الحمم في مكافحة البدع والرجوع الى الاسلام الصحيح .

ولما اضطهد في بلدة العينة ، اضطرب أن يخرج منها الى الدرعية مقر آل سعود . وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع . نشر الدعوة في جميع جزيرة العرب للسان عندهم يقبلها وبالسيف عند من لم يقبلها ولحت نجاح الدعوة شيئا فشيئا ودخل الناس أفواجا فيها وتم اخضاع بعض الأمراء بالقوة لحكمها ، وكما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم حتى هددت الحركة كل جزيرة العرب . ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة آبائهم في نصرة الدعوة متكاتفين وظلوا يميلون حتى غلبوا على مكة والمدينة .

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان مركز اسلامها ممتازا تفقد الكثير منه اذا فقدتها . فأرسل السلطان محمود الى محمد علي باشا في مصر بأن يسير جيوشه لمقاتلة الوهابيين وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت العناية من جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتفكيك مبتدعها . وحمل علماء المسلمين عليها حملات منكرة وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها .

وقام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد ؛ حج سنة ١٨٢٢م وهناك آمن بالمذهب الوهابي وعاد الى بلاده ؛ فنشر هذه الدعوة في بنجاب وأنشأ بها شبه دولة وهابية وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمالي الهند ؛ وأقام حرباً عواناً على البدع والخرافات وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك ، وأعلن الجهاد ضد من لم يهتق مذهبه ويقبل دعواته ، وأن الهند دار حرب ؛ ولقيت الحكومة الانجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه حتى استطاعت اخضاعهم .

وكذلك حضر الإمام السنوسي مكة حاجاً وسمع الدعوة الوهابية واعتنقها وعاد الى الجزائر يبشر بها ويؤسس طريقته الخاصة في بلاد المغرب .

وفي اليمن ظهر أعلم علمائه وإمام أمته وهو الامام الشوكاني المولود سنة ١١٧٢ ، فسار على هذا النهج وان لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب وألف كتابه القيم « نيل الأوطار » شارحاً فيه كتاب ابن تيمية مقتني الاختيار ؛ عارضاً الاحاديث النبوية مجتهداً في فهمها مجتهداً في استنباط الاحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة كلها . وحارب التقاليد ودعا الى الاجتهاد ونارت من أجل ذلك حرب كلامية شعراء بينه وبين علماء زمانه كان أشدها في صنعاء وألف في ذلك رسالة سماها « القول المنفرد في حكم التقليد ودعا في قوة الى عدم زيارة القبور والتوسل بها فقال في نيل الأوطار : « وكم سرى عن تشييد أبنية القبورة وتحسينها من المفساد ما يبكي لها الاسلام (منها) اعتقاد الجهة لها كاعتقاد الكفار للأصنام وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الخوائج وملجأ لنجح المطالب وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ووجهوا اليها الرجاء . وتمسحوا بها واستغاثوا وبالجمله فانهم لم يدعوا شيئاً مما كانت جاهلية تفعله بالأصنام الا فعلوه فانا والله وانا اليه راجعون .

ومع هذا الفكر المذموم لا نجد من يذهب اليه ولا يفرح به للدين

الحنيف لإعلاء ولا متعلما ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً وقد توارد إلينا من الاخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء التبريرين أو أكثرهم اذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً فاذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتمدك الوالى الفلانى تدسم وتلكاً وأبى واعترف بالحق وهذا من آيين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال انه تعالى ثانى اثنين وثالث ثلاثة .

وفى علماء الدين ويا ملوك المسلمين أى رزء للإسلام أشد من الكفر وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة وأى منكر يجب انكاره إن لم يكن انكار هذا الشرك المبين ؟ . وقد مات الإمام الموكانى سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى فى هذا بلاء عظيماً . وخلف تلاميذ كثيرين يدينون برأيه .

وفى مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو فرجع الى هذه التعاليم فى أصولها من عهد الرسول الى عهد ابن تيمية الى عهد ابن عبد الوهاب وكان أكبر أملة أن يقوم فى حياته للمسلمين بعمل صالح فأداه اجتهاده وبحثه الى اساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما : (١) محاربة البدع وما دلت على العقيدة الاسلامية من فساد الاشراك مع الله تعالى الاولياء والتبور والاضرحة و (٢) فتح باب الاجتهاد الذى أغلقه ضعاف العقول من المقلدين وجرّد نفسه لخدمة هذين الغرضين . ولكنه امتاز بميزة كبرى عن عدائه وهى ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية ومعرفته بشؤون الدنيا وأساسها وتياراتها وذلك بتربيته الدينية الاولى المستمرة وبانغماسه فى الأمور السياسية واطلاعه على الثقافة الفرنسية ورحلاته الى أوروبا يخالط علماءها وفلاسفتها وساستها . فلما تعرض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة وركزها على أسس نفسية واجتماعية . وكما شارك فى تركيزها على الأسس الدينية فى دروسه فى التفسير

التي كان يلقبها في الرواق العامي بالأزهر كان يشتهر كل إشارة لآية ولو من بعيد تنذر بالشرك فيفيض في الحملة على التوسل بعباده الصالحين وزيارة القبرزوال غفاعة والتوسل وما إلى ذلك فيطيل الوقوف — مثلاً — عند قوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا ؛ وأن الله شديد العذاب ، فيقسم الشيخ الأنداد قسمين هؤلاء الشفعاء الذين اتخذهم الناس وسيلة للقرب من الله يستقضونهم في الخراج ، وهؤلاء الذين يولدون في الدين ويتخذ قولهم شرعا من غير حجة ولا برهان : وتظهر فلسفته للذهب في بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد فهي تورث الذل وتخضع الناس للحكام الظالمين وتحط بالنفوس إلى الدرك الأسفل ، ثم هي تضر اجتماعيا باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القرابين الطبيعية التي جعلها الله أسبابا لا بد منها لحصول المسبب . فالزراعة إنما تنجح بالحرث والتسميد والبذر والسقي ، لا بالاستغاثة بولي . والحرب إنما تكسب بالتخاذ سلاح مجهز على آخر طراز كسلاح العدو . وإعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو . لا بالاستعانة بأهل القبر . وفرضية المسلم أن يستعين بدد ذلك كله بالله وحده بطالب منه أن يثبت قلبه ، ويلهمه التوفيق . وهكذا كان يقيس في هذين الأساسين مقنناً آراء من يقول بالتوسل والشفاعة والتقليد .

ويشتهر فرصة وجر د جماعة من العلماء عنده في يوم مولد . ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين . فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات . ويتمنى لو صرف ما يصرف في الموالد على تعليم الفقراء . وينظرهم في ذلك مناظرة تنتهي بانصراف العلماء إلى العشاء في المولد وامتناع الشيخ وحده .

ويضع الشيخ تفسيراً لجزء « تم » للناشئة فياتمس كل وسيلة لجملة على كل ما يشوب التوحيد من اشراك بعبادة المشايخ والقبر . والأضرحة . راجيا أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيرا عما عليه آؤهم — وأعانه في هدم السبيل تليذه وهديقه السيد

محمد رشيد رضا في مجلة المنار ، فقد ملاهما كذلك بمثل هذه الدعوة ومثل هذه الحج يسمع بها المسلمين في جميع الاقطار الإسلامية .

وفي تركيا قامت الحكومة التركية الكمالية بحاربة هذه البدع والخرافات ، فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل ، وطاردت المشايخ ، واضطهدت المهرجين . ولكن الفرق بين هذه الحركة وبين ما سبقها أن الأخيرة كانت مؤسسة على الدين . والرجوع الى الأصول الدينية أما هذه الحركة فمؤسسة على العقل المطلق وفكرة الإصلاح الإجتماعي من غير أن يكون الوازع عليها الرغبة في الإصلاح الديني . فليس من الدين في شيء الاحتفاء

بزيارة القبور ؛ ولا خروج النساء وراء الجنائز ، ولا إقامة أذكار يغني فيها ويرقص ولا يحمل يتبرك ويتمسح ويحتفل بهذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعواد لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزان ويجب أن نعود الى الاسلام في صفاته الأولى وطهارته ونقاؤه ووحدانيته واتصال القيد بربه من غير واسطة ولا شريك افلا اله الا الله معناها كل ذلك والكتب المعلومة بالتوسلات كتب ضارة بالعمائد كدلائل الخيرات وما في البررة من مثل قوله :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
وقوله :

إن لم تكن لي معاذاً آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
وقوله :

فان من جودك الدنيا وضررتها ومن علومك علم الروح والقلم
نزع ابن عبد الوهاب اعتقاد المخدوعين أن الزرع ينمو لرضاوى ويخيب لغضبه ؛
والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوى أو مثله ، وتموت إذا لم تنذر ؛ وهكذا في الامراض
والعلل والغنى والفقر ، كلها لا ترجع الى قوانين الله لطبيعية وانما ترجع الى غضب الارواح

وبعضها . ومثل هذه الفرس الضعيفة التي تذلل للحجر والشعر والأرواح لا تستطيع أن تنفذ أمام الولاة والحكام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنههم عن منكر فذلوا "حكام الأغنياء كما ذلوا للأغنياء والأحبار . وما زال كل قرن يمر تزداد الآلة عدداً وتزيد النفوس ذلة . حتى وصلت حال الأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها . وانهار عزمها . ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها . ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا . وإنما توجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها . فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب . إن صلح كل شيء وإن فسد كل شيء . وطبيعي أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين في نجد ورئيس الحكم في مصر .

فالمؤرخون يرون أن أهل الطوائف منذ لم يراكان لم يذية على اللات فامر النبي بهدمها فطلبوا منه أن يترك هدمها شهرا فلا يروعوا نساءهم . صبيانهم حتى يدخلهم الدين . فأبى ذلك عليهم وارسل منهم المنيرة بن شبة وأبا سفيان بن حرب وأمرهما بهدمها . وفي الحديث الشريف أن العرب كانت لهم في الجاهلية شجرة تسمى ذات أنواط كانوا يعلقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها . فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك ذات أنواط فنهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحن إلى العادات الجاهلية القديمة . فرآهم يأتون الشجرة التي بايع رسول الله (ص) تحتها تبعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كذب الإخبار يخاع نعليه ولبس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس قال له : « ضاهيت والله اليهودية يا كذاب . راجع » ابن عبد الوهاب « بقلم أحمد أمين بك »

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد المطلق الذي جاء به الإسلام لأن التحرر من المادة بكافة أشكالها ، والافلات من قيود الحس وفوق التشخيص يتطلب منزلة رفيعة من السمو العقلي تعجز عنه الجماهير .

وقال النبي (ص) « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا يتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

البروتوكول السعودي

في مجلس من مجالس أحد الأمراء السعوديين دخل أحد عظماء إيران وبعد أن حيا الأمير لم يجد مكانا يجلس فيه ، فوقف في وسط المجلس متحيراً ولم يتقدم إليه أحد ليرشده الى مكانه فما كان من ابن سعود وكان شاباً يافعاً في الحلقة الثانية من العمر إلا أن هزته النخوة فنهض وأفسح للعظيم القادم مكاناً بينه وبين الذي يليه من مجلس الأمير فشكره الضيف لانقاذه من هذه الورطة .

فلما وصل ابن السعود الى ما وصل اليه لم يشأ أن يتكرر في مجلسه ذلك الحادث الذي علق بذهنه وهو شاب ولما كان يحدث في مجالس أمراء العرب الآخرين ولذلك جمع آل سعود وأفهمهم أن مقامهم محفوظ أينما جلسوا ، ولكن عليهم أن يفسحو المجال لضيوفه ليجلسوا في المقامات الاولى التي الى يمينه أو يساره .

وهكذا فان القاعدة المتبعة في جلوس أمراء العائلة المالكة في حضرة جلالته تقضى بأن يجلسوا في مكان منفصل عن المقامات الاولى الواقعة الى يمين الملك ويساره ، وجلوس أفراد الاسرة المالكة يكون بحسب السن .

المملكة العربية السعودية

في مقدمة هذا التطور الملوس الاستقرار السياسي الذي أنشأه بجلالة الملك بعد كفاح وجهاد قضى في خلالها على المصيبات القبائلية ووحيد أجزاء البلاد وضم بعض أطرافها إلى بعض . ثم الاستقرار الاجتماعي والعمرائي الذي أقامه على أساس جلب الحضارة إلى البادية . ثم الشروع في الأعمال الإصلاحية بادخال وسائل النقل الحديثة واستعمال أحدث الآلات في المواصلات والزراعة .

مجلس الشورى

على أثر دخول جلالة الملك ابن سعود إلى مكة شرع يفكر في أحسن الأساليب لإدارة شؤون البلد باستشارة أهل الحل والعقد فألقى خطاباً جامعاً على نخبة من الأعيان والعلماء والتجار بسط فيه وجهة نظره بشأن إنشاء مجلس نيابي يتفق وعادات العرب وتقاليدهم وكان أن تم تأليف « مجلس الشورى » للنظر فيما يعود بالنفع على المملكة العربية السعودية . أمامه هذا المجلس فشيئة ببعض المجالس الشورية .

التمثيل الدبلوماسي

لم يكن للمملكة السعودية ممثلون سياسيون بل كان يتولى شعبة الأمور الخارجية مستشار ديبلوماسي : وأول من اتصف بجلالة الملك ابن سعود للعمل في الشؤون الخارجية الدكتور عبد الله الدملوجي ثم السيد حمزة الغوث والشيخ حافظ وهبه وفي عام ١٩٢٦ أسست وزارة الخارجية وأطلق عليها اسم « مديرية الشؤون الخارجية » وتقلب على رئاستها : الدكتور عبد الله الدملوجي بالشيخ يوسف يس فالشيخ عبد العزيز العتيق فسماعة فؤاد حمزة بك . وفي عام ١٩٣٠ تحولت إلى وزارة ، وعين سمو الأمير فيصل نجل جلالة الملك وزيراً لها . وأسست في عواصم الدول مفاوضات سعودية منها مفوضية في لندن التي افتتحت في يولييه عام ١٩٣٠ واتخذت لها مقراً بشارع ايتون وعين لها الشيخ حافظ وهبه

وزيرا . وفي سنة ١٩٣٤ أنشأت مفوضية في بغداد واختير لها الشيخ ابراهيم بن معمر
وفي سنة ١٩٤٠ : أنشأت مفوضية في باريس وعين لها سعادة فزاد حمزة ثم مفوضية في أنقرة
عام ١٩٤٢ وبعد أن تم الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان عام ١٩٤٤ رفعت مفوضية
دمشق الى مفوضية . أما مفوضية مصر فقد أنشئت عام ١٩٣٦ ووزيرها المفرض الآن
سعادة الشيخ فوزان السائق .

التعليم

كان عدد المدارس لا يزيد على اثنتي عشرة مدرسة ما بين كبرية واهلية وعدد
تلاميذها ٧٠٠ طالب وميزانيتها نحو خمسة آلاف جنيه . فغنى جلالته الملك في افتتاح
المدارس في أنحاء البلاد وألف مجلس المعارف الأعلى ويبلغ عدد المدارس الابتدائية
والثانوية الآن نحو ٤٠ ومدرسة حكومية و ٣٠ مدرسة أهلية ومئات الكتاتيب مع عدد
كبير من مدارس القبائل . أما ميزانية المعارف فتبلغ نحو عشرة أضعاف ما كانت عليه من
قبل واهتمت إدارة المعارف بإيفاد البعثات الى الخارج لتعلم أنواع العلوم والفنون وأول
بعثة أرسلت الى مصر عام ١٩٢٨ وكان عدد طلابها يتبعون الثلاثين طالبا ثم أرسلت
بعثات أخرى الى الجامعة الأمريكية في بيروت والى سويسرا والى أمريكا والى
انجلترا .

المواصلات

منذ ربع قرن كانت البلاد مفعكة الاوصال لا يربط أجزاءها من وسائل المواصلات
غير الجمل ولم تكن السيارة قد دخلت بعد وكانت الطرق غير معبدة وغير صالحة فبذل
جلالة الملك جهده حتى ذلل هذه العقبات وأقام شبكة المواصلات الطويلة بالسيارات
وبطت أطراف المملكة بعضها ببعض وأدخلت المواصلات اللاسلكية ، فساد الأمن
والطمأنينة ومع أنه لا توجد محطة إذاعة رسمية الا أن عند مستعمى الاذاعات الخارجية

آلة راديو واستعمال اللاسلكى فى بلاد مترامية الاطراف كالمملكة السعودية لها أهمية عظيمة من الجهات السياسية والادارية والعسكرية ويبلغ عدد المرا كز الآن نحو خمسين مركزاً منها ١٦ مركزاً لسيارات وتستعمل الحكومة التليفون اللاسلكى فى المراسلات بين الرياض وجميع المدن وهناك تقدم محسوس فى استعمال الآلات الحديثة فى مختلف نواحي الحياة لا سيما السكهرباء وآلات رفع المياه من الآبار والتفنن فى وسائل الزراعة .

الطيران

منذ عشر سنوات فكر لفيف من المواطنين فى تشجيع الطيران وألقوا من أجل ذلك جمعية الطيران العربية وشرعوا فى جميع التبرعات وابتاعوا طائرتين جعلوهما نواة لمدرسة الطيران . وقد أوفدت الحكومة عدة من بعوث لتلقى فنون الطيران فى أوروبا وما إن عادوا الى وطنهم حتى استقبلتهم البلاد استقبالا حماسيا وكان لقدومهم صدى فى النفوس فنشطت الجمعيات للعمل وباشرت جمع الاعانات لشراء طائرات باسم المدن الرئيسية كمكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض وجدة وابتاعت الحكومة أسراباً حديثة الصنع وجعل مركز تدريب الطيارين الجدد فى جدة .

الجيش السعودى

يختلف نظام الجندي فى البلاد السعودية عنه فى الممالك الاخرى فى البلاد نواة جيش نظامى كسائر جيوش العالم مؤلف من وحدات المشاة والمدفعية والمصفحات والطيارات . ولكن المهم هو الجيش الذى ألفه جلالة الملك ابن

السعود طيبة المقتضيات الاحوال وجعله عماد دولته . وينقسم الجيش أربعة أقسام لكل منها وضع خاص . فأولها « أهل العارض » ولهم منزلة في المعارك والحروب وهم من مقامضة الرياض وعشواحيها ويمتازون بالبسالة والاقدام ، ومنهم حرس جلالته الخاص ، والمجننون الذين يحملون سلاح جلالته الموسوم بطابعه وهم لا يفارقون جلالته أو الأمراء في الحل والترحال . ويل أهل العارض في الملبات ، المنزلة العسكرية « أهل الحواضر » وهم عمدة القوة والدامة المأينة في الحرب وأيام الملبات ثم « أهل الحجرة » ولهم مزايا خاصة في الحروب الصحراوية والقسم الرابع « البدو » ولهم صفات بارزة في البطولة والشجاعة ولكل فريق من هؤلاء الجنود راية خاصة تظللهم راية القائد العام التي تكون عادة القلب . كذلك لكل منهم نخوة خاصة يتعارفون بها ولكن النخوة العامة التي تجمعهم هي « خيال التوحيد » أخو من طاع الله .

الاخوان

الاخوان هم الفئة المحاربة ، هم جنود جلالة الملك الذين كانوا بالأمس من العرب الرحل فدانوا بالترحيد وصاروا قوة في العبادة . يحملون البنادق واليارق باسم الله فينادى الاخ منهم ممتشقا حسامه أو رافعا بندقيته : « أنا خيال التوحيد أخو من أطاع الله » فراغم بحاربون مستميتين مستبسين ، لذلك قلما ينزفون فهم شوكة جلالة ابن السعود في أيام الحرب وهم في أيام السلم مثال للعبادة والتقوى . وينقسم الاخوان ثلاثة أقسام : المطاوعة والعلماء والمعلمين . أما المطاوعة فيعرفون من عماماتهم البيضاء ، ومهمتهم أن يعملوا الناس الدين وكهم في أيام السلم فلاسفة في التحمل والقناعة . والصبر والتقوى وجلالة الملك إمامهم في كل شيء . فهو يعرف الشجاع

منهم والتقى والصبور والعامل ويحسن سياسة الجميع فيستخدمهم في سبيل الله والدفاع عن دمار المملكة .

وقد تلا النطق الملكي الكريم أن أنشىء في المملكة العربية السعودية ثلاث وزارات أقدمها عهدا وزارة المالية ويتولى شؤونها معالي الشيخ عبد الله السليمان وكان من ضيوف مصر ، والوزارة الثانية هي وزارة الخارجية ويتولى شؤونها حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب الملك ويقوم بأعمالها حين غاب سمو الأمير في لندن معالي الشيخ يوسف ياسين .

والوزارة الثالثة هي وزارة الدفاع ويتولى شؤونها حضرة صاحب السمو الملكي الأمير منصور ثالث أنجال الملك ووكيل نائب جلالة .

وهناك الى جانب هذه الوزارات الثلاث ادارة للمعارف وثانية للاوقاف وثالثة للصحة ورابعة للامن العام

وتقوم الى جانب هذه الادارات وتلك الوزارات الشعبة السياسية ويطلق عليها اسم «الربع» يستشيرها حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود في كل الامور فيفضل جلالة بمقابلة أعضائها الاربعة مرتين يوميا على الاقل وكانوا من ضيوف مصر .

ويطلع جلالة الملك عبد العزيز على كل شؤون ملكه ويشرف على تصريفها اذ تعرض عليه ليبدى رأيه الاعلى فيما اتخذ بشأنها فهو ملك مسؤول أولا وأخيرا وكل الأمر عنده شورى .

وفي يوم الاحد ٦ يناير ١٩٤٦ في قاعة كبيرة اجتمع أصحاب السمو الأمراء وحضرات رجالات الدولة ورؤساء القبائل إذ أن باب القصر مفتوح

للجميع على السراء دون أدنى تفريق ولكل الحق في أن يثبت شكواه الى جلالته
فيأمر بانجازها ويؤشر عليها .

والامير منصور يجلس وحده في غرفة مكاتبه الذي يجمع كـبريين من كبار
الموظفين ورؤساء القائل وأصحاب الشكاري والسين على المقاعد أو فوق الابسطة
في جميع أنحاء الغرفة لكل الحق في أن يتقدم من سمرة ليتقدم اليه عريضة أو يثبت
شكواه بعد أن يقرئه السلام ويقبل يده وحينئذ يمد يده ويقول الامير « استغفر الله » .
وينصت الامير الى الشكوى ، وبقراءة العريضة بعناية ثم يصدر الامر بما
يراه ويقول صاحب العريضة أو الشاكي : « شكرا طال عمرك »
ولسمو الامير منصور مستشارون يرجع اليهم في أغلب الشؤون .

مبايعة جلالة الملك عبد العزيز في الحجاز

لئن كانت ولادة جلالاته في فجر الثلاثاء العشرين من ذي الحجة سنة ١٢٩٧ من الهجرة المباركة إلا أنه قد بدأ أول مخاضه بالحلمة على «الرياض» فسار اليها مع أربعين رجلا من أعوانه وأهله وما هي إلا أيام حتى سالت حامية الرياض، وأقبل أهلها يبايعونه على السمع والطاعة والولاء.

والرياض هذه هي كعبة آمال العرب، وقبلة الوافدين ومقصد الزائرين من جميع القبائل العربية وفيها قصر عظيم للملك عبدالعزيز يؤمه الزائرون من كل صوب وحذب، ولا يقل عدد الضيوف في اليوم العادي عن خمسمائة ضيف ومدة الضيافة العربية ثلاثة أيام تقدم فيها للضيف كل وسائل الراحة، من سكنى وأكل، ثم بعد ذلك يسأل عن حاجته أو مطلبه.

وجلالته لا يغضب لشيء يمس شخصه أبدا، وكثيرا ما يسمع اعتراضات أو نقدا، فيجيب المعارض أو الناقد بقوله: «هداك الله يا أخي أنتي بشر أخطيء وأصيب والحق جانبك في إن أرشدتني أرشدك الله».

وقد تولى الملك بمبايعة أهل الحجاز له بكتاب وقعه الحجاز وأعيانه ورؤساء العشائر في أقاليمه وأهل الرأي فيه وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده نبأيعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود على أن تكون ملكا على الحجاز على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان

عليه الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم والأئمة الاربعة رحمهم الله ، وأن يكون الحجاز للحجازيين وأهله هم الذين يقومون بشؤونهم وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز وأن يكون الشعب جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم وقد أوجبهم العاهل الكبير بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى اخواننا الحجازيين : سلام عليكم وبعد : قد اجبناكم الى ما طلبتم ونسأل الله تعالى المعونة والتوفيق للجميع . »

وفي يوم ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤ اجتمع في السكبة المكرمة جمهور العرب وظهر وسطهم الملك عبد العزيز يبايعهم ويباعونه وسط فرحة شاملة ودعاء له بالتوفيق والتأييد . وبعد أن تمت البيعة خطب الملك خطبة كانت المنهج الذي يسير على سنته الى اليوم وقد دعا فيها الى عبادة الله وحده والى الاعتصام بكتابه الكريم ثم اختتمها بقوله انى أحمد الله الذى جمع الشمل . وأمن الاوطان . وأنا لكم على عهد الله وميثاقه . وانى أنصح لكم كما أنصح لنفسي وأولادى وأسرة آل سعود وأحبكم فى الله وأعاديكم فى الله .

وهو الآن يناهز السابعة والستين ويحتفظ بجميع أسنانه كما يحتفظ بقوة عضلية لا تتوارى كثيرين فى سن العشرين أو الثلاثين .

وهذه البنية المتينة منحة الهية موروثه من الآباء والاجداد أما الاحتفاظ بها فراجع الى نظام معيشته .

بخلاته . نذ الصبا لا يكتر من الوان الطعام ولا يحب الدسم ولا الحلوى

ويقصر غذاءه في معظم الوجبات على الأرز واللحم غير الناضج كل النضج ويحب من الخضر « البامية » خاصة ولكنه يكتفى منها بمرقها وقد يشرب قليلا من الماء على الطعام يحمله خادمه الأمين « مرجان » في كوب طويل ويقف به وراء جلالته ما دام على المائدة ويتفضل جلالته فيناول السكر من تحتهم من ضيوفه .

وجلالته منذ عشر سنين لم يشرب ماء من غير عين « الجعانة » في الحجاز وعين « البديعة » في نجد وهو ماء صاف سائغ المذاق يحتوى بعض الخصاص المعدنية التي تساعد على هضم الطعام .

وربما استغنى جلالته عن شرب الماء بشرب اللبن المخيض بعد الغداء فيطلبه جلالته أحيانا ويتناول منه جرعات ويأمر به لمن حوله من الضيوف ، وهو غذاء طيب الطعم مفيد للجسم ، قال الطبيب العالمى المشهور « مثنى نكروف » إنه من أفضل الاغذية لتنظيم الجهاز الهضمى ، وذكر أن أمم البلقان تطول فيها الأعمار لمواظبتهم عليه بىكر بالافطار ويأمر بالغذاء فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، ولا يتأخر عشاؤه عن الساعة السادسة فى المساء .

ومواعيده فى النوم واليقظة واحدة فى جميع المواسم والأوقات فيستيقظ قبل الفجر ويقضى نحو ساعة فى التهجد وقراءة القرآن ويصلى الفجر حاضرا ثم يستقبل بعض خاصته لاطلاعه ، على مهام الأمور التي تتطلب التعجيل ، ثم يغنى قليلا ويخرج للناس .

ومن عاداته بعد العشاء أن يعنى الى فصول من كتب التفسير والحديث أو كتب الادب والتاريخ ثم تتلى عليه أخبار الاذاعة التي يتلقاها الموظف المنوط بهامن

أهم المحطات الغربية والشرقية ، فيعقب عليها أحيانا تعقبيا موجزاً .

وجلالته محدث طلق الحديث يرسل أحاديثه على السجية في غير كلفة ويعرب عن رأيه الصراح ومن صراحته المستحبة أنه يحث على الاتقاء بالأوربيين في الأمور النافعة والعلوم الحديثة وفي المسكر السياسي أيضاً ويقول : أنهم يملكون ونحن أمكر منهم ومكروا ومكر الله أكبر والله خير الماكرين !

وتدور أحاديث جلالته على المذكرات التاريخية والمواظظ الدينية والتعقيب على الحوادث الهامة والمسائل العالمية ويستشهد بالآيات القرآنية في مواضعها ويروي الأحاديث النبوية في مناسباتها وقد يروي الآيات من الشعر ويسوق العبرة من النوادر والامثال .

وحين يصف جلالته ربيع نجد وجمال الوهاد والروابي في أيامه يقول إن الازهار والرياحين كانت تفرش الأرض في تلك الايام على مسافات طوال حتى يحسب العابر بها أنه في دكان عطار ينفحه بمختلف العطور ، ولا سيما بعد نزول المطر . ثم قال : إن صبا نجد ورياه تغني بهما الشعراء من قديم مشيراً الى قول ابن الدمينه !

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد

وقول الاموى :

ألا يا حبذا نفحات نجد ورياً روضة بعد القطار

ولما مثل رجال البعثة وكبار موظفي « المحروسة » بين يدي جلالته عقب

تشریفہ الیخت قال لهم ان الحديث يهون الطريق ثم قال : اتعرفون قصة « حق وطبقة » ؟ إن حتما هذا كان قتي يصاحب شيخا في سفر طويل : فقال له أتحملني أم أحملك ؟ فليفهم الشيخ مراده وقال في نفسه : ما هذا الفتى الا مخبول ما حاجته الى حملي أو حملة فيم تطي ذلوله ويحمل زاده ولم يحساوزا غير قليل حتى عبرا بقوم يزرعون أرضا لهم فسأل الفتى الشيخ : أترأى يزرعون لأنفسهم أم يزرعون لغيرهم ؟ فصح عند الشيخ أن الفتى مخبول ما في « خله ريب » يرى قوما يزرعون بأيديهم في أرضهم ثم يسأل : أيزرعون لأنفسهم أم يزرعون لآخرين ؟ وكانت ثلاثة الاثنائي أنهم عبروا بجنار تشيع ميتا في نعشه فعاد الفتى الى أسئلته الغريبة وقال للشيخ : أميت هذا الذي يحملونه أم حتى لا يموت ؟ فما بقيت في نفس الشيخ ذرة من الشك في جنونه ، ودخل الى منزله وفيه بنته « طبقة » فأعاد عليها حديث الفتى | هو يتهم عقله لتعزته تمامه معاملة المجانين : قالت طبقة : ما هذا الفتى بمجنون يا ابتاه ولكنه بالغ الذكاء وانما سألك كي أتحملني أم أحملك وهو يعني أن تحدته أو يحدتك فيهمون عليكما تعب الطريق وسألك عن الزرع الإله هو أم لغير أهله وهو يعني الدون التي تذهب بشمرات الزارعين والعاملين وسألك عن الميت وهو يعني بالحياة الذكرى والذرية . فاذا ذهب الرجل دون أن يذ كر بحسنة أو ذرية صالحة فقد مات وانقضى ، والا فهو في عداد الاحياء . قال الشيخ : وافق طبقة ، وزوج الفتى بالفتاة .

ويوم الاحتفال بعيد جلوسه قص جلالته كيف استرد الرياض بنحو أربعين رجلا تركهم على مرحلة من البلد واختار منهم ستة يمتحن بهم الاسوار تحت ظلام الليل . وكيف ودعه والده وهو يقول أنه « مهمل » أو مجنون ! ثم قال جلالة :

رحمة الله على والدي . لقد كان يعاملني كأني أنا الوالد وهو الولد . وما رأيت قط
معاملة كهذه مع الآباء والأبناء أو بين الاخوة والاقربين .

التقدم في المملكة العربية السعودية

بقلم السكولونيل دي جوري

لا يخفى على المرء أن الحرب الحالية قد أودت بالبطالة في إنجلترا وزجت
بالرفاهية والكماليات الى عالم النسيان وأصبح التقشف شعار الأمة . كان ذلك والحالة
هذه مشجعاً وحاثاً للمخترعين وذوى العقليات الجبارة ولهؤلاء الذين يتكبرون كل
جديد والذين يعملون لايجاد منافع أخرى للتقدم . وجاءت الحرب الحالية - كما
هي العادة في كل الحروب - فأيقظت شعور الناس الى التمسك بالدين والى التعاون
والإخاء والى قوة الادارة والعزيمة التي تملأ قلوب أفراد الامة اذ توحدهم مصيرهم .
ولإن هذا التغير كبير في الحياة الانجليزية .

لا أريد الاسهاب في وصف أوجه الشبه بين هذه الحالة وحالة المملكة
العربية السعودية لأن هناك من هم أقدر مني على اظهارها ولكني أقول أن التشابه
جلي ظاهر فنجاح الحركة العربية الوهابية بما فيه تقشف ورجوع الى الدين القويم
قد تبعه تقدم الحياة في المملكة العربية بخطوات مطردة ولا نزاع في أن تغير آقد
طراً يكاد لا يصدق العقل منذ زمن ليس ببعيد ولا أغالى ان قلت بأنه بين سنة

١٩١٥ و ١٩٤٠ نالت المملكة العربية من التقدم ما لم تحصل عليه في الألف سنة الماضية
لنرجع الى الماضي عينا نعرف ما المرعى أنظار وفود احتجاج الى بيت الله
الحرام في المملكة العربية . رأوا ميناء جدة عن كثب فبدت جميلة رائعة وأكسبها
أبنيتها البيضاء الشاحقة المخططة بضباب البحر الرقيق الساخن رونا أقرب الى الخيال
من الطبيعة . ولكنك اذا اقترمت منها استيقظت من حلمك الجميل ووجدتها كما
قال لورنس فيها « تافهة عتيقة » . كانت المنازل خرابا متساقطا ويكاد يكون الممر
من عداد الأسماء التي لا مسمى لها . وكذلك الحال مع المزارع الصعي . وأهم
المجلس البلدى كما أهملت ادارته حتى تهدم سبله القديم البالى . لم ينع في المدينة
نور السكرباء وساءت الحالة الصحية وانتشرت الأمراض .

واذا ذهبت الى بوابة مكة حيث تبدأ القوافل رحلة يومين في الصحراء كي
يصلوا الى مدينة مكة المكرمة وجدت مئات من الجمال يدفع بعضها البعض وتسد
الطريق في مرج ومرج . وكان كل شيء أقرب ما يكون الى الفوضى فلا دليل يرشد
ولا منازل لائقة للإقامة بها والاستراحة فيها من عناء السفر .

والآن . . أصبح في مقدور المسافر أن يستقل طائرة يجلس فيها على مقعد وثير
حتى تهبط به في المطار الذى يحاور أسرار جده . وان فخل ركوب البحر فأما
القوارب السريعة التى توصله الى سلم الممرك الجديد حيث يتمضى حاجته فى مأمن من
قيظ الشمس وبلل المطر . ويجد أمام الممرك مكتب البريد والتلغراف وبالقرب
منها دار البلدية ومكان الحكيم . كما تبهره الإصلاحات العظيمة القيمة
ك تجديد المائل النخيلة وأبرابها الصلبة العتيقة والمشرقيات الجميلة وتقرشها الفنية
التي توضحها النوارع والديزى الكبير عيا السكرباء وصناعة الحاج والاستماع الاذاعة

اللاسلكية وادخال نظام التهوية في المحال لتلطيف حرارة الجو واستعمال التليفون المنظم تنظيميا يجعل في مقدوره الاتصال بمكة في أقل من دقيقة واحدة . والذهاب الى مكة المسكرمة نفسها بسيارات تسير في طريق جديد كبير ممد فيصل في زهاء الساعة وربع الساعة . كما يسهل عليه العثور على أماكن البيت وانتقاء الأدلاء وشراء ما يرغب فيه بأثمان محدودة . كما يرى أيضا تحسنا في الحالة الصحية مع قلة للأمراض والحوادث وتدل على ذلك الإحصائيات الدقيقة غير أنه رغم كل هذه الإصلاحات الكبيرة والتحسينات البديعة احتفظت المملكة العربية بكل ما هو جميل من الماضي . فلم تهدم المنازل القديمة بل جددتها ولم تغير من اللباس القومي المرطب للجسد ولم تهمل الفرائض الدينية والتقاليد والعادات والآداب العربية وهكذا انتقت المملكة العربية من حضارة الغرب كل جميل ونافع بدلا من تقليدها تقليدا أعمى .

وكما تغيرت الحياة المنزلية كذلك فقد تغيرت كذلك الحالة الصناعية فأنشئت مشروعات كثيرة بجانب شركة الزيت منها شركة لاستخراج الذهب من منجم سبهم القديم بين مكة والمدينة . وقد عثر على منطقة ذهب أخرى تحته . ويستعمل لاستخراجه في أحسن الطرق وأحدثها وبعد ذلك ينقل بسيارات اللورى التي تسير في طريق عظيم جديد الى رصيف الشركة بميناء جدة . ويقوم أبناء البلاد أنفسهم بعملية استخراج الذهب ونقله . ولا تكف الأيدي العاملة عن اصلاح هذا الطريق وتهنيته فأنشئت الجسور والكبارى فوقه والنفق تحته حتى أن العواصف الرملية التي تسكتسح وديان الحجاز لا تحول دون استعمال الطريق أكثر من ساعة أو ساعتين وهذا أن كان هناك أي تأثير منها على الإطلاق .

وفي داخلية البلاد مزارع شاسعة جديدة تقوم الحكومة بالاشراف عليها
مستخدمة احدث المضخات التي تتمثل المياه من الآبار الممثلة لرى الآف من الأفنة
الرميلة . كما أن الحكومة تنظر في مشروعات وخطط أخرى لتحسين حالة المواشى
والخراف والمحاصيل الزراعية وأشجار الفواكه لتنفيذها بعد . أما الرياض العاصمة
فقد رصفت وأنشئ قصر الجديد يسمى بالمربى أو « الشمسية » مزود بالكهرباء
والمصاعد وأشياء أخرى لتوفير أسباب الراحة ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام
أن الفن المعماري عمر الآف الأجيال في البلاد العربية وان تأثر بالحضارة
العربية الا انه لا يزال يحتفظ بعنصره وكيانه القديم .

وقد زينت جدران القصر بالنقوش والزخارف القديمة وقام عدد من خيرة عمال
الرياض وحائل باعداد السقوف المنقوشة والابواب . وتبلغ السيارات أبواب
القصر بعد اجتيازها مرأ اقيمت الأعمدة على جانبيه الى جراج القصر المجنز بكامل
الآلات والأدوات لاصلاحها بعد الرحلة الطويلة من الساحل . كما لم تهمل تربية
الخيول والحلالة الملك ثمانمائة جواد تعد من أحسن الخيول العربية في العالم . كما أن
الاهتمام بتربية الصقور والبزاة وتدريبها على الصيد بالغ حده ويعد فنا جميلا .
وهذا يدل على مدى الفرق بين العادات القديمة والوسائل العصرية الموجودة
في البلاد العربية السعودية . حيث يوفق حاكم البلاد بين مظاهر الحياة العصرية
وحياة الدولة التقليدية في مهارة وبراعة .

وقد طرأ كذلك تغير مشابه على النظم الادارية لم يقتصر على ادارة الشؤون
المدنية بل شمل الجيش والبوليس فقد زودوا بالأسلحة العصرية والسيارات الحديثة
كما هي . بن وحداتها المختلفة الإتصال اللاسلكي . ويتوفر لكل حاكم مقاطعة محطة

لأسلوكية . وتحتوى القلاع ومراكز البوليس على جهاز لاسلكى . ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن الأمن مستتب فى البلاد العربية السعودية استتبابه فى غيرها من البلاد حتى يقال أنه إذا سقطت من قافلة زكية من البن فى وسط الصحراء وجدت فى نفس البقعة بعد ستة أشهر دون أن تمس لأن أحداً لا يحرق أن يمسه . وقد لا يتوقع أحد أن يستطيع اللحق بكل اللصوص الهارين فى فجاج الصحراء الشاسعة التى لا حدود لها ولسكن الواقع أن حوادث السطو القليلة تنبسط كلها لأن لدى الحكومة من وسائل النقل السريعة ما لا يتوفر لهؤلاء اللصوص كما أن موظفى الحكومة ذوو خبرة لا نظير لها بموارد الماء فى مختلف أنحاء الصحراء .

ولا شك أن هذه الدرجة الكبيرة من النظام والأمن كانت انتقالاً من الفوضى الضاربة أطناهاوالتى انحدرت من القرون الوسطى حتى حكم تلك البلاد جلالة الملك عبد العزيز بن سعود .

ولا شك أن الحياة فى بلاد العرب ما زالت محتفظة بجوهرها وكيانها عدد ما اتناها من نقص موقت بسبب الحرب .

وتتمتع شبه الجزيرة بمزايا طبيعية عديدة . فجوها الجاف الملطف ومناظر الجبال والواحات تسلب لب المسافرين وتملاء قلوبهم بهجة وسرورا . والآن قد استتب الأمن وتوفرت وسائل الراحة العصرية . وهناك من الشواهد ما ينبئ بحياة راقية موسرة فى المستقبل دون التجاوز عن حياة العرب التقليدية . كل هذه العوامل تحول المرء أن يطلق على البلاد العربية كلها اسم « بلاد العرب السعيدة » .

لعل المملكة السعودية هى التى توجد فيها سجون لا يوجد فيها مسجونون وهى أيضاً البلاد الوحيدة فى العالم التى لا يوجد فيها رجال بوليس أو « درك » أو خفراء

الا أنفار معدودين مرتدين ثيابا عسكريا وفوق رؤسهم العقال والكوفية وفي يد كل منهم عصاة رقيقة قصيره وسوداء اللون. علت عنهم أنهم مكلّفون بتنظيم حركة المرور للسيارات عند ملتقى الشوارع من مطلع الشمس حتى يسدل الليل أستاره.

ذلك أن المحبة قائمة بين الجميع، وان لواء العدل يرفرف فوق رؤسهم، فطبيعي ان يكون الأمن مستتباً، وان يكون النظام شاملاً واذا حدث سوء تفاهم - ومن النادر حدوثه - فان الفصل فيه ينهض به بعض الأقارب والجيران أو يرفع الأمر الى المسؤولين فيشيرون بما يكون فيه مرضاة للطرفين ويعود بينهما الصفاء والأخاء ويقول رجال ادارة الأمن العام أنه لا تقع في المملكة العربية السعودية حتى حوادث المشاجرات البسيطة وانه حدث في موسم الحج الاخير ان نقلت الى ادارة الأمن أشياء كثيرة منها حقائب تحوى مبالغ غير قليلة فقددها أصحابها فاذا مضت عليها ثلاثة أيام بدون معرفة ذويهها لردّها اليهم اعلان عنها في جريدة «أم القرى» فيعرف الذين فقدوها مكان وجودها ثم يتسلمونها

وقد حدث أن علم الامير منصور وزير الدفاع ووكيل نائب الملك أن ٢٥ شخصا من الغرباء وضعوا في «الحجز» تمهيدا لترحيلهم وان الترحيل قد يتأخر عن مواعده يوما أو يومين ثم استؤذن سموه في اخراج هؤلاء الغرباء من «الحجز» ويكونون تحت المراقبة فقط حتى يتم ترحيلهم واصدر سمو الامير منصور الأمر بذلك فوراً هذا ولا يقيم امرى الحرب هناك كمسجونين كما هو الحال في البلاد الأخرى ولما كان سمو الامير منصور في دار لحكومة - دخل عليه رجل أسمر اللون عريض المنسكين مفتول العضلات، في ثياب عربية أنيقة تختلف عن بعض الثياب

السعودية وفي معيته بعض الرجال فاسرع الامير منصور في مصاحبته والترحيب به
وأجاسه الى يمينه وقد بقى طول مدة وجوده موضع حفاوة الامير مع أنه من زعماء
الادارسة الذين وقعوا أسرى في الحرب مع عسير وان هؤلاء الأسرى جميعاً
متمتعون في ظل الملك عبدالعزيز بكل الراحة والطمأنينة والسلام فهم ضيوف جلالته
واخوة كرام للسعوديين أجمعين

أما السيارات في جدة ومكة المكرمة فهي كثيرة العدد وكلها تقريباً من الانواع
الفخمة ومعظمها للقصور الملكية ولاصحاب السمو الامراء ولرجال الدولة
هذا ويستخدم جلالة الملك عبد العزيز السيارة في تنقلاته ومن عادته أن يأخذ
مكانه الى جانب السائق وقد استقل الطائرة المهداة الى جلالته من الرئيس روزفلت
مرة واحدة من منتصف الطريق من الرياض والمدينة ولما نزل منها قال عنها :
مركبة زين

الملاي عبد العزيز

من حديث مع سعادة الشيخ يوسف ياسين

في حديث مع سعادة الشيخ يوسف يس عن البرنامج اليومي لجلالة الملك عبد
العزيز وعن عادته في رحلاته قال : «
يقوم جلالة الملك عبد العزيز من يومه مبكراً - قبل الفجر بساعتين -
فيتوضأ ويقرأ شيئاً من القرآن . ويؤدي فريضة الصبح ثم يتناول طعام الفطور
ويأشرف أعماله .

ويخرج جلالاته قبل المغرب للزهوة ومعه رجال حاشيته. أما الوقت فيما بين المغرب والعشاء فهو خاص لزيارة كريمات جلالاته وسيدات الأسرة المالكة . وبعد العشاء يجلس جلالة الملك في حلبة عامة ويقرأ أحد العلماء أمام جلالاته شيئاً من تفسير القرآن . ثم يصرف بعد ذلك شؤون الدولة المختلفة .

وجلالة الملك عبد العزيز كثير الرحلات والأسفار داخل بلاده الشاسعة ولم يخرج من بلاده الا أربع مرات فقط ، ففي المرة الاولى لم يكن ملكاً بل كان حاكماً نجد وسافر الى البحرين والكويت والبصرة بدعوة من الجيش البريطاني وكان ذلك في الحرب العالمية الماضية . أما المرة الثانية فقد سافر جلالاته الى خليج فارس على الباخرة « لوين » والتقى هناك بجلالة الملك فيصل ملك العراق . أما المرة الثالثة فهي التي جاء فيها الى مصر ليقابل مستر تشرشل والمرحوم مستر روزفلت وأما المرة الرابعة والأخيرة فهي زيارة مصر في يناير ١٩٤٦ .

أما رحلاته في داخل بلاده فهي كثيرة لا تنتهي طوال العام .

ومن عادة جلالاته في هذه الرحلات أن يستصحب معه بعض أبنائه وبعض مستشاريه أمثال خالد بك أبو الوليد صهر عبد الرحمن عزام باشا - وبشير بك العداوي - واخوة جلالاته ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن ، وموظفي الديوان بأجمعهم . ويخرج جلالاته أحياناً للصيد وبصحبة رجال حاشيته وبعض رؤساء القبائل القرييين من خيامه .

والعرب يعرفون سيارة جلالاته جيداً ولهذا يلتفون حولها أينما رأوها ويهتفون لجلالاته فينثر عليهم النقود والهدايا . أما في أيام الحج فإن جلالاته يشرف قصره « الشرايع » بملابس الإحرام فتطلق المدافع ايذاناً بتشريفه وبعد أن يصافح

مستقبلية يقصد الى المسجد الحرام لأداء مناسك الحج : ثم يجتمع في المساء بقاعه
الاستقبال الكبرى « بكبار رجال الدولة وبعد أن يستمع اقصاد الشعراء ينهض
جلالته فيلقى في الناس موعظة دينية
هذا و جلالة الملك لا يحب الموز ولا التين الشوكى ولا الجبن ويحب اللبن
والتمر واللحم والأرز .

مشروعات جديدة

في ١١ يناير ١٩٤٦ عاد الى القاهرة بالدائرة الملكية السعودية الأستاذ عبد
المنعم رياض بك الذى انتدبه الحكومة المصرية ليكون مستشاراً قضائياً للحكومة
العربية السعودية بعد أن قضى في بلاد الحرمين الشريفين نحو أربعة أسابيع قام فيها
بمهمته خير قيام .

وقد وضع للحكومة السعودية مشروع قانون للعمال وإصاباتهم وتعويضاتهم
ومشروع قانون للشركات كما وضع مشروعات للكهرباء والمياه وإنشاء ترام بين
جدة ومكة المكرمة .

كذلك وضع مشروع إنشاء صندوق عربى دولى تساهم فيه حكومات وشعوب
الدول العربية بالصدقات التى جرت العادة بتقديمها في موسم الحج مثلاً على أن
يكون هذا الصندوق تحت اشراف ادارة سعودية تتولى انفاق المال في وجوه البر
والخير والاحسان .

وأكد عبد المنعم رياض بك أنه ليس في إنشاء هذا الصندوق العربى الدولى

أدنى مساس بالسيادة السعودية وقدم دليلا على ذلك إنشاء البنك الدولي والصندوق
للدولي للإعانة والتعمير وصندوق الأمة لإنقاذ أراضي فلسطين .

وأوصى عبد المنعم رياض بك بادخال تحسينات كثيرة على الحرم الشريف
ليتسع نطاقه بحيث يشمل منطقة السعي بين الصفا والمروة بعد أن تنزع فيها ملكيات
المنازل والدكاكين ويعوض أهلها وأصحابها بسخاء ويستقلوا الى مكان آخر
ولما وصل ذلك الى علم الاستاذ رشدي الرافي المهندس ومدير التسمية
المصرية بجدة وضع مشروعا لرصف طريق السعي وإنشاء موزع صغير تحته في
الوسط لمرور السيارات

وأوصى عبد المنعم رياض بك بتقديم مختلف المشروعات في مناقصة دولية عامة
في ١١ يناير ١٩٤٦ سافر رشدي الرافي المهندس من مكة الى المدينة
المنورة لاختيار بقعة الارض التي تقام عليها المستشفى المقرر انشاؤها تخليدا لذكرى
زيارة جلالة الفاروق للمدينة المنورة وقد أمر جلالة الملك ابن السعود ان تكون
له حرية الاختيار وأن تتخذ الحكومة السعودية الاجراءات اللازمة للتنفيذ بسرعة
وسيكون هذا المستشفى للامراض المتوطنة

ووصل الى مصر الحاج عبدالله فيليبي المستشرق الانجليزى الذى اعتنق الاسلام
منذ سنوات قادم من الحجاز حيث يقيم معفيا لحيته ومرتديا الثياب البدوية

الملك عبد العزيز وبعض أمراء العرب

ألف الكاتب الاجتماعي أمين الريحاني كتاباً عن «نجد الحديث وملحقاته» مشتملاً على نبد ثلاث هي: نواحي نجد محمد عبد الوهاب والوهابية، آل سعود منذ نشأتهم إلى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد. وياها تاريخ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود وفتوحاته.

وهنا يتحدث الكاتب عن الشيخ مبارك الصباح. أمير السكويت قائلاً إنه قد تولى الإمارة «١٣١٣ - ١٣٢٤ هـ» «١٨٩٦ - ١٩١٥» كان حاد المزاج، شديد البأس، كثير التقلب. فيه شيء من الاسد واثبات من الحربة، بدوى الطبع، حضري الذوق. تارة يحبه الخصم، وطوراً يحامله، وكان كريماً جواداً، بل كان مسرفاً، يسترسل إلى الترف والبدخ، ويقدم بعد حبه للجد والسيادة نواغم العيش ونوافله على كل شيء سواها.

أما السيف مبارك فقد كان مثل سياسته ذا حدين. قتل أخويه محمداً وجراحاً طمعاً في الإمارة، وجأ للجد فكان أميراً مجداً. هو من أولئك الحكام المتفردين بالحكم الذين يرهقون الأمة بالضرائب ليحيكوا لها حللاً من الفخر والمجد. شيد قصوراً في السكويت. وهدم قصوراً في السياسة. كان يلقب بـ (الخواقة) من حاق ومرادفاتهما مثل دار ولف أي ما يراد به السير على عكس الخط المستقيم. نصف عمله سر لا يدركه سواه والنصف الآخر خدعة بالقاهرة. أو خدعة مضحكة أو كشيقة مدلهمة. لاعب العشائر وغالبها وأجزل لها العطاء فأخذت ماله وهداياه ودعت لأعدائه. خطب للدولة العلية ولا مهر غير الحب والاخلاص — تقسم

بالله العلي العظيم إنا مخلصون للدولة ونفديها بدمنا -- فكتب كتاباً عليها ففتحت
 له قلبها المقفل بعشرة أقفال . ونبت لها حصناً في ظلال قصورة . أحب آل سعود
 فطوقهم بذراعه -- أتم أعز من أولادى -- ثم ضرب بهم عدوه ابن الرشيد أحب
 العجمان ثم حاربهم -- نخرمكم كالخطب بالله ونخرقكم ونحرق دياركم ! -- ثم أشعلهم
 حرباً على ابن سعود . ولكنه أحب الأمير خزعلاً حباً جما حباً صافياً حباً جميلاً
 فبنى خزعل قصرأ في الكويت وبنى مبارك قصرأ في المحمرة فكان الاثنان يتبعان
 إما على ضفاف قارون أو على شاطئ الخليج ليقضيا أياماً وليالي بين سرب من
 من القيان والراقصات ولسان حالهم يقول : بعداً للسياسة والحروب .

أما الأمير محمد بن رشيد . أمير نجد تولى الإمارة في « ١٣٨٨ - ١٣١٥ هـ »
 المقابلة ١٨٧١ - ١٨٩٧ م . فقد كان أمير الحج العراقي يوم كان بندر ابن أخيه
 طلال متولياً الإمارة . وعندما قام بندر وأخوه بدر على عمهما متعب فقتلاه . رحل
 محمد عمهما الثاني إلى الرياض ولاذ بالامام عبد الله بن سعود . ففرق بينه وبين
 أخيه فأمنه بندر على حياته وكان قد تولى الحكم فعاد محمد إلى حائل واستمر أميراً
 للحجاج .

ثم طمع في إمارة أكبر منها وقام بعد ثلاث سنوات يحقق مطامعه قبل أنه قام
 بئثار أخيه وقيل أنه قام يرد السيف الذي ذبح أخاه وكان يومئذ مسلطاً عليه . ومهما
 تعددت الأقوال فالقول الذي لا ريب فيه هو أن سيف الأمير محمد تقاضى خمسة
 رهوس بدل الرأس الواحد . فقد قيل بنـدراً وأخوته الأربعة أبناء أخيه
 طلال .

يا لك من قنبرة بمحجر خلا لك الجو فيضى واصفري

صفر الأمير محمد القبائل فتبعته مختارة أو مكرهة ، فكتب له النصر في حروبه كلها . ولكنه قال في خطبة خطبها في ساحة حائل يبرر تله أبناء أخيه : يا مسلمين ، ماقاتلهم والله الا خوفا على هذه « وضرب رقبته بيده » هموا بقتل فسبقتهم ومنعتهم وهل تظنون أن من ذبح أخى متعباً ينفو عنى ؟

وتولى الأمير محمد الامارة فكان كبيرها وكبير شمر ، بل كبير العرب في أيامه . فقد استولى على بلاد نجد جميعها حتى وادى الدواسر وكان في حكمه عادلا وكان حليما ولكن البدو كانت تقول إنه ضعيف في حكمه لأنه لا يتطع رموس المجرمين — لا يقط الرموس كأن الأمير محمداً آلى على نفسه بعد ذبحه أبناء أخيه الخمسة ألا « يقط الرموس » الا في الحرب . أما في السياسة فلم يختلف كثيراً عن زميله « حراقة » الكويت . ولكنه كان أبعد نظراً وأشد رأياً منه وهو من أولئك الحكماء الذين يقدرون الناس بعقولهم ويعاملونهم بموجب ذلك .

ولقد كانت له طرائق ثلاث في التغلب والاستيلاء ، اسماؤها الكرم والسيف والارهاب فيستميل اليه ، من يستطيع استمالهم بالهدايا ويمتشق الحسام على من لا تزرهم هداياه ويمشى الى غرضه على ظهور أولئك الذين يخشون سطوته . أجل قد كان ولا غرو ميسا ولكنه على الاجمال لم يكن محبوبا .

أما الأمير عبد العزيز بن الرشيد . فقد تولى الامارة في « ١٣١٥ — ١٣٢٤ هـ » المقابلة له ١٨٩٧ — ١٩٠٦ م « حدثني أعرابي من شمر قال : كان عبد العزيز جالسا للناس في القلاة يوما من الايام فأجس شبه لدغة في ظهره ، فغسبها حشرة لا تستحق الاهتمام فسكت وتجلد حتى انتهى من عمله . ثم دخل الى الخيمة وطلب أحد عبيده فرفع العبد ثياب عبد العزيز فاذا هنالك بين كتفيه عقرب كبير ، صاح العبد مذعورا ولم يجرؤ أن يمس العقرب فتناول به عبد العزيز بيده ورماه خارج الخيمة . ثم أمر العبد أن يذر مكان اللدراغ ماذا حاميا ففعل . وقام المددوخ بعد ذلك كأن لم يكن شيء .

قد سمعت غيرها من القمصن التي تدل على أن عبد العزيز بن رشيد بن جبار وقد كان في الحرب فارساً منواراً . قال فيه القائد التركي ، الفريق صدقياً بانياً هنا فارس مثل علي ولكنه لم يكن مثل علي في غير ذلك . ولا أظنه سمع بالشيء وقد كان في القروسية مثله في الشعر وهو مع ذلك التامل .

الراى قبل شجاعة الشجرمان هو أول وهي المحل الثاني

طمع عبد العزيز بن رشيد في الاستيلاء على الكويت فاصطدم هناك بالشيخ مبارك فأظهرت الصدمة خصاً آخر جدياً له ولبيته هر سمية عبد العزيز بن سـود فخربه وقضى في حربه نجبه بعد أن خسر نصف مملكته .

أما الشيخ قاسم بن ثاني ، أمير قطر فقد ولد سنة ١٢١٦ هـ . كما قيل وقد توفي سنة ١٣٣١ فيكون قد عاش مائة وخمس عشرة سنة . قضى معظمها في اكثار النسل الانساني فقد تزوج والعدة على الراوى بتسعين امرأة وبعدد من الجرارى عديدة وكان له من من الاولاد والاحفاد وأبناء الاحفاد ذكوراً وإناثاً ما يضرب صفحا عن عددهم فلا تهم بالمبالغة ولكنه كان اذا ركب يركب ستون فارساً في موكبـه من صلبه .

لم يكن الشيخ قاسم أو جاسم كما تلفظ هناك سيداً على غير عشيرته يوم كانت قطر تابعة لحكومة البحرين فقام يدعو الوشائر كلها الى الاستقلال وكان يومئذ قد تجاوز الخمسين من سنه فلبت دعوته . وبعد وقعات بحرية وبرية مع أهل البحرين وكررات وغلات حازت قطر باستقلالها .

ومن عجائب السياسة في الخليج أنه كان الانجليز يد ، ولنا أن نقر يد سلبية في استقلال قطر . أى أن حكومة بريطانيا العظمى أرسلت عليها سفينة من سفنها الحربية فضربت الزبارة ناصتها بالمادافع وصدت القطارنة عن استيلائهم على البحرين ثم أرضته

ولأهمه أن تكون له صفحة خالدة - أو بالحري قرمزية - في التاريخ .
 ما استهمه أحد . بل استهمه النسل الانساني كما قلت ، واستهمته كذلك تجارة
 الملوأ فقد كان يملك خمسا وعشرين سفينة الفوص ، وكان يبذل ما يجمعه من التجارة
 في سبيل البر والاحسان .

ومن احسانه أنه كان ولوعا بجمع العبيد وعتقهم قيل أنه اعتق في حياته أكثر من
 خمسين عبدا وأن ممالكه الاحرار أسسوا بلدة في قطر سموها السودان .

ومن أركان احسانه الورع والتقوى . « وقد كان حنبلي المذهب متصليا فيه يصرف
 واردات أوقافه على الجوامع والخطباء والائمة والمدرسين ، بل كان هو بنفسه يعلم الناس
 الدين ويخطب فيهم خطبة الجمعة .

أضف الى الورع والتقوى اذن فصاحة اللسان والى الفصاحة العلوم الدينية والفقهية
 والى العلوم الضمير ، والى ذلك كله الثراء والجود فيكون المجموع رجلا ولا كالرجال عاش
 قرنا ويريد في قطر فكان أميرها وخطيبها وقاضيا ومفتيا والمحسن الأكبر فيها .

الملك عبد العزيز آل سعود الشاب المجهول

ولد في الرياض عاصمة ملك أجداده فرأى عمومته يتنازعون الملك ويتحاربون
 ورأى العدو على أبواب العاصمة وهو يطمع في الاستيلاء على نجد أجمع ورأى أباه يحارب
 في الواقعة الاخيرة ويستسلم الى الله . ثم تبعه وهو جالس في الحسا برفض شروط الدولة
 العلية فسدت أمامه الأبواب كلها الا الباب الى الصحراء فلجأ الى خيام البدو وهو مثل
 أمحائها لا يملك قنارا من الارض ، وليس له غير الثقة الوطيدة المالية والنفعة بالله ، الى
 هي كنز الأعرابي الأكبر .

ثم سكن ألاب الكويت وصار الصبي شابا فيها فكانت الذكرى الالمية رفيقة الافكار

وسميرة احلامه . قرأ شيئا من العلوم هناك وهو يفكر في الملك المفقود جالس أمام البحر وهو لا يدري اذا ركبته الى أين تحمله الاقدار ثم نظر الى البادية ، وهو يهجن بالملك المفقود .

عاش الامراء والعلماء وجلس سائكا متأدبا في مجلس الشيوخ وهو يعلم بالملك المفقود . فتح الكتاب ثم القاه جانبا وهو يرمق السيف بنظرة كلها شوق وأمل .
عاش مجهولا في الكويت مجهولا الا في الاسم والنسب ، وفيما يبدو للناظرين بعيونهم فقد كان الناس يعرفون أن ذلك الشاب التوى البنية الطويل القامة البرق العين هو عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن سعود .

وما كان كبار القوم فكراً وفساسة يعرفون أكثر من ذلك . بل كانوا كلهم في ظلال سور الغيب كالاطفال جهلوا ما كان يحمله أثرب الناس الى عبد العزيز . حتى أباه وأمه جهلوا ما كان يحمله التاريخ جهلوا ما كان يحمله الشاب المجهول نفسه ، جهلوا كلهم ما لم يكن يعلم به غير الله .

الملك عبد العزيز بقلم ابراهيم عبد الهادي باشا أمير الحج

كانت حالة الحج في رحلتى باعثة على الازياح التام وكانت مظاهر البشر والفرح مرتسمة على وجوه الحجاج وأبناء المملكة العربية السعودية بشكل يلفت النظر .
ولقد أسعدنى الحظ بمقابلة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل الجزيرة العظمى لأول مرة بصصفة غير رسمية وأنا بملابس الاحرام . ففضل حفظه الله وأكرم وفادى وأحسن لقاءى . ثم قابلت جلالاته أربع مرات أخرى كان يتحدث فيها أطيح حديث عن مصر ومليكيها وشعبها وما أداه جلالة الفاروق العظيم من خدمات لبلاده والبلاد العربية عامة

وقد اتيت من جلالة الملك عبد العزيز إكراما بالذات يليق بملك عربي كريم . . . وكان
اقباله . . . مثالا وقدوة لأمرأء البيت الملك ورجال الدولة الذين أحاطوا جميعاً بكل عناية وتكريم
فعند ما أقمت المأدبة المصرية في فندق مصر شرفها بالحضور سبعة من أمرأء آل سعود وعلى
رأسهم سمر ولي العهد يصح بهم كبار رجال الدولة فكان مظهراً كريماً من مظاهر الاخاء
العربي زاده تكريماً خطاب سمر ولي العهد الأمير سعود والله الخطاب الأول من نوعه
لسموه . . . وكم كان مؤثراً تجاوب الازرب والاهد وانت بحياة ملك مصر وماك الجزيرة العربية
في ختام الكلماتين اللتين تبادلناهما . . . وقد تجل مظهر الاخاء المصري في هذه المأدبة التي
دعوت اليها كل مصري أمكنني دعوته ممن ذهبوا لأداء فريضة الحج ، على اعتبار أننا جميع
من المصريين رعايا جلالة ملك مصر

وإن أنس لا أنس ذلك الموقف العزيز المألوف بالموودة والأخوة المنيئة الروابط التي
تجلت عندما تشرفت يرفع كتاب . . . مولاى الملك المعظم الى جلالة الملك عبد العزيز فلقدا
تقبله جلالاته بالشكر والثناء وانت هذه القرصة ففضل بئى ما يشعر به من سعادة لا
بالأخاء سعادة عندما يذكر بالنبذة زيارة الفاروق العظيم والاثر البالغ الذي تركته هذه
الزيارة في نفسه وهو يعبر عن شعوره الطيب نحو الفاروق بقوله : « إن بلدى بلده وشعبى
شعبه وأرضى أرضه وأولادى أولاده وأخوته » .
وهو لا يذكر اسم الفاروق إلا مصحوباً بكلمة « الأخ » .

الملك عبد العزيز كما عرفته

أسعادة عبد الرحمن عزام باشا

عرفت جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وعرفنى قبل أن يلتقى بيضع ستين . . . فلما
كانلى الحظ في حج سنة ١٩٣٨ أن أشرف بلقاء وأنزل ضيفاً في ساحته رأيت فيه مثلاً
للعروبة في حالها الفطرية تتجل في المعاني التي برزت في حياة العرب في جاهليتهم واسلامهم

وأول هذه المعاني العزة والثقة بالنفس وما ينطوي على ذلك من عقيدة في سمو
القرم الذي ينسب اليهم . فكل شيء في نظره هو دون المستوى الذي ترسمه العروبة
في خاطرة والملك عبد العزيز في ذلك ككل عربي لم تلوثه الحضارة الغربية بعقده أن
العزة لله ثم له . فعنى النقص المركب لا يخطر على باله فلا شظف العيش ولا الفقر
ولا الو-دة والحرمات يلقى في ذهن هذه الأمة أنها أقل من أي أمة أخرى على
وجه الارض .

يدخل الناس عليه فينادوه باسمه ويحدثونه كما يحدث بعضهم بعضا ويتناقشونه
ويجادونه ويخطوونه فلا يغير ذلك من ثقته برئاسته ولا يخرجه ولم يحاول قط
في المدة التي قضيتها معه وقتئذ أن يتظاهر بشيء من سطوة الملك أو الرياسة فهي
في نظره حق ثابت كسبه بالخصال التي ترفع العربية الى مقام الزعامة في نظر العربي
وكسبه بشجاعتهم وسيفه وبكرمه ووفائه لانصاره ويعفوه عن المسيء ، وتأمينه لجاره
برجحان عقله وسعة صدره فهو يشعر من صميم قلبه بأن المظاهر لا تزيد ولا تنقصه
في نظر أنصاره وخصومه على السواء .

وليس الملك عبد العزيز في ذلك منفرداً بين زعماء العرب الذين لم تفسد
طبائعهم الحضارة الغربية . فهم في الواقع في كل قطر من الاقطار في المشرق والمغرب
مقتركون على سلبقتهم لا يذعنون الا ما كان يفعل عبد العزيز حين التقيت به لأول
مرة في ١٩٢٨ .

في ذلك الوقت أدركت أن معنى الديمقراطية أصيل في نفس العربي فليست
المساواة بين الناس أمراً مصطنعاً يحافظ عليه بالأداب العامة أو بالقانون . ولكنه
معنى طبيعي ناشئ من احترام الإنسيان لإنسيانته واعتبار أن الناس من آدم وآدم من تراب

ولم يستطع العرب في ذلك العهد حين ملكوا عبد العزيز الجزيرة . أن يتصوروا أنه أكثر من شيخ أقاموه ليحكموا اليه فيما يشجر بينهم . ولم يستطع هو أن يتصور أن له رسالة أكبر من هذا . وإلى اليوم لا يزال باقي في نجد لقب « الشيخوخ » بمعنى الملك عبد العزيز آل سعود .

يسود العرب في الجزيرة الرجل الذي يتصف أولاً بالشجاعة والكرم وبغير المروءة والسكرم لا يستطيع أن يعلو أحد على أقرانه . لذلك يستغرب الذين يزورون الملك عبد العزيز من بساطته وكرمه . وهو بغيرهما لم يكن ليكون ملكاً في البلاد العربية . وإلى أن تستقر الدولة في هذه البلاد على أصول أخرى لن يستطيع أحد أن يسودها برضاء أهلها بغير هذه الخصال . ويمتاز الملك عبد العزيز فوق خصال الشجاعة والكرم والعقل بتبسطه في الحديث وعدم التكلف فيه والمؤانسة لزائريه . وهو لذلك يترك أثراً عميقاً في نفس زواره الأجانب .

! والملك عبد العزيز في جزيرة العرب ليس ملكاً فحسب بل رئيس عائلة ومن عجيب شأنه أن هذه العائلة قد جمعت خصومه الإقليم وأعداءه الأشداد وأوليائه في ساحته وقد تشرفت بأن أكون ضيفاً له مرتين في الرياض في فترات متباعدة قبل الحرب وبعدها فكان مما يعجبني أن أرى على مائدته أو في الصيد معه أولئك الذين قاتلهم أو قاتل آباءهم من قبل يعاملون معاملة الأخوة والآباء .

ومصر حين استقبلت الملك عبد العزيز إنما استقبلت رجلاً تم الحقب ولا يرى الناس مثله وزيارته لهذه البلاد قد تركت أثراً خالداً في أذهان الناس ومثلاً حياً لما كان عليه أسلافنا في أيام أعزازهم بعروبيتهم وافتخارهم بأحسابهم . كما ستترك بلا شك أثراً خالداً في العلاقات المصرية السعودية العربية . هو مثال العلاقات التي تقوى

وتنمو بين مصر وبقية ملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم في سائر الاقطار .
ولقد كان لجلالة الملك فاروق الفضل الاول في تنمية هذه العلاقات وتقويتها
كما كان له الفضل العظيم في توثيق الروابط بين دول الجامعة وانا لارجو بتعهده
السامى لهذه العلاقات وبتألفه بين مصر والاقطار الشقية وتنميته لصلاته الشخصية
مع سائر الملوك والامراء والرؤساء في الدول العربية ، أن يمكن للنهضة الحاضرة
التي سيكون لها أعظم الأثر في تاريخ الامة العربية بل في تاريخ البشرية كلها من أن
تقوم على أسس من الأخاء والمساواة والتعاون لا تنقضها الحوادث ولا
تضعفها الايام .

الملك عبد العزيز

بقلم دولة السيد جميل مردم الوزير المفوض لسوريا في مصر والمملكة السعودية
كان لجلالة الملك عبد العزيز في مكة حين وصلنا بالطائرة الى جدة لأن أوراق
اعتمادى كانت لدى ملكته ولكن جلالة أبي الا أن يغمرنا برعايته السامية فأوفد
نجله حضرة صاحب السمو الملكي الامير منصور لاستقبالنا
ولعل هذا العطف الذي لم يتح لوزير مفوض من قبل راجع الى أنني قد تشرفت
بمقابلة جلالة اربع مرات قبل ذلك خاصة حين ذهبت الى الرياض في سنة ١٩٢٤
مع الوفد العربي الذي توسط لعند السلاج بين المملكة السعودية ومملكة اليمن .
ولم نسك . تناول العشاء في قصر السيفاسة بمكة حتى تفصل جلالة الملك
فكلمني من مكة بالهاتفون ودعاني لاتيصال اليها فانتقلنا اليها في صباح اليوم التالي

ثم اعتمرنا وأحرمنا وانتظرنا حتى تصل حقائبنا من جدة لكي نرتدى ملابسنا استعدادا للذهاب الى القصر الملكي . ولكن جلالته تفضل فأذن لنا في المقابلة بملابس الاحرام .

وهناك في بهو الاستقبال الفسيح الذي يتسع لحوالى ألفى زائر قضينا في حضرته نحو ساعة وشربنا القهوة العربية . تم لبثنا في الضيافة الملكية حتى عدنا الى جدة في صحبة جلالته بالسيارة الملكية . وتفضل أعزه الله لجلس في المقعد الخلفي الى جانبي تاركا لابني المقعد الامامي بجوار السائق حيث تعود الجلوس فيه .

ينام ٤ ساعات في اليوم

و يتمتع جلالة الملك عبد العزيز في هذه الايام بصحة جيدة ، أحسن كثيراً مما كان عليه قبل سنتين وجلالته مقل في طعامه فلا يأكل الا قليلا من اللحم والفاكهة ويستعيز عن السمك والخضر بالاكثر من شرب لبن الابل اذا كان في نجد ولبن الماعز اذا كان في مكة .

وما رأيت أنق من جلالته في مواعيده اليومية فالعشاء في الساعة الثامنة مساء وفي التاسعة يستمع الى أنباء العالم ملخصة عن الراديو يتلوها على مسامعه أربعة موظفين بالتناوب ثم يأخذ جلالته في المناقشة فيها مع الجالسين في حضرته حتى اذا جاءت الساعة العاشرة تماما دق الجرس فيؤتى للضيوف بالفاكهة ويكتفي جلالته منها ببرتقالة واحدة . وفي الساعة الحادية عشرة يأوى جلالته الى فراشه ولا ينام أكثر من أربع ساعات . وقد قال لي أن للعادة دخلا كبيرا في ذلك فقد عاش جلالته عشرين سنة على ظهور الابل وظل اثني عشر عاما منها يقطع الليل في الهجوم

مع أصحابه على الاعداء لا يأكلون الا التمر .

وجلالته لا يدع لونا من ألوان العطف الا أحاط به ضيفه ، وهو اذ يتحدث اليه فانما يكلمه كلام الصديق للصديق ويسأله عن كل كبيرة وصغيرة ، وقد أولانى من رعايته فى كل مرة سعدت فيها بزيارته وأبدى من أخلص الاستعداد للعمل على نصره القضية العربية ما يشهد العزم وينعش الأمل ،

نظام الحكم والملك عبد العزيز فى حياته الخاصة العامة

يعاون الملك ابن السعود فى حكم بلاده مجلس شورى يتألف من خمسة وأربعين عضوا يعين البعض وينتخب البعض الآخر من بين علماء المملكة وأعيانها، ويرأس هذا المجلس سمو الأمير فيصل أما وكيله فهو السيد صالح شطا وهو عالم فاضل كان جده من أعيان دمياط ، ويرجع الملك والوزارة الى هذا المجلس فى كل الأمور التشريعية والدينية ، فاذا لم توافق الحكومة على قرارته أعادتها بالتالى لبحثها مرة أخرى وليس هناك رئيس وزارة للمملكة العربية . أما السيد عبد الله السليمان فهو وزير المالية، الأمير فيصل أكبر الوزراء والسليمان رجل غصامى واسع الذكاء وقد حارب مع الملك ابن السعود فى كل الحروب التى اشترك فيها ؛ ويشق به الملك ثقة لا حد لها وهو الوحيد بين أهل المملكة الذى يستطيع أن يقابل الملك فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار

والى السيد عبد الله السليمان يجمع الفضل فى عقد اتفاقية البترول والذهب مع أمريكا وقد حصل لبلاده على ٥١٪ من أسهم الشركة التى تألفت لاستخراجها كما أقنع هذه الشركة بالانتماء نسبة الموظفين الأمريكين فيها ٨٪ على أن يكون الباقي من الحجازيين .

وهو الى هذا رجل واسع الخيلة ، يثق به الجميع ، حتى أنه - اذا امرت بلاده لاية أزمة - يقترض من التجار فى سبيل الدولة .

أما وزير الدفاع فهو الأمير منصور وقد عينه والده فى هذا المنصب ليقوم بالاشراف على جيش الحجاز الذى يتألف من أربعين ألف مقاتل نظامى وجيش نجد غير النظامى الذى يتألف من ٢٠٠ ألف مقاتل كما ذكره البعض ونفاً آخرون .

وقد استعانت الحكومة السعودية أن تحصل جيش الحجاز على كمية كبيرة من الأسلحة من أمريكا وإنجلترا ، وكان بينها دبابات ومدافع مضادة للطائرات . ويقوم الملك طوال العام فى الرياض ونجد ، ولا يقيم فى الحجاز الا خلال موسم الحج .

ولاية العهد

تألف المملكة السعودية من نجد والحجاز وعدد سكانه نحو مايرن وقد استطاع الملك ابن السعود أن يضم ولاية العهد لولده سعود بطريقة عمالية فقد كلفه منذ سنوات بالاشراف على شؤون نجد العسكرية والمالية فهو الذى يشرف على الجيش وهو الذى يتولى توزيع «الشرهات» وهى العطايا التى يقدمها الملك سنوياً الى رؤساء القبائل والعشائر :

حياة الملك الخاصة

يستيقظ جلالاته قبل صلاة الفجر فيوقظ أولاده الأمراء من جاوزوا التاسعة من عمرهم - ليؤدوا معه صلاة الفجر ، ولا يتساع جلالاته مطلقا في اعفاء أولاده من تأدية الصلاة ومن يتخلف عنها منهم يأمر بسجنه وبعد الصلاة يلعب الملك أطفاله ويعلمهم بنفسه لعب السيف والفروسية وبعدها يستريح حول ساعة ثم يتوجه الى « مجلسه » في الساعة الرابعة عربي (العاشرة بالتوقيت الافرنجي) وفي ديوان الحكم يقابل جلالاته رؤساء القبائل والعشائر وكبار رجال الدولة والشيوخ وهم أولاد المللك فهم وحدهم الذين يطلق عليهم لقب الشيوخ في الحجاز كله .

وترفع لجلالاته الشكاوى والتلغرافات. وفي ديوان جلالة الملك أربعة موظفين أحدهم مصري يستمعون لما تذيعة محطات الاذاعة في جميع أنحاء العالم من أهم الأخبار .

وحوالى الساعة الواحدة والنصف يغادر الملك الديوان ويذهب ليتناول الغداء ويصلى الظهر ثم يستريح ويعود مرة أخرى الى الديوان فلا يغادره الا قبيل المغرب وبعد صلاة المغرب ترفع لجلالاته التقارير التي ترد اليه من جميع أنحاء الامارات فيفصل فيها جلالاته وترسل تعليماته إليها باللاسلكي .

وما يذكّر ان كل أمير أو شيخ قبيلة ملزم بان يرفع اليه تقريراً يومياً عن الحالة في أمارته ، كما ان كل أمير أو شيخ قبيلة مسؤول عن الامن في أمارته . فهو مسؤول عن حوادث السرقة . وإذا لم يظهر السارق عوقب بدلا منه وإذا لم يغير على القاتل كان هو نفسه عرضة لا يقتل ! وقد كان لهذا أثره في استتباب الامن

المملك في حياته الخاصة

بعد تناول العشاء يجتمع به خاصته ويمضي الجميع الوقت في السمر ، الذي يبدأ بعد انتهاء الدرس الديني ، الذي يلقيه كل ليلة قاضي القضاة أو أحد كبار العلماء ولما كان جلالة في أول أيام ملكه أراد أن يتبع سنة الرسول وكان يرمى الى تأمين نفسه فكان يختار لنفسه زوجة من بين بنات كل قبيلة وبهذا كفل أن تتف القبائل حوله لأن كل قبيلة سيكون لها ولد في البيت المالك تجرى في عروقه دمائها ، وليس للملك ابن السعود الآن الا ثلاث زوجات ، وأحدهم الى قلبه هي « أم طلال » أم ولده الامير طلال أحب أولاده الى قلبه .

وللملك ابن السعود أخت كبيرة هي السيدة نورة . وحين يكون جلالة في الرياض يزورها كل يوم وهو لا يرد لها طابا والمالك ابن السعود لا يقابل السيدات مطلقا وحين ما كانت هندي هانم شعراوى في الحجاز تحايل علماء البتروكول (واسمه في الحجاز الفقيه) واهتدوا الى الحل اوفق السعيد وهو يقضى بأن تزور عصمتها داره أو زوجته ثم يدخل جلالة الملك فيجدها هناك فيصافحها !

وجلالة الملك ابن السعود كريم مضياف ويعيش أعل نهد وعددهم غير كبير - وليس لهم أى مورد من موارد الحياة - يعيشون على نفقة جلالة وجنوده الذين ساعدوه في الفتح وفي خلال أعوام الحرب الستة كانت الحكومة تستورد الاغذية من الخارج وتوزع على كل واحد من أهل البلاد رخيخين وكران من الارز يوميا .

الزيارة الحكومية

أمر سسل جلالة الملك ابن السعود ، ثلاثا الكريم الملك فاروق ، في شهر

هذا ويسبق حفظ جلالة الملك عبد العزيز في الرابعة صباحا كل يوم، وبعد أن يتوضأ يعكف على تلاوة القرآن الى أن يمين وقت صلاة الفجر، فيصليها جماعة مع حاشيته وأولاده، ومن يتأخر منهم عن أداؤها يوما يجازى. وقد حكم على بعض أنجاله الأمراء الصغار بالحبس أكثر من مرة لتخلفهم عن هذه الصلاة وبعد انتهاء الصلاة ينام قليلا فإذا ما استيقظ تناول طعام الافطار، وهو يتألف من لبن ماعز، وثرير، وعسل نحل، ثم يبدأ في النظر في مهام الدولة ومقابلة رجال الحاشية حتى إذا حانت صلاة الظهر صلاها جماعة، ويتناول النداء مع أخصائه وحاشيته، ويشرب القهوة العربية ثم يستريح قليلا الى ما قبل العصر، وبعد صلاة العصر تعرض عليه الاوراق والمهام ويبت فيها جميعا بنفسه، ثم يخرج للرياضة وهو يحب السهول المنبسطة، ويصلي المغرب في العراء، ويعود ليتناول العشاء مع الاسرة في الجناح الخاص «الحرم الملك». ثم يقضى بعد ذلك جانبا من الليل يتحدث مع وزرائه، ويطلع على نشرات الاذاعة والبرقيات الخارجية حتى اذا ما كانت الساعة المباشرة آوى الى مخدعه

وليس لجلالة الملك عبد العزيز من تسلية الا سماع الانباء العالمية والتعليق عليها فلا موسيقى ولا غناء ولا تمثيل. ويرجع نفور جلالاته من مشاهدة التمثيل الى وجود العنصر النسائي فيه فلا بأس عند جلالاته من مشاهدته اذ لم يختلج منه النساء ولا يلبس المحلى بالقصب الا جلالة الملك وصاحب السمو الملكي ولي العهد ولا يمكن لاحد غير ما لبسه الا باذن ملكي

هذا والمملكة العربية السعودية علم واحد هو علم جلالة الملك الذي هو علم الجاد المؤلف من أرضية خضراء عليها سيف كتب فوقه «لا اله الا الله محمد رسول الله» أما الشعار فانه مؤلف من سيفين متقاطعين بينهما نخلة ومحظور بتاتا تنميس العلم العربي

السعودى فى حالات الحداد كما تفعل الدول الأخرى وذلك بسبب وجود اسم الله عليه

مجالس الملك

يتألف البلاط الملكى السعودى من ١٦ شعبة مختلفة لكل منها دائرة اختصاصها أهمها الشعبة السياسية ونخص بالأمور السياسية لاسيما الخارجية منها ورئيسها الشيخ يوسف يس وهو فى الوقت ذاته السكرتير الخاص لجلالة الملك ونائب وزير الخارجية ووزير الدولة ويتصل الأمراء السعوديون بجلالة الملك عبد العزيز عن طريق السيد عبد الرحمن الطيشى مدير البلاط الملكى، وهو الذى يتولى عرض الطلبات الخاصة بالأمراء على جلالة الملك. وللأمراء السعوديين الحق فى الدخول الى مجالس جلالة الملك. فيحضر هــ المجالس سمو الأمير سعودولى العهد والأمير فيصل نائب جلالة الملك حين ما يكون فى الرياض وعبد الله بن عبد الرحمن شقيق جلالة الملك الأكبر وله منزلة خاصة عند جلالة الملك والأمير منصور وزير الحرية والأمير ناصر أمير الرياض

أما الأمير طلال فهو من أقرب الأمراء الى قلب جلالة الملك وهو من أنجال جلالة ويبلغ من العمر سبعة عشر عاماً - مشهور بالذكاء الخارق ويحبه جلالة والده حباً عظيماً

أما الأمراء سعود و فيصل ومنصور فهم أصحاب الكلمة الأولى فى كل ما يخص الشؤون المالية فى المملكة العربية السعودية، وآراؤهم فى هذه الأمور ليست محل نقاش والمجلس الاستشارى الأول فى الحجاز هو «مجلس الربع» أو «مجلس الصحابة» ويجتمع هذا المجلس يومياً فى الساعة التاسعة صباحاً يتصدره جلالة الملك عبد العزيز ويظل منقداً الى الساعة الواحدة بعد الظهر ثم يعود الى الانعقاد من الساعة الثالثة الى الخامسة وبعد صلاة المغرب - تأتى المجالس انعقاده الى أن تنتهى السهرة

وبلازم هذا المجلس جلالة الملك عبد العزيز في حله وترخاله فأينما يكن جلالاته يجتمع به ، حتى أنه اجتمع بكامل هيئته على ظهر الباخرة التي أوفت جلالاته عند مقابله للرئيس روزفلت .

ويرأسه الأمير فيصل نائب الملك ويختص بالنظر في ملخص القضايا التي ترد إليه من المحاكم والهيئات الحكومية المختلفة لأقرارها أو تعديلها أو إلغاؤها ثم ترفع بعد ذلك إلى جلالاته لينظرها مع مجلس الربع .

وهو مجلس عام كمجلس وكلاء الوزارات يختص بالبت في القضايا الخاصة بالأمن والمال والشؤون الداخلية وهذا المجلس تابع لنائب الملك .

ويختص بالنظر في الشؤون التشريعية وسن القوانين الداخلية -- ومن أعوانه عبدالله النضل معاون نائب جلالة الملك والشيخ محمد نصيف

ويعيش المواطن السعودي في أنحاء المملكة السعودية حراً ، لا يدفع ضرائب دخل ولا أي نوع من أنواع الضرائب !

ويقول جلالة الملك عبد العزيز في معرض حديثه إلى أهالي مملكته : « أي ملك في العالم يعامل شعبه مثل معاملتي لكم . تعيشون أحراراً بلا التزامات للدولة ؟ »

هذا ويحمل جلالة الملك عبد العزيز ساعة تعين الوقت حسب الساعة العربية فلما صعد إلى البيت الملكي (محروسة) في جدة أمر بأن تدار له ساعة أخرى حسب الساعة الإفريقية ليضبط مواعيده على مواعيد البرنامج الذي أعد لزيارته .

وفي صباح يوم إبحار جلالاته من بلاده طاف بالكعبة مودعاً وكان يشعر بالمشقة الشديدة رجليه ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى شعر بتحسن كبير وفي الغد مشى جلالاته عليها إلى بيت ساعات بدون عصا وزال الألم تماماً .

ولما تليت على جلالاته في خلال الرحلة إذاعة عن الاستعداد للقائم في مصر لاستقباله

قال : (إن القلوب عند بعضها)

ولما علم جلالاته أن الاستقبال في السويس سيكون رسمياً قال : (ليس عندنا رديجوت
ولكننا سنلبس الرديجوت العربي) . وأمر جلالاته أنجاله ورجال حاشيته بأن يلبسوا
العباءات السوداء .

ويلبس جلالاته وحده العقال المذهب . أما أنجاله فيلبسون العقال الاسود أسوة
برجال الحاشية . واتمس بعضهم من جلالاته أن يسمح لهم بلبس العقال المذهب ليميزوا عن
رجال الحاشية فسمح بذلك ولكن سموهم لم يقبلوا الفكرة إجلالاً لوالداهم
وكتب جلالاته على الصورتين اللتين أهداهما إلى الأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ
كريم ثابت بك بسم الله الرحمن الرحيم - من الواثق بالودود . عبد العزيز السعود .
ولما تسام الذين كانوا بجمعية جلالاته عند وصول اليخت الملكي إلى السويس : هل
سيتقلد قلادة محمد علي التي أهداه إياها جلالة الملك فاروق في اجتماع رضى . وذلك لأن
جلالاته لم يلبس نساءً في حياته . ثم بدا جلالاته لهم متقلداً القلادة وقال لمن حوله : إني
لم أفعل ذلك إلا للفاروق وحده .

وقد رغب جلالاته عقب وصوله إلى القاهرة في أن يكون لخدمته وأتباعه نصيب من
النزهات اليومية فخصص لهم سيارة كبيرة تخرج بهم عشية كل يوم وتطوف بهم أرجاء
العاصمة .

هذا وقد كف جلالاته منذ وصوله إلى مصر عن الشرب من الماء الذي جلبه معه من الحجاز
فكان يشرب من ماء أمر جلالة الملك فاروق بجلبه له من بئر بالقرب من استراحة شل على
الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية .

وذكرت المصحف اليومية أن جلالاته أذن للصلاة في جامع سراي الجامعة العربية
وبعد تناوله الغذاء فيها وقال نجله سمو الأمير محمد إن هذه أول مرة أذن فيها جلالاته للصلاة
منذ عشرين سنة بعد انتهاء مأدبة الغداء في سراي الجامعة العربية طلب جلالاته (الطبيب)
وقال : (إذا كنا لا نتطيب في هذا المكان الحبيب إلينا جميعاً فمتى نتطيب)

لما تشرف دولة السيد جميل مردم بك بتقديم أوراق اعتماده لجلالة الملك عبدالعزيز أهدي إليه جلالاته سيفاً جميلاً وكان دولته يحمل هذا السيف على بدلة « الفراك » وفي مأدبة العشاء التي أدها الملك عبدالعزيز في سراي الزعفران للملك فاروق سمح جلالاته القرويين عند عودته بالسيارة من القناطر الخيرية يمتفون قائلين : « يعيش حبيب الفاروق » ، فالتفت إلى سمو الأمير عبد المنعم وقال له : « هذا أحب هتاف إلى » ولما زار جلالاته دار مفوضية المملكة العربية السعودية قال : « إن كثيرين لا يعرفون أن الشيخ فوزان السابق (الوزير المفروض) من آخر إلى » وقال سمو الأمير عبدالله بن عبد الرحمن شقيق جلالاته : « ما هذه الحفاوة البالغة التي يلقاها جلالة الملك (عبد العزيز) من الشعب المصري دليل على شدة تعلق الشعب بالفاروق » وقد حل بهو سراي الزعفران بصورتين فوتوغرافيتين كبيرتين الملكين ولاحظ جلالة الملك عبدالعزيز أن صورته وضعت إلى اليمين فأمر بأن تكون صورة الفاروق هي التي إلى اليمين باعتبار أن جلالاته - أي الملك عبد العزيز - في بيته . ويحمل جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود من الأوسمة والنياشين : قلادة محمد علي ، والوشاح الأكبر من وسام ألحزام العال لبريطاني والوسام الأكبر الهاشمي العراقي والوشاح الأكبر من وسام الأسد الهولندي ، والوشاح الأكبر من وسام جوفه الشرف الفرنسي

الملك عبد العزيز بقلم طبيبه الدكتور رشاد فرعون

جلالة الملك عبد العزيز طيبان خاسان هما الدكتور رشاد فرعون والدكتور مدحت شيخ الأرض وهما يشرفان أيضاً على صحة أصحاب السمر الأمراء وأعضاء البيت المال . أما سمو ولي العهد فله طبيب خاص هو الدكتور أديب العنتاق . يتمتع جلالاته بمحبة جيدة ولا يشكو إلا أوجاعاً بسيطة في الركبة ولقد تمسنت هذه الحالة في السنوات الأخيرة ، وزاد التحسن بشكل ظاهر في هذه الرحلة . وقد قال جلالاته وهو على ظهر المحروسة : « الحمد لله أني لم أعد أشعر بالآلام فقد أفادتني هذه الرحلة

كثيراً ، وترجع الاوجاع التي في الركبة الى إصابات عديدة بتقذوفات في الرجل اليسرى جلالاته حيث أصيبت في حروبه بست رصاصات وأحدثت آلاماً . فلما ترضت الركبتان للبرد والروماتزم تضاعفت الحالة وبخاصة في الرجل اليسرى بسبب الرصاص الذي كان قد اخترقها .

وجلاته يتبع نظاماً صحيحاً معينا فطعامه القمح والتمر والارز واللحم وأوقات طعامه محددة لا تتغير أبداً فهو يتناول طعام افطاره في الساعة السابعة صباحاً والاذاء الساعة ١٢ والعشاء الساعة ٦ مساءً .

ونوم جلالاته قليل جداً فهو ينام ثلاث ساعات ونصف في الليل ويستيقظ قبل الفجر بساعتين ليصلي ويتهدد ويقرأ القرآن وبعد الفجر ينام نصف ساعة وفي الصيف ينام في الظل .

وقد سبق أن أجريت لجلالاته عملية في عينه اليسرى : وهي تبصر في النطاق السفلي إما الى اعلا وإلى الجانبين بقوة إبصارها محدودة . أما العين اليمنى فسليمة جداً بل حادة البصر وحالة جلالاته الصحية في مصر حسنة جداً وقد لام الجوى المصرى جلالاته كثيراً كما زادت شهيته للطعام . ورغم البرنامج المتواصل فإن جلالاته لم يشعر بتعب

ومن المعروف ان الملوك ورؤساء الجمهوريات هم الذين يختمون المقابلات ويصرفون زائريهم ، ولكن جلالة الملك عبدالعزيز يجرى على غير ذلك ، ويترك للجالسين في مجلسه أن يستأذنوا هم بالانصراف .

أما الذين لا يعرفون عنه ذلك فينبهون اليه قبل دخولهم عليه . وقد يشير اليهم أحد رجال الحاشية من طرف خفي إشارة يدركون معناها

يعرف المترددون على مجلس جلالاته انه اذا أمر بالقمة مرة ثانية ولم يفتح باب حديث جديد كان ذلك ايذاناً بانتهاء المجلس
و قد يأمر جلالاته في السهرة بمجلس « العود » (البخور) وبعد ما يطوف به الخدم على الحاضرين ينمض هؤلاء مستأذنين في الانصراف ، حتى أصبح من المأثور انه « بعد العود لا يجوز القعود »

الملك عبد العزيز للـ دكتور حسن الأشمر في قنصل مصر في الحجاز سابقاً

تشرفت بمقابلة جلالة الملك عبد العزيز بن سعود عام ١٩٢٨ مراراً في خلال السنوات الثلاث ، التي أمضيتها في بلاد العرب . ومما أذكره من أحداث جلالاته انه صار حني يوماً بقوله : « إني أريد أن أجعل من التجذيين والحجازيين ، أشد المواطنين إخلاصاً لبلادهم وأكثرهم محبة لآخوانهم في مصر وفي البلاد العربية » وعند ما جاء ذكر المدينة الغربية قال : « أعتقد أن المدينة صنوف شتى ، لكل بلد منها صنف خاص لا يلائم غيره . ولا أريد أن ينقلب العربي في بلادى أوربية المجرد احتسكاكه بالخصارة الأوربية ، إذ أن لوطننا تقاليد خاصة لا يخيمس من احترامها واتباعها . والذي أراه ألا تحاول انتحال عقلية أهل الغرب . وعندى أن بعث القديم يعد وسيلة من وسيلة التجديد »

وفي خلال بحث بعض المسائل المحررية الحجازية عام ١٩٢٠ قال جلالاته عن المنفور له الملك فؤاد ، « أنى أحب أخى الملك فؤاد حباً لا مزيد عليه وإنى على يقين من أنى حين أضع يدي في يده أكون قد وضعت أسس وحدة العرب رانى لأرجو من كل قلبى أن تتاح لى زيارة مصر ومقابلة عاهلها العظيم »

وأذكر أن جلالة الملك عبد العزيز كان عام ١٩٣٠ شديد الرغبة في تنفيذ فكره مشروع الوحدة العربية وقد حملنى الى المنفور له جلالة الملك فؤاد رسالة فى هذا الصدد كان لها أجمال وقع فى نفس جلالاته كما كان لها أثر بعد فى توطيد العلاقات بين مصر وجاراته

وقال جلالاته في صدد الحديث عن مصر : « إن مصر على الرغم من بعد الشقة بينها
فهي أقرب البلاد الى قلوب العرب لما بيننا وبينها من روابط اللغة والدين ؛ واني أتبع
مراحل نهضتها بشغف واهتمام »

مع عاهل الجزيرة العربية

في السادس من شهر صفر سنة ١٩٤٦ والعاشر من شهر يناير سنة ١٩٤٦ نهضت
مصر تستقبل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود؛ تزينت مصر في ذلك اليوم البهيج بأبهى
حلة من الرايات والاعلام وأقواس النصر وازدحم الناس وراء صفوف الجنود صفوفا
متراصة متلاصقة في قنات المنازل وبدأت دورها غصونا تحمل عناقيد البشر وكواها عقودا
رصعت بالمحاجر والاحداق . حتى اذا أقبل الموكب المهيّب يقل الفاروق وضيغه خلفهما
أمراء الجزيرة ورجالات مصر ؛ انطلقت الاكف على طول الطريق بالتصفيق الشديد
وارتفعت العتائر بالهتاف لبلاد العرب والدعاء للمليكين الجليلين . وظلت ضفاف النيل في
عيد سعيد بسام .

وقد وصف الأستاذ عباس محمود العقاد له في مجلة الكتاب بعض ما شاهد في خضرة
عبد العزيز آل سعود .

قال : تحدثنا الفكاكة المصرية عن حاكم جاهل من حكام القرون الوسطى سمع مصرياً
يقول : النبي عربي ! وكان هو تركياً فأخذته غيرة العصبية وصاح فيه : نبي عربي ولكن الله
تركي !

ذكرت هذه الفكاكة المصرية في ايلتنا الأولى المحروسة على متن البحر الأحمر إذ كنا
تنبيهه لأننا لا نطيق دوار البحر وإن كنا قليلاً ما نشعر بالدوار في الهواء ولكن الله
بارك في الرحلة من بدايتها الى نهايتها فركبنا البحر الأحمر شتاءً كأننا نركب النيل في أيام
الصبر والهدوء . وكانت السماء في الليلة الأولى على الخصوص صافية مصحية لا تحجب عنا

ذخيرة واحدة من ذخائرها الكبيرة ولم تكن الليلة من الليالي المتقمرة فمرضت علينا السماء كل ما وسعت من جواربها وثوابتها على السواء ولم تدع عندها من نجم بيد أو قريب تستره في الخفاء وصدقنا الى سطح الينخت الأعلى عند مرقب الربان لتتملى بأعيننا ونفوسنا هذا المنظر الجميل كأننا نرتفع من اماء الى الآفاق العلوية ونعجب لقول القائل : أين الماء من السماء ؟ لأن الانسان في الماء أقرب ما يكون الى السماوات والأفلاك فبني الدليل الذي يستقبله هناك حيث يسير .

وكان الينخت في قيادة البحري الكبير صاحب السيادة أمير البحر سالم البدن باشا وهو من أبناء البحر المعروفين إذا صبح هذا التعبير لأنه ينتمى الى أسرة تقدمه فيها الآباء والأجداد الى قيادة السفن الكبيرة منذ مئات السنين وقد تعلم فنون صناعته اذقيته ومنها الفلك والظواهر الجوية وإحياء البحار المختلفة فرأيناه - كما قلنا له - يعلم من طرق السماء وطرق البحار فوق ما يعلم من طرق القاهرة والاستكدرية .

وقد كانت الفرصة في تلك الليلة سانحة لنستمع اليه وهو يشرح لنا مواقع النجوم الثوابت ومواقع الكواكب السيارة التي تظهر على الأفق في ذلك المساء وشفع ذلك ببيان الأساليب العلمية التي ينتفع بها لتحقيق مكان السفينة من دوية تلك النجوم والسيارات أو من المقابلة بين زواياها ومواقعها من السم والافتق في ساعات الليل : هذه الجوزاء ، وهذا النطاق وهذه المنطقة وهذا الظنাম وكلها على ما نذكر ترف في الآلات الأوريسية بألفاظها العربية يقولون Alni Tak و Alni Tak و Alnilam ... حتى إبط الجوزاء أو يد الجوزاء كما هو مشهور - يسمون Betelgeusel و يسمون عائق الثريا (ابتك) ويسمون السرة من مجموعة السلسلة (سيره) وغير ذلك كثير يطول بنا إحصاؤه في هذا المقام وخطرت تلك الفكامة المصرية التي أشرنا اليها في مطلع هذا المقال وأنا أنظر الى النجوم والكواكب التي يعرفها الشرقيون والغربيين بأسمائها في لغة التباد فقلت : إن السماء

عربية أيها الاخوان ! ولو جرينا على طريقة بعض الاثريين ووجدنا مدينة محفوظة المعالم
بأمثال تلك الاسماء لما ترددنا في نسبتها على وجه من الوجوه الى قوم من أبنائنا يعرب
وقحطان .

السماء عربية

والبحر الذى نحن عليه ماذا يكون ؟

إن جو العروبة قد غمرنا منذ خطوات الرحلة الاولى فتعودنا أن نلتمس العلاقة
بينه وبين كل مارأيناه وسمعناه ، وقد عرفنا مكان السماء من العروبة ، فبقى أن نعرف منها
مكان الماء ، ولم نقل كما قال الأسبقون : وأن الماء من السماء ؟

وجزى الله اللغويين من أصحاب التمثل والتأويل فانهم لا يضيقون بنسبة شيء إلى
العربية ولو كان بينه وبينها ما بين الماء والسماء ! ..

فلا تنس أن البحر الأحمر يدعى ببحر القلزم ، وأن القلزمة على قول أصحابنا
اللغويين المتأولين مقنونة من الزاكمة وهى الانبلاع من الزقوم أو الخاقوم ... قالوا :
ولعله سمي بذلك لأنه ابتلع فرعون وجنوده وهم يطاردون موسى الكليم .

لكن اللغويين هؤلاء ينسون مدينة كلزما ، التى كانت على مقربة من السويس
قبل أن ينحسر البحر عن موقع السويس الجديد ، وينسون أن البحر قد استمد اسمه من
هذه المدينة فسمى ببحر كلزما وصحف الى بحر القلزم ، على الالسنه العربية ثم استعير
هذا الاسم للبر العزيرة فعرفت فى العربية باسم القليذم والقليدم وقال شاعرهم فى بعض
هذه الآبار :

إن لنا قليذما قدوماً يزيدُه حُجج الدلائل جوماً

حسب اللغويون إذن من العلاقة بين هذا البحر وبين العروبة أنه البحر الذى
أحيطت شواطئه جميعاً بمعاشر الناطقين بالضاد وأنهم قلده به بعد ذلك اسماً عربياً
موصوفاً بالحرارة فقالوا : إنه البحر الأحمر ، لما يبدو عليه من احمرار اللون من أثر الشعاب

الحمراء التي فيه والجال الحمراء التي عليه ولا سيما عند مدخله في خليجي العقبة والسويس
واقعد كان جو العربية يغمر الرفقة جميعاً في الاياب كما غمرهم في الذهاب فلم نجتمع
قط في مجلس على متن اليخت الا عرضت فيه مسألة من مسائل العربية أو مسألة من مسائل
المروية منذ زيارتها الأولى واتفق أنني سلمت هذا السؤال ونقلت محطلة الاذاعة في الشرق
الادنى جواني عليه قبل سفرى الى الحجاز وخلاصته أن كلمة العرب ، مأخوذة من كلمة
العرب بحرف الغين وهو حرف ضعيف في اللغات السامية غير العربية فكان سكان ما بين
النهرين ينظرون الى الشرق ويسمون انهم يمنا لأنها على يمينهم والشام شمالاً لأنها على
شمالهم والصحراء العربية غرباً لأنها في الجهة الغربية من بلادهم وتمت بذلك مواقع الجهات
الاربعة في نظر الساميين المقيمين بين النهرين

فلما سئل هذا السؤال أصغيت الى رأى الرحالة البحاثة الأستاذ قبي فسرني أنه
يطابق كل المطابقة ما اعتدته بين مختلف الآراء وزاد لديه الأستاذ قبي أنه بكلمة
عربية الى هذا المصدر لأنها عربية وهو رأى له قيمته الراجعة لما عرف من اشتغال الأستاذ
بهذه المباحث وأطلعاه على مراجعها النادرة في الاوراق والحجارة المكتوبة
وهنا اختلف رأى الأستاذ قبي ورأى الامير العالم عبد الله بن عبد الرحمن - أثنى جلالة
الملك عبد العزيز - كل الاختلاف والامير عبد الله كما هو مشهور عنه أعلم الإخوان
التجديين بالثقافة الإسلامية والتواريخ العربية ويقول عنه جلالة أخيه كما استطرد الحديث
لى مسألة من مسائل الفقه أو العلم متواضعا صريحاً في تواضعه الخليل : إن الحروب شتى
عن التبحر في العلوم والتوسع في الدراسة. أما الذى استوفى نسيبه منها فهو هذا مشيراً الى
سحر الامير حيث كان في مجامع بحواره

فلما عرضت الإشارة الى الحجارة المكتوبة شك صاحب السمو في قيمتها التاريخية
وقال : إنها قديمة للزيف وسوء التفسير واسئشدهم بحجر مكتوب تنسب الكتابة التي عليه
إليه الله بن مسعود رضي الله عنه وهي نسبة مقطوع بإطلاقها وكان من رأي أن هذه

الحجارة قيمة في الدلالة التاريخية على شريطة واحدة : وهي أن تقرن بنيرها من الدلائل وأن تتفق في مجموع دلائلها فلا تتناقض ولا تتضارب ولو شئت أن أذهب الى بطلانها معتمداً على بطلان القول باتناء السماء الى الناطقين بالعضاد كما يطلق على معاملها من لغاتهم لذكرت ذلك في هذا السياق ولكن القياس هنا قياس مع الفارق كما لا يخفى لأن صعود العرب الى الكواكب أمر نستطيع أن نشك فيه ولكننا لا نشك في نزولهم القديم بتلك المنازل التي عثر فيها الأستاذ فلي على ألوف الحجارة المكتوبة ثم قابل بينها وبين ما عنده من الاسانيد الاخرى

وستل عن الاصل في اسم مكة فقيل كما قال الاصمعي : انها من تمكنت المخ اذا استخرجته لانها تمك الفاجر عنها أو إنها « بكة » ، لأن الناس يبك بعضهم بعضاً فيها أي يتدافعون ويتراحمون ومن ذاك قول الشاعر :

إذا الشريب أخذته أكة
نخله حتى يبك بكة

ومن المعلوم أن القرآن الكريم ذكرها بأسماء ثلاثة وهي مكة وبكة وأم القرى وليس أصل الاسم القديم بالمعروف على وجه التحقيق قال الأستاذ فلي : إنه لا يعرف أصل هذه التسمية ولكنه لا يشك في وجودها منذ عهد ابراهيم عليه السلام

وقلت : ومصدق ذلك أنها وردت في كتاب بطليموس الجغرافي وسياها (ميكوراو) ولعله مزج بين اسم مكة واسم سكانها العرب بهذا التركيب

ذلك مثل من الجو التاريخي أو الجو اللغوي الذي كان يحيط بنا في رحلتنا الى الحجاز بحراً وبراً وفي الذهاب وفي الاياب :

ولكننا اشتملنا على جو العروبة من جميع نواحيه حين دله الى الكلام على الجامعة

العربية في مجلس العاهل العظيم صاحب الجلالة الملك عبد العزيز لأن جلالة لا ويبدر
من أثبت أركان هذه الجامعة وسند من أعظم أسنادها فإذا تكلم عنها فراه فيها يقوم بأفهم
الاوزان ويناط به أقوى الرجاء في مصيرها .

وجلالته يؤمن بلزوم الجامعة ، ويعتقد أن كرامة الأمم العربية جميعاً مرهونة
ببقائها ونجاحها ويسميا ماراً ودرية لكل دولة عربية تشترك فيها ويشرح ذلك شرحاً
وافياً فيقول : أنها منار لنا لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوى الرأي
والبصيرة يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على انفراد ، وأنها درية للدول العربية
لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول
ويشفع جلالته هذا البيان في بعض أحاديثه بمثل بليغ كمادته في توضيح آرائه
بالمواعظ والأمثال . فقال : كان في مملكة من الممالك منار مغناطيسى يكشف البحار
من حولها وينتزع الحديد من السفن التي تغير عليها فلا يقدر أحد على فتحها واشتدت
شوكة هذه المملكة فحسدوا جيرانها وأخذوا في تدمير المكاييد لهدم منارها ففسدوا عليها
جاسوساً من جواسيسهم يتربوا بزي النساك الصالحين ثم تركوه يقيم فيها ردحا من الزمن حتى
يستجمع الثقة والمودة من أبنائها وطفق هذا الجاسوس يصنع لهم الكرامات ويدلهم على
مخافه الكنوز ويمخرق عليهم بالعجائب حتى أنسوا به واطمأنوا إليه فلما عرف مكانه
عندهم جاءهم في بعض الايام برؤيا يزعم لهم أنه يخاف عقباها وسألوه عما يخافه فأجهم ثم
أجهم وهو يغريهم بالالتماح عليه كلما اصطنع لهم الإحجام وتردد في الجواب فلما شوقهم
غاية التشويق الى استطلاع الخبر قال لهم : انى مطلعكم عليه والهدية عليكم وإن تحت هذا
المنار كنزا من الذهب والجوهر يغنيكم عما في الارض وما رجت من النفائس والخيرات
ولا تنالونه الا بهدم المنار ولكن حذار من الإقدام على هدم المنار

وكان الرجل كاذباً في نية التحذير صادقا في نية الإغراء فما هو الا أن سمعوا منه
اغراءه بالنفائس والخيرات حتى دكوا المنار دكا ففرغوا غفلتهم واستبيحت حوزتهم وفقدوا

الديانة وفقدوا النور فتمكن منهم من كان يتقهم من الجيران والاعداء

وقال جلالة : وكل عرق يمر هذا المنار طمعاً في المال والحطام إنما يصيبهم قومه
بمثل ما أصاب أولئك الغافلين .

وأجلى ما يسمعه السامع من جاهل الجزيرة في هذا السياق قول جلالة : إن مستقبل
الخدمة العربية مرهون بمشية الشعوب لأن الرؤساء والامراء ينضمون الجامعة بتأييدهم
ليأياها ولحكمهم لا يثابرون على تأييدهم الا اذا عرفت الشعوب مزايها وانتفعت على الرغبة
فيها او حالت بهذه الرغبة القوية الثيرة دون تنافس الرؤساء وتنازع الامراء
كلام حق مبين وانه لغال حسن بنجاح الجامعة التي يرعاها ملوك العروبة وأبناؤها
مثل هذه العراحة ومثل هذا اليقين

لمناسبة عيد جلوس الملك عبدالعزيز

قال الأستاذ خير الدين الزركلي مستشار المفوضية العربية السعودية في مصر :
تتجرب اليوم أسلاك البرق بين عواصم العالم وعاصمة العربية السعودية بتمتة جاهل
الجزيرة وسيدھا المطاع الملك عبد العزيز آل سعود بعيد جلوسه .
وتعيد هذه الذكرى الى الازدهار أحداث نصف قرن لم يعرف قلب الجزيرة مثلاً
منه عصر النبوة

إمارات تتوحد وأمة تتكون ودولة ثنية وحضارة تشاد وتحول في الاخلاق
والعادات من فوضى الى نظام ومن إسفاف الى إصغاء في أقل من خمسين سنة استطاع
رجل واحد أن ينشئ بين البحر الأحمر وخليج العرب ما عجز اثنا عشر قرناً عن انشائه
أو الاتيان بمثله

بين أيدينا وتحت أبصارنا سطور من التاريخ الحديث تحدث عن آل سعود قبل
ما قضي عام فخرنا أنهم ناعروا الدعوة إلى التوحيد أيام عاد محمد بن عبد الوهاب إلى

نجد ، ونظر فإذا الناس من حوله لا يجر لهم من دين أو نظام : أتباع أهواء ، فقال : إن لم يكن الوازع لهم من سلطانهم ، فليس الوازع من إيمانهم . إنهم في خصام ، فليؤمنوا بدمعة السلام . كل أخ لسكل .

وانتشرت الدعوة تؤيدها القوة . فتكاثر جمع المتدينين ، من « الإخوان » . وكان لآل سعود من السلطان في ذلك العهد ما كان . ولد عبد العزيز في الرياض عاصمة آبائه وأجداده . فلم يكن يعي حتى سمع السمار يتحدثون عن ملك ذهب . ودولة طغى عليها عدوان الجيران . لقد كان آل الرشيد تغلبوا على آل سعود . بل لقد وجد عبد العزيز نفسه محمولا في خرج على بعير في رحلة مع أبيه وخاصتهما ، يرحلون الرياض ويضربون في الآفاق ، نائمين عن أعين آل الرشيد ، يقيمون في هذه القبيلة حيناً ، وفي الربع الخالي حيناً . ثم يلقون عصا التسيار في الكويت . ويتربع عبد العزيز في عشرة آل صباح وداهيتهم « مبارك » . وأبى على عبد العزيز نفسه الوثابة إلا أن يثب . لقد خلق عبد العزيز لغير ما خلق له غيره من أبناء جيله . إن عليه أن يعيد ملك آبائه وعليه أن يقيم الملك على دعائم تمر بها الأعاصير وهي شاحنة . استرد الرياض في مغامرة هي أشبه بالأساطير منها بالوقائع وانتزع الخرج والحريق والحوطة والأفلاج ووادي الدواسر من بين شذق عدوه ومضى يدفع غارات ابن رشيد ويد ويمتد إلى ما يفتح الله عليه بيد وتألب الترك وآل رشيد بعد استيلائه على القصيم فكانت له معهم ملاحم « البكرية » ، وخرج منها يضارء عدوه حتى رآه يخر صريعاً بين يديه وعمدت سياسة الترك إلى ضرب سلطان نجد بشريف مكة فأمدت هذا بالمسال والرجال فزحف إلى أطراف نجد فظفر بأسير أطلقه مرغماً بعد يسير وكانت لاتزال للترك قلاع في الأحساء والقطيف فجعل ابن سعود رده على الترك اكتساحاً ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فدار حديث في إحدى خيام ابن سعود ... قال السبرسي كوكس : « أتذكر يا طویل العمر ما قاليت من نجدات الترك لعدوك ابن رشيد ؟ قال : « ما كان لي أن أنسي ، قال : « ألا ترى ما يراه الناس من تحفز العراق

والشأن والحق أن الثورة على المثلثة ؟ قال : أرى ، قال : ألا تكون رأيهم رأيك ذلك
 بعد ذلك ملك العرب وإن شئت فخلقة الإسلام ؟ قال : لا . قال : ألا تنتهزها فرصة
 فتنتهم ؟ قال عبد العزيز : لا ... لن يقول الناس ثار عبد العزيز على دولة تقسم بدولة
 الخوذة في عهد منتهى ، وبعد عام أو عامين كان ساسة لندن يقولون : قتل برسي كوكس في
 الرياض ونجح لورنس في مكة ، وتتابعت الحوادث فتتمر آل عائض في عسير ، وقامت
 للاشراف دولة في الحجاز فلفت عبد العزيز فلم يكن أمر عسير ، بالمسير وكانت له دولة
 الحجاز وخلص الملك لابن سعود في نجد والاحساء والقطيف والحجاز وعسير وتبائن
 اليمن وحرب يد من حديد على كل قوة طائشة فخضع العالى وآمن الخائف فكان
 الاستقرار وكان الامن الذي لم يألفه أهل هذه الاقطار وجاء دور الامتحان هل ثبت الملك ؟
 ذر قرن الفتنة في الملك الفسيح ثورة عبياء في نجد يقوم بها الدويش وابن حجار وابن
 حثلين ... وثورة في شمال الحجاز يبرز بها ابن رفاة وثورة إدريسية في الجنوب وقال
 العرب وخيرهم أنقض بان سعود عزيمته ونجاره ؟ ابن سعود موفق له من الفتيب عون
 ذهب الدويش وصاحبه ومن معهم مع الريح ولم يخرج من جموع ابن رفاة حتى ...
 وانتهت دولة الإدارة

وكان لمصادقة الاخوين في صنعاء والرياض ممن ولو كتبت معاهدة لوزان بالقلم
 الذي كتبت به معاهدة الطائف ما ثبتت حرب العالم الازمة

هذه هي الصفحة اخراء من سيرة ابن سعود صفحة الفتوح والوقائع صفحة الدم ...
 والصفحة البيضاء من سيرة الامام عبد العزيز جلالها وجلالها . ابن سعود رجل عرف
 كيف يعيش يعيش لعامة ربه ولرعيت ولائته وانفسه . لقد عمر ما بينه وبين الله فلم
 يعرف الشيطان ان يقابله سيلا وهو يعد نفسه مسؤولا عن كل فرد من رعاياه كما انما هو
 من آياته يجب على ابن من يبه كانه ليس له سواه ويتمتع بكل ما أحل الله من متع الحياة
 بن سعود مذكور عرف كيف يبني كل حجر من بناء الدولة السعودية هو من صنع يده

وكل نظام أخذت به الجزيرة هو من وحى عقله . وكل خطوة تقدمت بها في مضمار الحضارة هي من ثمار تجاربه . سلخ التراد خمسائة عام في بعض أطراف الجزيرة جامهدين لتحصير آحاد من البدو فلم يفلحوا . وفي بضع سنوات من حكم ابن سعود انقلب العدد الجهم من أهل المضارب والخيام إلى سكان قرى ومدن .

عشرات الآلاف من السنين مرت بالجزيرة والحكم فيها لمن غلب - غزو ونهب - لا أمن لضعيف ولا سلامة لأعزل . ولم تعرف الطأينة إلا مرة كانت الأولى من نوعها في عهد ظهور الإسلام . وجددها عبدالعزيز فأصبح الأمن في بلاده أواسعة وصحاريه الشاسعة مضرب المثل . ابن سعود يغضب ككل إنسان ويرضى ككل إنسان ولكنه إذا غضب أسرع لحاسب نفسه . وإذا رضى عرف لماذا يرضى . ابن سعود حذر يألف ويؤلف ولكنه لا يثق ... وإذا وثق تزلزلت الجبال ولم تتزلزل ثقته . للمرح ساعته عند ابن سعود وللعمل ساعته . خمسة وأربعون عاماً من حياته الطويلة . إن شاء الله . لم يختلف في يوم منها برنامج ونظامه إلا لطاريء . خمسة وأربعون عاماً يتلى بين يديه ساعة معينة كل يوم منها فصل من التفسير وفصل من التاريخ يختم على الأكثر بالمناقشة في أهم ما شتمل عليه . ما رأيت أحداً يعنى بتربية أبنائه بنفسه وتدريبهم وتخريجهم في حال طفولتهم كالملك عبدالعزيز . فم لا يجارى : أمر عاملاً له بأن يكرم فلاناً بثلاثة آلاف ، وكتب المبلغ بالأرقام فجاءت الأصفار أربعة ... فتزداد العامل وأبرق يسأل . فلما عرض الأمر على الملك قال : لا يكون قلم عبدالعزيز أكرم من عبدالعزيز . وصرف لفلان ثلاثون ألفاً . حفظ الله مولاي عبدالعزيز وأطال عمره .

جهاد بطل للاستاذ عبد الله علي القصيمي

يُبدى تاريخ البيت السعوي منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري ، حين وفد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٧ هجرية على الأمير محمد بن سعود جده السعوديين في بلدة الدرعية ، فتحالفا على النهوض بالعرب والجزيرة العربية ؛ وعلى تطهيرها من البدع والآثام الكثيرة المنتشرة في ذلك العهد ؛ ومن الفوضى المتدخلة في كل أمر من أمور العرب . ويقف اليوم هذا التاريخ عند أعظم رجال هذا البيت ، وهو صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز ... ويرجع نسبهم إلى بني ذهل بن شيان ، من عدنان ، فهم عدنانيون .

والملك عبد العزيز أول من سمي من آل سعود ملكاً بالمعنى المعروف لقانوني ، وكان آباؤه من قبل يسمون بالائمة . ويرون أن هذه التسمية أكثر انطباقاً عليهم وأصدق معنى ، لانهم إنما يقومون بوظيفة الائمة من الإصلاح الديني ومن محاربة الفساد والباطل المحسوب ديناً ... وإلى اليوم لا يزال الكثيرون من أبناء المملكة العربية يفضلون دعوة مليكهم بالامام لهذا القصد نفسه .

وجلالته أول ملك أخرجته البلاد النجدية . وأول من وحد هذه المملكة الواسعة المترامية الأطراف المكونة من الحجاز ونجد وعسير والاحساء والقطيف وتوابع ذلك . وأول من عمل على استخراج التروة الطبيعية المخبوءة في أرجاء المملكة . وأول من أعطى الشركات الامتيازات لاستنباط النفط والذهب وغيرها . وأول من أدخل الأساليب الزراعية الحديثة في بلاده للقيام باستغلال المناطق الخصبة . وأول من أوجد لها كياناً دولياً قانونياً اعترفت به الدول الكبرى والصغرى . أما مبدأ أمر جلالته ومبدأ الفكرة عنده في إيجاد هذه المملكة فما أشبه

ذلك بالقصص الروائية . على أنه الحقيقة الرائعة الواقعة المعاصرة التي لا يمكن
المعاراة فيها .

لنرجع إلى الوراء أربعة وأربعين عاماً لنجد جلالة غلاماً يانهاً لم يتخط
العشرين من حياته . يقيم مع والده الامام عبدالرحمن في تلك المدينة الساحلية
- الكويت - في ضيافة أمراءها من آل الصباح ، بعد أن تغلب أمراء حائل من آل الرشيد
على سائر أطراف نجد ، فم يجد الإمام عبدالرحمن بدأ من الخروج بأهله - وفيهم الأمير
عبد العزيز - إلى هذه الإمارة العربية المناوحة للبلاد النجدية . ثم لنجد جلالة يشهد
إعلان الحماية البريطانية على إمارة الكويت ، بعد التنافس الشديد عليها بين البريطانيين
والأتراك زمناً طويلاً ، يرمق ذلك بعينين تريان ما يرى وتنقدان فيه إلى الصميم . ثم
لنرى جلالة يصير في هذا الحدث الجديد أملاً يومض وفرصة تبسم .

ذلك أن أمراء الكويت - قبل أن يحموا بالحماية الانجليزية - كانوا غير قادرين على
مقاضة آل الرشيد حلفاء الأتراك وخصوم آل سعود ، ولا على مقاضة الأتراك أنفسهم .
فلن يستطيعوا إذن أن يأذنوا للأمير عبدالعزيز بالخروج من بلده غازياً محارباً ، ولن
يستطيعوا أن يبسطوا إليه يد العون ... أما بعد نزول الوكيل البريطاني في الكويت
باسطاً ظل حمايته فقد جاءت الفرصة النادرة التي لا مثيل لها . ومن هنا تبدأ القصة
الجميلة الرائعة :

لقد جمع الأمير عبدالعزيز - وعمره نحو العشرين - أربعة من رجال من آل سعود
ومن المحبين الموالين لهم ليخرج بهم من منفاه غازياً ومسترجعاً ملك آباءه وأجداده ، الذي
اتسم به آل رشيد الأقوياء ، تؤيدهم الدولة العثمانية مقتطعة لنفسها أخصب وأغنى بقعة
هناك ... وهنا تقف في سبيل الأمير الصغير كل ضروب التخذلات والمعوقات ، لو أن
شياً يستطيع أن يعوق التصميم أو يخذل الهمة العسادية . وكان من أصغر هذه الأمور
التي اعترضت سبيله وأهونها أن والده الامام كان يميل إلى الابقاء على رضا الأتراك ؛

ولقد تغلب تصميم الامير على كل شيء ، فسار في طريقه . ومن أفعال العبقريّة التي لا يعرف المنطق لها تعليلاً أن الامير حينهاياً كل أمره للخروج في غرضه هذا ، يصحبه هؤلاء الاربعون ، لم يحاول أن يحيط خروجه بالكتمان كما هي العادة المتبعة ؛ بل عمد إلى شيء عجيب جداً ، إذ برز قبل انفصاله من الكويت بيوم واحد إلى أكبر ميدان في المدينة ، وركز رايته الصغيرة المتواضعة فيه . وأمر منادياً من أتباعه أن ينادى : إن الامير عبدالعزير سيخرج غداً من أجل كيت وكيت فليعلم ذلك القاصي والداني !! وفي الموعد المحدد خرج يتحدى كل قوة . وكانت وجهته الرياض التي كان يقيم فيها الوالي من قبل آل الرشيد وبعد أيام شاقة من أيام التاريخ المعدودة وصل إليها ليلاً ومعه أولئك الاربعون من أصحابه الاوفياء ... ومنا تبدأ المغامرة الفذة التي قد تفوق كل مغامرة ؛ فقد ترك أكثر هؤلاء الاصحاب في ضواحي المدينة ودخلها بأقلامهم متسورين سورة البلدة وفي صباح تلك الليلة نفسها قتلوا الوالي الرشيدى وسلبت لهم المدينة وبهذه الضربة القاصمة المباغتة وضعت قواعد الدولة العربية الحديثة وفي تلك الليلة الغراء من ليالى التاريخ أنجزت أعظم مهمة قام بها إنسان لبناء محمد أمة ... ولقد كانت ضربة مفاجئة حقاً فاقت كل تصور وتقدير حتى إن الامام عبدالرحمن نفسه والد الامير الفاتح لما أبلغ الخبر لم يكذب صدقه وحينما أرسل إليه ولده المنتصر يبشره ويطلب إليه القدوم عليه في عاصمتهم القديمة الجديدة حسب أن الامر لا يعدو أن يكون خدعة وأن ابنه قد أحيط به .

لقد دأب عبدالعزير منذ ذلك اليوم على تدمير سيادة آل الرشيد وسيادة الترك وسيادة غيرهم من حكام الجزيرة بحكمة وثبات فراح ينتقص مملكة ابن الرشيد بادئاً بأقربها إليه مكاناً وأدناها منه قلوياً وأهواء فبدأ بالقسم الجنوبي من نجد لانه أقربها إلى الرياض ولأن أهله أشد الناس ولاء لآل سعود وكرهاً لغيرهم من الحاكين فاستخلصه بسهولة ومرعة ثم استخلص أكثر البلاد النجدية وأنقذ في أنقذ أعظم تلك البلاد تجارة واتصالاً بالخارج وأكثرها رفاهية ومدينة وهي مقاطعة القصيم وهكذا سار أمر الامير الشاب

على ما يحب ويرضى .

ولقد يحار المرء من الحكمة والبراعة التي وضعت الخطط لفتح الجزيرة وللقضاء على الخصوم كلهم ، أو التي جاءت عفراً وكأنيما وضعتها أبرع قائد أخرجته المدارس الحربية وأضعفته الحروب في ميادينها . ذلك أنه لم يفكر حينذاك في أن يصطدم بقوات ابن الرشيد في بلاده ، ولم يفكر في القضاء عليه قبل الأوان ، ولم يحده النصر الأول . ولو أنه فعل لسكانت العاقبة مشكوكاً فيها . وإنما اكتفى بطرده من البلاد الموالية لآل سعود والتي كانت من أملاكهم . وكذلك لم يفكر في الاصطدام بالاشراف ولا بالأتراك في الأحساء والقطيف . لأن هؤلاء كانوا يومذاك أقرباً

انتظر الفرص التي كانت تنتظره والتي كانت كأنما صنعت من أجله أو كأنما صنعتها كان يرونو بعينيه النافذتين الحادثتين إلى تلك المقاطعة الخصبة التربة الزيرة الحياة التي كانت تحكمها تركيا حكماً لم يستطع أن يسعد أهلها ولأن يحميمهم من الزاة ومن قاطمي الطريق فانتظر طويلاً حتى جاءت سنة ١٩١٣ . وكانت تركيا قد أنهكتها حروب البلقان وحروبها ضد روسيا وضد الطليان فأبصر هذه الدولة قد أصبحت طامة هينة ساعة تتفاسمها الافواه دون أن تقدر على الدفع عن نفسها فرأى ذلك الأرض البعيدة قد أصبح قريباً فانقض على إقليم الأحساء التي فانتزعه وضمه إلى مملكته الناشئة الصغيرة وهب ينظم هذا الإقليم ويعيد إليه الاستقرار والامس المفقودين فيه منذ أزمان ثم عاد إلى الانتظار على خطته البديعة المحكمة ارتقاباً للفرص منطوياً على أعظم المغامرات والمفاجآت التي كان يوسع أوانها القصبى يترامى له في أفق الغيب مشرقاً بساماً

وبينما كان في انتظاره إذا بالحرب العالمية الأولى تنظم وإذا بالأتراك من جانب والبريطانيين من جانب آخر كل منهما يغريه بالانضمام إليه ولكنه يدهاته الفذة يختار الحياد لأنه علم أن دخوله الحرب لن يكسبه شيئاً وقد ثبت أن الضعيف إذا خاض الحرب إلى جانب القوى كان في النال - يخسر - على كل حال لأنه إذا انتصر الجانب الذي انضم

إليه فلن ينال منه خيراً ؛ لأنه القوى القادر المنتصر ، ولأن النصر كله سيضاف إليه وحده دون الضعيف المشارك . وسعد هذا الضعيف تحمياً منقذاً ممنوناً عليه بحياته وبنجاته من التدمير . أما إذا انتصر الجانب الآخر فالعقبى معروفة ، وقد صدقت بداهته ، فإن شريف مكة الذي انحاز الى الحلفاء ، وأمراء حائل الذين ذهبوا في ركاب الأتراك ، قد عرف مصيرهم .

فكانت الحكمة اختيار ما اختار . فظل ينتظر ويرتقب على عادته متطلعاً الى الأفق البعيد . الى الأمام دائماً . وأخيراً وبعد تلك الاحوال المذهلة وضعت الحرب أوزارها فسقطت أمم ونهضت أمم ؛ ونظر الى الفريقين راضياً عن رأيه الذي ارتآه بالبقاء خارج ذلك الجمجم . ولكن ماذا تراه يصنع هذه المرة ؟ فقد خرج الشريف حسين صاحب الحجاز منتصراً مع المنتصرين ؛ معتقداً أنه قد أضحي ملك العرب أجمعين ، وأن البلاد النجدية ؛ بما فيها من سلطان ورعية ، ماهي الا ولاية من ولاياته الكثيرة . فما المخرج من هذه الورطة المفاجئة ؟ ! لقد كان موقفاً فيه كثير من الحرج والضيق ، وكان من أعظم ما يزيد الموقف حرجاً أن الانجليز كانوا يتظاهرون بالميل نحو الشريف والانتصار له . لأنه حليفهم المحارب معهم ! فماذا يفعل السلطان عبدالعزيز ازاء هذه المشكلة الحقيقية ؟ لقد أنجده عبقرية المطبوعة وأهمته أن يفعل ما يجب أن يفعل في مثل هذا الموقف : لجأ الى الملاينة الظاهرة في مراسلاته وصلاته بالشريف وبالانجليز معاً . وأظهر أعظم استعداد للمسالمة والمصافاة . وأنه لا يريد الا أن يترك وأن لا يعتسدى عليه . فنهنت هذه الخطة البدئية من حدة الموقف . وعطفت عليه البريطانيين الذين كانوا يتولون الفصل في هذه المسألة . ويتولون التوفيق بين الفريقين . ووجدوا منه انساناً مسالماً متواضعاً لا يريد الشر ؛ أحد فاعتدل موقفهم منه

وفي هذه الاثناء التفت الى جانب طالما شغله أمره وطالما فكر فيه ورأى الوقت مواتياً للاستراحة منه ذلك أنه كان لا يزال في حائل عاصمة أمراء آل الرشيد الخصوم

القدماء أمير منهم يدين له بالطاعة أغاب قبيلة شمر القوية الكبيرة وقد وجد أن أمر آل الرشيد قد هان بعد اندحار حلفائهم في الحرب ففرغ منهم وقضى على آخر أمرائهم وضمت بلادهم الى الدولة العربية وذلك سنة ١٩٢٢ وانتهى كل شيء ولكن لا فان الافق لا يزال مظلماً منذراً بالاططار اذ لا يزال الشريف المنتصر موجوداً ولا يزال يدعى أنه ملك العرب ولا يزال الانجليز يقفون أمام آماله ودعاواه موقفاً فيه شيء من التهاون وقد زاد في هذه الاططار وجود الملك فيصل على عرش العراق ووجود الامير عبدالله في شرق الاردن ان المخاوف اذن موجودة بل عظيمة ولكن عبقرية عبدالعزيز الفياضة لاتعبأ ايضاً هذه المرة بهذه الحالة الدقيقة ولا تضيق بها مسالكها الضيقة : فلقد استعان بأعظم ما يمكن من الصبر والاحتمال وأعظم ما يتصور من الحيلة والدهاء وبقي يرقب هذه الحال بعين ساهرة حتى جاءت الفرصة الكبرى ذلك أن الشريف حسيناً رحمه الله كانت تعوزه الاساليب السياسية المرنّة فغاضب الناس جميعاً وعجز عن ضبط اماله في الحجاز وعن حماية طريق الحجاج ، ثم خطا خطوة واسعة في سبيل تقويض دعائهم ملكه : حيث أمر على منع رعايا السلطان ابن سعود من الحج الى أشيا أخرى معروفة فاجتمعت كل الاسباب التي ألهمت عبقرية عبدالعزيز بأن أوان العمل قد أتى فأمر بالتقدم الى الحجاز فاستولى عليه وفر الشريف حسين رحمه الله وسلمت مدينة جدة وهي آخر ما سلم سنة ١٩٢٥ وبعد هذا بسنة واحدة ببيع ملكا للحجاز ونجد وتوابعها وبهذا ارتفع شأنه إذ أصبح ملك الحجاز وحامي الحرمين الشريفين وصاحب هذا الملك الواسع الكبير وعظم اتصالاته بالعالم وبكل ما تقدم أوجده هذا الذي يسمى اليوم بالملكة العربية السعودية وقد صرف بعد ذلك كل تفكيره واهتمامه الى الشؤون الداخلية للاصلاح والتجديد واهتم بوجه خاص بانعاش الحالة العلمية والحالة الاقتصادية وقد فتحت في عهده عدة معاهد من أعظمها مدرسة تحضير البعثات وهي تعدد للالتحاق بالجامعات في الخارج والمعهد السعودي وهو معهد جديد فتح في العام الماضي لتخريج القضاة الشرعيين وكثرت

البعثات العلمية إلى الخارج ؛ وأكثر هذه البعثات أرسل إلى مصر ؛ وبعضها قصد بيروت وبعضها سافر إلى أوروبا .

ويوجد في مصر الآن ما يزيد على مائتي طالب ؛ مفرقين في المعاهد المختلفة وهم في ازدياد مضطرد .

وأما أعظم ما فعل من أجل تحسين الحالة الاقتصادية فالاتفاق مع شركة كبيرة لإخراج النفط الغزير الموجود في البلاد وكذلك الاتفاق مع شركة أخرى للبحث عن الذهب ثم القيام بتجارب واسعة لزراعة مساحات كبيرة معروفة بالحصب على الأساليب الحديثة تحت إشراف فنيين استدعوا من الخارج ويوجد اليوم عدة مناطق تجرى فيها هذه التجارب، ومن أشهر هذه المناطق الخرج والأحساء والقطيف .

إن الإنسان ليقف أمام هذا التاريخ الممتلئ بالأعمال مبهوراً معجباً إذ ليس مما يتفق كثيراً لإنسان ما أن يظل قرابة خمسين عاماً في بناء مثل هذا المجد الضخم دون أن يغفل لحظة واحدة حقيقة تودي بما تم بناؤه أو تقف في سبيل البناء والاتمام لافي الداخل ولا في الخارج . إنه أقدم على كل هذه الأعمال الفاصلة في تاريخه وتاريخ هذه الدولة الفتية العربية فأنجزها وكأبما صاغ نتائجها ووضعها وفاق ما أراد وقدر . ومارجع عن عمل بدأ

م لأنه أعياه أو لأنه اصطدم بما لم يكن له في حساب أو لأنه قدره تقديراً خاطئاً . ومعنى هذا أنه لم يكن يقدم على الأمر إلا بعد أن تكون النتيجة مضمونة محققة كالأخذ باليد فكيف تيسر له هذا ؟ الجواب أن هذا هو سر النبوغ الإنساني لقد كانت مصالح مملكته ومصالح جيرانه الأقوياء والضعفاء متجاذبة متنافرة في أحيان كثيرة ، وكان التوفيق بينها والخلص من الارتطام بما يوجب الفشل يحتاج إلى الحيلة وإلى الذكاء العبقري فمر بهذا التجاذب والتنافر كله بسلام ، دون أدنى اصطدام

لقد اجتاز هذا الملك العظيم من المشاكل الداخلية والخارجية في هذه الأربعة والأربعين عاماً التي قضاها في تشييد هذا الملك بما لعل واحدة منها تكفي لأن تطيح بأعظ

رجل شاد أرفع مجد ، ولكنه اجتازها كلها كما يختار أحداً أصغر مشكلة تواجهه فيقال له ما أحذقه .

لقد أعلنت هذه الحرب فاستغوت نتائجها المقدرة أرجح الالباب ، واستطيرت بها أنقل الاحلام ، فأفسدت على عباقرة السياسيين وعباقرة العسكريين أمورهم ، فخرجوا من معسكر إلى معسكر . واندفعوا في سبيل هذه النتائج التي قدروها خطأ . فكانت عاقبتهم الهلاك الذي شهدنا . ولكن أليس من أعجب العجائب أن شيئاً من هذا لم يستطع أن يفسد على هذا الملك نمراته البعيدة الناقة . ولا أن يحزحه عن مكانه . أو يغير رأيه . فنجحت به عبقريته من الانزلاق والهوى في مهاوى التقديرات الخاطئة .

البرنامج الرسمي لزيارة الملك عبد العزيز لمصر

أبحر اليخت الملكي (محروسة) في الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩٤٦ مقلاً بعثة الشرف الملكية يتقدمه الطراد فاروق ، وتتبعه الطوافة (فوزية) وقد وصل إلى جدة في الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ٥ يناير ١٩٤٦

وعند وصول اليخت إلى الميناء السعودي نزل منه حضرات رئيس وأعضاء بعثة الشرف وذهبوا إلى القصر الملكي السعودي حيث تشرّفوا بمقابلة حضرة صاحب الجلالة عاهل العرب العظيم الملك عبدالعزيز آل سعود وفي الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الاثنين ٦ يناير ركب جلالة ضيف مصر العظيم ومن معه اليخت الملكي الذي غادر المياه السعودية في الساعة الثالثة بعد الظهر في طريقه إلى مصر ووصل إلى المياه المصرية في ميناء السويس في الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ من صباح يوم الخميس ١٠ يناير

وعند ما بسا اليخت الملكي على رصيف الميناء صعد إليه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم لتيحة جلالة عاهل العرب العظيم وضيفه الكريم وتمنته بسلامة الوصول

وبعد استراحة قصيرة نزل الملك وكان في شرف الاستقبال على رصيف الميناء
حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الخارجية بالنيابة
وصاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا عضو يومئذ بثة الشرف الملكية ومحمود شاكر
باشا المدير العام لمصلحة السكة الحديد وصاحب العزة محمود غزالى بك مدير الامن العام
وبعض كبار رجال القصر الملكى

وركب الملك والحاشية الملكية السعودية وبعثة الشرف وهؤلاء المستقبلون
القطار الملكى الايض الذى وصل الى محطة القاهرة فى الساعة الثالثة بعد الظهر وكان
فى شرف الإستقبال فى محطة العاصمة حضرة صاحب السمو الملكى الأمير محمد على وحضرات
أصحاب السمو الأمراء وأصحاب المجد النبلاء وأصحاب المعالي الوزراء

وركب الملك من محطة العاصمة سيارة ملكية كبيرة كان فيها جلالة الضيف العظيم
الى عين جلالة المضيف الكريم الى قصر عابدين العامر فى موكب ملكى كبير
وكانت تتبعها سيارات ملكية تقل حضرات أصحاب السمو الملكى الامراء السعوديين
أنجال جلالة الملك ابن السعود ومع كل منهم فى سيارته أحد أصحاب السمو والمجد الأمراء
والنبلاء المصريين

وبعد استراحة ممتعة فى القصر الملكى العامر انتقل الملك فى موكب ملكى الى سراى
لزعفران - دار الضيافة -

وبعد استراحة قصيرة عاد جلالة الملك فاروق الى قصر عابدين العامر حيث
استقبل فى المساء جلالة الملك بن السعود ومن معه وقد حضروا مأدبة العشاء الكبرى
والحفلة الساهرة التى تبعتها

وفى يوم الجمعة ١١ يناير يؤدى الملك العتيان قريضة الجمعة فى الجامع الأزهر
الشرىف استمعاً لحديث دينى يلقيه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ
مصطفى عبدالرازق شيخ الجامع الأزهر وعادوا بعد ذلك الى قصر عابدين العامر للغداء

وفي المساء حضر الملكان مأدبة العشاء الفاخرة التي أقامها دولة رئيس الوزراء ووزير الخارجية بالنيابة في سراى وزارة الخارجية وفي يوم السبت ١٢ يناير زار الملكان جامعة فؤاد الاول وشاهدا المهرجان الرياضي ثم عادا الى قصر عابدين للغداء وفي المساء أدب جلالة الملك ابن السعود في سراى الزعفران مأدبة عشاء حضرها جلالة الملك فاروق

وبعد ظهر يوم الاحد ١٣ يناير شاهد الملكان حفلة سباق الخيل في نادى مصر الجديدة

وفي صباح يوم الاثنين ١٤ يناير شاهدوا العرض العسكرى فى الماظه وزارا بعد الظهر اهرام الجيزة وأبا الهول وشرابان الشاى فى الكشك الملكى هناك وفى يوم الثلاثاء ١٥ يناير زار الملكان قناطر محمد على تغديا هناك

وذهب جلالة الملك ابن السعود بعد الظهر الى دار البرلمان إذ شرف حملة الشاى التي أقامها حضرات الشيرخ والنواب المحترمين فى البهو الفرعونى وفى يوم الأربعاء ١٦ يناير زار جلالة الملك ابن السعود المتحف الزراعى وحدائق الحيوان ثم زار بعد الظهر اصلاحية الاحداث فى الجيزة

وتغدى جلالة الملك عبدالعزيز فى سراى المناستري بدعوة من الجامعة العربية وفى يوم الخميس ١٧ يناير سافر جلالتهم الى المحلة الكبرى فزار مصانع الغزل والنسيج وتغدى هناك وفى يوم الجمعة ١٨ يناير زار جلالتهم المزارع الملكية فى انشاص وفى صباح يوم السبت ١٩ يناير زار جلالتهم مستشفى فؤاد الاول وسافر بعد الظهر الى الاسكندرية وهناك نزل ضيفا فى قصر رأس التين العاشر وفى يوم الاحد ٢٠ يناير زار جلالتهم مستشفى فؤاد الاول وحضر مأدبة الغداء التي تأديها بلدية

الاسكندرية في حديقة النزهة ثم زار بعد الظهر معالم المدينة وفي صباح يوم الاثنين ٢١ يناير غادر الاسكندرية بالقطار الملكي ووصل الى القاهرة عند الظهر وتوجه رأساً الى قصر عابدين العامر إذ حضر مأدبة الغداء وفي يوم الثلاثاء ٢٢ يناير ثم غادر جلالته القاهرة بالقطار الملكي الى السويس في طريق العودة الميمونة الى جدة وكان في توديع جلالته في محطة العاصمة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق وحضرات أصحاب السمو والمحمد الأمراء والتبلاء ودولة رئيس الوزراء وأصحاب المعالي الوزراء



جلالة الملك عبدالعزيز مع أنجاله

اليوم الاول - يوم الخميس ١٠ يناير ١٩٤٦

في يوم الخميس ١٠ يناير غادر قطار الديزل الملكي محطة قصر القبة في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً، مقلاً صاحب الجلالة الملك الى السويس، فبلغها في رعاية الله في منتصف الساعة الحادية عشرة. وكان في معية جلالة الرئيس الديوان الملكي وكبير الياوران والياور المقيم. وكان في استقبال جلالة على رصيف اليخت الملكي « المحروسة » بميناء السويس حضرات : رئيس الوزراء ورئيس الديوان ووزر الخارجية وحافظ عفيفي باشا ومدير السكك الحديدية ومدير الامن العام ومدير الموانئ والجمارك وخفر السواحل والقائم بأعمال المفوضية العريضة السعودية وهو مظهر المفوضية ومحافظ السويس وحكمदार البوليس ورجال القصر الملكي وأعضاء الهيئات النيابية وحضرات القناصل ورؤساء المصالح والاعيان

وقد اصطف عند مرسى اليخت الملكي حرس شرف من الجيش بموسيقاه باشراف قائد حامية منطقة القنال وقد أدى حرس الشرف التحية حين وصول جلالة الملك الى مرسى اليخت وصدحت الموسيقى بالسلام الملكي

وحين رسا اليخت « المحروسة » صعد جلالة الملك اليه ورفع العلم الملكي على سارية اليخت وأطلقت الطراقة فاروق ٢١ مدفعاً وبعد أن عانق جلالة ضيفه العظيم مهنئاً جلالة بسلامة الوصول، قدم جلالة الملك آل السعود أصحاب السمو الملكي الأمراء وأعضاء حاشيته الى الفاروق . ثم قدم جلالة الملك الى ضيفه الكبير رئيس الوزراء ووزير الخارجية ورجال الحاشية وكبار الموظفين

وغادر صاحباً الجلالة الملك اليخت وقام بتحيةة جلالتهم حرس الشرف والقوات

المنشرة في اليخت الملكي « المحروسة » والطوافة الاميرة فوزية (يعيش جلالة الملك)
ثلاثا . وأدانت الطوافة الامير فاروق ٢١ مدفعا عند وصول جلالتيهما الى الرصيف ،
كما تطلق قاعة السويس ٢١ مدفعا . ويؤدي حرس الشرف التحية العسكرية وتعزف
الموسيقى السلام الملكي السعودي

وقد تفقد جلالة الملك آل السعود حرس الشرف ، ثم مرت الهيئات التي في
شرف الاستقبال على جلالتيهما

وسار صاحبا الجلالة المالكان وأصحاب السمو الملكي الامراء بين صفيين
من جنود الجيش شاهري السلاح تحية لجلالتيهما في طريقهما الى القطار الملكي
وبرح القطار الملكي السويس في الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر
أطلق سلاح المدفعية الملكي عند سفره ٢١ مدفعا ورافقه سرب من سلاح الطيران
المالكي ووقف خمس دقائق بمحطة الاسماعيلية ودقيقة في كل من محطتي الزقازيق وبها
وقدم اغداء في أثناء السفر .

ووصل القطار الملكي محطة القاهرة في الساعة الثالثة بعد الظهر واصطف
حرس شرف من الحرس المالكي لتأدية التحية وأطلق ٢١ مدفعا ايذانا بوصول
جلالتي المالكين وأدى الحرس التحية وعزفت موسيقاه السلام الملكي السعودي ،
وتفقد جلالة الملك آل السعود حرس الشرف

وكان في استقبال جلالته حضرات : الامير محمد علي والامراء والنبلاء
وشريف صبري باشا وحسين صبري باشا ويوسف ذو الفقار باشا ورئيسا الشيوخ
والنواب والوزراء وكبار رجال القصر ورئيس هيئة أركان الجيش ومحافظ القاهرة
وقائد حاميتها وقد قدمهم جلالة الملك الى حلالة ضيفه الكريم . وكذلك كبار أعضاء

الجلالية العربية السعودية واصطفقت قوات الجيش على جانبي الطريق من محطة القاهرة الى قصر عابدين العامر . وسار الراكب الملكي بكل كتيبة تعرف موسيقاها السلام الملكي السعودي وقد حلق فوق الراكب سرب من سلاح الطيران الملكي

واجتاز الموكب الملكي ميدان باب الحديد فشارع ابراهيم فيدان ابراهيم فيدان عابدين ثم قصر عابدين

ولما وصل صاحبها الجلالة الى قصر عابدين أدى التحية حرس شرف من الحرس الملكي وعزفت الموسيقى السلام الملكي السعودي

وبعد استراحة قصيرة وتناول القهوة والمرطبات ، صحب جلالة الفاروق ضيفه العظيم بالسيارة الى قصر الزعفران . ومر الراكب الملكي بميدان عابدين فشارع الملكة نازلي فشارع الخليفة المأمون الى قصر الزعفران واصطفقت الى جانبي الطريق قوات من جنود الجيش

وعند وصول جلالتيهما الى قصر الزعفران رفع العلم الملكي السعودي وأدى التحية حرس قصر الزعفران . ثم عاد جلالة الملك من الطريق التي تقدم ذكرها الى قصر عابدين العامر وأدبت في المساء مأدبة عشاء في القصر الملكي تبعتها حفلة ساهرة .

اليوم الثاني - يوم الجمعة ١١ يناير - صلاة الجمعة في الازهر ومأدبة الخارجية

وكان في استقبال الملكين العظميين الامير محمد عبد المنعم ودولة محمود فهمي

فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب وفضيلة الأستاذ شيخ جامع الأزهر والسيد تحسين العسكري والأزهريون .

وعند الساعة الحادية عشرة والدقيقة العاشرة أقبل موكب المليكين العظيمين فتعالت الهتافات المدوية في ساحة الأزهر . ولما وصل جلاتهما الى الجامع الأزهر تفضلا فصالحا كبار مستقبليهما وقصدا الى داخل جامع الأزهر .

الحديث الديني

ثم نهض فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر وجلس على كرسي مقابل للعاقلين وألقى حديثا دينيا كان قد ألقاه منذ ٥٠٠ سنة الامام جلال الدين السيوطي أمام قاضي القضاة وجمع من الأمراء والعلماء وموضوع الحديث وقوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا » ،

ثم قال فضيلة الاستاذ الأكبر شيخ جامع الأزهر : « منذ ٥٠٠ عام ألقى العلامة الشهير جلال الدين السيوطي أول درس بحضور قاضي القضاة والافاضل في عهده ، ثم قال : قد عثرت على موضوع هذا الدرس في دار الكتب الأزهرية في مجموعة من خط المؤلف . وقد ألقى درسه في يوم الثلاثاء ٩ ذي القعدة سنة ٨٦٧ هجرية وكان عمره ١٨ سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

« وهذا الدرس ألقاه السيوطي في مفتتح عهده بالتدريس وهو تفسير أول آية من سورة الفتح ، فرأيت من المناسبات لهذه الفرصة السعيدة التي جمعت بين ملكين عظيمين صاحبين من ملوك الاسلام في هذا المسجد ، أن أحيي أثرأ من آثار عالم أزهري جليل له في خدمة الاسلام والعلم أحسن الأثر ،

ثم قال : « ومن حسن الطالع أن هذا الدرس يتناول تفسير آية كريمة هي وعد الله نبيه عليه السلام فتحا مبينا ونصرا عزيزا .

وفي بعض الأحاديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أنزلت عليه هذه الآية :
قال : لقد أنزلت على آية هي أحب إلى من الدنيا وما فيها ،
وختم فضيلته الدرس بقوله : « وتوجه إلى الله جل جلاله أن يفتح للملكين العظميين
فتحاً مبيناً ليغفر الله لهما ما تقدم من ذنبهما وما تأخر ويهديهما صراطاً مستقيماً وينصرهما
نصراً عزيزاً » .

ثم تليت آي الذكر الحكيم من الشيخ عبدالفتاح الشعشاعي
ولما حان وقت الصلاة التي خطبة الجمعة فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى
عبد الرازق شيخ الازهر وموضوع الخطبة قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من
ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ودعا في الخطبة الثانية لجلالة الملك
ثم أم المصلين .

وبعد الصلاة صافح جلالة الملك عبد العزيز وجلالة الفاروق شيخ الازهر
ثم قدم إلى فضيلته ابراهيم فؤاد بك الهدية الملكية وهي شال من السكشمر الفاخر
فاستقبلها فضيلته داعياً لجلالة الملك .

وقد أقيمت مأدبة غداء ملكية دعى إليها الامراء النبلاء ورؤس الوزراء
وشيوخ الازهر ورؤس مجلس النواب وكبار رجال القصر الملكي .

وفي المساء كان موعد الحفلة الرسمية التي أقامتها وزارة الخارجية لعاهل
الجزيرة العربية ومضيفه جلالة الملك فاروق وقد شهدها ٢٠٠ مدعو في مقدمتهم أصحاب
السمو الامراء السعوديون ورؤس الوزراء ورفعة رئيس الديوان الملكي والوزراء وكبار
رجال القصر الملكي وممثلو الدول الشرقية والعربية وقد تصدروا مكان الاحتفال وجلس
إلى الموائد الاخرى كبار موظفي وزارة الخارجية وحاشية جلالة العاهل العربي
وبعد العشاء التي الاستاذ عباس محمود العقاد قصيدة فيحاء استقبلت استقبالا كريماً

ثم انتقل الملكان إلى قاعة كبيرة عرض فيها شريط سينائي لليخت « المحروسة » من يوم إبحاره من السويس إلى وصوله إلى جدة ثم عودته إلى السويس بجلالة الضيف العظيم . كما عرضت مناظر بعثة الشرف المصرية وتشرفها بمقابلة جلالة ابن السعود ومناظر استقباله في السويس والقاهرة .

يوم السبت ١٢ يناير - زيارة جامعة فؤاد الاول

أقيمت أقواس النصر في الطريق المؤدية إلى ساحة الجامعة وكان طلبة المدارس وجامعير من الالهين واقفين على جانبي الطرقت هاتفين مصفيين . وقيل موعد الاحتفال وصل ركب جلالة الملك المعظم بن الهنات والتحيات الطيبات ليكون في استقبال جلالة ضيفه المعظم . ولم يلبث ان وصل جلالة الملك عبدالعزيز وحاشيته فاستقبل أكرم استقبال ثم دخل الملكان وحاشيتهما إلى قاعة الاحتفالات الكبرى وكانت حافلة بكبار المدعوين من جميع الهيئات الرسمية . كما ان مدرجاتها كانت غاصة بالطلبة . وجلس على المنصة الوسطى أعضاء مجلس إدارة الجامعة ولقيف من الاساتذة . وما ان أعلن سعادة اسماعيل تيمور باشا دخول الملكين حتى دوت القاعة بالتصفيق المتواصل . والجميع وقوف تحية واجلالاً

وتقدم صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا بوصفه وزيراً للمعارف بالنيابة ورئيس الجامعة الاعلى فقربل بالتصفيق . والى خطبة الترحيب .

وبعد ذلك إلى الدكتور مصطفى مشرفة باشا مدير الجامعة بالنيابة كلمة

ولما انتهى الخطيبان انتقل الملكان المعظمان إلى بهو الاستراحة فقدمت لهما المرطبات ثم تقدم حضرات أساتذة الجامعة فصافحهم جلالة الملك عبدالعزيز جميعاً ورفع الدكتور مشرفة باشا إلى جلالته باسم الجامعة مجموعة من مطبوعاتها وقد جلدت تجليداً

نفيسا فتقبلها جلالته شاكرا

وتفضل الملكان فامضيا وثيقة أعدت خصيصا تخليدا لذكرى هذه الزيارة الميمونة
ودفع دولة رئيس الوزراء الى جلاستهما من اليتين ذكاريين لهذه المناسبة السعيدة
وهي من صنع مصانع توفيق بشاي مورد الحضرة العلية الملكية
وبدأ بعد ذلك عرض عام لتلاميذ المدارس الاميرية فطلبة كليات الجامعة والمعاهد
العليا . وقام طلبة المدارس الابتدائية بتمارين رياضية
ثم تلاهم طلبة كلية البوليس الملكية بعرض بالسلاح (نيش) كما قام منتخب من كليات
الجامعة والمعاهد العليا والمدارس الثانوية باستعراض على الاجهزة
وقام طلبة الكلية الحربية بتمارين بالسلاح « سورنكي » انشدوا في ختامها « حفظ
الله الملك » بين الحتاف والتصفيق . وجرى بعد ذلك عرض رياضي لفرقة الترية البدنية
بمعهد الترية للمعلمين ثم عرض لفرق الكشافة .

المهرجان العربي

أقام عبداللّه ملوم باشا وزعماء القبائل السعودية بعد الظهر مهرجانا عربيا في
الارض المجاورة لادارة القرعة بالعباسية حيث نصب سراق كبير أعد في صدره مقعد
فاخر لصاحب الجلالة السعودية رفع فوقه العلم السعودي والى جانبه علمان مصريان
وفي الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة وصل موكب جلالة الضيف الكريم يرافقه
سمو الامير محمد عبدالمنعم وبنوه الامراء السعوديون فحزفت الموسيقى البلدية السلام
الملكي ثم تفضل جلالته فتصدر المكان وجلس الى يمينه سمو الامير محمد عبدالمنعم والى
يساره دولة النقراشي باشا

وهنا أخذ فرسان العرب يلعبون على صهوات جيادهم العاب البرجاس بين نفحات
الطبل والمزمار . ثم رقص فريق من السودانيين رقصة « الدلوكة » السودانية ولعب فريق

من أفراد الصعيد لعبة العصا

في ضيافة الملك العربي

وأجاب دعوة الملك عبدالعزيز عدد يناهز الخمسمائة مدعو من الأمراء والوزراء ورجال السلك السياسي والسيوخ والنواب وأعيان الجاليات العربية في مصر وكبراء المصريين وقد جلسوا الى الموائد المنسقة أجمل تنسيق في سرادق كبير

وكانت المائدة الملكية في صدر السرادق . وعند الساعة التاسعة دخل المكان فجلسا اليها وجلس الي يمين جلالة العاهل العربي جلالة الملك فاروق فصاحب السمو الملكي الأمير محمد علي والي يسار جلالته سمو الأمير محمد عبد المنعم وسائر الأمراء

وبعد تناول الطعام انتقل الجميع وفي مقدمتهم صاحباً الجلالة الى سرادق مجاور قدمت فيه اقلام القهوة

وجاء دور الشعراء فأنشد كل من الاساتذة أحمد الغزاوي وفؤاد شاكر وحسين فهاقي قصيدة عامرة في الاشادة بمكانة العاهلين العظميين وما يعاقبه الشرق العربي عليهما من واسع الآمال

ولما نهض جلالة الفاروق للانصراف دعا الشعراء الثلاثة فصافحهم وأعرب لهم عن شكره السامي

ورافق جلالة الملك عبدالعزيز ضيفه الملكي الى خارج السرادق . وأخذ المدعوون ينصرفون شاكرين مالاقوا من حفاوة واکرام في ضيافة العاهل العربي الكريم

اليوم الرابع ، يوم الاحد ١٣ يناير - زيارة ميدان السباق

زار جلالة الملك عبدالعزيز نادى سباق الخيل في مصر الجديدة ، فأقامت ادارة النادي ، لهذه المناسبة ، الزينات ورفعت الاعلام السعودية والمصرية وأعدت ممرا خاصا

الى الكشك الملكي فرشت أرضه بالسطح الحمراء ووضعت على جانبيه ، كما وضعت حوالى الكشك اصص الزهور والرياحين وكذلك فرشت الطريق الموصلة من قصر الزعفران الى النادى بالرمال الاصفر ، ورفعت فيها الاعلام السعودية والمصرية على الجانبين . وأقام كثير من الاهلين فى منشية البكرى ومصر الجديدة أقواس النصر ترفرف عليها الاعلام . واصطف جنود البواليس على جانبي الطرق من القصر الى نادى السباق . واحتشدت الجموع فى الطريق لتحية الملكين

وفى الساعة الثانية والدقيقة الأربعين بعد الظهر غادر موكب جلالة الملك قصر القبة مجتازا ميدان القبة فشارع كوبرى القبة فشارع الخليفة المأمون ، فبلغ قصر الزعفران فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين . ثم رح موكب الملكين القصر ، فى الساعة الثانية والدقيقة الخمسين ، الى نادى السباق تتقدمه وتحيط به كتيبة من فرسان الحرس الملكى وفى الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة سمح الحاضرون فى نادى السباق ، هتافات مدوية بحياة الملكين العظيمين ، فكان ذاك ايذانا بوصول موكبهما وبعد أن عزفت موسيقى الحرس السلام السعودى ، اتجهت الابصار لليمين بطلعة الملكين العظيمين وارتفعت الهتافات بحياة اهل الجزيرة وحياة الفاروق . وكان قد مر ثلاثة اشواط . وبدأ الشوط الرابع . ثم الشوط الخامس وهو سباق لنيل كأس مبرة الاميرة فريال بمصر الجديدة وكان خاصا بالخيول الانجليزية وقد ربحته الفرس « تيريزا » لصاحبها الممرن موسى شاقول وقد تشرف بعد انتهاء السباق بتناول الكأس من يد صاحب الجلالة الملك فاروق :

وبعد أن شاهد المكان شوطين آخرين - وكانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر عادوا المكان بين مظاهر التعظيم والاحلال وعرف السلام الملكى السعودى .

وعاد الموكب من الطريق التى جاء منها فبلغ قصر الزعفران فى الساعة الخامسة والدقيقة العشرين

وبعد أن استراح جلالة الملك فترة من الوقت مع جلالة عناية الكريم عاد الى قصر القبة

اليوم الخامس يوم الاثنين ١٤ يناير - عرض الجيش المصرى

أعدت لهذا العرض ساحة خاصة أحيطت بأعمدة كثيرة رفعت عليها الاعلام السعودية
والمصرية وأقيمت فى صدرها مقصورة ملكية بديعة نصب على جانبيها مدفعان كبيران
من المدافع المضادة للطائرات كما أقيم على جانبيها سرادقان كبيران

وأنشئ بين هذه الساحة وبين سكة السويس طريق فى وسط الصحراء أقيمت على جانبيه
أعمدة رفعت عليها الاعلام وامتدت بين هذه الأعمدة عقود من الازهار والرياحين
وحوالى الساعة العاشرة أقبل صاحب الجلالة الملك فاروق وكان مرتديا ثوب القائد
الأعلى للجيش وفى يده عصا المرشاية وصدحت الموسيقى بالسلام الملكى المصرى وأطلق
٢١ مدفعا تحية لجلالته ثم رفع العلم المصرى

أقبل جلالة الملك عبد العزيز فصدحت الموسيقى بالسلام الملكى السعودى وأطلق ٢١
مدفعا ورفع العلم السعودى على ساريه أقيمت على الجانب الايمن للمقصورة الملكية
وعلى أثر ذلك استقل الملك سياره ملكية مكشوفة يتحقق عليها العلمان السعودى
والمصرى وقد ركب أمامهما سعادة ابراهيم عطا الله باشا فمرا بين صفوف الوحدات
وقتها

وبعد عودة جلالتهما شاهدا أحد المدفعين اللذين تقدم ذكرهما وهما من أحدث
المدافع المضادة للطائرات نال شرحه فى حيز مرتيها وطريقة استعماله الملازم الأول حاضى
عفيفى

ثم استأذن سعادة الفريق ابراهيم عطا الله باشا فى عرض قراد الجيش ولما أذن
جلالة الملك بدأ العرض العسكرى فمرت الوحدات أمام جلالتهما على التوالى : قوات
قسم القاهرة فسلح الفرسان الملكى فالأول الحبال فالسيارات الخفيفة ففلاء الحدود
فوتوسكالات الوحدات فلموسقيات فرئاسة الفرقة المشاة فالكلية فقوات اللواء الأول

المشاة فالكتيبة الاولى مدافع الماكينة المشاة فالكتيبة الثانية فكتيبة الخدمات العامة فالكتيبة الثامنة المشاة فسرية الصيانة المشاة فسرية المهمات المشاة فقوات اللواء الرابع فالكتيبة الثانية المشاة فالكتيبة الاولى فقوة المدفعية الملكية ففعية الفرقة البطارية الاولى المتوسطة فالاولى الاول الميدان فالاولى الخفيف فالاولى المضاد للدبابات فاللواء الاول المضاد للطائرات فالاولى اشارة الفرقة فمهندس الفرقة المشاة فمستشفى الميدان اول فرشة صيانة اللواء فالمجموعة الثانية للنقل فالبوليس الحربي فالخدمات الطبية فالتسليح البيطري .

وكان المذيع كلما مرت وحدة أو كتيبة التي كلمة موجزة عنها وعن تاريخهم والمعارك وحادثه ووقف المذبح ثم وقف المدعوون تحية لهذه الاعلام .

ولما انتهى العرض أبدى جلالة الملك عبد العزيز اعجابه لجلالة الملك بنظام الجند وحسن تدبيرهم وتمنى للجيش المصرى المجد والعظمة كما تفضل جلالة الملك فأبدى لمعالى الاستاذ سيد سليم وزير الدفاع رضاه السامى .

ثم غادر المللكان المكان بين مظاهر التحية والاحلال وبعد ذلك اتى الفريق ابراهيم عطا الله باشا بالميكروفون على الجنود كلمة أبلغهم فيها شكر جلالة الملك ورضاه السامى عن هذا العرض العظيم وهذا هو نص الشكر

شكر ملكى

للجيش

بأمر حضرة صاحب الحلالة الملك المعظم قائد الجيش الاعلى أنه بمناسبة العرض المسكرى الذى أقيم بالمأظنة يوم الاثنين العاشر من صفر سنة ١٣٦٥ (الموافق ١٤ من يناير سنة ١٩٤٦) احتفاءً بزيارة ضيف مصر العظيم حضرة صاحب الحلالة الملك عهد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية - قد تفضل

مولانا حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله فأظهر رضاه السامى وارتياحه العظيم لذلك المظهر المشرف الذى بدا به الجيش ضباطا وجنوداً أثناء العرض مما أعاد الى الاذهان مامضى من مجد معمر العسكرى وبشر بنعمة تعيد لذلك البلد العزيز مكانته الاولى بين الدول وأن نشاط وحدات الجيش وحسن تعبئتها وروسة نظامها وبراعة قيادتها قد حظيت جميعا من جلالة القائد الاعلى بحسن التقدير وعظيم الاعجاب .

الملك عبد العزيز فى السفارة البريطانية

وحضر جلالة الملك عبد العزيز ظهر أمس مأدبة الغذاء التى أقامها سعادة اللورد كيلرن السفير البريطانى بدارالسفاره وقد دعى اليها حضرات : سمو الامير سيف الاسلام عبد الله سمو الامير عبد آل عبد الرحمن ودولة النقراشى باشا والشيخ عبد الله السليمان والشيخ يوسف ياسين والسيد محمد راغب وعبد الرحمن عزام باشا ومرشال الطيران أوالسير تشارلز مدهرست والاميرال السير ويليم تنانت والسير والتر سمارت والير ارنولد أوفرتون والشيخ فوزان السابق والجنرال الفراى وحسن يوسف بك والسيد خير الدين الزركلى والبريداجير كلايتون والمستر هماتون والمستر دومفيل

المكان فى منطقة أهرام الجيزة

وزار صاحبها جلالة الملك اهرام الجيزة . وكان سكان هذه المنطقة قد أقاموا الزينات الرائعة على دورهم ومتاجرهم ورفعوا عليها الزينات السعودية والمصرية كما أقاموا عدة أفواس نصر بدیعة على طول الطريق كان مما لفت الانظار فيها قوس أقيمت عند كورى الاعمى على شكل الاهرام ونقشت عليها الآية السكریمة « أدخلوها بسلام آمین » وكذلك اصطفقت الطريق تلاميذ مدارس القرى القائمة فى هذه المنطقة ووقف جنود القوات المحالقة على جانبي شارع الهرم وقام بعض العربان بألعاب

الفروسية على خيولهم.

وقبيل الساعة الرابعة قدم أصحاب السمو الامراء السعوديون ثم صاحب السمو محمد عبد المنعم فسعادة عزام باشا وبعض كبار رجال القصر الملكي ثم أقبل صاحب الجلالة الملك ، وأقبل بعده جلالة الملك عبد العزيز . حتى اذا استراحا قليلا في الكشك الملكي وتناول الشاي ومعهما الامراء ؛ استقلا سيارة من سيارات الصحراء وطافا بمنطقة الاهرام وحول أبي الهول .

ثم غادر الامراء السعوديون الكشك الملكي وطافوا مترجلين حول الحرم الاكبر وكان بعض مرثاني مصلحة الآثار يشرحون ما يطلب الامراء شرحه .

اليوم السادس . يوم الثلاثاء ١٥ يناير - زيارة القناطر والبرلمان

زار صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن السعود وأصحاب السمو الامراء ورجال الحاشية القناطر الخيرية في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحا استقل اليخت الملكي قاصدا خير من مرسى امبابة وقد اعطف الاله الى على طول الطريق من امبابة حتى القناطر الخيرية وحيوا الملك بهتافات عالية وتناول جلالة طمام الداء في القناطر الخيرية ثم زار قناطر محمد علي وبعد انهاء هذه الزيارة عاد جلالاته بالسيارة الى القاهرة بالطريق الزاهي وقد استقبل على طول الطريق ولاسيما في شارع شبرا الكبير استقبالا حماسيا منقطع النظير وفي الساعة الرابعة مساء كان في استقبال جلالاته سعادتا رئيسي الشيوخ والنواب وأعضاء مكنتي المجلسين وبعد أن تناول جلالاته الشاي في البهر الفرعوني أتى محمد حسين هيكل بانسا كلمة جاء فيها ما يلي

لاغرو أن تذبذب قلوبنا وتمتزجواشنا بهذا الشعور الفياض اكبارا وابلا لا
لنصف مصر العظيم وضيء مليكها المحبوب ، وان هذا الشعور لنمليه عاطفة صادقة وتقدير
سام لبيدنا لسمك وعظيم حكمتكم ؛ ويلمه كذللك عرفان بالجميل لفضلكم وكرمكم وكرامكم .

فقد يسر الله لكثيرين من أعضاء برلماننا أن يؤدوا فرض الله بحج بيته وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكان لهم من جميل رعايتكم ، باكرام وفادتهم وبما أحاطتهم به حكومتكم من أسباب العناية والطمأنينة والأمن ؛ ما ألهم ألسنتهم بذكركم ثناء عليكم ، ثم انهم رأوا في أرجاء الحجاز كله من مظاهر التقدم والعمران ما جعلهم يحمدون لله ما أفاء على بيته المحرم وعلى الارض الاسلامية المقدسة من فضل ، بسامى حكمتكم وحسن توجيهكم . أما ولكم هذا الدين في أعنائنا واعناق المسلمين جميعا ، فلن يؤدي ما تفيض به قلوبنا حفاوة بكم واجلالا لكم ؛ الا بعض حقهكم على كل مسلم أينما وجد من بقاع الارض .

يا صاحب الجلالة ان زيارتكم المباركة لبلادنا لفاتحة خير تستبشر بها الامم العربية جميعا . وانا نرفع الى مقامكم ومقام مليكنا المحبوب أصدق آيات الشكر لهذه الزيارة الميمونة التي زادت روابط المودة والمحبة بين مصر والمملكة العربية السعودية توفيقا ومتانة . مد الله في عمركم ؛ وزادكم من فضله ، ووفقنا جميعا لخدمة العرب والعروبة ، ولخدمة الاسلام والمسلمين ، لنتمنح دولنا بواجبها المقدس في اقامة حضارة جديدة تقوم دعائمها على قواعد ثابتة من الايمان والعلم ومن المحبة والعدل . ثم نادى :

ليحي جلاله الملك عبدالعزيز وليحي جلاله الملك فاروق

وقد زار جلالته دار الاصلاحية في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخمسين فاستقبله حضرات عبد المجيد بدر باشا وزير الشؤون الاجتماعية و ابراهيم عبد الهادي باشا وزير العدل (١) والنيابة والفريق محمد حيدر باشا وكيل الوزارة ، ووزير العراق ورئيس أركان حرب الجيش وأتى سعادة الفريق حيدر باشا بين يدي جلالته كلمة ترحيب . ثم قام احداث الاصلاحية . بالعباب سويدية مختلفة على نغمات الموسيقى . وعرضوا بعد ذلك تمثيلية شعرية موضوعها « الوحدة العربية » ، وتفضل جلاله الضيف ؛ بعد ذلك ، فافتتح معرض منتجات الاصلاحية ، وطاف باقسامه وشاهد محتوياته

(١) كانا في الوزارة النقر اشية التي استقالت بعدئذ

في قصر جامعه الدول العربية

وكان قد اجتمع في قصر المناسرتلى - مقر جامعه الدول العربية - صاحب السمو الملكى الامير محمد على وسمو الامير سيف الاسلام عبدالله ودولة رئيس الوزراء وأصحاب المعالى الوزراء ورجال السلك السياسى وكبار موظفى القصر الملكى وكبار أبناء البلاد العربية وقبل ان يصل جلالة الملك الضيف بنحو ثلاث دقائق ، أقبل موكب جلالة الملك فاروق فنصف لاستقباله كبار الحاضرين ثم وصل موكب جلالة الملك عبدالعزيز فقبله جلالة الملك فاروق عند باب القصر وتعانقا وقبل كل منهما الآخر . ثم سارا الى داخل القصر وتبعهما الامراء والكبراء .

نظقان كريمان - وقبل تناول الطعام ألقى سعادة عبدالرحمن عزام باشا أمين الجامعة بين يدى الملكين كلمة ترحيب باسم الجامعة العربية ثم ألقى دولة النقراشى باشا تصريحاً مشتركاً لصاحبى الجلالة الملكين عن تأييدهما للعروبة وقد قوبل بالتمتعين الشديد ونشرناه بعد فى القاعة الكبرى - وكانت الموائد : وعددها سبع : قد نسقت فى القاعة الكبرى ونسيما جميلا وقد تصدر كل مائدة منها ممثل لاحدى الدول العربية السبع ، وذلك على الترتيب الابجدي الآتى :

موريا : وقد مثله السيد جميل مردم بك . شرق الاردن : فوزى الملقى بك . العراق : السيد تحسين السكرى . لبنان : الشيخ سامى الخورى . مصر : دولة النقراشى باشا . اليمن : السيد محمد راغب بك . اما فلسطين فقد مثله السيد جمال الحسينى وعونى عبدالهادى بك

وبعد تناول الطعام ، انتقل الملك والامراء الى شرفة القصر المطلة على النيل ، وهناك تناولوا القهوة

واذ حان موعد صلاة العصر ، وقف جلالة الملك عبد العزيز وأذن للصلاة فلما قصيت انتقل الملكان وكبار الحاضرين إلى ساحة القصر ، حيث شاهدوا فرسان العرب وهم يقومون على صهوات جيادهم بالعباب البرجاس بين دق الطبول ونفثات المزمار وعلى أثر ذلك غادر الملكان العتيان القصر بين مظاهر الاكرام والاحلال في المفوضية العربية السعودية - وقدزار جلالة الملك عبدالعزيز والأمراء السعوديون دار المفوضية العربية السعودية وشربوا القهوة ثم استأنف الموكب سيره الى الزعفران اعتذار السفير البريطاني - وكتب سعادة اللورد كيلرن السفير البريطاني الى سعادة عبدالرحمن عزام باشا مبديا له شديد أسفه على عدم استطاعته حضور المأدبة لأنه كان مرتبطا بحضوره حفلة كاية البنات الانجليزية في الاسكندرية ؛ وقد أتمى الدعوة إلى المأدبة متأخرة ، فلم يكن في الوقت متسع لتعديل موعد الحفلة وقد حضر هذه المأدبة السير والتر سمارت المستشار الشرقي في السفارة بالنيابة عن سعادة السفير

كلمة عزام باشا - وقد ألقى سعادة عبدالرحمن عزام باشا أمين سر الجامعة الكلمة الآتية : يشرف الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ان تستقبل في دارها الجديدة ملكين عربيين عظيمين لهما الفضل الكبير في إقامة هذه الجامعة فتفتتح على بركة الله وبمقدمهما السعيد هذه الدار للجامعة

ان رعاية جلالتهما ورعاية سائر ملوك العرب وأمرائهم وزرؤسائهم لهذه الجامعة قبل وضع الميثاق وبعده ؛ كان لها أعظم الأثر في نجاحها . وأن العرب ليتلقون عملكم بالشكر والدعاء واثقين بدوام هذه الرعاية

يا صاحي الجلالة : إن من الفأل الحسن والبشرى السعيدة أن يكون احتفاء الجامعة بكما في هذا المكان التاريخي

فهنا بجانب هذه الدار مقياس النيل وهم من أقدم آثار العرب في هذه البلاد إذ يرجع تاريخه إلى القرن الثاني الهجري . وقد بقي هذا المقياس دليلا على عدلهم وحرصهم على أن تقوم أمور الدولة على شريعة يينة وهيزان مستقيم . فاعترف لهم المؤرخون بأنهم كانوا من أسبق الأمم إلى تحكيم القانون وتقديس الشرائع والعدل .
وهنا جزيرة الروضة التي عني بها كثير من سلاطين مصر وشادوا فيها القصور والمساجد ففيها ذكريات تاريخية كثيرة

وعلى مرأى من دار الجامعة نحو الشرق مدينة القسطنطينية أول حاضرة للعرب في مصر ، وفيها جامع الفتوح ، الجامع العتيق الذي بناه عمرو بن العاص فبقي عصورا كثيرة معبدا من معاهد العرب العلمية ، وهو حتى اليوم مسجد معمور بالشعائر الإسلامية
وعلى مرأى منا إلى الغرب جزيرة القسطنطينية وهي من الذكريات الأولى للعرب في هذه الديار

وما هذه الآثار حولنا الا حلقات من سلسلة الآثار العربية العظيمة التي لاتزال تزددان بها حواضر العرب في العراق والشام ولبنان والجزيرة العربية كلها ومصر والمغرب والاندلس وكلها ذكريات تحدث بفضل العرب القدماء وتحفز العرب في هذا العصر إلى المعالي والتموض بالرسالة الانسانية الكريمة التي تاققتها هذه الأمة عن رسلها وحفظها على مر العصور بإصاحبي الحضارة : سبقي ذكرى هذا الاجتماع حاملة في نفوس العرب مؤثرة في تاريخهم ويبقى شارع الملك عبدالعزيز آل سعود في هذه الجزيرة يحمل اسمه الكريم مذكرا بزيارته المباركة للجامعة العربية ، تلك الزيارة التي جاءت إثر زيارة ملك مصر العظيم للبلاد العربية السعودية والتي سن بها جلالة الفاروق سنة حسنة تتوالى بها ان شاء الله زيارات ملوك العرب وأموالهم ورؤسائهم لبعضهم ولدار الجامعة .

ان للعرب مقاصد جليلة كريمة يريدونها لخيرهم وخير الناس جميعا . يريدون الحرير والسلام والتعاون حتى يدركوا الغاية العظيمة التي تليق بهم

وان زعامتهما وكنما لهما لمن أقوى الأسباب إلى النجاح وادراك الغاية . رعاكما
الله ذخرا للامة العربية ووفقكما وسائر ملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم لما فيه مجد
العرب وسعادتهم

اليوم السابع ، يوم الاربعاء ١٦ يناير : زيارة المتحف الزراعى
وحداق الحيوان واصلاحية الاحداث ومقر جامعة الدول العربية

غادر صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، قصر الزعفران ، فى منتصف
الساعة العاشرة صباحا يرافقه الامير محمد عبد المنعم الامراء السعوديون الى متحف فؤاد
الاول الزراعى . وكان سكان هذه المنطقة قد رفعوا الاعلام السعودية والمصرية فوق
دورهم ومتاجرهم وكان فى استقباله حضرات : أحمد عبدالغفار باشا وزير الزراعة وحسين
عنان باشا وكيل الوزارة ثم وزيرها فطاف بمنى المملكة النباتية . ثم الى غرفة القمح والشعير
ويرجع عهدا الى أكثر من خمسة آلاف سنة ، ولا تزال سليمة من السوس
والعطب . وكذلك زار غرفة صناعة التمح . وكان بين محتوياتها نماذج من خبز قدماء
المصريين ، صنعت سنة ١٣٠٠ قبل الهجرة . وشاهد جلالة بعد ذلك هو الادوات
الزراعية ونماذج من مختلف نباتات جزيرة العرب الصحراوية . ومنى المملكة الحيوانية ؛
وهو الطيور والحيوان البرى وهو الاحياء المائية وما استرعى انظار جلالة حجرة تمثل
قاع البحر الاحمر ؛ وقد ظهرت فيها أنواع مختلفة من الأسماك ونزل جلالة بعد ذلك الى
الدور الاول حيث جلس على مقعد ملكى كبير وعرضت أمامه خريطة بارزة بالالوان
الكهربائية توضح مقادير الحاصلات الرئيسية فى المملكة المصرية ومدى تقدمها كل خمس
سنوات ثم زار قاعة « حياة الفلاح » وهى تضم نماذج تمثل الفلاح المصرى فى جلسات
طبيعية وفى مناسبات مختلفة كجلوسه فى المقهى ومقابلته للعمدة وانصرافه الى حقله وعل
أثر هذا شرف جلالة الزائر العظيم والامراء استراحة المتحف وتناولوا القهوة والمرطبات

وهنا قدم معالي أحمد عبدالغفار باشا وزير الزراعة إلى جلالاته أنواعا مختلفة من منتجات قسم البساتين والألبان والدواجن ؛ وتقرير البعثة المصرية لمقاومة الجراد في سنة ١٩٤٥ وطاف جلالاته ارجاء حديقة الحيوان فشاهد أهم أنواع الحيوان والطيور وكان الدكتور قدرى بك يذكر جلالاته بيانات عن كل منها وبعد ان تم هذا الطواف استراح الضيف الكريم في المقصورة الملكية حيث تناول المرطبات والحلوى وقدم معالي وزير الزراعة إلى جلالاته سبعة أقفاص تحتوي على مجموعات مختلفة من الطيور المغردة فطلب ابقاءها في الحديقة حتى موعد مغادرته مصر

اليوم الثامن في يوم الخميس ١٧ يناير - زيارة مصانع المحلة ومزارع انشاص

زار صاحب الجلالة الملك عبد العزيز مصانع شركة مصر للغزل والنسيج في المحلة الكبرى فبرح ركبته قصر الزعفران قبيل الساعة التاسعة صباحا إلى محطة القاهرة حيث استقل قطارا خاصا وفي معيته أصحاب السمو الأمير محمد عبدالمنعم والأمراء السعوديون وحضرات حافظ عفيفي باشا واسماعيل تيمور باشا ورجال الحاشية وقد بلغ القطار المحلة الكبرى في الساعة العاشرة والنصف . وكانت المدينة قد لبست

حلة جميلة من الزينات وأقيم في المحطة سرادق كبير اجتمع فيه المستقبلون

ولما نزل الضيف العظيم من القطار عزفت الموسيقى النشيد الملكي السعودي وصافح جلالاته كبار المستقبليين ثم استقبل ومن معه السيارات الى مقر الشركة وبعد ان استراح جلالاته قليلا وتناول القهوة والمرطبات طاف بمختلف أقسام المصانع معجبا بما شاهده وعلى أثر ذلك أمضى جانبا من الوقت في الاستراحة ثم تناول طعام الغداء ومعه كبار الحاضرين على مائدة أقامتها الشركة وفي الساعة الثالثة بعد الظهر غادر مدينة المحلة عائدا بالقطار الخاص إلى القاهرة هذا وقد وتشرف بمقابلة جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود في

قصر الزعفران ، صاحب النقام الرفيع على ماهر باشا كذلك تشرفت بمقابلة جلالة
سعادة السيد حسن حسني عبد الوهاب باشا ووفد من أعضاء رابطة الحجاج الجامعيين
وقدموا إلى جلالاته مصحفًا مجلدًا تجليدًا فاخرًا ، تذكارًا لزيارة الملكية الكريمة واعترافًا
بعطف جلالاته وحكومته على الحجاج الجامعيين . وفي الساعة الثامنة تشرفت بمقابلة
الملكية في قصر الزعفران وفد من مشايخ العرب من عمد وأعيان قبائل الجوازى والفوايد
والرماح والفرحان . وبما قاله جلالاته أن جامعة الدول العربية ليست بذات اليوم قد
فكرنا فيها منذ زمن وكان يعرف ذلك أخي الزحوم حمد الباسل ، كما يعرفه البشير السعداوى .

وخرج أعضاء الوفد شاكرين الملك عبد العزيز ما شمله به من عطف ورعاية
وفد لهانى - ثم تشرفت بمقابلة جلالاته وفد من الجالية اللبنانية على رأسه الشيخ
سامي الخورى وزير لبنان المفوض ورؤساء الدين من جميع الطوائف . وكان سعادة
الوزير يقدمهم إلى جلالاته

وفد تبسط جلالاته الملك في الحديث مع أعضاء الوفد واعرب عما يكفه من العطف
على لبنان واهتمامه وأسدى النصيح إلى أهليه بالاتحاد والتضامن وعدم الانقسام إلى
عناصر التفرقة . وتناول حديث جلالاته فذهبت العربية فأبدى اهتمامه بقضيتها
وقد خرج الوفد ، والسنة أعضائه تلجج بالشكر والثناء .

تصريح ملكي مشترك لصاحبى الجلالة الملك آل سعود والملك فاروق

أذاعت رئاسة مجلس الوزراء مساء يوم الأربعاء ١٦ يناير ١٩٤٦ البيان الملكى السامى
الذى أمر صاحبا الجلالة والملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق الأول ، بإصداره
وتشرف بالقائه محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء عقب مأدبة الغداء التى
أقامتها أمانة جامعة الدول العربية أمس فى قصر الماسترى وهذا نص البيان الملكى الكريم :
« أن من دواعى سرورنا العظيم أن يكون اجتماعنا فى هذا المكان التاريخى . فى

الدار الجديدة لجامعة الدول العربية ، تلك الجامعة التي كان من حظنا وحظ اخواننا ملوك العرب وأمراءهم ورؤسائهم أن يضعوا أسسها وأن يرعوها ؛ فيقيموها على دعائم من التعاون والتكافل لخير العرب وخير البشر كافة . ويستجيئوا بذلك لرغبات الشعوب العربية وآمالها .

« نحن نرغب أن تضرب جامعتنا دائماً للناس جميعاً المثل في تعاون صادق بين جماعة ن الدول متضافرة على سلامتها المشتركة ومكافحة في صيانة حريتها واستقلالها . ونحن واثقون أن جامعتنا وهي تؤدي هذه الرسالة بين العرب لا تريد علواً واستكباراً على أمة أخرى بل نرى أن من أسعى مقاصدنا ومقاصدها التعاون مع أمم الأرض كلها على البر والحق والعدل والسلم الدائم

« ونحن كذلك نثق بأن جامعتنا التي تربأ بنفسها عن كل تفكير في العدوان على غيرها تحرص كل الحرص على أن تدافع عن الحق والعدل والحرية

« ولم يكن المجهود العظيم الذي يبذله ملوك العرب وأمراءهم ورؤسائهم وحكوماتهم وشعوبهم لتعرة عرب فلسطين إلا تحقيقاً لمبادئ الحق والعدل

« ونحن نشترك المسلمين والعرب جميعاً في إيمانهم بأن فلسطين بلاد عربية وأن من حق أهلها وحق المسلمين والعرب معهم أن تبقى عربية كما كانت دائماً

« وأما لنقدر كل التقدير ما يرمى إليه ميثاق الجامعة العربية من أن يكون لكل قطر عربي حقه الواضح في تقرير مصيره والتمتع بحريته الكاملة

« ويسعدنا أن تسير الأقطار العربية بخطى ثابتة نحو الوحدة وتضع من النظم ما يزيد في التقارب بينها وإحكام صلاتها ويؤدي إلى تبادل المنافع والخيرات لتسعد جميع طبقات

الامة العربية بعيش أرغد وتنعم بالثمرات الكثيرة التي وهبها الله سبحانه أرضهم وبلادهم . ونحن واثقون كل الثقة أن الشعوب العربية التي تتمثل آمالها في جامعة الدول

العربية لا تريد الا السلم والحق والاخاء العام وانها ستهتدي بسيرة أسلافها فتحقق المثل

العليا التي يوحيا اليها تاريخ العرب ونهضتهم العظيمة ودعوتهم للمساواة العامة بين الشعوب والطوائف والأفراد فتعاون جامعتنا مع المؤسسات الدولية التي تقيمها الأمم المتحدة لتحقيق حرية البشر والعدل والاخاء فتكفل للحضارة الانسانية سيرا موفقا في ظلال سلم دائم.

سليم
الملك

يوم الجمعة ١٨ يناير - في ضيافة الفاروق في المزارع الملكية باناشاص

وفي الساعة العاشرة صباحا تحرك ركب جلالة الملك عبد العزيز من قصر الزعفران بالسيارات وبرفقة جلالته صاحب السمو الأمير محمد عبد المنعم وحضرات أصحاب السمو الملكي أمراء آل سعود ورجال الحاشية الملكية الى انشاص فوصلوا في الساعة الحادية عشرة إلى قصر الزهره باناشاص حيث استقبل جلالة الملك المعظم جلالة ضيفه الكريم

ولما كان الظهر صلى الملكان فريضة الجمعة في مسجد الخاصة واستأنفا الزيارة بعد الصلاة فزارا المتحف الزراعي ومررعة الدواجن والحدائق وشاهدوا وسائل الري في حدائق الحبل ثم قطعان الهجن والحيل والازلان والنعاج

وتعدى الملكان في الخيم - الذي أعد لذلك خصيصا بين المزارع

وكانت الحفاوة بجلالته باناشاص لا تقبل في بهاها وروعها عن يوم استقبال جلالة الملك الضيف عند قدومه وقد أقيمت سبعة سرادقات في طريق جلالته الاول عند مدخل حدود المديرية أمام عزة بهاها حيث أقيمت بوابة كبيرة وقوسا نصر عظيمتان وزينت الطريق على الجانبين بالزينات الجميلة والاعلام السعودية والمصرية وتدلّت جبال الزهور بينها واحتشد في شرف الاستقبال ألوف مؤلفة من حضرات شيوخ المديرية ونوابها وكبار الموظفين والاعيان يتقدمهم أحمد راغب ذكروري بك مدير الشرقية وصاحب العزة مصطفى نبيل هلالى بك وكيل المديرية وتوفيق كامل بك الحسكدار والاستاذ زكى

الحين مأمور بلبس واصطففت فرق الموسيقى ورجال الطرق وجميع أهالى هذه البلاد على الحانين يحيون ويهتفون بحياة الملكين العظيمين وعند مدخل المزارع الملكية أقيمت مسلتان فرعونيتان كبيرتان واتصلت الزينات فى شكل خلاب حتى انشاص وهتافات الجماهير تشق أجواز الفضاء وتحيات المستقبليين تتجاوب فى كل مكان وذهب موظفو المديرية ورؤساء المصالح وأعضاء نادى الموظفين فى رتل من السيارات من الزقازيق إلى انشاص واستقبل الركب الملكى بأجلى مظاهر الحفاوة والتكريم

أفراح العرب

وأقامت أسرة الطحاوية بالشرقية وأسرة الخويطات بأذن خاص من القصر الملكى سرادقا فخما فى داخل حدود الخاصة الملكية زين بأجلى الزينات وعلمت فى صدر السراى صورتان عظيمتان الملكين الجليلين واجتمع هناك أعيان القبيلتين بخيلهم وابلهم ورجالهم ومهرجاناتهم المتعددة فى مباراة للصيد ومعهم الصقور وكلاب الصيد وقد لبى الملكان دعوتهم للزيارة بعد النداء وقد عين لها نصف ساعة فاجروا تمرينات للصيد ولعبوا ألعاب الفروسية على ظهور الجياد والهجن وكانت أفراحهم ورحيباتهم تفوق الوصف فى ألعاب الفروسية واستمرت هذه الوفود فى أماكنها امام كل بلد لتحية الملكين فى العودة

وبعد هذه الحفلة العربية غادر الركب الملكى السراى لزيارة الحدائق الملكية فحطات الرى ثم شرب الملكان الشاي فى الدعمية الملكية بترعة الاسماعيلية وبعد ذلك عادا بموكبهما الملكى بالسيارة إلى القاهرة فى رعاية الله

اليوم العاشر: السبت ١٩ يناير ١٩٤٦ فى الاسكندرية

فى مستشفى فزاد الأول - كان الصباح موعد زيارة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز

آل سعود مستشفى فؤاد الأول ، غير انه طرا في اللحظة الأخيرة مادعا جلالاته إلى أن ينسحب عنه سمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن شقيقه فبارح ركب سموه قصر الزعفران إلى المستشفى في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين يرافقه الأمراء السعوديون يحف بهم من قدمنا ذكرهم من الكبراء إلى الأفرين الذي وقف عنده القطار الملكي بين هتافات جموع المسافرين بحياة جلالاته وحياة المملكة السعودية ، هذا وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين ، بارح القطار المحطة في رعاية الله وحراسته قاصدا إلى الاسكندرية

نشرت مدينة الاسكندرية منذ الصباح أعلامها احتفالا باستقبال جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وأنجاله الكرام وكانت البلدية بعد قد رفمت الرايات المصرية والسعودية على أعمدة عالية أقيمت على جوانب الشوارع التي يمر بها الموكب الملكي ومدت بين هذه الأعمدة سلاسل مجذولة من ورق النباتات الاخضر ، كما مدت في بعض الشوارع المركزية طولا وعرضا فكان نظام الزينة على هذا الوجه من الطراز الأول وقد وقف حوالى ١٨٠٠ من جنود البوليس لحفظ النظام وخاصة في دار محطة السكة الحديدية وعلى جانبي طريق الموكب الملكي وفي منطقة معهد الاحياء المائية . ومنع مرور السيارات والمركبات في طريق الموكب منذ الساعة التاسعة صباحا ثم منع سير الترام على الخطوط الممتدة فيه وأقبلت أفواج تلاميذ المدارس إلى منطقة المحطة للاشتراك في الترحيب بالضيف العظيم . وقام فريق كبير من طلبة الجامعة بظاهرة هاتفة وقف موكبها على جانبي شارع النبي دانيال من ناحية المحطة ، وتلاه جماعات من طلبة المدارس على اختلاف أنواعها كانت تهتف للمليكين المعظمين فاروق وعبد العزيز وللمصر ولجامعة الدول العربية . وأخذت الجماهير وفرق الكشفة منذ الساعة الحادية عشرة تجتمع على جانبي طريق الموكب بين المحطة والقصر فلم تأت الساعة الأولى بعد الظهر حتى اكتظت الشوارع والميادين بالجموع المحتشدة اكتظاظا لم تر له المدينة مثيلا منذ سنين

وقد ازدادت محطة الاسكندرية بالرايات السعودية والمصرية وصدف الشجر

والنبات الاخضر وفرشت الابسطة الحمراء على أرض الرصيف وما قبله من الفناء
الداخلي والباب الملكي وأقفلت جميع أبواب المحطة ما عدا المدخل الكبير ووقف
فريق من الحرس الملكي على جانبي الرصيف الذي يقف أمامه القطار الملكي
القادم الى القاهرة

واصطف أمام موقف القطار فصيلة الجيش المصري بقيادة اللواء عبد العظيم
ابراهيم باشا تتقدمها الموسيقى

قرب الساعة الاولى أى قبل الموعد المحدد لوصول القطار نحو نصف ساعة
وكانوا نحواً من ٣٥٠ من السكبراء والعظماء والاعيان يتقدمهم سمو الامير
سعيد طوسون

وكانت الجماهير خارج دار المحطة مزدحمة على أكمة كورم الدكة المشرقة على
تلك الدار وأجزاء الطرق المؤدية اليها

وفي الساعة الثانية الا عشرة وصل القطار الى المحطة مقلدا العاهل العربي
يرافقه سمو الامير محمد عبد المنعم ودولة رئيس الوزراء والامراء السعوديين وغيرهم
من السكبراء ورجال الحاشية

فلما نزل جلالته تقدم كبار المستقبلين وحياء سعادة جده الخالق حسونة
أبشا المحافظ باسم المدينة وعزفت الموسيقى السلام السعودي وبعد أن مر جلالته
أمام قرقول الشرف سار أمام صف المستقبلين محيياً برفع اليد يتبعه سمو الامير
عبد المنعم ودولة رئيس الوزراء والامراء والانجال

ولما مر من الباب الملكي الى الفناء الخارجى ودع مستقبلية شاكرا وركب
سيارة ملكية والى يساره فيها سمو الامير عبد المنعم وتبعه الامراء الانجال وباقي

الحاشية والمرافقين في خمس وعشرين سيارة أخرى . ومنه انعطف يمينا إلى طريق
السكرينيش فشمالا إلى قصر رأس التين العامر مارا بقوس نصر جعل كل من
جانبيه بشكل منارة أو مشذنة وقد نزل جلالتة في قصر رأس التين وفي الساعة
الثالثة مساء زار معهد فؤاد الأول للحياء المائية

في يومى الأحد ٢٠ والاثنين ٢١ يناير ، في الاسكندرية والى القاهرة

استقبل جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود في يوم ٢٠ يناير في قصر رأس
التين سعادة عبد الحاق حسونه باشا محافظ الاسكندرية ، وأعرب له عن شكره
السامى على ما قوبل به من حفاوة في هذه المدينة وسروره بما شاهده فيها من النهوض
والازدهار . فتلقى سعادته هذه الكلمة بالشكر . ثم استقبل مصطفى فهمى باشا
مدير البلدية العام وسعادة النقيب باشا مدير مستشفى الملك فؤاد الأول لمناسبة
تشريف جلالتة حفلة البلدية في النزهة وزيارته للمستشفى وقد شمل زائريه بعطفه
وأشار إلى بعض مشاهداته في المدينة

في زيارة منطقة الميناء - وفي الساعة التاسعة الاربعاء من صباح ٢١ يناير زار جلالتة
منطقة ميناء الاسكندرية يصحبه سمو الامير عبد المنعم والامراء الانجائى وقام باستقباله
حضرة صاحب العزة الامير الالى عبد المنصف بك محمود مدير خفر السواحل وبعض كبار
ضباطها

وقد استقبل جلالتة زورقا بخاريا من زوارق مصلحة الموانى رافقه فيه سمو
الامير عبد المنعم الى مختلف أقسام الميناء واستقل الامراء السعوديون ورجال الحاشية
زوارق أخرى قدمت مصلحة خفر السواحل وأطلقت مدفعية رأس التين ٢١ مدفعا
تحية للزائر العظيم . وكانت السفن الراسية في الميناء وخاصة الساحلية منها مزدانة

بسلاسل من الرايات البحرية . ولما مر الزورق الملكي في أثناء هذه الزيارة بجوار الطرادة البريطانية (بلنهايم) أطلقت ٢١ مدفعا تحية لجلالته .

وقد استمرت هذه الزيارة حوالى ساعة ثم عاد لجلالته إلى قصر رأس التين سفره من الإسكندرية إلى القاهرة . وفي الساعة العاشرة الا بضع دقائق

غادر الخيف الكريم القصر متوجها إلى محطة كوم الدكة في سيارة ملكية

وصوله الى العاصمة . وفي الساعة الأولى الا عشر دقائق وصل القطار الملكي إلى محطة القاهرة مقلا الضيف العظيم ومن معه . وكانت مصلحة السكك الحديدية د رفعت الاعلام السعودية والمصرية على جدران المحطة وفي فنائها الخارجى ، وفتح الباب الملكى وفرشت أرضه وأرض الرصيف الذى يقف عليه القطار بالبسط الحمراء . واجتمع فى المحطة لاستقباله كبار رجال القصر الملكى وأعيان الجالية السعودية وحضرات : محافظ القاهرة وحكمدارها والنواء فيتزباتر باش والقائمقام مراد الخولى بك

ولما نزل لجلالته من انقطار صدحت الموسيقى بالسلام السعودى . وحباه قره قول شرف من رجال البوليس . وبعد ان صافح مستقبليه غادر مركبه المحطة الى قمر عابدين لحضور مأدبة الغداء الملكية . وكان ألوف من الالهيين قد احتشدوا على جانبي الطريق التى مر بها الموكب ، فهتفوا بجلالته وللجامعة العربية

مأدبة ملكية : بلاغ ديوان كبير الامناء . يوم الاثنين ٢١ يناير . فى الساعة الاول والدقيقة الخامسة عشرة بعد الظهر أقيمت بقصر عابدين العامر مأدبة غداء تكريما لحضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وحضرات أصحاب السمو الملكى الامراء السعوديين

وقد حضر المأدبة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي توفيق
 وحضرة صاحب السمو الأمير محمد عبد المنعم وحضرة صاحب السمو الملكي
 سيف الاسلام عبدالله وحضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء وحضرة
 صاحب السعادة رئيس مجلس الشيوخ وحضرة رئيس مجلس النواب وحضرة
 صاحب الفضيلة الأستاذ الأبر شيخ الجامع الأزهر وحضرات أعضاء حاشية
 حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وحضرات أصحاب السادة
 الوزراء المفوضين للأفغان والعراق ولبنان وسوريا والمملكة العربية السعودية
 وحضرة صاحب المعالي وزير خارجية اليمن وحضرات أصحاب المعالي الوزراء
 ورئيس ديوان المحاسبة وحضرات أعضاء بعثة الشرف وحضرات أصحاب السعادة
 الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية في سوريا ولبنان ورئيس هيئة أركان
 حرب الجيش والأمين العام لجامعة الدول العربية ووكيل وزارة الخارجية والمدير
 العام لمصلحة السكك الحديدية وحضرة القائم بأعمال مفوضية المملكة العربية
 السعودية في بغداد وحضرة الأستاذ عباس محمود العقاد وحضرة صاحب السادة
 محافظ القاهرة وحضرة صاحب العزة المدير العام لإدارة عموم الأمن العام وصاحب
 السعادة قائد حامية القاهرة وحضرات أعضاء المفوضية العربية السعودية وحضرة
 قنصل إمارة شرق الأردن وحضرة قنصل المملكة العربية السعودية في فلسطين
 وصاحب العزة كريم ثابت بك وحضرات كبار موظفي القصر الملكي
 وبعد المأدبة ارتقى حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود السيارة
 الملكية عائداً إلى قصر الزعفران وفي رفقة جلالتهم حضرة صاحب السمو الأمير
 محمد عبد المنعم .

هدية وزارة التجارة - تشرف وكيل وزارة التجارة عبدالله بك فسكري أباطه بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعززال سعود وقدم لجلالته بالنيابة عن وزارة التجارة والصناعة مجموعة ثمينه من أجود المصنوعات المصرية المختلفة لتمثيلها لجلالته شاكرامثيا على النهضة الصناعية في مصر متمنيا لها مزيد التوفيق والنجاح

حديث جلالته إلى الصحفيين - وقصد في ٢١ يناير إلى قصر الزعفران نقيب الصحفيين وأعضاء مجلس النقابة ولقيهم من كبار الصحفيين المصريين فنشروا بمقابلة جلالة الملك آل سعود

وقد تفضل جلالته فوقف وصاح بهم ثم دعاهم إلى الجلوس حواله وعندئذ تقدم الأستاذ فسكري أباطه بك نقيب الصحفيين من مقام جلالته بالشكر والدعاء على ما تفضل به من عطف ورعاية للصحافة المصرية وما أسفاه على رجالها من هدايا ثمينة سيحتفظون بها كاجل ذكرى لزيارة العاهل الكبير التي بعثت في نفوس المصريين جميعا الغبطة والبهجة والفخر ، ودعا لجلالته بدوام الصحة والعافية والعمر الطويل وتمنى لو أن زيارته المباركة قد طالت حتى يطول ما يحسه المصريون خلالها من مباحج الاعياد السعيدة والايام الخالدة .

وتفضل جلالته فافضى بالتصريحات التالية :

« لقد وددت لو طالت اقامتي في مصر فلقد أحبتها وأحببت أهلها حبا جما لا يعادله الا حبي لجلالة أخى الفاروق ،

« ان الاكرام الذى أكرمنى اياه أخى الملك فاروق وشعبه الكريم لأنساء

مدى الحياة ولن ينساه آل سعود مهما تعاقبت الاجيال والسنين ،

« وفي الحق انه مامن شيء يستطيع الانسان أن يعمله على ظهر الارض ترحيبا وحفاوة وتسكريما الا وقد عمل لي في مصر التي لقيت فيها أخا عزيزا وملكاً كريماً محبوباً تردد صدى حب شعبه له فيما شهدناه من حفاوته البالغة بنا »

« لقد كنا نسمع عن مصر كثيراً ولكن الذي رأيناه فيها فاق كل ما كنا نتصوره عنها رأينا نهضة ورقياً وتقدماً في جميع نواحي الحياة ورأينا شعباً متقدماً في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون فهو قدوة العرب وموضع آمالهم »

« وان اجتماع هذه الامة العربية من أقطارها المختلفة مع مصر هو علامة - باذن الله - على التوفيق وعلى بلوغها آمالها ووصولها إلى المقام اللائق بها

« ووصيتي إلى العرب ان يلتفتوا حول جامعتهم العربية وان يحلوا مشاكلكم فيما بينهم ، وأن يستعينوا بها على نشر العرفان والرقى فيما يعود بالخير على جمعية الامة العربية والاسلامية »

واختتم جلالتة حديثه بقوله : « اننى أعود إلى وطني مفعم القلب باكرام الذكريات وأحبها إلى نفسي عن أخى فاروق وشعبه وبلاده . بل شعبي وبلادى . فما مصر والمملكة العربية السعودية الا بلد واحد وشعب واحد ، ان بعدت بينهم الشقة فقد جمعت بينهم أواصر الاخوة والمحبة والمودة ، تلك الاواصر الوثيقة التي لن تنفصم على الايام عراها والتي تبقى خالدة تالدة بعون الله وبفضل فاروق الموفق المرموق بعناية الله »

جمعية الوطن العربي : رفعت « جمعية الوطن العربي » في الاسكندرية الى جلالة الملك عبدالعزيز رسالة أحربت فيها عن عظيم اغتباط أهل الاسكندرية بزيارة عاهل الجزيرة . ثم عرضت مطالب العرب في شأن فلسطين واستقلال الدول

الاربية ، وقضية شمال افريقيا . راجية ان تتحقق هذه المطالب على أيد أبناء العرب ورؤسائهم .

سفر الملك عبدالعزيز آل سعود

نتائج الزيارة الملكية - مصر تودع ضيفها

غادر صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود عاهل الجزيرة أراضى المملكة المصرية قبيل مغرب يوم ٢٢ يناير ١٩٤٦ عائدا بحراسة الله إلى مملكته بعد ان أمضى في ضيافة مصر وجلالة ملكها ثلاثة عشر يوما وقد جاءت هذه الزيارة الملكية بمصاحبتها من محالى لاهية والاجلال ومن عواطف المودة والاخاء بين العاهلين العظيمة ومن مظاهر الترحيب الشعبية تدعم العلاقات بين المملكتين وتوثق أواصر الصداقة والتعاون بينهما كما ان جامعة الدول العربية وهى فى بدئ نشأتها قد أفادت قوة وعزة من هذه الزيارة ودلت على ما يحق تعاقبه عليها من الآمال وما يمكن انتظاره منها من الأعمال وإننا نرجو مع جلالاته كما قال فى الكلمة الملكية المنشورة فى غير هذا المكان أن تكون هذه الزيارة « الفجر الصادق لليوم الذى تتطلع اليه البلاد العربية يوم تحقيق اهداف العروبة فى المجد والاستقلال »

وان مصر اذ تودع ضيفها العظيم تشيعه بأطيب الأمانى وتدعو له وملوك الدول العربية وأمرائها ورؤسائهم بالتوفيق فى تحقيق آمال هذه الدول والوصول بها إلى الحرية والاستقلال لتقرم بالدور الذى يؤهلها له تاريخها ونهضتها فى مجموعة الأمم ان شاء الله

سفر جلالاته من العاصمة

ودنت العاصمة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود بمثل ما استقبلته به من

لمظاهر الحماسية

فقد بكرت الجموع من سكان القاهرة إلى الوقوف على جانبي الطريق التى يمر

بها موكب الضيف العظيم ، واصطفت قوات الجيش من قصر الزعفران إلى المحطة ولم تكد الساعة تبلغ العاشرة والنصف حتى انتظمت على الجانبين ، صنوف طلبة جامعة فؤاد الأول والجامعة الأزهرية والمعاهد العليا والثانوية ومعهم أعلامهم ، ووقفت فرقة الكشفافة ، وسبقاتها

وفي الساعة الثانية عشرة ، أقبل صاحب الجلالة الملك فاروق لتوديع جلالته ضيفه . وبعد حوالى خمس دقائق ، أقبل موكب جلالته الملك عبدالعزيز ، يرافقه سمو الأمير محمد عبد المنعم ويتبعه أصحاب السمو الأمراء السعوديون . وهنا ارتفعت هتافات الجماهير في ميدان المحطة ، بحياة العاهل العربي وحياة الفاروق والجامعة العربية واستقبل جلالته الملك ضيفه الكريم عند مدخل الباب الملكى فتعاقب الملوك العظماء ثم دخلا المحطة يحف بهما الأمراء والكبراء . حتى إذا بلغا أفريز القطار صدحت الموسيقى السلام السعودى وادى قره قول الشرف التحية العسكرية وبعد أن صافح الضيف العظيم المودعين صعد جلالته إلى الصالون الملكى فودعه جلالته الملك فاروق ثم صافح جلالته الأمراء السعوديين مودعا وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة بارح القطار المحطة في رعاية الله إلى السويس مقبلا الزائر الكريم وفي صحبته سمو الأمير عبد المنعم ودولة رئيس الوزراء وأعضاء بعثة الشرف

ابحار المحروسة

وفي الساعة الرابعة والربع أبحر اليخت الملكى تحرسه الطرافتان وفاروق ووفوزية فاطقت المدفعية ٢١ مدفعا وعرفت الموسيقى السلام السعودى ولماسارت المحروسة ، باسم الله بحريها ومرساها أطل جلالته الملك عبدالعزيز فرد على المودعين تحياتهم وفي الساعة الرابعة والنصف عاد قطار الديزل الملكى إلى القاهرة يقل سمو الأمير

محمد عبدالمنعم ودولة رئيس الوزراء وكبار المودعين الذين قدموا من العاصمة مع جلالة الضيف . أما أعضاء بعثة الشرف فقد رافقوا جلالاته على اليخت الملكي إلى جدة .

كلمة ملكية كريمة

لمناسبة عودة حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود إلى مملكته أذاع مساء يوم السفر المرحوم أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي من محطة الإذاعة الكلمة الآتية الموجهة من جلالة الملك فاروق إلى شعبه الكريم :

شعبي الكريم

في اليوم الذي يغادر فيه أخى صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود مملكتهكم عائدا في رعاية الله إلى مملكته يطيب لى أن أوجه شكرى لكم فقد أكرمتمونى فى ضيفى لى ضيفكم استقبلتموه بقلوبكم وأحظتموه بحبكم .

وانى لارجو أن تكون زيارة أخى الملك عبدالعزيز آل سعود هى الفجر الصادق لليوم الذى نتطلع اليه البلاد العربية يوم تحقيق اهداف العروبة فى المجد والاستقلال والمساهمة الفعالة فى بناء حضارة انسانية أساسها السلام والعدل والحرية تحدد حضارة العرب

شعبي الكريم

لقد زرت المملكة العربية السعودية فى العام الماضى وكنت أظن أن سرورى بتلك الزيارة لن يعد له سرور فقد أحسست هناك انى ما اغتربت عن وطنى ولا فارقت شعبي . ولكن مالمسته خلال زيارة أخى الملك عبدالعزيز آل سعود بمصر أكد لى أن أيام المجد تتشابه فان جلالاته كان هنا بين وطنه وأهله فاعززتم باعزازة بلاد العرب جميعا شعوبا وملوكا وأمراء ورؤساء

لقد عاش فى جونا وعشنا فى جوه . ما فارق مملكته اذ قدم الينا وما فارقنا إذ يعود إلى مملكته فاننا على القرب والبعد تربطنا دائما جامعة العرب .

شعبي المحبوب

ليس أطيب عندي من أن أكرر شكرى لكم فقد أكرمتني في شخص الملك عبدالعزيز
شخصي. أكرمتني مصر والروبة والاسلام .

من عبدالعزيز إلى الفاروق

عن اليخت الملكي المحروسة

حضرة صاحب الجلالة الأخ العظيم الملك فاروق الأول ملك مصر حفظه الله

الآن والمحروسة تتجه بنا شطر البيت الحرام ومعالم مصر الشائخة الفتانة تحتجب عن
أبصارنا بأنوارها وازدهارها يتلفت القلب بعد العين وقد انطبعت فيه ذكريات أيام من
أسعد الأيام تجلى فيها كرم جلالتهكم وأكرامكم باسمي معانيهما وقامت في خلالها
حكومتكم العاملة الساهرة بأوفى نصيب من حفاوتها وأعرب شعبكم الناهض النذيل عن
أبلغ ما يكتنه من العواطف نحو أضيافكم وأضيائه .

ولقد تجانت مصر الكريمة المضيفة عظيمة بملكها وقادتها وشعبها عزيزة بنهمتها
قوية بجيشها وماجيش مصر إلا جيش العرب . تقدمتم يا جلالة الأخ بالفضل فكانت
أيام رضوى ثم أيام القاهرة والاسكندرية وما كنتم ونحن نقرب الرأي في شؤون العرب
جميعا لتنسوا البلاد العربية السعودية وصلاتها بأختها العزيزة مصر وما كننا لننسى مصر
الكريمة وصلاتها بشقيقةها العربية السعودية فكان من حظ البلدين توثيق الروابط بينهما
وتوحيد جهودهما في سياستهما واقامة التعاون بينهما على أثبت الدائم .

وأنه لمن سعد الضائع لنا جميعا أن اشعور الربى المشترك بيننا هو شعور عام
اشتركتنا فيه مع اخواننا وأخوانكم ملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم كما اشترك معنا في
شعورنا كل مسلم وكل عربي

وما جامعة الدول العربية التي أسست دعائمها في عاصمة ملككم بفضل الله ثم
بفضل جهود جلالتهكم وجهود اخواننا ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم إلا أثرنا

لهذه الروح العربية التي تربط بيننا وتؤلف بين قلوبنا جميعا .
 «كلانا والحمد لله موقن بأن القوة في وحدة الكلمة وان الاخ درع لاختيه فان
 تآخينا من شأنه أن يوثق عرى التآخي بين شعبينا . وما شك أحدنا في أن مصلحة
 البلدين تقضى بوحدة اتجاههما السياسى ووحدة السبيل الذى يسلكانه فى مناجهما
 الدولى ذلك مبدؤنا ومبدأ شعبينا يتوارثه الابناء عن الآباء ويبقى ان شاء الله
 على وجه الدهر بهذه الروح
 « وودعت مصر شاكرًا لها ما يضؤل بجانبه الشكر راجيا لجلالتكم دولم الهناء
 والصفاء ولشعبكم دوام الرخاء والارتقاء

عبد العزيز

هدايا جلالة الملك عبدالعزيز

أعدت الهدايا التي تبادلها الملكان العظيمان ، عبدالعزيز وفاروق ، والتي أهداها
 ضيف الفاروق قبل سفره الى رجال الدولة وعظمائها ، عند ما كان الملكان في
 الاسكندرية ، حتى اذا ما عادا من السفر كانت جميع هدايا سيد الجزيرة قد أرسلت
 الى أصحابها

هديته الى الفاروق : في يوم الاثنين ، آخر أيام الزيارة الملكية ، أرسلت الى
 قصر عابدين هدايا جلالة الملك عبدالعزيز لأخيه الملك فاروق . وفي ذلك اليوم
 تناول الملكان الغداء في قصر عابدين عقب عودتهما من الاسكندرية ، ثم أرسلت
 هدايا الفاروق لأخيه الملك عبدالعزيز الى قصر الزعفران

وتألف هدية جلالة الملك عبدالعزيز الى الفاروق مما يأتي :

١ - سيف تاريخي ورثه الملك عبدالعزيز عن أجداده ، وهو أعز سيف عنده ،

وليس في المملكة العربية السعودية مثله ، غمده مكسو بالذهب الخالص ومرصع بالجواهر الثمينة

٢ - خنجر تاريخي ثمين مكسو بالذهب هو أيضاً مرصع بالمجوهرات

٣ - بندقية ثمينة مكسوة بالذهب

٤ - حزام من الذهب ذو أربعة جيوب كل منها يتسع لخمس رصاصات ، ولكل جيب غطاء من الذهب نقش عليه الشعار السعودي والشعار المصري

٥ - مجموعة من علب الطيب والعطور ؛ وعرق من خشب العود طوله متر وسمكه ٢٠ سنتيمتراً

لصاحبي الجلالة والأميرات : وقد بعث جلالتهم بهدايا قيمة الى جلالة الملكة و جلالة الملكة نازلي وهي عقد ثمين من اللؤلؤ وخام من الماس لكل منهما ، وعدد من « المكساوي » التي ترتديها زوجات جلالة الملك عبدالعزيز والأميرات السعوديات وهي مشغولة بالقصب وبالمواك ذهبية

وقد قدمت الاميرات الشفقيات ولصاحبات السمو الملكي الاميرات الصغيرات هدايا ماثلة واسكن على صورة مصغرة

ولصاحبي السمو الاميرين الاولين : وأهدى جلالاته الى صاحب السمو الملكي الامير محمد ، على والى سمو الامير محمد عبد المنعم سيفاً مرصعاً بالجواهر و « طقماً » من المباس العربي الممتاز ، وآخر « حريمي » مما أهدى لصاحبي الجلالة والأميرات ، وعقداً من اللؤلؤ ومجموعة من الروائح والعطور

هدايا ممتازة : وتأتى بعد ذلك هدايا رجال الدولة ، وقد قسمت درجات : فهدايا الدرجة الاولى الممتازة تتألف من سيف ثمين مرصع ، وساعة ذهبية وكسوة

كاملة مؤلفة من عباءة مزركشة بالقصب ، وشال عزبي ، وعقال .. وقد قدمت هدايا .
هذه الدرجة الى كل من رفعة شريف صبرى باشا ودولة رئيس الوزراء ورفعة
على ماهر باشا ورفعة أحمد حسين باشا

وقدمت هدايا الدرجة الأولى - وهى لا تختلف كثيراً عن الهدايا الممتازة -
الى كل من رئيسى البرلمان والوزراء وشيخ الأزهر وكبير الامناء وناظر الخاصة
وكبير الياوران وأعضاء بعثة الشرف

وتألف هدايا الدرجة الثانية من كسوة وخنجر مرصع ، وقد قدمت لمدير
الملك الحديدية ووكلاء الوزارات ومحافظ العاصمة

وكذلك أهديت الى مديرى المصالح ورجال الصحافة هدايا أخرى مؤلفة من
كسوة كاملة وساعة ذهبية نقش عليها اسم جلالة الملك عبد العزيز .. وقد ظفرت
كل جريدة يومية ، وكل جريدة أسبوعية بنصيب من هذه الهدايا

كذلك أهديت الى رجال الحاشية وغيرهم ممن اتصلوا بجلالة الضيف العظيم
أو ساهموا فى خدمته هدايا أخرى مختلفة تبنى على مائة هدية

هدية الفاروق لجلالته : ١ - مصحف ثمين مكتوب بخط اليد داخل علبة كبيرة
من الذهب المرصع

٢ - سيف أثرى عظيم يعتز به جلالة الملك فاروق وهو سيف محمد على
الكبير رأس الاسرة الملكية

٣ - كorb من الذهب مرصع بالاحجار الكريمة وصينية من الذهب مرصعة

٤ - علبة كبيرة من الذهب الخالص ذات غطاء محلى بالتاج ومرصع بأحجار
كبيرة من الماس . وبها ثلاث زجاجات كل منها محوطة بشبكة من سلوك الذهب

تحتوى احداها عطر الياسمين والثانية عطر الورد والثالثة عطر النرجس

٥ - مجموعة من العباءات المفتخرة والقفاطين والارواب

الى الامراء : وقد قدم جلالتة الى كل من الامراء السعوديين سيفاً وعلبة من الذهب للعطور ومجموعة من العباءات والقفاطين والارواب

الى الحاشية : وقدم لرجال الحاشية أزراراً للأكام من الذهب نقش عليها التاج المصرى ومرصعة بالاحجار الكريمة ، وساعات بأساور أو سلاسل ذهبية

هدايا الملك ابن سعود : أهدي جلالة الملك عبد العزيز آل سعود الى كل امن النقراشى باشا وحسين باشا وشريف صبرى باشا وعلى ماهر باشا سيفاً من لذهب وعباءة موشاة بالقصب

وقدم جلالة الملك عبد العزيز هدية الى كل من السفير البريطانى وقرينته ونجله وكريمته وقدم كذلك هدية الى وزير أمريكا المفروض وقرينته

وأمر جلالة الملك عبد العزيز بأن تقدم هدايا الى ممثلى الدول العربية فى مصر . وأعضاء جامعة الامم العربية وجميع موظفى الجامعة كبيرهم وصغيرهم

وأهدى جلالة الملك عبد العزيز الى الأنسة أم كاظم خمس قطع قماش موشاة بالذهب ؛ وهى الهدية التى أهداها جلالتة الى بعض الاميرات ولم يرسل جلالتة هدايا الى زوجات الوزراء

وسلم معالى الشيخ عبدالله السليمان وزير مالية المملكة العربية السعودية الى الجهات المختصة هبات مالية تبرع بها جلالة الملك عبد العزيز يوم سفره من مصر ، وهى ٥٠٠٠ جنيه للجمعيات الخيرية ؛ وقد عهد جلالتة الى محافظ القاهرة بتوزيعها ؛ ٣٠٠٠ جنيه الى محافظ الاسكندرية ؛ و ٢٠٠٠ جنيه لسكل من محافظة السويس

ومديرية العربية ومستشفى فؤاد الأول

وبلغ ثمن الهدايا التي وزعها جلالة الملك ابن سعود حوالى ٢٠٠ ألف جنية ،
ومعظم هذه الهدايا عباءات موشاة بالذهب وأقمشة حريرية وساعات وخناجر
وسيوف من الذهب

وأمر جلالة الملك عبد العزيز بصرف هبات مالية لرجال البوالميس الذين كانوا
يسقطون على الجانبين أثناء مرور موكبه ولعساكر المرور وعساكر الحراسة
وملاحظى قصر الزعفران والسواقين بواقع جنيهين لكل واحد منهم ، وقد بلغ
المجموع حوالى ٢٥ ألف جنية

بعد وصول اليخت « المحروسة » الى جدة أضاف جلالة الملك عبدالعزيز بعثة
الشرف المرافقة له ورجال اليخت والطوافيين كبيرهم وصغيرهم لمدة يومين في مكة ،
وبالغ في اكرامهم

ولم يسافر سعادة مراد محسن باشا رئيس بعثة الشرف مع جلالة الملك
عبد العزيز الى جدة لمرضه . وقد اعتذر لصاحب الجلالة ، وقد سافر سعادة حسن
بوسف بك وكيل الديوان المملوكى على رأس بعثة الشرف

القطار الأبيض : يعد هذا القطار من أنخم قطارات الملوك في العالم ، وهو
مكون من خمس مركبات فخمة ، مدهونة من الخارج باللون العاجي . والمركبة
الأولى مخصصة لجلالة الملك والوزراء ، تتوسطها شرفة مكشوفة فعندما يقف القطار
باحدى المحطات يخرج جلالتة الى هذه الشرفة لتحية المستقبليين ، وفي الصالون
المملوكى آلة تليفونية متصلة بالقاطرة لاصدار التعليمات اللازمة للسائق بواسطة
مهالى كبير الأبناء ويتلقاها مدير السكك الحديدية الذى يصحب القطار

يختار لجر هذا القطار أفخم قاطرة وتكون غالبا القاطرة « فواد الاول » ويقودها
سائق ماهر تحت إشراف كبير المهندسين الميكانيكيين يصحبه عدد من مهرة العمال والمهندسين
الاخصائيين وعمال التليفون والتلغراف

والعادة المتبعة عند سفر القطار الايض أن يمنع دق الجرس بالمحطات إشارة الى
قيام القطار كما يصرح بدخول أو مرور جميع أنواع القطارات التي يحتمل أن يقف بها
القطار الرسمى الكبير

ويلحق بالقطار صالون نفخ للنوم ينقسم الى عدة أقسام ففيه المخدع الملدى الذى بلغت
تكليفه نحو أربعة آلاف جنيه وحمام مغسل وقد صنعت أنابيب المياه والخففيات من
النحاس الايض المغطى بطبقة سمكية من الفضة الخالصة . . وبه أيضاً مكتب أنيق وقاعة
إستقبال وقسم للخدم الخصوصيين

وبالقطار مركبة أكل ملكية ماحق بها « مطبخ » مجهز بأحدث الآلات الكهربائية
لظمى الطعام وتسع لنحو خمسين مدعواً

من الفاروق الى عبدالعزیز

وقد أرسل جلالة الفاروق الرد الإتى الى جلالة الملك عبد العزيز

الى حضرة صاحب الجلالة الأخ العظيم الملك عبد العزيز آل سعود

تلقيت ببالغ الالفة والتقدير والتأييد برقية أخى التى فاض بعباراتها الكريمة قلبه
السكبير وأماها نفسه العامرة بالوفاء والمحبة . وإن زيارته التى أتاح بها الى لمصر فرصة
الترحيب به والتعبير له عما نكته من اعزاز واكبار لحدث جليل ستبقى ذكراه مابق الغرس
الطيب المبارك الذى غرسته هذه الزيارة فى صلات مصر وشقيقته العربية السعودية

وان اشارة أخى إلى أيام رضوى مع أيام القاهرة والاسكندرية ؛ لتوقظ في قلبى الحنين إلى بلادكم العزیزة التى لمست فى قلوب أهلها مكانة مصر ، والتى أرجو أن تكونوا قد لمست مكانها ، ومكانة عاھلها فى قلوب المصريين ؛ شعبا ومملكا .

ان الصلات التى تربط بين قلبنا ، وبين شعبنا ، قد وثقها الله ؛ وأيدها التعاون فى سبيل تحقيق مجد المروية . ولقد كان لجلالتكم ولملوك العرب وأرائهم ورؤسائهم وشعوبهم ، الفضل فيما وصلت اليه جامعة الأمم العربية من مكانة غلیمة . وانى لأرجو أن یدیم الله على العرب نعمة التآزر والتآخى ، حتى يتحقق لهم ما یصبرون اليه من انتصار مبادئ السلام ، والعدل ، والحرية ، تلك المبادئ التى قامت عليها حضارة العرب .
حفظ الله أخى ، ورعى یتيم الحمید ، وبلادہ النزیة ، وكتب له السلامة ، والعافية ، والتوفیق .

اختلاف الاديان لا يفرق بين العرب

كانت مجاملة لطيفة من وفد مسيحي فلسطين وشرق الأردن لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود أن يقول السيد عيسى البندك أحد أعضاء الوفد لجلالته «إننا نحيج اليوم الى حمى جلالتم لتتبرك بلمم أناملكم الطاهرة التى يتضرع منها شذى الكعبة الشريفة وعطر النبي العربي الكريم» . . . وقد بدا التأثير على عاھل الجزيرة عند ما قال له الأب نقولا الخورى وهم يتدemon لجلالته الهدية التى حملوها اليه : «إن هذه الهدية ترمز الى أنا نضع مقدسات المسلمين والمسيحيين فى فلسطين تحت ظلال سيوفكم أمانة ووديعة» .
وقد رد عاھل الجزيرة على الوفد بأنه اذا وجب عليه شكر المسلمين العرب مرة فهو يشكر المسيحيين العرب شكرين !

وأن العرب هم العرب حيث كانوا لا يمكن أن يفرق بينهم اختلاف الاديان والاطوان

وأضاف جلالته في معرض الحديث عن مرقف الانكليز من فلسطين أنه قال لأحد
كبرائهم الذين التقى بهم أخيراً : إننا نحن المسلمين أشد منكم غيرة على ديننا فلو اجترأ أحد
على شتم نبينا لقتلناه . ولكن اليهود قتلوا المسيح ؛ وهم يقتلون رجالكم كل يوم في فلسطين
ومع ذلك تحتضنونهم وتعطفون عليهم وتدافعون عن قضيتهم !!

رسالته الى شعبه

وجاء جلالة الملك عبد العزيز آل سعود الى شعبه بمناسبة عودته الى مملكته الرسالة
الملكية الآتية :

بسم الله الرحمن الرحيم

شعبي العزيز

أحمد اليكم الله اذ اعود اليكم من بلاد منى ببلادكم محرم الزينة . بعد ان لاقيت
أيها من جلالته أخى العظيم الملك فاروق وحكومتهم وشعبه . في كل شهر مشيت فيه من
رض الكسنانة من الحضارة والاكرام ما لا يحيط به الوصف ولا يفي بحقه وافر الشكر
فقد كانت قلوبهم تتكلم قبل ألسنتهم بما تكنه لى ولبلائكم من حيث لا يمانله الا ما أشعر
من حب عميق لأخى الفاروق ولبلائه وما استشعره في قلوبكم من حب لجلالته وبلاده .

شعبي العزيز

لقد افتتح أخى الفاروق حصن الاخاء تحت ظلال رضوى وتوج الله ذلك الاخاء
بمودة لانقسام لها بمشيئة الله لم تكن بين قلوبنا في بلدنا فحسب بل كانت سيلا وطريقا
لإجتماع كلمة العرب على ما يجمع شملهم ويحفظ لهم عزهم وسعادتهم في كل موطن من
مواطن العروبة . ومن فضل الله علينا جميعا ان كانت كلمتنا في هذه الزيارة والتي قبلها
بجمعة على مواصلة جهودنا في سبيل تأييد جامعة الدول العربية وبذلك كل مرتخص وغال

في تأييد التضامن بين سائر دول الجامعة بالقلب والروح ، لما فيه خير دول الجامعة ، بل لما فيه الخير لسائر البلاد الاسلامية والعربية . وسنستمر على هذه السياسة بمشيئة الله حينئذ وسنورثها بنينا ، حتى يظل العربي يشعر في كل موطن يمر به من بلاد العرب انه يسير في موطنه ، ويبتز في كل موطن من تلك المواطن بما يترتب به في وطنه وبلاده .

شعبي العزيز

ليس البيان بمسعف في وصف مالاقيت في مملكة أخى الفاروق ، ولكن اعتزالي انى كنت أشعر أن جيش مصر العربي هو جيشكم ؛ وجيشكم هو جيش مصر ، وحضار مصر هي حضارتكم ، وحضارتكم هي حضارة مصر . والجيشان والحضارتان جنود للعرب وركن من أركان حضارتهم . بهذه الروح فتح أخى الملك فاروق الهدى بيننا وبينه ، وهذه الروح استقبلنى أخى الفاروق وحكومته وشعبه ؛ وهذه الروح أعود اليكم ، وليس لى وأنتم تستقبلوننى ، وأنا أستقبل البيت الحرام الا ان ادعوا الله ان يحفظ للكنانة مليكها وان يباغها من الهناء والسعادة ؛ وأن يجمع بفضله قلوب ملوك العرب ؛ ورؤسائهم وأمرائهم لما فيه من العز والخير وان يحزى الله عنا اخواننا واخوانكم فى مصر خير الجزاء فقد أحاطرنى بقلوبهم وغمرونى بكرمهم وماراهم كمن سمعا والسلام

الملك عبد العزيز فى عودته الى وطنه

قال الأستاذ كريم ثابت بك عضو بعثته لشرف لما بدأ اليخت الملايكي يتحرك من بور توفيق وشمر جلالة الملك عبدالعزيز بتحركه من واقفا وقال لنا : انى أريد أن أرى مدينة السويس مرة أخرى

وخرج جلالة الى سطح اليخت فلمح سمو الامير عبدالمنعم وسائر كبار المدعوين واقفين على المرفأ فلوح لهم مسلما ومودعا

ثم عاد جلالاته الى ديوانه وجلس فجلسنا حوله . وقال جلالاته .

وبالرغم من ان الهراء شديد بين القاهرة والسويس فقد احرصت على ان أقف فى شرفة القطار الملكي طول الطريق دعانى دولة النقراشى باشا الى دخول الصالون

قلت له : أريد أن أشبع عيني بكل شبر من أرض مصر ، وإن أحيى كل مصرى ...
الفراق أليم : ثم قال جلالاته بتأثر :

ان الفراق أليم ولكن الحمد لله ان القلوب مجتمعة و عند بعضها .
ولما ابتعد اليخت من السويس استطرد جلالة الملك في الحديث عن أثر زيارته
لمصر فقلت لجلالاته اننا نرغب معرفة مايجوز نشره من مباحثاته مع جلالة مولانا الفاروق
فقال جلالاته : نحن والحمد لله على اتفاق تام في كل كبيرة وصغيرة ويمكنك ان تضيع
ذلك للعالم كله

وكان جلالة الملك عبدالعزیز جالسا مواجها لصورة الخديو اسماعيل فأشار اليها
وقال هذا اسماعيل باشا . لقد كان رحمه الله من أعظم الرجال الذين عرفهم العالم
وقيل لجلالاته ان اسماعيل هو الذى بنى اليخت المحروسة وسرى الزعفران الى
جانب أعماله العظيمة الخالدة

فقال جلالاته : غرسوا فاكلنا ونحن نفرس فيأكلون
وفى الغد استمع جلالاته الى الرسالة الملكية التى وجهها جلالاته ملكنا الى الشعب
المصرى يشكره على حقائمه الرائعة بضيفه المعظم
وكان يحيط جلالاته وهو يستمع للرسالة مستشاروه وكبار رجال حاشيته فكانوا
يقاطعون كل فقرة منها بعلامات الاعجاب والاستحسان

فى قلبى : ولما فرغ الموظف من تلاوة الرسالة قال له جلالاته : اعطى هذه الورقة
ولما أخذها جلالاته وضعها فى جيب سترته الداخلى وهو يقول :
— انى أحفظها فى أقرب مكان الى قلبى .

ثم قال جلالاته

هذا هو المكتوب وأما الفعل فيملأ ستين صفحة أو سبعين صفحة لو أردنا تسجيله
ولكن المعية الفاروق أوجزته فى صفحة واحدة

فضل الفاروق :

وقال جلالة : ليس لي في ذلك فضل فالفضل لأخي الفاروق فقد كان المتقدم والفضل دائما للمتقدم وما كنت أنا بزيارتي لمصر الا مسددا لبعض ما على من دين وهو دين على وعلى أبنائي وأحفادي
قال عوض البحر اوى بك وزير مصر المفوض في جدة : ان جلالة مولانا الفاروق يقول إنه وجد في قلبكم ما يخفق به قلبه
فقال الملك عبد العزيز :

هذه مجاملات . وأما الحقيقة فان الفضل يرجع بعد الله الى الفاروق فقد كان جلالة مفتاح الباب . . .

إنه هو الذي مهد الطريق كله .

هذه الاجتماعات . . هذا التضامن العربي . . هذه الجامعة العربية . . الفضل الاول

فيها للفاروق

عظمة مصر :

واستطرد جلالة من ذلك الى وصف ما أبداه الشعب المصري من حفاوة عظيمة وشعور كريم نبيل . . فقال : « خيل لي أن سبعة عشر مليوناً خرجوا لتحتي . . . »
وقال جلالة أن من المناظر التي لن ينساها والتي كان لها أعظم وقع في نفسه منظر طفل سمته أمه على ذراعها وكان يلوح لجلالة

ومضى جلالة فكرر إعجابه بكل ما رأى

ولما نوه جلالة بالعرض العسكري الذي قام به الجيش المصري ، قال إن جيش مصر

هو جيش العرب .

وختم جلالة هذا الحديث بقوله أنني لا أجد الالفاظ التي أعبر بها عن شعوري

فإنه وحده يعلم ما كنهه من حب لملك مصر ولشعب مصر والحمد لله الذي هباً لي فرصة القيام بهذه الزيارة التي سيظل الابناء يتحدثون عنها بعد الآباء.

ولما انتهت جلالتة من حديثه قال لي نجله سمو الأمير خالد :

ثق ان أهل نجد والحجاز ما كانوا ليرضوا ان يغادر جلالة الوالد البلاد لو لم تكن هذه الزيارة لمصر فان (للفاروق الموفق) كما سماه جلالة الوالد مكاتته في قلب كل نجدى وفى قلب كل حجازى فان اجتماع رضوى فتح القلوب كلها

على هامش زيارة الملك ابن السعود

عند انصراف جلالة الملك عبد العزيز آل سعود من متحف فؤاد الاول الزراعى قال : « ان هذا المتحف مفخرة لمصر ويعتز به العرب » وقال سمو الأمير عبد المنعم لرجال المتحف : « غفارم . اتم بيضم وجوهنا »

وكان أكثر ما أعجب به جلالة الملك عبد العزيز في المتحف الزراعى مجموعة حبوب أثرية عمرها ... سنة ومع ذلك لم يصيبها السوس وباقية كما هي

وفى مدخل حجرة الصوف بالمتحف الزراعى عرضت على جلالة الملك عبد العزيز هدية من الصوف أرسلها ملك من ملوك العرب منذ ١٠٠٠ سنة الى فرعون مصر . وقد قال لجلالتة « الحمد لله أن علاقتنا بمصر ليست حديثة بل هي عريقة » . وفى أثناء مرور جلالاته بقسم القطران قال « ان القطر المصرى سعيد بوجود قطنه ورخاء مصر هو رخاء العرب والعروبة »

وفى حفلة السباق التي شرفها الملكان المظيان أشار جلالة الملك ابن السعود الى أحد الخيول وقال سيفوز على أقرانه وقد فاز الجواد فعلاً ونان الجائزة ولما شاهد جلالة الملك آل سعود اختراعاً مصرياً للدفاع المضادة للقذائف ، قال لجلالتة : ليس هذا الاختراع مفخرة لمصر وحدها ولكنه مفخرة للعرب جميعاً

وشاهد الملك النبطيان فيلما سينمائيا لرحلة ابن السعود واستقباله الفاروق له وذلك في مادبة وزارة الخارجية

ومن بين البرقيات التي تلقاها جلالة الملك ابن السعود برقية الاتحاد النسائي بفلسطين وقد جاء فيها : يا صاحب الجلالة نحن بناتك بفلسطين نستغيث بك فأعنا يا أول العذر ، وعين أحد القرنيين في قصر الزعران ليؤذن الصلاة في أوقاتها طيلة مدة إقامة جلالة الملك ابن السعود

وأهدى الى جلالة الملك ابن سعود البومان كبيران يوين سور العرض العسكري الذي أقيم في الماظه

ولجلالة الملك عبد العزيز طيبان خاصان أحدهما حنرمه الى مصر وهو الدكتور محمد فرعون . أما الآخر واسمه الدكتور مدحت شيخ الأرض فقد بقي في الحجاز وهذا وقد وضع أحد الموسيقيين المصريين نشيدا قوميا للحجاز وكان يعزف في الحفلات التي يحضرها جلالة الملك عبدالعزيز وينتظر أن يعمم هذا النشيد في الحجاز وظل جلالة الملك عبدالعزيز طوال الرحلة من السويس الى القاهرة في شرفة الصالون الملكي ورغم المطر والبرد لم يشأ أن يجلس داخل الصالون وقال : اني فسرور بمشاهدة الخضره ومرتاح لهذا المنظر الرائع اما المطر والبرد فلا أهتم بهما وقام أحد الحواة يعرض ألبابه أمام الملك عبدالعزيز في إحدى الحفلات الملكية وكان من بين ألبابه أن يخرج من فمه عدة سجاير مشتعلة !

وبينما كان يعرض ألبابه ضج الحاضرون بالضحك وفي مقدمتهم الملك عبدالعزيز لان تدخين السجاير محظور في حضرة جلالة الملك عبدالعزيز .

ولما دُ الأمراء السعوديون من حفلة دولة النعراشي باشا في وزارة الخارجية الى قصر الزعفران تفقد ثلاثة منهم بمن تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة الشاح الأكبر من نيشان النيل الذي كان يزين صدورهم فوجدوا أن الرصيعة فسدت ؛ وبدت

عليهم دلائل الاسف ، وعلى الفور اتصل التشریفاتي بالخارجية وبقصر عابدين
وبالجمراحت الملكية ؛ وأخيراً وجدت الرصيعات في السيارات وأحضرت عند منتصف الليل
وفيما يلي أسماء الأمراء الذين شرفوا مصر في معية جلالة الملك عبدالعزيز :

الأمير عبدالله بن عبدالرحمن شقيق جلالة الملك ، والأمير عبدالله السديري أمير المدينة
والأمراء محمد وغالد وفهد وطلال ونواف وهؤلاء سبق لهم ان زاروا مصر
والأمراء : عبدالله وعبدالمحسن ومساعد وسلطان ومتعب وبندر ومشعل وهذه
هي المرة الاولى التي يزورون فيها مصر

أنجال الملك آل سعود : يبلغ عمر الأمير سعود أكبر أنجال ملك الحجاز ٤٤ سنة
ويبلغ عمر أصغر أنجاله الأمير عبدالمجيد ثلاث سنوات .
وقد وضع الاستاذ محمد أمين التيمى شجرة نسب العائلة السعودية وقد تفضل جلالة
الملك فاروق وأمر بطبعها

وهي تبين ان عدد أنجال الملك ٣٣ أميراً أما الاميرات وعددهن ٢٧ أميرة فلم
يرد أسماءهن في الشجرة

والأمراء بترتيب ميلادهم هم : سعود وفيصل ومحمد وخالد وناصر وسعد وفهد
ومنصور وعبدالله وبندر ومساعد وعبدالمحسن وسلطان ومشعل وطلال ومتعب
ومشارى وعبدالرحمن وتركى وبدر ونواف وناف وفواز وماجد وسليمان وعبدالله
واحمد وسطام وثامر وممدوح ومشهور وهذلول وعبدالمجيد

الحاشية : دلت الاحصاءات الرسمية على ان عدد الحاشية التي قدمت مع جلالة
الملك عبدالعزيز ١٥٢ شخصا . وقد أقام منهم مع جلالاته ومع أصحاب السمو الأمراء
في قصر الزعفران الشيخ عبدالرحمن الطيشى رئيس الخاصة والدكتور رشاد فرعون
الطبيب الخاص وأربعة من المخصصين للاتقاط والاذاعات وإطلاع جلالاته عليها ، واثنان
من المخصصين للإسليكي ، وأربعة من المخصصين للشفرة ، وأربعة من رجال الدوا

الملكي السعودي ومؤذن . أما الباقيون فقد أقاموا في الكوكتننتال

في الزيارة الملكية

اتفق جلالة الملك عبدالعزيز وجلالة الملك فاروق على د نقط ، البيان المشترك الذي أذيع رسمياً باسميهما قبل أن يشربا الشاي في الاستراحة الملكية في سفح الأهرام وكان جلالة الملك فاروق أول من صفق عند ماشاد دولة النقراشي باشا بماثر جلالة الملك عبدالعزيز في الخطبة التي خطبها دولته في الاحتفال الذي أقامته الجامعة للضيف العظيم ولما شرف جلالة الملك فاروق دار الجامعة العربية ليشهد مأدبة الغداء التي أدبت لجلالة الملك عبدالعزيز تفضل وتفقد جميع قاعاتها وحجرتها ثم تفضل وصافح الأستاذ صاحب الماس بك الذي أشرف على ترميمها وإصلاحها ونوه بمجهودده

ولما سأل رفعة مصطفى النحاس باشا جلالة الملك عبدالعزيز د هل هوا مصر يلائم جلالته ، قال جلالته د حسبي هوا الفاروق ، وأنعم جلالة الملك بنشان النيل من العطبة الثانية على عوض البحراوى بك وزير مصر المفوض في المملكة العربية السعودية في الوقت الذي أنعم به جلالته بنياشين على رجال الحاشية السعودية وكان أول ماعمله سمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن شقيق جلالة الملك عبدالعزيز بعد وصوله الى مصر أن سأل عن أحدث المؤلفات عن الاسرة العلوية . وبعد ما انتهت حفلة البرجاس التي أقيمت عقب مأدبة الغداء في دار الجامعة العربية . وقال صاحب السمو الملكي الأمير محمد على إنه كان أمره من هؤلاء الفرسان من ثلاثين سنة . ولما وصل دولة النقراشي باشا وهو يتلو بيان الملكين في مأدبة الجامعة العربية د إلى فقرة د ونحن نشارك المسلمين والعرب جميعاً في إيمانهم بأن فلسطين بلاد عربية ، دوت في القاعة عاصفة من التصفيق الشديد ومال رجال السلك السياسى الحاضرون نحو الجالسين بالقرب منهم وسألوه عن سبب هذا التصفيق الشديد ، قال بعض كبار المراقبين لجلالة الملك عبد العزيز إن جلالته ينوى أن يضع قريبا

الحكومة ميزانية سنوية تسير بموجبها وعززت وزارة الداخلية بوليس العاصمة بقوات من بوليس من محافظتي السويس وبور سعيد لتكون في ركاب جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في تنقلاته واتمست جامعة فؤاد الأول أن يهدي جلالة الملك « يرقا » لقوات التدريب الجامعي وسيقام لهذه المناسبة احتفال كبير يشرفه جلالاته

ولم يشاهد جلالة الملك عبد العزيز أشرطة سينمائية قبل الفلم الذي شاهده في ولاية وزارة الخارجية لرحلته واستقباله في مصر وحين زارت الحاشية الملكية السعودية متحف فراد الأول الزراعي غداة زيارة جلالاته بناء على أمره قال لهم : « إن زيارة هذا المتحف يجب ألا تفوتكم »

ولما سأل جلالة الملك عبد العزيز أثناء زيارته للمتحف الزراعي : « هل يسمح للجمهور بزيارة هذا المتحف » قال له حامد سرى بك : « ان عدد زواره سنويا يا صاحب الجلالة لا يقل عن ٨٠٠٠٠ زائر »

وكان قد وقع خلاف بين السيد ادريس السنوسي أمير برقة وعبد الرحمن عزام باشا بصدد مطالب أهل طرابلس من الجامعة العربية ولما علم الشيخ بشير السعداوي أحد مستشاري جلالة الملك عبد العزيز بأمر هذا النزاع توجه الى دار السيد السنوسي وتمكن من ازالة أسباب النزاع بينه وبين عزام باشا

ومن المناظر التي استرعت الانظار في زيارة الملك آل سعود أن اليهود المصريين أقاموا الزينات على واجهات محلاتهم في القاهرة والاسكندرية وقال لنا دولة ميل مردم بك : أن الحكومة السعودية توزع يوميا كميات من الخبز على الفقراء تكفي لاطعام مائة ألف شخص .

وعند عرض تصريح الملكين على جلالة الملك فاروق لاذاعته أضاف جلالاته بخطه لم عبارة « وستبقى فلسطين عربية » كلمتي « الى الابد »

وأعد جلالة الملك صندوقا للمجوهرات « شكجية » مصنوعة من الذهب ومر

الجواهر لتقديمه لجلالة الملك عبدالعزيز
ومن الملاحظات الطريفة أن جلالة الملك عبد العزيز كان يحيي الجماهير برفع يده الى
جانبيه كما يفعل ستالين

في مقر الجامعة العربية

ولما وصل جلالة الملك الى قصر المناسرتلى - الذى اتخذ مقرا للجامعة العربية -
انتظر دقيقتين فى مدخل القصر واستقبل الملك عبد العزيز معانقا ولما انصرف الملك
طبع كل منهما قبلة على وجه أخيه

وقام بعض العربان على صهوات جيادهم بألعاب مختلفة أمام الملكين فى قصر
المناسرتلى وكان أحدهم يبدو صغير السن فقال سمو الامير محمد على لجلالة الملك أننى وأنا
فى هذه السن كنت أقوم بألعاب مثل هذه الالاب

وزار الملك عبد العزيز المفوضية السعودية بعد زيارته لقصر المناسرتلى وشرب القهوة
وكان لأهمية اجتماعات صاحب الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق فى أثناء الزيارة
الملكية أنه لم يحضرها أحد من رجال الحاشية فى القطار الملكى يوم وصول الملك العزيز
واجتماعهما فى الكشك الملكى بالاهرام؛ والى جانب هذه الاجتماعات عقدت اجتماعات
أخرى بين رجال الملكين حضر بعضها عبد الرحمن عزام باشا أمين سر الجامعة العربية
والمهم أن الملكين وضعوا خطة العمل للمستقبل وتلخص هذه الخطة فى تنسيق سياسة مصر
الخارجية وسياسة المملكة السعودية وفى تقوية جامعة الدول العربية

وقد تم التفاهم على موقف المملكتين حيال فلسطين العربية وموقفهما حيال الشؤون
المختلفة التى تمس دول الجامعة واتفق الملكان على تأييد استقلال سوريا وتأييد استقلال
لبنان ، ثم تأييد العراق فى مطالبته بحقوقه الوطنية . واتفق الملكان بشأن الوصاية على

بعض البلاد وتفاهما على وجوب توثيق العلاقات بين الدول العربية . هذا وقد وعدت المملكة السعودية بتأييد مصر تأييداً تاماً في مطالبها الوطنية بجلء القوات الاجنبية عنها وفي المؤتمرات . وتفاهما على أن تعمل جميع البلاد العربية كوحدة واحدة وتفاهما كذلك على خطة مصر في مجلس الأمن

وقد فهمنا أن مسألة علاقة مصر والمملكة السعودية بالدول العظمى قد كانت محل بحث ؛ وأن الاتفاق تام على توطيد علاقات الصداقة مع بريطانيا العظمى وأن تكون هذه الصداقة لحيز البلاد العربية كبلاد حرة مستقلة وكذلك توثيق العلاقات بالدول الكبرى الاخرى وأن تكون الجامعة العربية مثلاً لما يجب عمله مع العمل للسلام ورفاهية لشعوب وحق الضعيف وكذلك يستعان في التنقيب عن البترول في المملكة السعودية العربية بالخبراء المصريين وان تتوحد خطتهما في الدفاع عن القضية العربية وقضايا البلاد العربية

الأمراء السعوديون بين آثار الفراغة

للمرة الأولى شاهد أصحاب السمر الأمراء السعوديون أهرام الجيزة في صحبة جلالة والدهم الملك عبد العزيز . وقد سبق أن زار جلالتهم منطقة الأهرام زيارة عابرة في فبراير ١٩٤٥ في طريقه الى الفيوم للاجتماع بالمستر تشرشل

وقد استقبل جلالة الملك فاروق ضيفه العظيم عند سفح هرم الجيزة الأكبر أمام الاستراحة الملكية ثم استقل واياه سيارة من سيارات الجيب الصغيرة وفي معيتها سعادة عبد الرحمن عزام بانما وطافت بهم السيارة حول الأهرام وأبى الهول
سأل الملك عبد العزيز عما يرمز له تمثال أبى الهول فأجاب عزام باشا بأنه يمثل

العقل والقوة مجتمعين ؛ ولذلك كان له رأس انسان وجسم أسد
واسرع الاممود الحديدى المقام فى أعلا قمة الحرم الاكبر نظر سمو الامير عبدالله

ابن سعود (أخى الملك عبيد العزيز) فسأل عن سبب إقامته وهل أقيم أيديل على طول الجزء الذى سقط من القمة أم أنه يتخذ مانعة للصواعق فقبل لسموه إن هذا العمود أقامته مصلحة المساحة لتتخذ منه نقطة أساسية لعمل مساحات مصر

وكان اهتمام الأمير نواف شديدا بمعرفة عدد الاحجار التى يتألف منها بناء الهرم لأكبر ووزن كل منها والمساحة التى يشغلها . وقد أجيب بأن عدد أحجار هذا الهرم ٢٣٠٠٠٠٠ حجر ووزن الحجر الواحد طنان ونصف طن ، ويشغل الهرم مساحة من الارض قدرها ١١ فداناً تقريبا

وكذلك زار الامراء السعوديون المتحف المصرى ليتفجروا على آثار الفراعنة افكان سرورهم بما شاهدوه وسمعوه كبيرا وقال لنا الدكتور دريتون مدير مصلحة الآثار — ومحمد حمزة بك مدير المتحف ورجال الآثار الذين صحبهم فى هذه الزيارة إن الملاحظات التى أبداها أصحاب السمور تدل على حدة الذكاء وسرعة البديهة وقد طلب الأميران : نواف ومساعد أن يرسل اليهما كتاب باللغة العربية فى تاريخ الحضارة المصرية القديمة

وعند مشاهدة آثار الملك توت عنخ آمون أشار الأمير عبد الله أخو الملك ابن السعود الى قفازات توت عنخ آمون وقال متعجبا مسرورا : لقد سبق الفراعنة الاوربيين والعالم الغربى فى المدنية بألاف السنين حتى فى ابتكار القفازات

وأعجب الأمير مساعد بالتأبوت الذهبى للملك توت عنخ آمون فسأل عن وزنه وقيمه . فقيل له إن وزنه ١١٠ كيلو جرامات وأنه من الذهب البندقى الخالص وقيمه بسعر الذهب الحالى نحو ٦٦ ألف جنيه . أما قيمته الاثرية فتزيد على ذلك كثيرا وقد عرض الأمريكان عند الكشف عنه أن يشتروه بمبلغ عشرة ملايين من الجنيهات . ولكن مصر رفضت بيعه ١٠٠

ولما دخلوا حجرة موميا فرعون موسى فأروه موميا الملك مفتاح الذي يقال عنه
إنه فرعون موسى
وسأل الأمير نواف عن موميا أقوى ملك وأشجع ملك . فأروه موميا تحتمس
الثالث وموميا رمسيس الثاني

عودة بعثة الشرف المصرية بعد سفر الملك عبدالعزيز

عاد اليخت الملكي « المحروسة » الى بور توفيق يقل أعضاء بعثة الشرف
المصرية التي رافقت صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود عند عودته الى الحجاز
وقد وصل حضرات أعضاء البعثة الى القاهرة قادمين بالسيارات من السويس
هبات الملك آل سعود

تلقى سعادة الدكتور النقيب باشا مدير مستشفى الملك فؤاد الاول للملأاسة كتابا
من وزير المالية الحجازية عن طريق المفوضية السعودية في القاهرة يتضمن تحويلا بمبلغ
التي جنيه وهو ما تفضل جلالة الملك عبد العزيز بمنحه لهذا المستشفى لمناسبة زيارته له في
يوم ٢٠ يناير

هذا وقد تبرع جلالتهم بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه لفقراء الاسكندرية

حكمة الملك عبد العزيز في مسألة السكيلاني

است في حل من التصريح بالمصدر العالي - بل العالي جداً - الذي استقيت منه هذه
القصة ولكي ساقصها بكل ما سمح لي به ذلك المصدر من التفاصيل . وهي قصة عذراء بلا
ذنب . تدل على ما يتصف به من مكارم الاخلاق العربية الماثورة وما يمتاز به من صلابة في

الحق وتمسك بتقاليد العروبة المحيطة .

انتصف الليل أو كاد ، وكان مفتش الحدود الغربية يقوم بجوله تفتيشية مع نفر من رجاله وعندما بلغوا نقطه ... عثروا بخمسة رجال يرتدون الزي العربي وهم يجتازون حدود المملكة السعودية فناداهم عن شخصياتهم ووجهتهم والغرض من رحلتهم على هذا النحو - من أنتم؟

-- نحن وفد سوري ، نريد التشرف بمقابلة الملك عبد العزيز آل سعود

-- هل لديكم من الأوراق ما يثبت لنا صحة هذا؟

-- كلا ..

-- تقولون أنكم وفد مبعوث من سوريا لمقابلة جلالة الملك فهل فات الحكومة السورية أن تزودكم بالمستندات اللازمة؟

-- لا شأن لنا بالحكومة السورية على الإطلاق . فنحن وفد خاص لا تعلم الحكومة شيئاً من أمره . ولزيارتنا غرض خاص لا يمكن أن يطالع عليه أحد سوى جلالة الملك -- هل تستطيعون الانصاح عن اسمائكم أو شخصياتكم كي نستطيع نحن السماح لكم باجتياز الحدود؟

-- كلا ... اسنا في حل من التصريح بأسمائنا ولا شخصياتنا

عندئذ عمد المفتش الى جهازه اللاسلكي في سيارته واتصل من فوره بالقصر الملكي في الرياض ورفع الامر كله الى جلالة الملك عبد العزيز مباشرة فأصدر جلالته أمره الكريم الى مفتش الحدود بأن يسمح للوفد السوري (المازعوم) باجتياز الحدود وأن يكون معهم أدلاء وحراس يصحبونهم الى الرياض حيث كان جلالته مقبلاً ...

ولما وصل الوفد الى القصر الملكي في الرياض ؛ صدر الأمر بادخالهم على جلالة الملك فوراً

وسألهم جلالته : من يكونون فوقف أحدهم مشيراً تحية التعظيم والا كبار لجلالته ثم

انبرى يقول في صوت متهدج

— نستسمحك المعذرة يا مولاي فلسنا وفدا سوريا ولا شيئا من هذا القليل على الاطلاق . ولكننا نحن الاربعة من عرب سوريا البسطاء . طلب منا هذا الرجل أن تأتي به اليك وهو رشيد عالي الكيلاني الناصر العراقي الذي سمعتم جلالته بآبائه ومغامراته وقد جاءك مستغيثا طالبا الامان في ظلك الكريم

وهنا انفتحت جلالة الملك الى رشيد عالي ومد اليه يده الكريمة مصافحا ثم أشار الى بقية الحاضرين جميعا بالانصراف فانصرفوا وبقي رشيد عالي وحده مائلا في حضرة الملك ...

ومنذ تلك اللحظة بقي رشيد عالي ضيفا معززا مكرما في حمى جلالة الملك عبدالعزيز وبعد أيام عرف سمو الامير عبد الآله الوصي على عرش العراق بقصة التجاء رشيد عالي الكيلاني الى حماية الملك عبد العزيز فبعث اليه برسول خاص يرجو منه تسليم الناصر العراقي الى حكومة العراق وما ينتظره هناك غنى عن البيان وتذرع الامير عبد الآله في هذا الطاب بأحكام المعاهدة العراقية السعودية . وكان رد جلالة الملك عبد العزيز : « لقد جاءني رشيد عالي مستجيра من أعدائه ، وهو عربي يستجير بعربي ، وأنا أفضل شفق واحدا من أبنائي ، على تسليم رشيد عالي الى حبل المشنقة »

وألحت حكومة العراق . ولم يزد جلالة الملك عبد العزيز الا إصرارا على حماية ضيفه !

وبعد أيام أخرى تدخلت السلطات البريطانية واتصلت بجلالته مؤيدة التماس حكومة العراق . وكان رد جلالة الملك : « انكم تقولون ان رشيد عالي ليس من مجرمي الحرب وأنا أقول أنه عربي استجار بعربي وأفضل أن أفقد عرشي على تسليمه إلى يد الجلاد »



فخامة السيد رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزارة العراقية الأسبق الذي ثار على الوصي على عرش العراق في ١٩٤١ وحارب الانجليز الذين هزموه وهرب الى المانيا واقتنعت الحكومة البريطانية . ولم تلح في الطلب . بل لم تتحدث في ذلك الشأن مرة أخرى . ولا يزال رشيد عالي الكيلاني .. كما قدمت - ضيفاً على جلالة الملك المصلح عبدالعزيز يشمله بفيض زاهر من رعايته وكرمه .

بين الملك عبدالعزيز ومالك عربي

يقول الأستاذ كريم ثابت بك: لقد أتيح لي في أثناء وجودي في «جده» أن أقف على بعض الاسرار السياسية التاريخية التي لم يطمع عنها اللثام حتى الآن فقد عرفت انه لمساخر المغمور له الملك حسين بن علي الهاشمي ان ينادي بنفسه ملكا ، أبلغ جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود - وكان يلقب يومئذ بسلطان نجد - الحكومة البريطانية انه لا يعارض في أن ينادي الشريف حسين بنفسه ملكا ولكن بشرط أن لا يلقب نفسه بملك العرب ؛ أما إذا أراد أن يلقب نفسه بملك الحجاز فانه - أي الملك عبدالعزيز - لا يرى في ذلك مساسا بأحد وبعد ما نادى الملك حسين بنفسه ملكا علي الحجاز كتب اليه الملك عبدالعزيز

يقترح تعيين حدود بين مملكتيهما وعقد معاهدة بين بلديهما فرد عليه الملك حسين رافضا الاقتراح بكتاب شديد اللهجة قامى العبارة مبديا دهشته من أن يقدم على الاعراب عن مثل هذا الطلب

وعلمت من مصدر ثقة أن الملك عبد العزيز لا يزال يحتفظ جلالته بكتاب تلقاه من الملك حسين وجاء فيه أنه يطلب منه عشرة آلاف جنيه ذهباً على سبيل الجزية فما كان من الملك عبد العزيز إلا أن رد عليه يومئذ قائلاً إنه هو في حاجة الى ثلاثة آلاف جنيه وأنه يكون شاكرًا للملك حسين اذا أرسلها اليه

أما ما حدث بعد ذلك بين الملكين فمعروف فقد ظل الخلاف ينمو بينهما الى أن نشبت الحرب التي انتهت باستيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز وقد أصبح هذا كله صفحة من التاريخ فقد سمعت الملك عبد العزيز يتحدث عن المغفور له الملك حسين فيذكره بأنه كان بطلاً ذا رجولة عظيمة

وسمعت جلالته أيضاً يقول أنه يقسم بالله على أنه يريد أن يمش مع جميع جيرانه في وفاق ووثاق ، وأنه أول من تذكر للاشكال الذي سببه له رشيد عالي الكيلاني بالتجائه اليه ولكن بعد ما احتفى بساحته لا يمكنه تسليمه بحال ما

وعلمت أنه لما زار الدكتور فوزي الملقى القنصل العام لشرق الاردن في مصر جلاله الملك عبد العزيز في أثناء وجوده في القاهرة ، قال له جلالته أنه لا يكن لسمو الامير عبد الله سوى كل ود وأخاء

وسمعت الملك عبد العزيز يقول في حديث آخر أنه اغتبط بالنبا الذي أذيع عن قرب اعتراف الحكومة البريطانية باستقلال شرق الاردن . قال جلالته : وانى أول من يرحب باستقلال كل بلد عربي . وقد أرسل الى الامير عبد الله تهنئته بمعاهدة الاستقلال الاخيرة ولما وصلت الى جدة بمعية جلالته سرنى أن أرى جميع المفوضيات قد زينت دورها مشاركة للشعب في احتفائه بعودة مليكه وسرنى أكثر من ذلك أن أرى دار المفوضية العراقية

مزدانة لهذه المناسبة بمئات من الاعلام الصغيرة ، ولاحظت في مأدبة العشاء الرسمية التي أديت في قصر خزام في جده ، ان الملك عبدالعزيز شمل القائم بأعمال المفوضية العراقية بلفتة خاصة

سردت هذا كله لاقول ان ما حدث في الماضي قد حدث ، وان خلافاً لماضي يجب أن تنسى في سبيل القضية العليا ، قضية العروبة ، وهي قضية الجميع ، ومشتركة بين الجميع

وقد استطاع جلالة الملك فاروق باجتماعه بجلالة الملك عبدالعزيز في رضوى ان يكتب صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بين الفريقين وأن يحجز أثر بعض حوادث الماضي ، وأن يبدد بعض الظنون ، فحل محل ذلك شعور قال الملك عبدالعزيز ان الالفاظ تعجز عن وصفه ، بل شعور بعث جلالتهم على التصريح وهو في طريق العودة الى بلاده من مصر ان زيارة الفاروق له في رضوى دين عليه وعلى أولاده وأحفاده

فهذا الذي رسم الفاروق الطريق اليه ، وأقام الدليل على امكان تحقيقه متى توافرت النية الحسنة ، يمكن تحقيقه بين الجميع لخير العروبة . وقد سمعت الملك عبد العزيز يقول في ذلك ان الجامعة العربية هي أملنا الآن فاذا فشلت — لا سمح الله — فلن تقوم للعرب قائمة !

ولا أذيع سرا اذا قلت ان بعض الدسائس الذين لا يطيب لاهوائهم وأغراضهم أن يكون هناك ونام عام ، أخذوا يروجون أن بعض البلدان العربية ، بتمتع من هذا التقرب وينظر اليه عدم ارتياح !

فليحذر العرب هذه الدسائس .. فما حدث في رضوى ثم في القاهرة كان

لمصلحة العرب جميعا ولمصلحة العروبة جميعا وليس أحب الى الجميع من ان تعدد
هذه المناسبات السعيدة فتتجلى فيها وحدة العروبة بأجلى مظاهرها

المملكة العربية السعودية

تبلغ مساحة المملكة العربية السعودية مليون وستمائة ألف كيلو متر مربع
وعدد سكانها يزيد على ستة ملايين . يحدها العراق وشرق الاردن من الشمال
والبحر الاحمر من الغرب واليمن والربع الخلال من الجنوب والكويت وخليج
البحيرة وامارتا قطر وعمان من الشرق . أسسها جلالة الملك عبد العزيز في نجد ثم
جعل يتوسع بها الى ان شملت حائل امارة ابن الرشيد والاحساء والحجاز والعسير .
وأهم مدنها مكة والمدينة وجدة وينبع والرياض وحائل . عاصمتها مكة وأمامقر
السفراء والوزراء المفوضين والقناصل فهي جدة . ولكن جلالة الملك عبد العزيز
يقضى معظم فصول السنة في الرياض عاصمة نجد . أما سمو نائب الملك فهو في الوقت
نفسه وزير الخارجية ويرأس مجلس الوزراء المؤلف من وزراء الخارجية والمالية
والدفاع ووزير الدولة

والى جانب مجلس الوزراء مجلس الشورى وهو الذى يتولى درس القوانين

والالتزامات والمشروعات وعرضها على الوزارة لاقرارها واستصدار مرسوم بها
وقد ألفت الى جانب جلالة الملك ست عشرة شعبة مختلفة ، أهمها الشعبة
السياسية والديوان العالي وشعبة البادية وشعبة الشفرة والارقام السرية وشعب الزكاة
والمحاسبات والعطيات . وعلى هذا كان جلالة الملك عبدالعزيز هو المسيطر الوحيد
على جميع شئون المملكة من سياسية وإدارية واقتصادية وقضائية وثقافية . وجميع
السلطات مستمدة من جلالته ومرزعة على هيئات مختلفة أهمها مجلس الوزراء
والادارات التابعة له وشعبة الشئون السياسية والشعب الأخرى . وتؤلف المملكة
العربية السعودية من تسعة أقاليم هي نجد والقصيم والحساء وجبل شمر والعسير
ووادى السرجان والحجاز وتهامة ونجران والملك فيها ورائي . وولى عهدها الحالي
هو سمو الامير سعود النجل الأكبر لجلالة الملك عبد العزيز . أما القضاء فيها فيقوم
على الشرع الشريف ويتولاها في نجد قضاة اشتهروا بالعلم والتقوى يقيمون في
المدن والقرى الى جانب الحكام . أما في الحجاز فالقضاء فيها على ثلاث درجات :
الحاكم المستعجلة والمحاكم الكبرى التي تحكم بالاعدام والمحكمة العليا التي تحل محل
الاستئناف

وتقدر قوات الامن في أيام السلم في المملكة العربية السعودية بنحو خمسين
ألفا بينهم قوات الشرطة والدرك وخفر السواحل . أما في أيام الحرب فيدعى الى
الخدمة الاجبارية كل رجل من سن ١٤ الى ٦٥ . وفي هذه الحالة يستطيع جلالة
الملك عبد العزيز ان يجند نحو مليون حين الحاجة .

وتقسم القوات المسلحة الى قوات نظامية ، هي التي يتولى قيادتها وتنظيمها الآن
سمو الامير منصور وزير الدفاع ، وقوات بدوية تجنيد وتسليح وتعبأ وفقاً لإصول

معروفة بأوامر جلالة الملك

وهناك عدد من المستشفيات والمستوصفات أهمها مستشفى أجياد في مكة
ومستشفى جدة ومستشفى الرياض ومستشفى الطائف ويضاعف عدد المستشفيات
النقالة في الحجاز في مواسم الحج وتحسنت حالة المعارف فيها تحسنا كبيرا في السنوات
الآخيرة وازداد عدد المدارس الحكومية والآهلية زيادة كبيرة أما المكتاتب
ففي كل قرية تقريبا وفي الأعراف الأخيرة عنت الحكومة بالزراعة فأصلحت
وسائل الري في كثير من الأنحاء الصالحة للزراعة وأنشأت في الخرج عزبة نموذجية
واسعة ، وأصبح من المنتظر أن تستطيع البلاد بعد وقت قصير أن تسكتي بما
تنتجه من المواد الغذائية وكانت موارد المملكة العربية قبل ظهور البترول تجيء من
الجمارك والزكاة وبدل الجهاد والبرق والبريد والتليفون والضرائب على شركات
الملاحة والضرائب المفروضة على وسائل الانتقال والمهن والتجارة وإيراد الأملاك
ورسوم الطوابع والدمغة وجوازات السفر وتذاكر المرور ورسوم كتاب العدل .
وقد ظهرت فيها الآن آبار غنية جدا للبترول ومناجم للذهب والفضة والحديد .
وبدأت الشركة الأمريكية تستخرج البترول بكثرة . وقد أنشأت مصنعا لشكريره
في نجد وينتظر مد الانابيب لجلبه الى شواطئ البحر المتوسط وقد اعترفت جميع
الدول بالمملكة العربية السعودية وأنشأ بعضها مفوضيات وقنصليات في جده .
وللمملكة العربية الآن مفوضيات وقنصليات في مصر وبغداد ودمشق وبيروت
والقدس ولندن وواشنطن وانقره وكان لها مفوضية في باريس أوقفت أعمالها في
ثبأ الحرب

نجد وما بها من البلاد والقرى

أن أراضى نجد واسعة فيها بلاد وقرى كثيرة، وفيها صحارى وقفار شاسعة يسكنها قبائل من العرب لا يحصى عددهم إلا الله تعالى لا يستقرون في محل واحد ولا يتوطنون في دار بل لم يزالوا في حل وترحال شأن سكنة البوادي. وهم بطون وقبائل وشعوب يرأس كل عشيرة منهم شيخ نافذ الكلمة فيهم. ولهم قوانين مرعية فيما بينهم سيأتي تفصيلها إن شاء الله، والكلام الآن في حاضرة نجد وما فيها من القرى والبلاد والنواحي.

أما أول نجد، أعنى المعمور من مساكن الحاضرة من جهة الشمال (خوف آل عمرو) الذى على الشمال خير وفيه قرى كثيرة وكان في أيدي (عيزة) ثم صار إلى (آل رشيد) شيوخ (جبل شعر) وكان ذلك باذن أمير نجد (ابن سعود) وجبل شمر هما جبلا طي. أجا وسلمى وكان مسكن (حاتم طي). الجواد الشهير وهو إلى اليوم مستقر أمير الجبل من أبناء رشيد ومحل توطنه. وفي هذا الجبل قرى كثيرة منها (حائل) و (قفار) و (موفق) و (جبة) و (بقعاء) و (سميراء) و (كهفة) وغير ذلك من القرى الكثيرة. وأحسنها وأوسعها بلدة (حائل) وهى بلدة واسعة الطرق عذبة المياه طيبة الهواء فيها ما يزيد على ألف دار وفيها قبيل من الغرباء التجار، وفيها نخيل وأشجار تسقى من الآبار والعيون وفيها النمر المعروف (بحلوة الجبل) وهو وحشى وبلدى وكلا النوعين من أحسن التمر المشهورة وتمرتها نحو الابهام شقراء أو حمراء. وفي البلدة مسجد تقام فيه الجمع والجماعات وفيها مدارس وعلماء وفيها سوق. والسكنة نحو عشرين ألف نفس كلهم مسلمون من أهل السنة المواظبين على الطاعات وهم كسائر أهل نجد على مذهب الإمام (أحمد بن حنبل)

رضى الله عنه

القسم وهى من أحسن نواحيه وأهلها من أشجع أهالى نجد. وفي القسم بلدتان مشهورتان وهما عيزة وبريدة، وهما بلدتان واسعتان فيهما نحو خمسة آلاف دار وفيهما

مساجد كثيرة ومدارس متعددة لطلبة علوم الدين ، وفيها نخيل وأشجار متنوعة ومياهها من الآبار

وقرى القصيم : الاسياح ، وعين ابن أبي فهد . وحنيف . وأبو الدود . وقصبا وغير ذلك ، وهذه القرى كلها خصبة كثيرة النخل والبساتين والحدائق والثمار المتنوعة والمياه العذبة

وقرى بريدة : الشقة ، والعيون ، والبصة ، والقرعاء ، ووادي عيزة وغير ذلك ، وهذه القرى أيضا كثيرة النخيل والأشجار والثمار والعيون والآبار

وقرى الوادي : الشحيح ، والهلالية ، واليكيرية ، والخبراء ، والرس وقراء ، صبيح والنبانية ، والمذنب ، وقراء ثلاث ، هذا هو المشهور من حال القصيم

ومن نواحي نجد ناحية السدير وبلداتها الزلفي - وقراء خمس - ولجمعة - وحرمة ووشى - والجوى - وجلاجل - والتويما - والداخلة - والروضة - والحصون - والحوطة والخويبة - والعطار - والجنيبي - والعودة - وتمير - وعشيرة - والخطامة ، فهذه محال سدير وقراء ومركز الحكومة المجمعة ، وكل هذه البلاد كثيرة النخل والبساتين والزروع والمياه العذبة وسكنتها كسائر أهل نجد في العلم والعمل

في هذه الناحية كثير من البلاد والقرى منها : الشعراء وهي بلدة متوسطة كثيرة الدور والمنازل وكانت مراكز الحكومة أيام إمارة ابن سعود ومنها وسيل ، وشيقر والقرائن والفرعة وثرمدة ومرآة وثنية والجريفة والحريق والقصب وسيل والبير والدوامي والشعرة والقويبة والروضة والشمس والخانوقة والحيد

ومن نواحي نجد ناحية الحمل وبلادها : ثاقد وكان مركز الحكومة أيام إمارة ابن سعود والبير والصفرة ورغبة وقبيرة ودقة والقرنية وملهم وصليوخ وهذه البلاد كلها مشجونة بالسكنة والقاطنين وفيها نخيل وأشجار ومياه وعيون وآبار وأرضها قابلة

عاصمة نجد

هذه بلدة واسعة الأرجاء والطرق كثيرة البيوت والسكنة وهي إحدى العارض
طيبة الهواء عذبة الماء فيها مساجد ومدارس راسخين في الدين وفي نواحيها قرى
كثيرة . وفيها نخيل وبساتين

وأول ناحية العارض حريلة ثم سدوس وفي قربها أبنية قديمة يظن من آثار
حمير وأبنية التبابعة (نقل لى بعض أصحاب الثقات من أهل نجد أن من جملة هذه
الابنية شاخصا كالمنارة) وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في
جدرانها . فلما رأى أهل قرية سدوس اختلاف بعض السياحين من الأفرنج إليها
هدموها ملاحظة للتداخل معهم

ثم خرمة ثم العمادية ثم أبو كباش ثم الجبيلة ثم العينية الدرعية ثم عرقة ثم
الرياض ثم منفوحة

وفي جنوب العارض : الخرج وهي بلدة قديمة واسعة عن الرياض نحو ثمان
ساعات وفيها عيون وآبار ونخيل وأشجار . وكانت قبيلة عائد تسكنها وكانت لهم
صولة عظيمة في البدو والحضر . ثم تفرقوا في بلاد نجد وغيرها ولم يبق أحد منهم
في البادية . وقد تفرق كثير من قبائل نجد أيضا كآل ورغب وآل كثير الذين
ورد إلى العراق منهم عدد وافر

وقرى الخرج : السليمة ، والدلم ، واليمامة ، وزميقة ، ونعجان ، والسيح وغير
ذلك من القرى المشتملة على بساتين وسكنة كثيرين ؛ وفيهم أهل العلم والعمل
وأدى الفرع وقراء

هو واد معمور ؛ وفيه نخل كثير وغالب الساكنين فيه من بني تميم ومنهم في
البادي أحد . وأما قراه فن أشهرها : الحوطة ، والحريق ، ونعام
ناحية الافلاج وقراها

ومن نواحي نجد : ناحية الافلاج وهي أول بلاد قبيلة الدواسر . وقراها :
البديع ، والأحمر ، والهدار ، وغير ذلك من القرى المشحونة بالسكنة بالخليل والأشجار
وادي الدواسر وقراه

أول وادي الدواسر غ السليل ، ومن قراه : اللدام ؛ وكثيرة ، والحنابج عدد
جميع قراه خمس عشر قرية ، وهذا الوادي مسكن قبائل الدواسر البادية الحاضرة
وهو آخر نجد من جهة الجنوب . والمعمور من نجد : من جوف آل والي وادي
الدواسر مسيرة خمسة عشر يوماً بسير الأثقال من جهة الشمال الى الجنوب . والمعمور
منه من جهة الشرق الى الغرب فهو مسافة ستة أيام هذا هو المعمور بالبلدان ،
وأما مساكن أهل البادية من العشائر والقبائل فهو طولاً مسافة شهر ؛ وعرضاً كذلك
أودية نجد

أودية نجد منها كبار ومنها صغار . فمن الكبار : وادي الدواسر ، ومنها
وادي حنيقة . ومنها وادي القصيم المسمى وادي الرمة ومنها وادي سدير .
وفي نجد عقبات صعبة المسالك . والدهناء هي الرمال الحاضرة دون نجد والدهناء
هذه هي التي قصدها الشاعر بقوله :

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بحر الحقائب

أما الجهة الجنوبية من نجد ففيها بلاد عسير وهم قبائل كثيرون كلهم أهل شجاعة
وإقدام ، وثبات في حرمة الحرب والخصام منهم أهل حاضرة ومنهم أهل بادية وأهل
الحاضرة قبائل شهر أن من حبر وقصد تولاها الأمير (ابن سعود) أيام إمارته والآن

ليسوا متقادين لامراء نجد وكان شيخهم من عشيرة يقال لها (الملع) وغالب مساكنهم في الجبال ، وهم لا يزالون يشنون الغارة على سواحل اليمن فينبون منها . ومحل اقامة كبير الجبل بلدة تسمى (السقا) ولهم أكثر من مائة قرية وأكثرهم في البادية أما الجهة الشرقية لنجد فالاحساء والقطيف وهو أرض الخط . والرماح الخطية التي كانت مشهورة بين العرب منسوبة اليهم . وفي الخط جزيرة دارين الملاصقة للقطيف والاحساء وهي قرى كثيرة وأكبر ما فيها من البلاد : الهفوف والمبرز . والهفوف كانت أيام تصرف أمراء نجد فيها مركز الحاكم الذي يعين من قبلهم . وكان يومئذ في أرض الاحساء ست قلاع فيها عساكر أمراء نجد وبنوهم أكثر من تأتي قرية كبيرة وهي بلاد متسعة الاطراف ممتدة الاكناف سهلة المعاش ذات نخل كثير وأشجار متنوعة ومياه عذبة متسلسلة وأمراء نجد لم يكونوا يأخذون من هذه الارض سوى العشر وفي المبرز والهفوف مساجد كثيرة ومدارس متعددة وأسواق وعمارات ، كثيرة وقد ألحقت بولاية بغداد والبصرة أيام حكومة (مدحت باشا) والياً على بغداد ، وسأني على تفصيل القول فيها إن شاء الله تعالى

وأما القطيف فجبهة شرقها على ساحل البحر ، وهي كلاحساء في النمو والخواصل وجميع سكانه من الشيعة والقطيف عن الاحساء مسافة ثلاث مراحل والاحساء عن نجد مسافة سبع مراحل وبين القطيف الدهناء وهي رمال والصمان وهي أرض يابسة لا يوجد فيها ماء والمسافر منهما الى نجد لا بد له من حمل الماء

وفي جهة القطيف الشرقية بندر العقير الواقع على ساحل البحر وهو بندر الاحساء وكان فيه محل محصن معد لتجار نجد انذين يسافرون الى الاحساء فانهم اذا وصلوا الى هذا المحل جعلوا أموالهم فيه الى أن تأتيهم الرواحل فتحمل أموالهم الى الاحساء ثم في الجهة الشرقية من العقير (قطر) وهي منزل أهل السعائن من العرب الذين يغوصون في البحر لاسـتخراج اللؤلؤ وهم قبائل منهم من قحطان ومنهم من وائل

وفي بر قطر بعض من بني هاجر وفي باديته قبيلة تسمى (المتاصير) وفي سواحلها
محال كثيرة منها البدع وهو رأس الزبارة ونويرط وغير ذلك من البنادر وكان
بره وصحاريه في تصرف أمراء نجد

تفصيل القول في ولاية الاحساء

هذه القطعة هي مجاورة لأرض نجد من جهة الشرق وكانت في ادارة
أمراء نجد الى أن وقع اختلاف بين أمرائها أوائل بحري (مدحت باشا) واليا الى
بعداد فجاء أحد أمرائها اليه وتمدد له بضبطها فذهب مدحت باشا نفسه مع ما
يلزم من العسكر فضبطها وسخرها كما كانت قبل من بلاد الدولة فعين فيها حاكما
وقاضيا وكذلك في ما تحتها وعين مأمورين آخرين وهي الى اليوم على ذلك الحال
وقد تكلم عليها بعض الادباء من الاحبة وبين حالها بعد استيلاء الدولة نصرها الله
تعالى ووقفها لما فيه حسن العاقبة فقال طول أرض الاحساء من بيرية الواقعة في
جنوبها الى جزيرة العائر الواقعة منها شرقا مائة واثنان عشرة ساعة وعرضها من
بندر العقير في ساحل البحر الى العرمة الواقعة منها غربا اثنتان وستون ساعة
وأعظم بلاد هذه القطعة المبرز والهفوف ، والمسافة من الهفوف الى العقير
اثنتان عشرة ساعة ولأرض الاحساء ثلاثة بنادر وكل منها مرشئ مهم : القطيف ،
والعقير ، وقطر . وكل من هذه الثلاثة قصة على حدة . أما القطيف فواقعة على بعد
أربعين ساعة من الهفوف وأما قطر فسافنتها عنها نحو ستين ساعة وأما العقير فعلى
مسافة اثنتي عشرة ساعة وذلك بسير الابل والانتقال .

أخلاق أهل نجد وشمالهم

أخلاق أهل نجد هي أخلاق العرب المحمودة ، وهي : الوفاء والغيرة وصيانة العرض
ومحاربة الدخيل وصدق اللمجة والشجاعة والفروسية ومراعاة الحقوق والعمود والذكاء
المفرط والحلم وسرعة الانتقال وحسن الخلق والخلق وهكذا سكتة الحظوة الاحصائية
وجميع من جاور الأرض النجدية وصورهم أحسن الصور وأقلب عليهم السمرة ولغتهم
أفصح لغات العرب اليوم على فسادها ولهجتهم أحسن كل لهجة وفيهم الشعراء والادباء
والظرفاء والفصحاء.

أهل نجد ينقسمون الى أهل حضر وبدويين والحضر يقيمون بالندبة الى أهل
باديتهم وغالب العرب كذلك فانهم يألفون البادية أكثر من شغفهم الى البلاد والقرى
ولم يزالوا يمدحون البوادي في شعرهم ومنظوم كلامهم ومنشوره

فأما أهل الحضر فعلايشهم من التجارة والحرف والنخيل والبقر والغنم والزراعة
والصنائع . وأقواتهم السمن وألبان البقر والغنم والحنطة والشعير والارز والذرة والسمن
ونحو ذلك . وغالب قوتهم التمر الذي يعز مثله في البلاد

وأما أهل البوادي فعلايشهم من الغنم والبقر والابل وأكل لحومها وشرب ألبانها
وغالب معاشهم على اليرابيع والارانب نحو ذلك

زى أهل نجد ولباسهم وزينتهم

أهل نجد الحضر يلبسون الثياب والاقية والعباءة . وأهل العلم منهم يلبسون
في رؤوسهم العائم المخنكة ، وسائر الناس يلبسون (العقل) فوق نحو شملة وفي أرجلهم
النعال . ويحملون العصى بأيديهم في الغالب ، وذلك من السنن المحمودة . ويتطيبون
بأحسن الطيب كالسلك والعنبر ، ويواظبون على خصال الفطرة المشهورة . والورس
وهو نبات طيب الرائحة - من زينة نسائهم ، وكذلك الحلي كالقرط ونحوه ولهم مزيد
رغبة في الطيب واستعماله ، وذلك من علائم طيب نفوسهم وشرها فلا يدل الى الطيب

الاطيب . والرى المذكور ليس من خصائص أهل نجد بل مثلهم في ذلك سكة الاحساء
وعمان ، بل وسائر العرب

(دين أهل نجد ومعتقداتهم وأعمالهم)

ان أهل نجد كلهم مسلمون موحدون بل وجميع سكة جزيرة العرب وقد دخلوا في
الاسلام في العصر الأول عند ظهور أنوار الشريعة النراء
وهم على عقائد (السلف الصالح) فهم يعتقدون أن الله تعالى قديم واحد لا شريك
له في ملكه ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد اذنه ، وأنه
عز اسمه لا والد له ولا ولد ولا صف ولا نسب بوجه من الوجوه ولا زوجة ؛ وأنه غني
بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه ، وأنه
لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخرف
والهم والحزن ونحو ذلك وأنه لا يماثل شيء من مخلوقاته بل ليس كمثل له لافي ذاته ولا في
صفاته ولا في أسمائه وأنه لا يحل بشيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته شيء منها بل هو بائن
عن خلقه بذاته والخلق بائون عنه وأنه أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء وفوق
كل شيء وعال على كل شيء البتة وأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء يريد به هو فعال
لما يريد وأنه عالم بكل شيء يعلم المر وأخفى ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف
كان يكون وما سقط من ورقة إلا يعاها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس
ولا متحرك ولا ساكن الا وهو عليه على حقيقته وأنه سميع ضجيج الاصوات باختلاف
اللغات على تفنن الحاجات ويرى ديب النمة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء
قد أخطأ سمعة بجميع المسموعات وبصره بجميع المقدورات ونفذت مشيئته بجميع
البريات وعمت رحمته جميع المخلوقات ووسع كرسيه الارض والسموات وأنه الشاهد الذي
لا ينيب ولا يسيء خلف أحدا على ملكه ولا يحتاج الى من يرفع اليه حوائج عباده أو

يعاونه أو يستعطفه عليهم أو يرحمه لهم . وانه الأبدى الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت ، وانه المتكلم المتكلم الأمر الناهي قائل الحق وهادى السبيل مرسل الرسل ومزل الكتب ، قائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ويجازى المحسن باحسانه والمسيء بأساءته وأنه الصادق فى وعده وخيره فلا أصدق منه قليلا ولا أصدق منه حديثاً وهو لا يخلف الميعاد . وانه تعالى صمد بجميع معانى الصمدية يستحيل عليه ما يناقض صمديته وانه قدوس سلام فهو المبرأ عن كل نفس بما كسبت من الخير والشر ويجازى المحسن باحسانه والمسيء بأساءته وأنه الصادق فى وعده وخيره فلا أصدق منه قليلا ولا أصدق منه حديثاً وهو لا يخلف الميعاد وانه تعالى صمد بجميع معانى الصمدية يستحيل عليه ما يناقض صمديته وانه قدوس سلام فهو المبرأ عن كل عيب وآفة ونقص وانه الكامل الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه . وانه للعدل الذى لا يحور ولا يظلم ولا يخاف عبادة منه ظاهراً وهذا بما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل وهو من المحكم الذى لا يجوز أن تأتى شريعة بخلافه ولا يخبر شىء بخلافه . هذا اعتقادهم فى الاله عز وجل .

وأما اعتقادهم فى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهم يعتقدون فيه أنه : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى الهاشمى الملكى عبد الله ورسوله الملقى أجمعين نبي الرحمة وهادى الامة . أرسله الله تعالى بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وكرمه سبحانه بطهارة الاعراق وشرفه بما جلبه عليه من مكارم الاخلاق التى نقص بها عوائد الفطر وباين لها جميع البشر من فروسيه وبأسه وبجده وعزيمه وهمه وعلمه وحلمه وزهده وعبادته واجابته مسألته ورضاه وصبره وحمده وشكره وذكره وتسكبه واعتباره وتبصره وخوفه وخشوعه وتواضعه وخشوعه .

وكرم آياته وجدوده وسخائه وجوده وصمته وفصاحته وصدق لهجته ورعايته للعلمه
 ووفائه بالوعد وعدم تلونه ودوام طريقتيه وسنته وانصافه في معاملته وتقواه وأمانته
 وشفقته ورفقه وحسن خلقه وخلقه وجده ووقاره وضياء أنواره وحيائه ولينه وثقته
 ويقينه وعفوه ورحمته وصفحه ورأفته وقناعته وتقلله وصدق توكله وحباه من الخوس
 المورد والمقام المحمود واللواء والكوثر والشفاعة في المحشر والقرآن والتلاوة واتاح
 والمراوة بالسيف والقضيب والثافة والتجيب والاسم الحسن والبراعة واللسن والذكر
 لرفع والحى المنيع والفرع الباسق والكتاب الناطق والقضية والأحكام والحنيفية
 والاسلام والآيات المفصلات والكلمات المنزلات ومكة المحرمة والمشاهد المعظمة والحرم
 والاحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام والطعان والجلادة والجمعة والجماعة والسمع
 والطاعة والصلاة المكتوبة والزكاة المفروضة والتهليل والأذان وشهر رمضان والامم
 بالمعروف والقربات والنهي عن الفواحش والمنكرات والغلظة على الكافرين وخفض
 الجناح للمؤمنين والتفضل على المسيئين والمعرفة بالاقدار والرهبة من الجبار والسبق في
 الذكر والتقدم في الاصفياء والآخر في البعث والختمة للانبياء بما دل بمجموعه على اثبات
 نبوته وصدق مقالته وتفضيله على جميع الخلائق والانام وتمييزه على سائر ولد آدم عليه
 السلام

وذلك مع دلائله مفصل في كتبهم واعتقده كل من صغيرهم وكبيرهم وكذلك
 يعتقدون أن ارسال الرسل حق فهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرقون
 بين أحد منهم ويؤمنون بالسؤال والبعث والحشر والنشر والجنة والنار وبجميع ما أنزل
 الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بجملا وتفصيلا . وتفصيل ذلك في كتبهم أيضاً
 وجميع أهل نجد على اختلافهم في القبائل كما أنهم يعتقدون ما سبق كذلك يعتقدون
 في الآل والاصحاب ماوردت به السنة والكتاب ويؤمنون بما ورد في شأنهم من
 الفضائل وما روى عنهم من الشئائل غير أنهم طورا بساط الماراة في آل رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتركوا العصية التي هي من أوتار الباطل وأطنا به ، فأولئك
 الآل الكرام هم الذين يتميز بحبهم لإيمان المرء من نفاقه والذين ورثوا النور المبين عن
 خصه الله بأشراقه . فالصلاة بهم تمامها وبالصلاة عليهم ختامها ورحمهم موصولة برحم
 المسكريم وذمامها . وأولئك السادات من الأصحاب الذين خلطهم بجلده وآنطجهم في
 شدته ، أحبوا فيه وأبغضوا وأفقروا له وأقرضوا وفرض عليهم الصبر معه على البأء فما
 أعرضوا : ولكل من هذين الفريقين مقام معلوم ، وسهم في السبق والفضيلة غير مسموم
 لم يزل أمراؤهم وعلمائهم يأمرهم بالأخذ على السنة السفهاء من الخوض في شجر بين
 آل النبي وأصحابه ، وإظهار العصية التي تزعج الحق عن نصابه وترجعه على أعقابها
 ليس مستندة إلا مغالاة ذوى الجهل وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل فأولئك
 السادات هم النجيم الذين كان بهم الاقتداء وبهم كان الاهتداء وقصارى المسلم في هذا
 الزمان أن يعتلق منهم سببا ويأخذ عنهم ديناً وأدبا لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق
 ومثل أحد ذهباً نعم : لا يغالون في حبهم كحب أهل البدع والضلالة فذلك الذي ما أنزل الله
 به من سلطان ولا اقتضته الرسالة

والحاصل أن مذهبهم في أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة وأن طريقتهم
 طريقة السلف التي هي الطريق الإسلام بل الأحكم وهي أنهم يقرون آيات الصفات
 والأحاديث على ظاهرها ويكون معناها إلى الله تعالى كما قال الإمام مالك في الاستواء
 ويعتقدون أن الخير والشر كله بمشيئة الله تعالى ولا يكون في ملكه إلا ما أراد وأن العبد
 لا يقدر على خلق أفعاله بل له كسب يترقب عليه الجزاء . وأن الثواب فضل والعقاب عدل
 ولا يجب على الله لعبده شيء . وأنه يراه المؤمنون في الآخرة بلا كيف ولا إحاطة .

وأنهم في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ولا ينكرون
 من قلد أحداً من الأئمة الأربعة دون غيرهم لعدم ضبط مذهب الثير كالشيعة
 بديهة والكرامية ونحوهم ، وأنهم لا يستحقون مرتبة الاجتهاد المطلق .

ولا أحد يدعيها عليهم غير أنهم في بعض المسائل إذا صح لهم نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد الأئمة الأربعة أخذوا به وتركوا المذهب كأثر الجدة والاختلاف فأنهم يقدمون الجد بالارث وإن خالف مذهب الحنابلة ولا يفتشون مذهب أحد ولا يعترضون إلا إذا اطلعوا على نص جلي يخالف لمذهب أحد الأئمة وكانت المسألة مما يحصل بها شعار ظاهر كأمر الصلاة فإنهم يأمرون الحنفية والمالكية مثلاً بالمحافظة على نحو الطمأنينة بالاعتدال والجلوس بين السجدين لوضوح دليل ذلك بخلاف جهر الإمام الشافعي بالبسملة فلا يأمرهم بالامرار وشتان بين المسألتين فإذا قوى الدليل أرشدوهم إلى النص وإن خالف المذهب وذلك إنما يكون نادراً ولا مانع عندهم من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد المطابق وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفين للمذهب الملتزمين لتقيد صاحبه .

ثم أنهم يستعينون على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المتبعة . ومن أجلها لديهم (تفسير ابن جرير) ومختصره (لابن كثير) وكذا (البغوى) و (اليبضاوى) و (الحازن) و (الحدادى) و (الجلاين) وغيرها
وعلى فهم الحديث بشروح الأئمة المبرزين كالعسقلاني والقسطلاني على البخارى والنووى على مسلم والمناوى على الجامع الصغير وبحر صون على كتيب الحديث خصوصاً الامهات الست وشروحها ، ويستعينون بسائر كتب المذاهب في مسائل الفنون أصولاً وفروعاً وقواعد ونحواً وصرفاً وجميع علوم الآلة ولا يتفرون عن المؤلفات شيئاً أصلاً إلا ما اشتمل على ما يوقع الناس في الشرك (كروض الربا)

أو يحصل بسببه خلل في العقائد . على أنهم لا يفحصون مثل ذلك الا اذا تظاهره صاحبه معاندا . وما اتفق عليه بعض البدو في اطلاق بعض الكتب انما صدر منه لجهله ، وقد زجر هو وغيره عن مثل ذلك

ولا يرون سبب العرب ولم يفعلوه ولم يروا قتل النساء والاطفال وأما يكذب عليهم شترا للحق وتديسا على الخلق بأنهم يفسرون القرآن برأيهم ويأخذون من الحديث ما وافق فهمهم من دون مراجعة شرح ولا معمول على شيخ وأتهم يضعون من ربه النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ليس له شفاعاة وأن زيارته غير مندوبة وأنهم لا يعتمدون أقوال العلماء وأنهم يتلفون مؤلفات أهل المذاهب لسكون الحق والباطل فيها وأنهم مجسمة وأنهم يكتمون الناس على الاطلاق من بعد السمتة الى هذا الزمان ال من كان على ما هم عليه وأنهم لا يقبلون بيعة أحد الا اذا أقر عليه ، كان مشركا وأن أبويه ماتا على الشرك بالله وأنهم ينهاون عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يحرمون زيارة القبور المشروعة مطلقاً ، وأنهم لا يرون حقاً لأهل البيت وأنهم يجبرونهم على تزويج غير الكف لهم - الى غير ذلك من الاقتراءات كل ذلك زور عليهم ويبتان وكذب محض من خصومهم أهل البدع والضلال . بل أقوالهم وأفعالهم وكتبهم على خلاف ذلك كله . فمن روى عنهم شيئاً من ذلك أو نسب اليهم فقد كذب عليهم واقتري ومن شاهد حالهم وحضر مجالسهم وتحقق ما عندهم علم قطعاً أن جميع ذلك وضعه عليهم واقتراه أعداء الدين واخوان الشياطين تنفيراً للناس عن الاذعان لا خلاص التوحيد لله تعالى بالعبادة وترك أنواع الشرك الذي ينس الله على أنه لا ينفره وأنه يغفر مادون ذلك لمن يشاء . فانهم يعتقدون أن من فعل أنواعاً من الكبائر كالقتل لمسلم بغير حق والزنى والربا وشرب الخمر وتكرار منه ذلك لا يخرج بفعل ذلك عن

دائرة الاسلام ولا يخلد في دار الانتقام إذ مات موحدا لله تعالى في جميع أنواع
 العبادة... والذي اعتقده في رتبة النبي صلى الله عليه وسلم أن رتبته أعلى مراتب
 المخلوقين على الإطلاق وأنه في قبره حياة مستقرة. أبلغ من حياة الشهداء المنصوص
 عليها في التنزيل اذ هو صلى الله عليه وسلم أفضل منهم بلا ريب. وانه يسمع سلام
 من يسلم عليه وأنه تسن زيارته غير أنه لا تشد الرحال الا لزيارة المسجد والصلاة
 فيه واذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس ومن أنفق أنفوس أوقاته بالصلاة عليه
 الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكفى همة وغمة كما جاء في الحديث. وأنهم لا
 ينكرون كرامات الاولياء ويعترفون لهم بالحق وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا
 على طريقه الشرعية والقوانين المرعية غير أنهم لا يستحقون شيئا من أنواع العبادة
 لاحال الحياة ولا بعد الممات. بل يطلبون من أحدهم الدعاء في حال الحياة بل ومن
 كل مسلم فقد جاء في الحديث (دعاء المرء مستجاب لأخيه) ويثبتون الشفاعة للنبي صلى
 عليه وسلم يوم القيامة حيثما ورد وكذا سائر الانبياء والملائكة والاولياء والاطفال حيا
 أيضا ورد ويسألونها من الله تعالى المالك لها والآذن فيها لمن شاء من الموحدين الذين هم أسعد
 الناس بها كما ورد. فانهم يقولون متضرعين إلى الله تعالى: اللهم شفّع نبينا محمد صلى الله عليه
 وسلم فينا يوم القيامة أو عبادك الصالحين أو ملائكتك ونحو ذلك. ولا يلزم أن يكونوا
 مجسمة وإن قالوا بالجملة كما ورد الحديث بها. ويقولون فيمن مات (تلك أمة قد خلت لها
 ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون). ولا يقولون بكفر من صحت
 ديانته واشتهر صلاحه وعلمه وورعه وزهده وحسنت سيرته وبالع في نصيح الامة وإن
 كان مخطناً في هذه المسألة أو غيرها (كابن حجر الهيتمي المكي) رحمه الله فانهم يقولون
 كلامه في (الدبر المنظم) ولا ينكرون سعة علمه



COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU07842805

